محمد عبد المنعم خفاجي

مذاهب الأدب

الطبعة الأولى بالقاهرة
١٩٥٣

المطبعة المنيرية بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

هذه آراء ودراسات منوعة فى الأدب والشعر ومذاهبهما وألوان التجديد فيهما ، تهدف إلى الحقيقة ، وإنارة السبيل أمام أولئك الحائرين ، الذين يسيرون فى الحياة باحثين عن الحقائق الأدبية ، منقبين عنها ، قاطعين أعمارهم فى محاولة كشفها .

وهى كلها تصوير لأفكار العصر الحديث فى الأدب والشعر : حديثهما وقديمهما على السواء ، وبيان لكل ماتحتاج إليه فى نهضتنا الأدبية من مقومات وعناصر وغذاء ، ومحاولة لبناء صرح أدبى سامق لنهضة أدبية مرموقة .

وتتجه العناية فى هذه البحوث إلى الشعر ودراسة محاولات التجديد فيه ، وآراء الكتاب والأدباء والشعراء والنقاد فى كل مايتصل به .

وكان فى الامكان - لو أردت الاستيعاب - أن تخرج هذه الدراسة فى أضعاف هذا الحجم ، ولكنى آثرت الايجاز ، ليكون ماننشره اليوم مقدمة لدراسات جديدة فى الشعر ونقده .

وحسبى أن أقدم اليوم هذا الكتاب إلى القارىء ؛ فهو وحده أول من تتجه إليه ، ونعمل له ، ونفكر فيه . . .

تصدير

الشعر هو الإفصاح عما يجيش بالنفس الإنسانية من عواطف نبيلة ومشاعر سامية ؛ والتصوير الصادق لمعانى الحياة الخالدة الجميلة ، مع توضيح مثلها العليا ، وغاياتها الرفيعة . . فهو ملهم الجماعات ، ولسان أصحاب الرسالات ، وروح الحياة ، ودعوة الرحمة والإنسانية والخير ، وباعث النهضات ، ورائد الثورات ، وقائد الناس إلى الحق والجمال . .

والشاعر هو الذى يقف شعره على التعبير عن آمال البشرية وآلامها وأفراح الناس وأحزانهم ؛ وهو الذى يحلق فى أفق المشاعر الانسانية ، مبددا ظلمات

النفوس ومادياتها ، يبعث فيها الروحية العميقة ، ليهذب الشعور ، ويثقف العقول وينبه الضمائر .

والشعر اليوم تدفعه الواقعية الحديثة إلى مشاركة المجتمع مشاركة فعالة سليمة مجيدة ، وتدفع الشاعر إلى أن يكون وثيق الصلة بمجتمعه ، يشاركه فى السراء والضراء ، ويرشده ويهذبه ويغذى عواطفه بألحان القوة والخير والحق والجمال ، فحياة الشاعر الفنية ليست قائمة على التطريز والوشى ، إنما هى قائمة على رسم حقائق الحياة ونفسيات الجماهير وأخلاق الشعب ، وعلى النظر إلى الحياة نظرة صادقة ، حتى يعيش الشاعر مع الطبقات العاملة ، وينشد أهازيج القومية الصحيحة ، والعدالة الاجتماعية ، والحرية . .

والشعر اليوم فى محنة قاسية ، فهو حائر لا يدرى كيف يشق الطريق ، وكيف يرضى أذواق الجامدين والمجددين ، وكيف يصل إلى غاياته ويؤدى رسالته ؟

هو فى محنة ظاهرة ، لا تحتاج عليها إلى برهان ، وكذلك الأدب ، حتى صار إنتاجنا اليوم تافها سطحيا ، وصارت العناية كلها موجهة نحو المقالة الصحفية لا إلى البحث الأدبى ، والنقد والشعر وألوان الأدب كلها صارت خاملة عاجزة عن أن ترضى العصر الذى نعيش فيه ، والعصابات الأدبية تعمل لقتل الأدب والتجارة به لا لتنشيط الناشىء وتشجيع المواهب . . . إلى غير ذلك من مظاهر هذه المحنة القاتلة .

وقد تكون المادية الطاغية الآن هى التى جنت على الأدب والشعر ، وزهدت الناس فى الروحية الحالمة المتأملة التى ينادى بها الشعر ، وصدتهم عن القيم المثلى التى يبشر بها الأدب . . وتبع ذلك ضعف الإقبال على قراءة الآثار الأدبية وضعف اهتمام الناشر ببضاعة الأدب . ثم ظهر أثر ذلك فى الأديب نفسه ، فضعف إيمانه بفنه ، وغامره الشك والقلق .

ويضاف إلى كل هذا : تعقد مشكلاتنا الاقتصادية ، وتقصير الجماعات والهيئات والجامعات والأفراد فى تشجيع الأعمال الأدبية ، وفتور حركة النقد ، واضطهاد الأدباء الناشئين بيد شيوخ الأدب المضللين المحترفين .

ورحم الله عصرنا الماضى الذى كان يعج بكبار الأدباء والكتاب والشعراء ، ممن كان همهم إشعال المشاعر وتأجيج العواطف ، واستثمار المواهب وخلق النبوغ .

إن هذا الحاضر المؤلم يجب أن ينتهى إلى غير رجعة ، وأن نبدأ السير لعصر

أدبى جديد ، يقوم على الموهبة والشخصية ، والرسالة والكفاية ، والحرية الأدبية ، والمعاونة العامة من المجتمع . .

وفى الفصول التالية سأتحـــدث عن الأدب والشعر ، وخطوات التجديد فيهما ، حديثا مفصلا ، يشرح العلة ، ويرسم الهدف ، ويوجه نحو الغاية ، ليعرف الأدباء والشعراء اليوم أين يسيرون ويعملون ؟ وكيف يؤدون رسالتهم فى الحياة ؟

أيها الأدباء والشعراء آمنوا بالتجديد

مايزال الشعر العربى مفتقرا إلى الثورة التى تحطم قيوده وأغلاله ، وتنطلق به قدما فى طريق التجديد الصحيح ، والاصالة الفنية الحقة .

وكذلك شأن الأدب العربى الذى ينقصه الكثير من الأصالة والاستيعاب والتفكير العميق والروح الوثاب والشخصية الواضحة ، وليس الإنتاج الأدبى فى محيطنا غير مقالات صحفية تكتب للتسلية وإشباع رغبات الجماهير وعواطفهم على نهج تفكيرهم ، فقلما تجد أثرا أدبيا يحمل سمات الأدب وخصائصه الاولى من نضج التفكير وبراعة التجديد وثورة الشخصية الادبية والفنية فى الاسلوب والأداء ؛ وأكثر كتب العقاد وأحمد أمين والزيات والمازنى وزكى مبارك وطه حسين ومن شابههم ماهى إلا مقالات صحفية ، أو إنتاج قصد منه خدمة دور النشر الصحفية فى بلادنا ، فهى ينقصها الكثير من عناصر البحث والتأليف والطرافة والقوة والتجديد والابتكار . وقد طغى اللون القصصى على أدبنا المعاصر دون جودة أو قيمة أدبية مذكورة ، وقد لايحترز أدباؤنا عن سرقة الآثار الأدبية القديمة وإنتاج الأدباء والمفكرين فى الغرب ، فينتحلون هذا أوذاك لأنفسهم ، دون ما خجل أو حياء ؛ وأكثر شبابنا من الكتابة عن الأدب الغربى وأطواره ومناحيه ومذاهبه وخصائصه ، دون تعمق فى الدراسة أو تخصص فى البحث ، مع الجهل المزرى بكنوز التراث العربى القديم فى الادب والنقد والبيان والشعر ؛ مهملين دراسة الأدب القومى فى مصر والكتابة فيه ، إهمالهم الاطلاع على أدبنا العربى الخصب الطريف ، تاركين بذل المحاولات الممكنة الابتكار وكشف الكنوز الأدبية والفكرية وإحياء دراساتها ،

مطرحين فكرة الاتصال بالآداب القديمة والحديثة فى شتى بلاد العروبة ، متناسين أشهر الآثار والآداب العالمية الحاضرة .

إن ثورة التجديد الفكرى الأولى التى قام بها رواد الفكر الأحرار فى مصر قد نسيت نسيانا تاما فى محيطنا الفكرى والأدبى ، وإن دعوة النقاد - من أمثال أبى شادى وطه حسين وسواهما - الى التجديد الأدبى قد خفت صوتها ، وذهب أثرها ، وضاعت معالمها ، وامّحت مبادئها التى دعت إليها : من العمق والابتكار والأصالة وظهور الشخصية .. والنقد الأدبى النزيه صار بيننا ضعيفا إلى أبعد حدود الضعف ، حتى استباحت الأهواء والشهوات أن تنصّب من تشاء زعماء للأدب والشعر المعاصرين .. أليس هذا مبعثه ضعف النقد فى مصر ضعفا حط من كرامة الأدب ، وأزرى بمنزلة الشعر ، « إن الأدب بلا ناقد كالغريزة بلا عقل تنطلق فى إعصار الميول والأهواء لا ضابط يكبح جماحها ويهديها سواء السبيل » كما يقول الناقد الألمانى الفويدكير .. قد يكون الأدب المعاصر أكثر صلة بالحياة ، وصدقا فى تصويرها والتعبير عنها ، وأقل إغراقا فى الخيال ، مع قيامه على إصلاح المجتمع واستغراقه فى وصف مشكلات المعيشة ، ولكن عدم عنايته بالنقد الصحيح الذى يوجه إلى الكمال له أثره البعيد فى ضعف النهضة الأدبية ، كذلك لم تثمر دعوة الإخاء بين الآداب العالمية وأدباء العالم التى دعا إليها أبو شادى منذ أكثر من ربع قرن ثمرتها المنشودة حتى اليوم ، مما حال دون تعاون زعماء الأدب ورجاله فى شتى الشعوب للدعوة إلى المثل الإنسانية العليـــا والقيم الروحية الرفيعة .. وقد تضت الحياة الحاضرة على فنون أدبية كثيرة : كفن الرسالة ، وفن المقامة ، وسواهما ... والذين يقولون إن الادب قد تقدم فى مصر فى حياتنا الحاضرة كأحمد أمين (١) وسواه إنما يتفاءلون ويعبرون عن أمانيهم فى حاضر الأدب ومستقبله فحسب ، ودليلنا على ذلك هو أن أحمد أمين نفسه كتب منـــذ حين ينعى على الأدباء جمودهم وضعفهم وينادى بضرورة تجديد حياتنا الأدبية تجديدا يقوم على التجديد اللغوى والتجديد فى الأساليب والتجديد فى المعانى ، لينهض الأدب العربى من كبوته ، كما نادى من قبل الاستاذ أمين الخولى بهذا ، وينادى فى كتابه « فن القول » بتلقيح العربية بالعامية بإحياء الألفاظ العامية وإدخالها فى الأداء العربى .. إننا

(١) من كلمة له فى مناظرة أدبية بالجامعة الاميركية عن الادب ومدى تقدمه فى مصر فى الربع الثانى من القرن العشرين .

لا ننكره التجديد ، بل ندعو إليه دعوة قوية جريئة أساسها تجديد الادب بتلقيحه بتراثنا القديم وبتراث الغرب الحديث ، والنهوض به حتى يصبح لنا أدب قومى يعبر عن آمال الأمة وآلامها وعواطفها ومشاعرها أصدق تعبير ، وحتى يكون اتجاهنا فى الادب اتجاها إنسانيا حقا ، فيدعو إلى كل ماهو حق وعدل وخير وجمال فى الحياة ... وندعو إلى التجديد الأدبى يدعو تنا إلى مساعدة الأديب فى حياته الخاصة والعامة ، والعمل على تنمية مواهبه وإدراكه وخبرته بالحياة ، عن طريق الاتصال الثقافى والفكرى والأدبى بأمم الشرق والغرب مباشرة وغير مباشرة ، حتى يخلق لنا هذا الأديب أدبا جديدا يحمل طابع الحياة والقوة والخلود .

ونحن أولى بأن نرثى الشعر اليوم ، لما وصل اليه من تأخر وضعف واضمحلال فليس لدينا ممن يصح أن نطلق عليهم اسم الشعراء الا القليل : وليس انتاج هؤلاء المتشاعرين اليوم بيننا الا دليلا على ماذهب اليه ونؤمن به من أن الشعر العربى فى مصر اليوم يسير فى طريق الموت بخطى كبيرة واسعة ؛ فليس هناك موهبة ولا أصالة ولا شخصية فى انتاج أكثر الشعراء المعاصرين اليوم .

يقول الناقد الاستاذ مصطفى السحرتى من كلمة له بعنوان «محنة الادب المعاصر»(١) : ان الشعر اليوم يتراوح بين كلاسيكية حفرية وزومانتيكية مريضة ، لا بأصالة الا فى النادر ، ولا طرافة ولا جرأة ، وسكن شعراء الحركة الابتداعية سكونا أليما وعجزوا عن مسايرة روح العصر الجديد ، اللهم الا ومضات تغطى عليها الظلمات ؛ والنقد مع قلته أكثر سوءا ، وأغلب الإنتاج الروائى والقصصى مع كثرته ضحل ملىء بالافتعال ، وتدور تجاربه حول الحب الساذج والعاطفة المصطنعة والذات المنطوية والشهوة العارمة ؛ فضلا عن وهن الأساليب وركاكة الصنعة ، وانكماش الأدباء شيوخا وشبانا عن الخلق الأدبى الجديد ، مؤثرين السلامة والهرب من المسئوليات الأدبية المعاصرة ، تخلا الجو من الموهوبين .

ونحن ننادى مع هذا الناقد بأن الأدب « لم يعد متعة أو تسلية ، بل صار عنصرا فعالا فى التوجيه الفكرى والاقتصادى والسياسى ، وهـــذا الأدب هو الذى أقام النهضات » ، وبأن على الأديب « أن يتناول مشكلات الحياة ، وحالة

---

(١) راجعها فى مقتطف مارس ١٩٥١

المجتمع ، والمعانى الجديدة لحقوق الإنسان على أن يكون تناوله لهذا الموضوع تناولا فنيا لا تقريريا كما يفعل كتاب الصحف » ، وبأن الوسيلة لازدهار الأدب هى « توسعة أفقه ، وشمول واقعيته ، أى أن يحتضن الأدب الجديد ما يدور فى الحياة من أحداث ، وما يكمن فى جوانح الناس من عواطف وانفعالات ونوازع »

ذهبت إلى ندوة شعرية ، فسمعت شعرا لا ينم عن عاطفة ، ولا ينطق عن شخصية وأصالة ، ولا يدل على فكرة وهدف ، ولا يمثل شيئا مما يشعر به المجتمع المصرى وتزخر به حياة الناس اليوم ؛ بل ولا يرشد إلى تمكن هؤلاء الناظمين من الآداب القديمة أو الحديثة على السواء ؛ ومع ذلك وقف متزعمهم بجرأة غريبة يقول : « لقد أحدثنا ألوانا أدبية جديدة ، ونهضة شعرية طريفة لم تكن من قبل ؛ ولقد وجهت هؤلاء الشبان إلى طريق الشعر ، وفتحت أمامهم الأبواب ، وقدمتهم للناس ، وهذه هى معجزة وأى معجزة » . . . إلى آخر ما قال هذا الانسان الذى يعرف أنه هو وجماعته قد شوهوا نهضة الأدب والشعر ، وأساءوا إليها إساءة بالغة ، ودفعوا الناس لأن يكفروا بالشعر ، وأن يؤمنوا أن مصر اليوم ليس فيها شعراء ، وإذا كان فيها شاعر فهو غير هذا الذى يسعى إلى الظهور فى المجتمع الأدبى بكل وسيلة .

إننا نحب أن يكون لدينا شعراء ، وليس أحب إلى قلوبنا أيضا من أن يصبح للشعر دولة فى مصر ، بما يستطيع حاملو قيثارته أن يبذلوه من جهاد فنى شعرى طريف . . ولكننا ننكر كل الانكار الغرور والتشبه المزرى بفحول الشعراء

فى شبابنا شعراء موهوبون ، ولكنهم بعيدون عن مجال الظهور ، لأن المجلات الأدبية القائمة بيننا تؤمن بالنشر لشهوة من الشهوات ، لا للتقدير الأدبى الخالص ، وصحفنا اليومية تنشر كل شىء ماعدا الشعر والأدب وآثار الفكر العميقة ؛ والذين يستطيعون قيادة الشباب ودفعه إلى المجتمع وإظهاره أمام الناس لا يؤمنون إلا بأنفسهم فحسب ، ويحسبون حسابا كبيرا لذوى المواهب الأصيلة ، خوفا من أن يطغوا عليهم ؛ ثم هم لا يدفعون إلى المسرح إلا من أجاد الملق والرياء ، ووقف قلبه على الدعاية لأشخاص هؤلاء المغرورين الجشعين .

سوق الشعر والأدب اليوم فى كساد ، والذين يؤمنون بالأدب والشعر إنما يفعلون ذلك ليتخذوا منهما مهنة يعيشون بها بين الناس ، لا إيمانا برسالة الشعر والأدب فى الحياة .

إننا ندعو الشباب إلى أن يحطم هذه الزعامات الأدبية الزائفة ، ويحتقر تلك العصابات الأدبية التي تقودها المآرب والأهواء ، ولا يستمع لكلمة نقد تقال اليوم من حملة ألوية الرجعية في الأدب ، لأنهم لا يقولون كلمة حق يقصد بها وجه الأدب ، وإنما يتقارضون الثناء ، ويتعاونون على هدم من يقف في طريقهم ، فيكيلون له أشد ألوان الشتائم والهجاء . . . وهذا وحده أول خطوة نخطوها في سبيل الاصلاح .

أيها الشعراء ، أيها الأدباء ، أيها الكتاب : آمنوا بالتجديد ، واسعوا إليه ، واعملوا له ، وأدوا رسالة الشعر والأدب بصدق وإخلاص ، قبل أن ينبذكم المجتمع ، ويحتقركم الناس ، ويفر منكم الشعر والأدب . . .

واليوم الذي تؤمنون فيه بالتجديد الحق ، هو اليوم الذي ستغتبطون فيه لأداء رسالتكم في الحياة . . .

وثقوا أن صاحب الشخصية الفنية لابد أن يظفر بالأصالة ، ويسلك طريقة خاصة الى الرؤية والشعور بمرور الزمن ، وسيعمل على أداء واجبه في الحياة ، مؤمنا بما يقوله الشاعر يخاطب « الشاعر الثائه » :

أنت تخلو الى النجوم ، الى الزهـ ـر ، الى الطـير حيثما تتغنى
دع جمال الخيال وادخل كهوفا للملايين ، وارو للكون عنا
إنما الفن دمعة ولهيب ليس هذا الخيال والتيه فنا

حركة التجديد في الشعر العربي

ظهرت أقدم حركة للتجديد في الشعر العربي على يدي بشار ، الذي فتق أكمام المعاني ، ووسع ألوان التخيل ، ومنح ملكات ذات موهبة عجيبة في القدرة على التعبير عما يشعر به فؤاده ، أو تتصوره حواسه ، وقد عده النقاد زعيم المحدثين وإمامهم في فتح أبواب التجديد في الشعر العربي .

وجاء أبو نواس فأحدث ثورة فنية عميقة في نظم القصيدة العربية ، حيث دعا إلى افتتاحها بأوصاف الراح ، بدل مساءلة الرسوم والأطلال ومخاطبة المرأة ، وقد نظم الشعر في الصيد والطرد والخمر والغزل بالمذكر ، وأتى بمعان جديدة لم يسبق إليها فكر الشعراء قبله ، وأجاد إجادة تامة في التصوير والتخيل .

وجاء بعده أبو تمام وابن المعتز وابن الرومى والمتنبى والمعرى ، فكان لكل منهم أثره فى التجديد .

وعلى أيدى شعراء الأندلس ظهرت الموشحات التى كانت حدثا فنيا جديدا فى الشعر العربى ؛ هذا عدا الثروة الضخمة التى كسبها الشعر العربى فى الأندلس ؛ بما زيد فيه من الفنون والأغراض والأفكار والمعانى ، ووصف مجالس الأنس والسمر والقصور والرياض وبكاء البلدان والدول ؛ مع موسيقى الشعر العذبة وأساليبه الرقيقة ، التى كانت أثرا لحياة الترف والثراء فى هذه البيئة الجميلة الوادعة

وفى العصر الحديث كان لشوقى أثره فى تلقيح الشعر العربى بأفكار وأخيلة ومعانى الغرب ، ونظم الشعر القصصى ، وجعل قصائده الطويلة أشبه بملاحم صغيرة ، تتحدث عن تاريخ مصر والإسلام أحاديث حلوة عذبة رائعة . . كما ظهر على يد حافظ الشعر الوطنى والاجتماعى . أما مطران فقد درس مذاهب شعراء الغرب ومناهجهم فى النقد الفنى وفى نظم القصيدة ، وظهر أثره ذلك فى شعره ، وفى شعر تلاميذه . . وكذلك فعل شكرى الذى نظم من المعانى الشعرية ما لم يتح لشاعر . . وهذان هما أول الدعاة إلى الشعر المرسل .

وجاء أحمد زكى أبو شادى ، الذى تتلمذ فى الشعر والنقد على مطران ، فنظم الشعر القصصى ، وكان أول من نظم الشعر التمثيلى فى اللغة العربية ، ولقح شعره بأخيلة ومعانى الشعراء الأوربيين ، ودعا إلى التجديد فى الشعر دعوة جريئة ، وكان أكثر شعرائنا فهما لأصول الأدب والشعر والنقد ، كما كان أعظمهم دعوة إلى التجديد ؛ ولقد دعا إلى الشعر المرسل والشعر الحر ، ونظم من هذين اللونين قصائد كثيرة ، وأنشأ « جمعية أبولو الشعرية » ومجلتها الذائعة « أبولو » ، مما كان له أبعد الأثر فى التجديد فى الشعر العربى . . أعلن أبو شادى الثورة على التقليد والجمود والعبودية الفكرية ؛ ولم يسأم طول حياته من الدعوة الى الأصالة والفطرة الشعرية والعاطفة الصادقة ، والابتعاد عن الافتعال والتكلف والتصنع ، وإلى الوحدة التعبيرية ، وإطلاق النفس على سجيتها ، والتناول الفنى السليم للفكرة والموضوع والمعانى . وكلما طابق الشعر هذه المبادىء ، فهو فى رأيه شعر مقبول جميل كيفما كان قائله ، والعصر الذى يعيش فيه ، ومن ثم لم يمل أبو شادى من الدعوة فى شعره ونثره إلى الحكم على العمل الفنى والقصيدة الشعرية قبل الحكم

على الشاعر نفسه ، ولذلك كان أبو شادى أبعد الناس عن التعصب لمذهب أو مدرسة أو عصر أو جماعة دون غيرها ، متى كانت للأخرى مؤهلات فنية جديرة بالتقدير كما نرى فى طرائف الشعر الجاهلى .. ورسالة مدرسة « أبولو » الثورة على القديم ، والدعوة إلى الحرية الفكرية والأدبية والفنية ، وإلى تمثيل الشعر لخلجات النفوس ، ونبضات الأفئدة ، وتأملات الفكر ، وهزات العواطف والمشاعر والوجدانات المختلفة . أنشأ أبو شادى مجلة أبو لو الشعرية المشهورة لسانا لدعوته ومذهبه ومدرسته ، فكانت أول مجلة تقف نفسها على خدمة الشعر العربى المعاصر ، والنهوض به ، والتجديد فى دراسته ، وإحياء روح الشعر الأصيل ، وتهذيبه مما علق به من أوهام التقليد والصنعة والابتذال ، وخدمة فن الشعر الذى كان ومايزال أهم فنون العربية ، وخدمة رجاله ، وتحرير الشباب والشعراء والأدباء من سيطرة الحكام والأحزاب السياسية والمناسبات الطارئة والحاجات الوقتية الملحة ، ومن الاحتكار الأدبى الممقوت .. وجهاده الأدبى وآثاره مما ينم عن أثره فى النهضة الأدبية المعاصرة ، وفى نمو الروح الفنى فى النظر إلى الشعر ، وفهم مذاهبه وتمثل أصوله .. ويمتاز شعره بمعانيه المبتكرة ، وخياله الغربى ، وعنايته بالجو الفنى للألفاظ ، أثر التعلم الموسيقى والعزف والتصوير ؛ كما يتسم فى الغالب بتركيز الأسلوب ، والوحدة الفنية والانسجام الموسيقى ، وبالتحرر البيانى ، وإرسال النفس على سجيتها ، وبتحاشى الضرورات الشعرية إلا إذا استدعاها الجرس الموسيقى ؛ ثم بالتأمل الصوفى والتعمق الفكرى والنفسى والفلسفى ، وبجوانب شعره الإنسانى ، وبشعره القصصى والتمثيلى ، وبأوصافه الجميلة للطبيعة . وسوى ذلك من خصائصه الكثيرة . . وقصيدته « المجهول » (١) يعجب الشاعر فى كهولته كيف نظمها ؟ ، وكان أستاذه مطران معجبا بتلك القصيدة خاصة وكان يعدها من روائع الشعر ؛ وكان مطران يعد أبا شادى أول شاعر فى اللغة العربية خلق للنور قداسة وعبادة وتقديرا . . ومن تأثروا بموسيقاه بل وبأخيلته فى عدد من قصائده أبو القاسم الشابى وسواه من شعرائنا المعاصرين (٢) . .

---

(١) ص ١٦٠ قطرة من يراع

(٢) راجع كتاب « رائد الشعر الحديث » عن الشاعر أحمد زكى أبى شادى

نزعات أدبية جديدة

انتقل الشعر العربى الحديث من المذهب التقليدى المحض فى القرن التاسع عشر أو أكثره ، إلى مذهب من مذاهب التجديد القريب من التقليد على يد البارودى وأشياعه . وقد سار على نهجه حافظ والرصافى ، أما صبرى وشوقى فهما وإن بدآ حياتهما الأدبية بتقليده إلا أنهما أكثر من أشباههما حبا للتجديد ، وحرصا عليه .. وفى أوائل القرن العشرين وقف الشعر الحديث أمام حركة تجديدية محضة كان من دعاتها شكرى ومطران والزهاوى ومحرم .. ثم تابع خطواتهم التجديدية أبو شادى والمازنى والعقاد وإيليا أبو ماضى وعلى محمود طه ، ولفيف آخرون من الشعراء الكهول والشباب .

ولقد اختلفت النزعات الأدبية فى الشعر العربى المعاصر اختلافا كثيرا ، فهناك المدرسة القديمة وشعراؤها ونقادها وآراؤها فى الشعر ، وهناك المدرسة الحديثة بشعرائها ونقادها ونزعاتها الجديدة المنوعة : كالنزعة الخيالية والفلسفية والثورية والتاريخية والغزلية والرمزية والرومانتيكية والواقعية والسريالية .. والمدرسة القديمة تنقم على المدرسة الحديثة أنها تستحدث فى الأدب العربى فنونا من البيان مشبعة بروح الغرب وثقافته وآدابه وخياله وإحساسه ، مما لا يلائم طبيعة اللغة العربية والأسلوب العربى الصميم .. أما المدرسة الحديثة فهى تدعو إلى أن يجدد الشاعر ماشاء فى أسلوبه وطريقته فى التفكير والعاطفة والخيال ، وأن يستلهم كل ماشاء من التراث الإنسانى الخالد الذى يشمل كل ما ادخرته الانسانية من فلسفة ودين وفكر وفن ، لافرق فى ذلك بين ما كان منه عربيا أو غربيا ، وبالجملة فهى تدعو إلى حرية الفن من كل قيد يمنعه الحركة والحياة . وهى فى كل ذلك لا تكاد تتفق مع المدرسة القديمة إلا فى احترام قواعد اللغة وأصولها ، بل إن فريقا من المسرفين فى حب التجديد لا يعدل بحرية الفن شيئا ، ولا يحفل فى سبيل ذلك بقواعد اللغة وأصولها ، غير أن صدى هذه الطائفة قد أخذ يخفت ويضمحل . والمدرسة الحديثة لم تصبح بعد فى مصر مذهبا واضح الحدود والمعالم ، ولكنها ماتزال ثورة مشبوبة هائجة وإيمانا قويا عميقا فى سبيل حرية الشعر وكماله ، وهذه الثورة تضطرب فيها المذاهب الأدبية ، وتختلف عندها المقاييس والنزعات

والأساليب(١) .. مما جعل الشعر العربى المعاصر كثير الألوان والظلال ، ومما جعل الخصومات الأدبية والنقدية حوله شديدة متعددة مستمرة ، فاختلفت الآراء فى حافظ وشوقى ومطران ومحرم وشكرى والعقاد وأبى شادى وإيليا أبى ماضى وعلى محمود طه وناجى والشابى والنيجانى بشير ونازك الملائكة وفدوى طوقان ، كما اختلفت فى شعر محمد عبد الغنى حسن ، والصيرفى ، وجودت ، وغنيم ، والاسمر ، وسواهم من المجددين والمحافظين .

وقد كان من دعاة التجديد فى الشعر المعاصر شاعر مشهور ، عميق الثقافة فى العربية والانجليزية ، ملم بالآداب الانسانية المختلفة ، دارس لحركات التجديد فى الشعر الغربى ، واقف على مذاهب النقد والبيان والمدارس الفنية المختلفة القديمة والحديثة على السواء ، وهو الشاعر الدكتور أحمد زكى أبو شادى .

وأبو شادى يستهويه الجمال ، ويحفزه إلى ابداع المثل الجميلة التى يرتضيها ذوقه ، وهو لا يعنيه أصلا أن يخدم النزعات الخلقية وغير الخلقية بشعره ، فهذه وظيفه إضافية قد يؤديها الشاعر ، ولكنها ليست مهمته الاولى ولا الأخيرة ، فالفضيلة والرذيلة على السواء من مواد الشاعر أو الفنان كما يقول أوسكار وايلد (٢) .

والشعر العصرى كما يقول أبو شادى هو قبل كل شىء لسان الحياة العصرية ، والحياة العصرية ذات صلات شتى بالماضى ، وذات تطلع الى المستقبل ، فليس غريبا فى الثورة الروحية والفكرية الحاضرة أن يأتى هذا الشعر مزيجا منوعا ، لا فى الشرق العربى وحده ، بل فى العالم كافة .. وليس يطالب الشاعر بشىء سوى أن يكون صادق الشعور والتعبير ، فلا غبار على هذا التنويع الصادق مادام نتيجة أحاسيس شتى ، هذا التنويع الذى تجده فى العواطف والتأملات والأساليب . وقد أصبحت الصورة الغالبة على الشعر العصرى فى الغرب صورة الرومانتيكية (٣) الواقعية .

والمذاهب الأدبية كلها يحترمها النقاد المنصفون كأبى شادى ، الذى يحترم معها

---

(١) أبو القاسم الشابى - فى مقدمة ديوان الينبوع لابى شادى

(٢) ب - ديوان الينبوع - أحمد زكى أبو شادى

(٣) ا - المرجع السابق

أيضا أصول اللغة وتراثها ، ويعنى بمفرداتها ، ويوصى فى الوقت ذاته بأن يطلق الشاعر نفسه على سجيتها ، مادام قد أخذ قسطا وافراً من أدب اللغة ، وكل شاعر لايستطيع أن يملك حرية التعبير عن أزماته النفسية وعواطفه الشعرية وعالمه الوجـــد انى تعبيرا خالدا مستقلا تتجلى فيه براعته الطليقة يعد بعيدا عن الكمال الفنى (١) :

ويحارب بعض المجددين الوزن والقافية ، لأنهما فى رأيهم من أعداء الفكرة ... وهذا خطأ ظاهر ، فالشاعر الموهوب ـ كما يقول أبو شادى ـ لا تعوقه أبدا قيود القافية والوزن (١) .

وقد أخذ أبو شادى عن « جون كيتس » الكثير من أهداف الفن ومراميه ، وشابهه فى اتخاذ الحب عنصراً قويا من بين العناصر التى ألهبت شاعريته (٢)

وقد طعم أبو شادى شعره بالميثولوجيا الإغريقية ، واتجهت مدرسته الشعرية ـ مدرسة أبولو ـ إلى نبذ عبادة الأصنام ، واحترمت شخصية كل شاعر ، وشجعت النقد الأدبى ، واحترمت النقاد سواء كانوا لها أم عليها ، واحتقرت التصنع

وقد كان لاتصال الفكر العربى بغيره من ألوان الفكر فى الغرب أثر واضح فى هذه الثروة الفنية الضخمة ، التى كسبها الأدب المعاصر فى الصور والمعانى والأخيلة والأساليب . ، فاوقف أمامه النقاد راضين حينا ، ساخطين حينا آخر ، ومما تعددت ألوان التجديد فيه ، واختلفت صوره باختلاف الأذواق والثقافات ، وليس هناك إنسان يكره التجديد أو يناقش فى استحسانه ، وإنما الخلاف فى تحديد مدى التجديد ومذهبه . . والمقلدون المحافظون أنفسهم ينظمون شعرهم التقليدى ويرون أنهم فيه مجددون حقا لأنه اشتمل حينا على حكمة بارعة أو صورة صادقة أو تشبيه مستحسن أو معنى نادر ، بل قد ينكر بعض المجددين بعضا ، لأن لكل إنسان ذوقه فى التجـــديد ، وآراؤه فيه .. يقول باحث (٣) : أما نحن فنقول بالتجديد فى الألفاظ والأسلوب ، وفى الأفكار والمعانى ، وفى الصور والأخيلة ،

---

(١) هـ ـ المرجع السابق

(٢) ط ـ المرجع

(٣) التجديد فى الادب المصرى الحديث ـ عبد الوهاب حمودة ـ دار الفكر العربى

وفى الفنون والأغراض ، وفى الأوزان والقوافى : نقول بالتجديد فى كل ذلك ، ولكن فى اعتدال وقصد ، مع المحافظة على أصول اللغة ومقوماتها ، ومراعاة ذوقها ومشخصاتها » .

ويقول باحث آخر : تعصب المحافظون لرأيهم ، لأنهم رأوا الكثير من دعاة التجديد عاجزين عن فهم أسرار اللغة العربية ، وعن إدراك مافيها من روعة وسحر وجمال ودقة فى تأدية المعانى ، فاتهموهم بالسخف والركة .. أما المحافظون فقد غلب عليهم الجمود الذهنى ، فعادوا كل جديد لانه جديد ، فذبل الشعر العربى فى حدود هذه الفوضى (١) .

وقد اختلفت الأحكام النقدية التى كتبت حول شعر الشعراء المحدثين والمعاصرين اختلافا شديدا ، وتعددت مقاييس النقد ، وتباينت أذواق النقاد تباينا كثيرا ، ووالى الشعراء من الشباب السير فى حركة التجديد فى الشعر يخطى سريعة حينا ووئيدة حينا آخر . . وليس فى ذلك ضير على حياتنا الأدبية ، فاشتداد معارك الأدب والخصومات بين النقاد يشعر بالحيوية والتوثب والرغبة فى التجديد .

إن أحكام النقاد على الجمال تختلف اختلافا كما يقول « برك » ، وسر هذا الاختلاف راجع إلى اختلاف الأذواق والثقافات ، والشعور بالجمال يعالله علماء النفس بعلل مختلفة : فالبعض منهم يردونه الى التأثير النفسى « السيكلوجى » الذى تحدثه ألوان الجمال المختلفة فينا ، وعبد القاهر الجرجانى فى كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة يميل الى هذه الفكرة ؛ والبعض يرجعونه إلى ما تحدثه ألوان الجمال من الأثر فى النفس من ذكريات ومسرات وأشجان عميقة من تداعى المعانى فى العقل ؛ وآخرون منهم يعنون ارتباط الفن بالجمال ؛ لأنه مرتبط بالتعبير عن الانفعالات ؛ وفريق آخر يقفون نحو الوان الجمال موقفا عقليا نقديا أكثر منه انفعاليا (٢)

---

(١) ٢/٢١٠ المنهل فى تاريخ الادب العربى — لروكسى العزيزى — القدس ١٩٥٠

(٢) راجع ص ٦ التجديد فى الأدب المصرى الحديث

ومهما تعددت اسباب اختلاف إحساسنا بالجمال ، فاننا نقف أمام حقيقة واقعة ، هى أن الأحكام النقدية العديدة التى صدرت عن الشعر المعاصر شديدة الاختلاف والتباين إلى حد بعيد ، لاختلاف أذواق الكتاب والنقاد والأدباء ؛ وتباين ثقافاتهم وميولهم ونزعاتهم ، وتعارض فهمهم للتجديد ومداه .

انظر مثلا الى قول ناجى من قصيدة بعنوان « قلب راقصة (١) »

أمسيت أشكو الضيق والأينا مستغرقا فى الفكر والسأم
فضيت لا أدرى إلى أينا ومشيت حيث تجرنى قدمى

تجده يرضى بعض النقاد رضاء كثيرا ، كالسحرتى مؤلف « الشعر المصرى على ضوء النقد الحديث » حتى ليقول السحرتى عن القصيدة : هى من مفاخر الشعر العصرى الحديث (٢) » ؛ ويصف أبو شادى هـــذه القصيدة بتميزها بالروح الإنسانى الرفاف (٢) .

ولكن الدكتور طه حسين يروى فى القصيدة أنها إنما « هى كلام مألوف قد شبع منه الناس (٣) » . . وينقد البيت الثانى ، لأنه لا يعجبه أسلوب « يجرنى قدمى » لأن المرء يجر قدمه ، وهى لا تجره . . . ويقول السحرتى عن هذه العبارة : (٤) والعبارة فى اعتقادنا تصوير شعرى بديع للسأمان المتحير الذى تجره قدمه لشرود عقله وجولانه لدرجة أن تكون القدم هى المسيرة » .. ويتابع الأستاذ عبد الوهاب حمودة الدكتور طه فيقول (٥) « قل لى بربك كيف يستقيم الاستغراق فى الفكر مع السأم » ، ويقول (٥) : « وأول ما يصادفك من هذه الألفاظ الابتذال والسوقية ، ثم انظر الى هذه الصورة التى لا تلائم شعرا ولا تلائم لغة ، فالقدم لا تجر صاحبها وإنما تحمـــله ، وإنما يجر صاحب القدم قدمه .. ويدافع السحرتى عن القصيدة فيقول : والحق أن هذه القصيدة رائعة فى عواطفها وانفعالاتها المتنوعة وفى

---

(١) ديوان وراء الغمام ـــ ص ٣٦
(٢) ٢٠٤ الشعر المعاصر
(٣) حديث الأربعاء ـــ الجزء الثالث ـــ ص ١٧١
(٤) ٢٠٥ الشعر المعاصر
(٥) ١٣٥ التجديد فى الأدب المصرى الحديث

جمال صياغتها وخفة أسلوبها (١) ، ويرى أن الدكتور طه تجاهل مايشع فى هذا الشعر من عاطفة رائعة وانفعالات وثابة وأسلوب فنى وموسيقى ارتكازية (٢)

ونحن لانقول ذلك الاعلى سبيل المثال فحسب ، والاستشهاد على كثرة الخلاف حول الشعر المعاصر والتجديد فيه ، دون أن نقصد الى عرض صور هذا الخلاف ، وتفصيل الحديث عنه فى هذا المقام . . .

ويقول الأستاذ عيسى الناعورى صاحب مجلة القلم الجديد التى تصدر بعمان من رسالة بعث بها إلى ، منكرا حق الشعر المصرى المعاصر فى الخلود الأدبى والمنزلة الرفيعة فى الآداب : « إننى أعرف أدبكم وأدباءكم حق المعرفة ، ومعرفتى هذه تتيح لى قياسا على المبدأ الأدبى الذى أدين به أن أقول : إن مصر بخيلة جدا بالشعراء المتفوقين ، ولا أعرف فيها شاعرا يستطيع أن يجلس مع أبى ماضى أو أبى ريشة أو الشابى أو القروى أو أمثالهم على أريكة واحدة . . أما فى النثر فلديكم ناثرون متفوقون حقا ، وأدباؤكم فى هذا الباب فيهم الكثيرون ممن أسسوا مدارس أدبية كانت نماذج لأقلام أدباء الأقطار العربية ، يسيرون على احتذائها » .

ونحن مع ماقدمنا لسنا مع هذا الأديب فى الإزراء بالشعر المصرى إلى هذا الحد ، ومكانة الشعر المصرى المعاصر وشعرائه المطبوعين لا يمكن أن تهبط إلى تلك المنزلة التى يصورها هذا الناقد ، فالمدرسة المتحررة المجددة يتجاوب شعرها مع واقع الحياة ، وقد أشاد بها كثير من النقاد فى الشرق والغرب ؛ مما لا يمكن معه أن نغفل شعرهم عند الحديث عن الشعر العربى المعاصر .

أما الشعراء الذين ذكرهم الأديب ، فهم من أحب الشعراء إلى قلوبنا ، ولكن لا يمكن لناقد أن يرتفع بهم إلى مكانة لا يبلغهـــا شاعر ، بل إن أبا شادى هو رائد الشعراء المعاصرين فى ميدان التجديد فى الشعر فى وقتنا الراهن .

ومهما وجهنا للشعر المصرى المعاصر من نقد ، فإننا إنما ننظر فى هذا النقد إلى المجموع وإلى الشعراء عامة . ، إذ لا يمكن لناقد أن يتجاهل مابلغه بعض الشعراء المصريين المعاصرين من منزلة أدبية رفيعة ، بل عالمية ، ومن هؤلاء : مطران وأبو شادى والعقاد وشكرى وسواهم .

---

(١) ٢٠٤ الشعر المعاصر (٢) ٢٠٥ المرجع

الشعر المعاصر بين التجديد والتقليد

إن دواوين الشعراء المعاصرين كثيرة ؛ وإنتاجهم الفنى غزير ، تفيض به الصحف والمجلات والكتب . ولكن هذا الشعر فقير فى شخصيته ، فقره إلى الصبغة القومية التى تميزه عن غيره ، وهو خال من كل ما نلمسه فى الشعر الخالد من سمو الفكرة ومتانة الأسلوب وإنسانية النزعات . .

وكان أحمد زكى أبو شادى وشعراء مدرسة أبوللو بعد الربع الأول من القرن العشرين هم حملة لواء الشعر المعاصر ، ودعاة التجديد فيه .

إننا لانجد شاعرا ألهمته طبيعة بلاده شعرا قوميا تحس وأنت تقرؤه بشىء مما تزخر به مصر من جمال وجو طبعى ساحر ، أو وقف شعره على النزعات الإنسانية السامية والدعوة إليها ، أودعا إلى كرامة الإنسان وحريته وحقه فى الحياة الطيبة . ونحن حين نقرأ للشعراء المعاصرين نجد أنفسنا أمام صورتين متباينتين : لفيف من الشعراء يحذون حذو الأقدمين من شعراء العرب فى خيالاتهم وأفكارهم ومعانيهم ، ولفيف آخرون بعدوا عن سمو بلاغة الأسلوب العربى وكانت أفكارهم مجموعة من النظرات والافكار الغربية التى صيغت فى تراكيب عربية مفككة ، وهى مع ذلك لاتعبر عن آرائنا وأفكارنا وعواطفنا ، ولا تلائم ذوقنا الخاص ومشاعرنا المختلفة ومع أنه قد كان للحرب العالمية الاولى أثرها فى تحرير الفكر والعقل ، والدعوة إلى الحرية فى أوسع معانيها ، ودفع الشباب نحو الادب الغربى يقرأونه ويتأثرون به ويكتبون عنه ؛ وساعد على ذلك كثرة سفر البعوث الى معاهد الغرب ، وكثرة المدارس الاوربية فى بلاد الشرق ، وظهور أثر نشاط الغربيين ووفودهم فى لبنان وسوريا ومصر . الا أن شعراءنا لم يفيدوا من ذلك شيئا ولم يظهر أثره فى الشعر المعاصر بصورة واضحة ، ماعدا شعراء مدرسة أبوللو الذين كانوا سند الدعوة الى التجديد وتلقيح الشعر العربى بالشعر الاوربى ؛ وان كان نشاطهم وأثرهم قد ظل — طول الفترة التى كانوا قائمين فيها بالجهاد فى سبيل حرية الشعر المعاصر والتجديد فيه — محدودا ضيقا . . ولقد احتذى لفيف من الشعراء الشعر الفرنسى ، وخاصة اللون القصصى والروائى والتمثيلى ، وتمثلوا مذاهب النقد فى الآداب الفرنسية ونقلوا أصولها الى العربية ، وطبق قواعدها على الشعراء طه حسين الذى تأثر بطريقة ديكارت فى النقد التى تتلخص فى الشك وعدم التأثر بالآراء المعروفة أو المتوارثة .

أما الأدب الانجليزى فقـــد تأثر به كثيرون ، منهم أبو شادى والعقاد والمازنى وشكرى ، وظهر أثره فى الشعر المعاصر فى تلك الدعوات الجديدة إلى الشعر المطلق أو المرسل ، وتحطيم قيود القافية ، وفى الشعر المنثور ، وقد نظم من الشعر المرسل شكرى ومطران وأبو شادى وجبران خليل جبران وأمين الريحانى وميخائيل نعيمة ومى ، وكثير من شعراء المهجر الذين نظموا أفكارهم وأخيلتهم على الطريقة الانجليزية والأمريكية الحديثة .

نعم ذاع بعد الحرب العالمية الأولى الشعر السياسى الذى كان من أعلامه حافظ وخليل مردم وشكيب أرسلان وخير الدين الزركلى وعبد الرحمن شهبندر وإحسان الجابرى والزهاوى وسواهم .

ومع ذلك فقد كان شوقى وحافظ ينهجان منهج البارودى فى تقليد الشعر القديم لفظا وأسلوبا ومعانى وفى معارضته معارضة احتذاء واتباع .. ولكن الجو الأدبى فوجىء بصيحات دعاة التجديد من شعراء وأدباء مدرسة أبولو وغيرها ، الذين دعوا فيما دعوا إلى اتباع مناهج الغربيين فى شعرهم الرومانتيكى والواقعى والرمزى ، وكان مطران وشكرى وأبو شادى حاملى علم التجديد فى الشعر والممهدين لمنهجه ، وكان مطران ذا صبغة رومانتيكية فى شعره . أما العقاد وعلى محمود طه وعماد فهم من طبقة الشعراء الذين يعنون فى شعرهم بالفخامة اللفظية ويتأثرون خطى رواد التجديد والداعين إليه ، دون كبير أثر لهم فى حركة البعث الشعرى الجديد .

إن الشعر المصرى المعاصر فى مجموعه لا يخدم السمو الانسانى ، وليس له كبير خطر فى الأمة لأنه ليس صدى للشعور القومى السائد كما يقول أحمد زكى أبو شادى : وإن كان يتصف بإشراق الديباجة وطابع الغناء .. ويقول الزهاوى متفائلا بمستقبل الشعر العربى : « لابد من تقدم الشعر العربى أكثر مما هو اليوم بتقدم أهله فى العلوم والحضارة ، فيكون له ما للشعر الغربى ، وهذا لا يدعو إلى أن يشعر الشاعر العربى شعور الشاعر الغربى ، ويحس إحساسه ، بل يتقدم العربى فى شعوره الخاص به تقدم الغربى فى شعوره » . . . ويقول أيضا :

« سيرتقى الشعر العربى أكثر مما هو عليه اليوم طبقا لارتقاء شعور العرب المناسب لحضارتهم وعلومهم ، كما ارتقى زمن بنى العباس . . وإن الذين يزفون الشعر إلى الأسماع عريا فى زى عصرى ، أو يحذون حذو الأفرنج فى الابتكار

والاحسان فى الوصف والابتعاد عن المبالغات ويفرغون معانيهم فى قالب عربى بحت ، ويحورون الشعر الغربى حتى يجعلونه موافقا للشعور العربى ويحافظون على الأسلوب العربى بتمامه ، هم الذين يرجى على أيديهم نهضة الشعر نهضة حقيقية .. ويقول معبرا عن رأيه فى الشعراء المعاصرين : إن الشعراء أقسام ثلاثة : قسم شغف بالتنميق اللفظى والاستعارات والمجازات ويحب العبارات الفخمة والألفاظ الجزلة شأن القدماء ، وقسم تفتحت عينه على الشعر العربى فأراد أن ينظم على منواله فكان كالاعرج الذى لا يسير حتى يتأرجح ، وقسم ثالث يفهم كل ماحوله ويترجم عن فهمه بعبارات سلسة سهلة لا تكلف فيها ولا تعمل » ، وهؤلاء هم مناط الامل فى الرقى بالشعر فى رأيه ، لان الشعر عنده ليس لفظا رنانا فحسب ، بل هو ما استولى على الشعور ، واسترعى الحس ، ووصل إلى القلب ، فهو عنده شعور صرف ليس للفظ فيه من فضل إلا أنه أداة للتعبير ، إنه فى رأيه شعور يتجدد فى كل زمان ومكان ، وهو إحساس يتسرب إلى النفس تبعا للعوامل المختلفة التى تؤثر فيها ، ويتدرج مع الحياة ويسايرها ، كما يقول :

وإنى على شيخوختى وزمانتى أريد بشعرى فى الحياة التجددا
ولا خير فى شعر مضى اليوم عهده وفى شاعر إن قال قال مقلدا

ويصور خليل مطران رأيه فى التجديد فى الشعر العربى فيقول : « أريد التجديد يتمثل فى التفكير بمعناه البعيد الغور الذى هو منبع الابتكار ، ليحل ذلك التفكير تدريجا محل الخيال المشتت الذاهب فى تشتيت الذهن ضروب المذاهب ، الخيال الذى لا يصدر عن الحقيقة غالبا التى هى مصدر كل جمال ثابت ، أريده فى لغتنا التى اتمنى أن تصبح صالحة لضروب التعبير السليم قاطبة ، وأن أستطيع تصوير كل دقيق وجليل من معانى النفس بها ، مع الخروج عن الابتذال ، ومجاراة أسمى ماتضعه قرائح أعاظم الادباء من الاجانب . . إن هناك مجالا للعقل المبتكر ، والفكر المولد ، والتصوير البارع » .

وبعد فالشعر العربى مع كل مابلغه اليوم لايزال متأثرا بنوازع التقليد للشعر القديم ، فقيرا فى شخصيته وروحه ومواهبه الفنية ، حائرا بين القديم والجديد ، ضعيف الاثر فى الحياة بضعف الشعراء الذين يحملون قيثارته . ونتمنى أن يجىء اليوم الذى يتحرر فيه من قيود التقليد ، وينطلق مسرعا نحو النهضة الشاملة والتقدم الحق والتجديد الصادق ...

صورة من الشعر المعاصر

كان شوقى يجمع بين محاسن الجديد وروعة القديم ، من حيث جهد حافظ فى إظهار جلال القديم فى أساليبه الكلاسيكية الجميلة .

وكان صبرى ممثلا لروح مصر فى وداعتها ورقتها وهدوئها وصفائها ، وكان مطران وشكرى والزهاوى وأبو شادى رواد الابتداعيين من شعراء النهضة الحديثة . . وقد كثر فى شعرهم الشعر الوطنى والاجتماعى وتمجيد القومية والدعوة إلى التحرر ، وأوصاف المخترعات الحديثة ، والشعر التمثيلى . . وكان جبران أكثر من هؤلاء تحليقا فى جو الخيال البعيد ، والرمزية الغامضة ، مع ما كان شعره عليه من رقة اللفظ وعذوبته ، وقد كفر بالتقاليد ، وثار على كل ما اصطلح الناس عليه من آراء ، وكان الرصافى عنيفا ثائرا فى شعره ، متحمسا لوطنه وقوميته ، فهو وحافظ أشباه .

وقد كان الزهاوى شاعرا متحررا ثائرا ، ينزع إلى التجديد فى الفكرة والموضوع ، أما أسلوبه فقد كان يتحرى فيه الفخامة وقوة الجرس وأحيانا يجىء غريب اللفظ ويميل إلى نزعة التشاؤم والضجر بالحياة والناس ، وكان عالما وفيلسوفا ، يمازج فى شعره بين روح الشعر وروح الفلسفة .

وأما أبو شادى فهو من أشـــد الشعراء تحمسا وفهما للتجديد ، ودعوة اليه وحرصا عليه ، وقد طاف بالغرب والشرق ، وقرأ الآداب العالمية ، ووقف على آثار الفكر الإنسانى فى مختلف الثقافات ، وظهر أثر ذلك كله فى شعره الغزير الفياض بالمعانى والألوان والأغراض والخيالات الجديدة ، وبالصور الحية من العاطفة المتقدة ، والمشاعر العالية . . وله نحو عشرين ديوانا شعريا ، وهى ثروة ضخمة لامثيل لها فى الشعر العربى ، ولمؤلف هذا الكتاب كتاب آخر عنه ، سماه « رائد الشعر الحديث » جعله فيه أولى الشعراء المعاصرين بلقب « رائد الشعر »

وأما إيليا أبو ماضى فهو شاعر متفوق حقا ، ومن دعاة مذهب انتهاب مسرات الحياة ولذاتها ؛ ويردد فى شعره الآراء المتطرفة ، والثورة على طبقات المجتمع ويمتاز بالحيرة والشك والغموض والنقمة على الزهد والزاهدين وعلى الشيخوخة

والضعف الانسانى (١) ، ويعده ناقد رسول الشعر العربى الحديث (٢) .. وتقول عنه فـــدوى طوقان (٣) : انه شاعر لم يعرف الشعر العربى نظيرا له ، ويعلل الناعورى رأيه فى ايليا أبى ماضى فيقول : تتلخص ميزات أبى ماضى الشعرية فى شعوره الانسانى ، وعمق إحساسه بالطبيعة ، وتفاؤله وحبـــه للحياة ، وشعره الاجتماعى ، وفى الحيوية الشعرية (٤) . . وهو فى رأيه خير (٤) مثال للشاعر الحق بكل معانيه ، فهو شاعر فى روحه ، فى أفكاره ، وعواطفه وخيالاته ، وشاعر فى أسلوبه وفى ألفاظه وتعابيره وصوره .

أما الشاعر بشارة الخورى أو الأخطل الصغير فلا ريب أنه من الشعراء المجيدين المبدعين ، وهو ساحر الشاعرية ، محلق فى الخيال والوصف ، متدفق العاطفة رقيق فى شعره الوجدانى لطيف الصور والخيال فى غزله المبدع ، غزير الطاقة الشعرية . ويشبهه الشاعر القروى رشيد الخورى ، فهو ذو شاعرية أصيلة وملكات قوية فى الشعر ، يمتاز بعاطفته الوطنية المتقدة الحارة ، وبوثبات الخيال المتفوق ، وبرقة الاوصاف ، وقوة الحنين الى الوطن ، وثورته العنيفة على الظلم

أما الجارم وحفنى ناصف فقد وقفا موقفا وسطا من المحافظين المتشددين ودعاة التجديد ، وشعر الجارم أكثر انطواء على التقليد والمعارضة للقدامى ، وقد كان المرحوم محمد عبد المطلب من أكثر الشعراء حرصا على الروح الجاهلى فى شعره

وشكرى والمازنى والعقاد ثلاثتهم من الشعراء الذين لقحوا الشعر العربى بألوان الخيال فى الأدب الانجليزى ، وجددوا فى صوره وخيالاته وموضوعاته وأفكاره وأغراضه ومعانيه ، تجديدا له خطره وأثره فى حركة التجديد فى الشعر العربى المعاصر ، من حيث لم يستطع شوقى مثلا أن يفاجىء الناس بالتجديد والميل نحو الروح الغربى فى الأدب ؛ فمازج فى كثير من شعره بين روح الغرب وصناعة العرب ، وديباجته الشعرية عربية عريقة فى العروبة ، وان كانت روحه نزاعة الى التجديد فى الموضوع والفكرة والمعانى والأخيلة .

ويعتمد عمر أبو ريشة على جمال التصوير ، وانسجام التعبير ، وقوة التأثير

---

(١) راجع ٢٤٤ و ٢٤٥ ج ٢ المنهل - وكسى العزيزى (٢) راجع كتاب الأستاذ عيسى الناعورى : ايليا أبو ماضى رسول الشعر العربى الحديث — عمان ١٩٥١
(٣) ص ٦ المرجع السابق (٤) ١٣ المرجع .

وموسيقية الألفاظ ، وهو ذو شاعرية موهوبة ، وطاقة شعرية متفوقة .

أما الشابى فشعره متدفق ، مملوء حيوية وجمالا ، فى خيال مرهف ، وأنغام حزينة ثائرة ، وإحساس عميق بالحياة ، وعاطفة صادقة التأثير ، وعذوبة جميلة ، وأسلوب مونق مشرق .

وأما ناجى فشاعر رقيق الأنغام ، عذب الأسلوب ، قوى العاطفة ، متدفق الشعور ، عميق الاحساس بالجمال ، كثير صور الخيال فى شعره ، رائع فى شعره الوجدانى والغزلى والوصفى روعة لاحد له . .

وكان على محمود طه من أبرع الشعراء قدرة على التحليق فى أجواء الخيال البعيد ، وأبدعهم فى طاقته الشعرية الأصيلة وتصويره الوصفى الدقيق ، وأدائه النفسى العميق ، وأسلوبه المونق العذب .

ويمتاز التيجانى يوسف بشير بشاعرية أصيلة ، وخيال ملهم ، وبالجانب الغنائى الموسيقى الخصب فى شعره ، وبإشراق الديباجة وثراء المعانى وجمال اللفظ وقوته ، وبثورة العاطفة واشتعالها وانقادها ، وهو من رواد الحرية ، والمكافحين فى سبيل كرامة الوطن ، وكان يناضل الاستعمار فى جنوب الوادى بشعره نضالا رائعا .

ومن الشعراء الرواد فى سبيل الحرية الشاعر المصرى المشهور الهمشرى ، وقد توفى فى ميعة الشباب .

وهناك شعراء معاصرون مشهورون ، فى مقدمتهم محمد عبد الغنى حسن ، الشاعر الملهم الاحساس الدقيق الشعور الصادق العاطفة .. يمتاز شعره بديباجة عاليه متحررة ، وبشاعرية مطبوعة رائعة التصوير والتعبير والتأثير .

ومن شعرائنا المعاصرين : الأسمر ، ومحمود حسن إسماعيل ، وصالح جودت ، وحسن جاد ، ومحمد فوزى العنتيل ، ومحمد مفتاح الفيتورى ، وكمال نشأت ، والعوضى الوكيل ، وطاهر أبوفاشا ، وأحمد الغزالى ، ومخيمر ، وهؤلاء تختلف نزعاتهم فى الشعر اختلافا كثيرا .

وفى مقدمة من ستدرس شعرهم وشاعريتهم : التيجانى بشير ، وإبراهيم ناجى ، والشابى .

نحو التجديد فى الشعر

لقـــد تغيرت الحياة والحضارة والثقافة والتقاليد والعادات والأخلاق عن ذى قبل تغيراً كبيرا . . ولكن أثر ذلك التطور فى الشعر العربى المعـــاصر قليل ضئيل .

لقد انتهى الزمن الذى كان يكفى الشاعر فيه مساءلة الاطلال ، ومخاطبة الرسوم ، ومناجاة الحبيب ، والنظر إلى القمر ، والوقوف أمام مياه الأنهار ، ووصف القـائد المنتصر بأنه أسد ، والتعبير عن أثر الحوادث على الانسان بقولنا « أناخ عليه الدهر بكلكله ، ووطئه بمنسمه » ، وما إلى ذلك من أحاديث الفخر والمدح المبتذلة ، وموضوعات الهجاء والوصف والرثاء الساذجة ، وذكر القمر والغصن والطير والنسيم ، وتشبيه الخد بالورد ، والقد بالرمح . . وسئم الناس ذكر الأحلام والآلام والمدام والأشجان والأطياف ، وما شابهها .

واليوم تظل العالم حضارة جديدة ، بدأت بالعصر الذرى الذى انبثق نوره من عام ١٩٤٥ . . ويتكشف العلم كل يوم عن معجزات تتضاءل أمامها معجزات البخار والكهرباء .

فمن المحال أن يظل الشعر العربى كما كان عليه فى العصر الجاهلى ، وأن تبقى أساليب اللغة العربية القديمة كلها كانت من غير تطور وتجديد .. إن الشعر العربى واقف جامد لايتحول ولا يتغير ، بخلاف الشعر الغربى الذى يمشى مع الزمن ، ويتطور مع الأيام ، وتتعاقب عليه ألوان من التجديد والمذاهب المختلفـــة ، فمن كلاسيكية إلى رومانتيكية وبرناسية ورمزية وواقعية ووجودية وسواها ، ومن مذاهب : إنسانية ، وخيالية واجتماعية وغيرها . . ذلك لأن أفكار الغربيين تمشى مع دورة الايام بخطى كبيرة جبارة ، أما نحن فقد عدمنا الشخصية والفكرة الذاتية وحياة القوة التى تدفعنا إلى التجديد بأوسع معانيه .

إننا نطالب بالتجديد فى فن الشعر ومذاهبه وروحه وأهدافه ، كما نطالب بالتجديد فى معانيه وأخيلته وأساليبه وألفاظه .

إنه لايصح أن نقف عند ألفاظ خاصة نرددها ونكررها ونعيدها ، وهى الالفاظ البدوية القديمة التى كان يستعملها عرب الجاهلية وتدوولت مع مرور الزمن

مع أن فى اللغة العربية ألفاظا كثيرة حضرية رقيقة عذبة ، بعضها معروف و بعضها مهجور لم نفطن إلى استعماله وإذاعته فى أساليبنا .. لقد كان القدماء يقولون : « حسبت فى تهديده بريق السيف » ، وما أجدرنا أن نقول اليوم : أسمعنا فى كلامه دوى المدفع ، « وكانو يقولون : « رمى بآخر سهم فى كنانته » ، « وقيل الرماء تملأ الكنائن » ، و « لا يعود حتى يرجع السهم إلى فوقه » ، ويقولون : « أخذ بزمام الأمر » و « أخذ بدفته » ، « وأناخ عليه الدهر بكلكله » .. وهذه صور وألفاظ مأخوذة من السهم والسفينة والجمل . . مع أننا أصبحنا فى عصر البخار والكهرباء والذرة . . ولا مانع لدى من الخروج بالمفردات عند الحاجة عن معانيها المألوفة واستعمالاتها المتداولة ، فنقول : سقط الظلام بدل « تبدد » ، ونقول « ليل ثائر » بدل « مخيف » ، و « غابات نائمة » بدل هادئة .

وكذلك أمر الأساليب ، فهذه الاساليب المبتذلة والغريبة والمبهمة والتى ترجع إلى عادات ليست هى عاداتنا اليوم يجب أن نطرحها ونهملها ، ونستعمل الأساليب التى تواثم أذواق وألوان الحضارة التى نعيش فيها وسهولة اللغة التى نؤثرها ؛ لقد كانوا يقولون « أذل من وتد ومن عبد » ، وما أحقنا أن نقول : « هو أذل من السجين » ، وكانوا يقولون : « هو أنم من التراب » لان التراب يستبقى آثار السائرين والعرب يجيدون معرفة الآثار والاستدلال بها على أصحابها ، أى تحسبه صامتا لايخبر عنك وهو يشى بك ويخبر الناس بمسلكك . . وما أجدر أن نقول اليوم : هو أنم من المذياع ، مثلا . . واستعمل العرب المجاز بعلاقات معروفة لم يبيحوا لنا الخروج عنها ، وهذا حجر فى اللغة لانقبله ، فلنستعمل المجاز لأى علاقة نراها وتستحسنها أذواقنا .

وكذلك الفكرة التى نستعمل الاسلوب لاداءها يجب أن تتطور وتقبل التجديد بتأثير الحضارة والزمن والبيئة والاختراع والكشف العلمى العجيب المستمر كل يوم .

ومن الانصاف أن الكثير من شعراء العرب كانوا يحملون بين جوانحهم قلوبا مليئة بحب التجديد والرغبة فيه ، فهذا أبو تمام يرى الزهر فيخاله شعاعا فى قوله :

يا صاحبى تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد زانه ... زهر الربا فكأنما هو مقمر

ورأى الآخر الشعاع فخاله زهرا فقال :

يالسحر حملتـــه فى جبينى من ربيع الآمال والايام
وعناق السماء فى زرقة البحـــر وفى خضرة الشعاع النامى

وهذا أحمد زكى أبو شادى الشاعر المعاصر أول شاعر خلق للنور قداسة وعبادة وجعل له تقديرا كما قال مطران ، وكان يلقبه مطران بشاعر النور ، ولما قال أبو شادى « إن الحياة أشعة وظلال » كبر مطران وهلل لهذا الشطر .

إن ألوان أفكارنا ومعانينا وأخيلتنا وأساليبنا يجب أن تسير مع التجديد والحياة إلى أفق جديد فسيح غير الأفق القديم المحدود الذى كانت لغتنا وأفكارنا تعيش فيه .

المذاهب الحديثة فى الشعر

وهى مذاهب أدبية ونقدية جـــديدة ، نشأت ونمت فى الغرب ، وتأثر بها شعراؤنا المعاصرون تأثرا كبيرا ، ومن واجب الناقد الأدبى أن يدرسها ، ويتعرف خصائصها ، ويفهم أثرها فى الشعر المعاصر ، ليكون حكمه فى نقد الشعر حكما سليما بعيدا عن الخطأ والقصور .

المذهب الكلاسيكى :

المذهب الاتباعى أو الكلاسيكى نشأ عند الاغريق ، وترعرع عند الرومان ، وشاع فى أوربا بعد عصر النهضة ، وظل سائدا إلى ما قبل مطلع القرن التاسع عشر بقليل .

وكلمة كلاسيك مشتقة من كلاسوس الكلمة اللاتينية التى تشير إلى الطبقة العليا من الشعب فى روما القديمة ، وهم جماعة الأشراف الأثرياء ذوى المكانة فى مجتمعهم القديم .. وقد شبهت بهذه الطبقة الاجتماعية المترفة طبقة الأدباء والشعراء الذين صعدوا بأدبهم وفنهم إلى منزلة رفيعة فى المجتمع ، ومن ثم صارت كلمة « الكلاسيكى » تدل على ما يحتذى من شعر رائع أو أدب رفيع ، وكان الغالب فى هذه الطبقة من الشعراء والأدباء أنهم يتبعون خطوات أسلافهم القدماء من كتاب وشعراء الاغريق والرومان . . ويمتاز إنتاجهم بقوة التفكير وسمو المعانى ، وروعة الخيال وهدوئه ، وجمال العاطفة وطمأنينتها ، وفصاحة الأسلوب وسحر اللفظ .

وأغلب شعراء الكلاسيكية يحتذون حذو القدامى فى البلاغة والشاعرية والأسلوب والصياغة ، مقلدين فيما ينظمون ويكتبون لغيرهم من الأوائل ، يدعون إلى الحق والفضيلة والحكمة . . وظلت الكلاسيكية سائدة حتى هاجمتها مدرسة الرومانتيكيين الابتداعيين ، فخفت صوتها فى الغرب خفوتا شديدا ، وأصبحت اليوم أثرا بعد عين .

ويمكننا أن نعتبر من رجال المذهب الكلاسيكى فى الشعر العربى أمثال زهير والحطيئة والفرزدق فى القدماء وأبى تمام والبحترى والمتنبى وابن هانىء الأندلسى والشريف الرضى من المحدثين ، والبارودى وشوقى وحافظ وصبرى والجارم وعبد المطلب والزين والهراوى والأسمر وغنيم وعلى الجندى وسواهم من المعاصرين .

ويغلب على هؤلاء عنصر التقليد والمحاكاة والمعارضة والاحتذاء للآثار الشعرية القديمة ، كما يغلب عليهم روح التأثر بأفكار ومعانى وخيالات وأساليب القدامى ، ويقل فى شعرهم ظهور شخصياتهم الفنية ظهورا واضحا ، بل تختفى ذاتيتهم فى غمار التقليد والمحاكاة ..

وأغلبهم اليوم فى مصر نزاع إلى القديم ، ينفر من الجديد ، إلا إذا كان بينه وبين الماضى صلة كبيرة ، وشبه قوى .

ومع ذلك ففى شعرهم كثير من الآيات الجيدة الرائعة ، وألوان من التجديد الشعرى المحبوب .

المذهب الرومانتيكى :

وقد ظهر فى فرنسا قبيل مشرق القرن التاسع عشر بقليل بعد الثورة الفرنسية الدامية ، حيث فزع الأدباء والشعراء إلى نفوسهم ووجداناتهم ، يلوذون بتجاربهم الباطنة ، ويهتمون بمشاهد الجمال والطبيعة ويميلون إلى الأصالة والابتكار والتجديد متحررين فى أفكارهم وأساليبهم ، منبعثين فى آثارهم عن انفعال قوى وعواطف متقدة ومشاعر حية ، وسمى هؤلاء الرومانتيكيين أو الابتداعيين ، وهذه التسمية انجليزية أطلقها « ستندال » فى كتابه « راسين وشكسبير » ، وعلى نهج هؤلاء سار كثير من الأدباء والشعراء ، الذين ظهروا فى فرنسا ، وجددوا شباب الشعر والأدب باللون الغنائى الوجدانى النفسى العميق ، يقول « ستندال » : « إن الرومانتيكية »

هى الفن الذى يقدم للشعوب آثارا أدبية من شأنها أن تحدث فيها أعظم لذة ممكنة . .
ومن شعراء هذا المذهب فى فرنسا لامرتين ، وهوجو ، وموسيه ، وسواهم .

وقد حاربت هذه المدرسة المذهب الكلاسيكى ، ودعت إلى « حرية الفن » ، ولاذت بالشعر المجنح بأشجان العاطفة ، المعن فى الاحلام ، والخيالات والرؤى وحب الطبيعة ، والمتسم بالطابع الفنى والاصالة المبتدعة والشخصية الملهمة والروح الغنائى الاخاذ والانطواء على النفس والثورة على كل ماهو قديم .

ويطلق على هذا الأدب الخالص فى العربية الأدب الغنائى أو الوجدانى ، لأن مدرسة الرومانتيكيين فى الغالب لايتحدثون إلا عن أنفسهم ، وأدبهم مداره العاطفة الخالدة والذهن المشتعل وطابع الذاتية والتأمل والصوفيـــة الحالمة والجنوح إلى النفس ومصاحبة الآلام والاحزان والفزع إلى الدموع والزفرات والاندماج مع الطبيعة الملهمة .. وقد تظهر بعض آثار هذه النزعة فى أدب الاتباعيين وشعرهم بين الحين والحين ، فترى عندهم لونا من جموح الخيال والشعور وكبت التفكير وسيطرة السأم والامتزاج بالطبيعة .

ويمكننا أن نعتبر من الابتداعيين فى الشعر العربى أمثال امرىء القيس وأبى نواس وابن المعتز وابن الرومى والمعرى من القدماء . .

ولقد كان مطران وشكرى وأبو شادى أول الرومانتيكيين فى الشعر المصرى المعاصر .

ومن شعراء هذا المذهب أيضا : الشابى وأبو ماضى والخورى وسواهم من شعراء سوريا ولبنان والعراق والمهجر .

المذهب الواقعى :

أسرف الابتداعيون فى مذهبهم الذاتى إسرافا شديداً وجنحوا إلى صبغ أدبهم وشعرهم بصبغة شديدة من الحزن والكآبة والهروب من الواقع والحياة مع الطبيعة والتصوف ، حتى سمى هذا الغلو فى الابتداع « مثالية » . ولكن النفس الانسانية تكره الحياة مع الآلام والاوهام والخيالات والشرود والاشجان المتصلة ، فكان لابد أن تظهر جماعة من الأدباء والشعراء يدعون إلى مذهب جديد ، يصحح دعوة الابتداعيين المعنة فى ذاتيتها وأصالتها وبعدها عن الحياة ولجوئها إلى الخيال .. وقد حدث هذا فعلا ، فقامت جماعة تدعو إلى الاتصال بالحيـاة

كما هى لا كما يجب أن تكون عليه ، وتنادى بمشاركة الأدب والشعر للمجتمع مشاركة صحيحة فعالة ، مع قوة الملاحظة ومعرفة الجزئيات التى تؤدى إلى الكليات ، ومع الايمان بالتجربة والاتكاء على الحس ، وتناول الأحداث الصحيحة أو الممكنة ، ووصف الأشخاص والبيئات والزمان والمكان تصويرا يجىء طبق الواقع المشاهد ، مع البراعة فى تصوير الحقيقة وواقع الحياة ، ومع العناية باللفظ والصيغة والصورة .

وذاع هذا المذهب الواقعى أكثر ماذاع فى القصة والتمثيليات .

ويتردد شعر الزهاوى وأبى شادى وعمر أبى ريشة ورشيد معلوف وسواهم بين الرومانتيكية والواقعية ، فنرى فى شعرهم ألوانا من الشعر القومى والوطنى والاجتماعى ، وتصويرا لحياة الفلاح والعامل والصانع ، ووصفا لمشاعر المجتمع وعواطفه وحياته .. ومن الشعراء الناهجين منهج الواقعية : رئيف خورى ، وبدوى الجبل ، ومحمد مهدى الجواهرى ، وسواهم .

والواقعية تنكر مذهب « الفن للفن » ، وتدعو إلى أن « الفن للحياة » ، إنكارها لمذاهب الابتداعيين فى نظم القريض .

المذهب الرمزى :

سادت فى فرنسا فى القرن التاسع عشر مذاهب أدبية جديدة النزعات : من مذهب الرومانتيكيين الابتداعيين ، والمذهب البرناسى الواقعى .. فالرومانتيكية تحررت من تقاليد الكلاسيكيين ، والبرناسية الواقعية ردت إلى الرومنتيكية روح الاعتدال بعد أن غالت فى منهجها الأدبى غلوا شديداً ، واتخذت المدرسة البرناسية من الشعر تمرينا لنظيا يخضع خضوعا أعمى لقواعد الوزن والقافية والتقيد فى الأسلوب ، وكان مذهبها الجمال للجمال .. حتى إذا بليت جدتها وذهبت روعتها ، خلفها المذهب الرمزى الجديد ، الذى جذب إليه أكثر الشعراء الموهوبين ، وظهرت دعوته فى مظهر الثورة على التقاليد الشعرية والمذاهب الأدبية ، وأعلن أن العالم ليس سوى مجموعة طلاسم ودنيا تخلقها المخيلة الجبارة لا الملاحظة العابرة ، وكان محاولة جديدة للافصاح عن العواطف المكبوتة فى أعماق النفس الانسانية ، مع الاستعانة فى هذا بجرس الألفاظ ، وإيقاع الوزن ، وتركيب الجمل .. فهو أدب انطباعى يقتضى التأمل العميق لتفهم موضوعه وتذوق فنه والفناء فى الفكرة التى خلقها

الشاعر ، والهيام بعبادة الجمال والتصوف والاحتفال بتجارب العقل الباطن ، والميل إلى الغموض والابهام ، والتجارب الموضوعية الموزعة بين الحلم واليقظة والنوم والوعى ، والأرض والسماء (١) ، وعكف الرمزيون على الغوص فى أعماق النفس الانسانية ، ومعالجة الحياة الباطنية للانسان ، لا على طريقة الكلاسيكيين الذين كانوا يبحثون فى النفس معتمدين على العقل وحده ، بل جعلوا أساس عملهم الفنى التغلغل فى أعماق العقل الباطن عن طريق المخيلة . فكان عملهم قائما على التوافق بين المادة المحسوسة والفكرة المتخيلة .

وأول دراسة عن الرمزية وأغراضها وتوجيهها للشعر كتبها الشاعر الفرنسى موريأس ونشرها عام ١٨٨٦ ؛ ولكن الرمزية فى الأدب كانت ذائعة قبل ذلك التاريخ ؛ فكانت تظهر بين الحين والحين كلما أراد شاعر أن يترجم عن مشاعره الخفية بالرموز ، وبرزت بوجه خاص فى أدب الصوفية ، واستمدت عناصرها من موسيق « واجنر » وأدب « بواير » وغيره من أدباء القرن التاسع عشر فى فرنسا ؛ فكان الشعر الرمزى كالحلم الخفى يخاطب العاطفة ولا يأبه للعقل مطلقا ، كاللحن الجميل الذى يتحدث إلى المشاعر قبل أن يتحدث إلى العقل ؛ ولذلك كان السر فى جمال الشعر الرمزى هو طابع الغموض الذى يلابسه ، والغموض فيه هو عنصر قوته ؛ ومن ثم اهتم الرمزيون بالنفس أكثر من اهتمامهم بالطابع الانسانى .

ومن رائدى الشعراء الرمزيين : « بول فرلين » ، و « مالرميه » ، « ورامبو » وبول فاليرى ، و « ستيفن سبندر » الانجليزى ، وسواهم .

ولبول فاليرى قصيدته « المقبرة البحرية » التى نظمها فى مقبرة مشرفة على البحر . . وقد أثارت هذه القصيدة جدالا شديداً بين النقاد والشعراء والأدباء ، وترجمت إلى اللغات الحية ، وهذا جزء من ترجمتها لبعض أدبائنا المعاصرين :

إنها قدسية ، مغلقة ... نارها توقد من غير غذاء
خيم الصمت على أرجائها ... وعلى صفحتها رف الضياء
سقطت أضواؤها وهاجة ... وأثارت فيّ أسباب الطرب
فظلال كالدجى ممدودة ... وقبور رصعوها بالذهب
أرأيت الظل فى أكنافها ... حيث يرتج على الظل الرخام ؟

(١) ١٢٦ الشعر المعاصر ـ السحرتى

وهناك البحر فى غفوته قد ترامى قرب أجداث ونام
هاهنا أمواتنا قد جثموا مدفئا أجسادهم هذا التراب
طاويا أسرارهم فى جوفه أ لقبر ينطوى هذا الكتاب ؟

إلى آخر هذه القصيدة الطويلة ، وقد كتب الدكتور طه حسين عن هذه القصيدة يقول (١) : « أنفق النقاد الفرنسيون أعواما يدرسون هذه القصيدة ويحللونها ، ويلتمسون معانيها وأغراضها ، ومظاهر الحسن ودخائله فيها ، فرفعها بعضهم إلى أرقى منازل الآيات الشعرية الخالدة ، ونزل بها بعضهم إلى حضيض السخف الذى لاينبغى الوقوف عنده » .. وكان مثار الاختلاف هو مذهب الشاعر فى فن الشعر وماينبغى له — كما يقول الدكتور طه حسين — : من الارتفاع عن هذا الوضوح الذى يفسد الفن إفسادا ، ويقربه من الابتذال ، فبول فاليرى يرى مثلا أن جمال الشعر يأتى من أنك تجدد اللذة الفنية فى نفسك كلما جددت قراءته ، ومن أنك تستكشف فى القراءة الثانية من فنون الجمال مالم تستكشفه فى القراءة الأولى ، بل تجد فى كل قراءة فنونا جديدة من الجمال لم تجدها فى القراءات التى سبقتها . وموت الأثر الفنى يأتى عنده من فهم الناس له .

هذا هو المذهب الرمزى الذى تردد صداه فى شعر بعض الشعراء المعاصرين : أمثال أبى شادى وإيليا أبى ماضى وحسن كامل الصيرفى ؛ وكان كذلك الدكتور بشر فارس من رائدى الشعراء الرمزيين المعاصرين .

والمذهب الرمزى أصول فى أدبنا العربى القديم عند أمثال الحلاج والجنيد والخيام وابن الفارض وابن عربى وسواهم .

وقد عرف النقاد العرب القدامى فن « الرمزية » وألموا ببعض خصائصها إلماما مناسبا ، فكان الصابى الكاتب المشهور يقول : « أخفر الشعر ماغمض عنك فلم يعطك إلا بعد مماطلة منه » ؛ وقد عرض الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » الوضوح والغموض كثيرا ، وإن كان يشيد بالوضوح ويؤثره .. وتحدث عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « أسرار البلاغة » عن الغموض فى الشعر ، وقسمه إلى ماسببه الخطأ فى الأسلوب ونظم الكلام أو طريقة الفكرة وأدائها فرفضه ، وإلى ماسببه دقة الفكرة وعمقها فقبله وأشاد به وحمل كلام الجاحظ عليه ، ونحن مع عبد القاهر

---

(١) العدد التاسع عشر من مجلة الرسالة

فى كل ماقال ، ونحيلك على هذا الفصل الجميل من كتابه (١) لتقرأه بإمعان وروية . فهو يكشف لنا عن عبقريته ، ومن أجله تعد عبـــد القاهر أول واضع لمذهب الرمزية فى النقد الأدبى عند العرب ، وإن شئت فاستمع لما يقوله عبد القاهر : « من المركوز فى الطبع أن الشىء إذا نيل بعد الطلب له ، والاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالمزية أولى ؛ فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف ، وكذلك ضرب المثل لكل مالطف موقعه ببرد الماء على الظما (٢) » . ويقول عبد القاهر أيضا : « فإنك تعلم على كل حال أن هـذا الضرب من المعانى كالجوهر فى الصدف ، لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه ، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ؛ ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له فى الوصول اليه ؛ فما كل أحد يفلح فى شق الصدفة ، ويكون فى ذلك من أهل المعرفة .. كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له (٣) » .. ويوضح عبد القاهر رأيه فيقول : « هذا وليس إذا كان الكلام فى غاية البيان ، وعلى أبلغ مايكون من الوضوح . أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفا ؛ فإن المعانى الشريفة اللطيفة لابد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق (٤) » ، « هذا وإن توقفت فى حاجتك أيها السامع المعنى إلى الفكر فى تحصيله ، فهل تشك فى أن الشاعر الذى أداه إليك ، ونشر بزه لديك ، قد تحمل فيه المشقة الشديدة ، وقطع اليه الشقة البعيدة ، وأنه لم يصل إلى درره حتى غاص ، وأنه لم ينل المطلوب حتى كان الامتناع والاعتياص .. ومعـــلوم أن الشىء إذا علم أنه لم ينل فى أصله إلا بعد التعب ، ولم يدرك إلا بعد احتمال النصب ، كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه ، وأخذ الناس بتفخيمه ، مايكون لمباشرة الجهد فيه ، وملاقاة الكرب دونه (٥) » . ويدخل عبد القاهر التمثيل فيما يحتاج إلى الفكرة والإمعان والروية ، فيقول : « المعنى إذا أتاك ممثلا فهو فى الأكثر يتجلى لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له والهمة فى طلبه ،

(١) صفحة ١١٨ من أسرار البلاغة وما بعدها
(٢) ١١٨ الأسرار
(٣) ١١٩ المرجع
(٤) ١٢٣ المرجع
(٥) ١٢٣ المرجع

وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر ، وإباؤه أظهر ، واحتجابه أشد (١) » .. ويقول ابن سنان الخفاجي الناقد القديم المعروف في كتابه الرائع « سر الفصاحة » يصف مذهب أبي العـــلاء في الغموض ، واختلاف النقاد في هذا الغموض وبلاغته : « جرى (٢) بين أصحابنا في بعض الأيام ذكر شيخنا أبي العلاء بن سليمان ، فوصفه واصف بالفصاحة ، واستدل على ذلك بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الأدباء ، فعجبنا من دليله ، وإن كنا لم نخالفه في المذهب ، وقلت له : إن كانت الفصاحة عندك بالألفاظ التي يتعذر فهمها فقد عدلت عن الأصل أولا في المقصود بالفصاحة التي هي البيان والظهور ، ووجب عندك أن يكون الأخرس أفصح من المتكلم ، لأن الفهم من إشاراته بعيد عسير ، وأنت تقول : كلما كان أغمض وأخفى كان أبلغ وأفصح . وعارضه أبو العلاء صاعد بن عيسى الكاتب ، وقال : صدقت ، إننا لا نفهم عنه كثيراً مما يقول ، إلا أنه على قياس قولك يجب أن يكون ميمون الزنجي الذي نعرفه أفصح من أبي العلاء ، لأنه يقول مالا نفهمه نحن ولا أبو العلاء أيضاً » .. ويتكلم ابن سنان على الوضوح ، ويعده ـ دون الغموض ـ من شروط الفصاحة ، وذكر رأي الصابي الذي يرى الغموض بلاغة في الشعر دون النثر ، ونقده ، وذكر رأيا لأبي تمام في الوضوح والغموض ، وعرض لبعض مثل من شعر أبي الطيب فيها غموض وخفاء ، إلى غير ذلك مما درسه في هذا البحث (٣) الذي يشرح لنا فيه الآراء المختلفة حول الغموض ومكانه من البلاغة ، وإن كان ابن سنان نفسه لا يرى في الغموض بلاغة ... ومن قبل هؤلاء النقاد دافع أبو تمام الشاعر عن مذهبه في الغموض ، حين قال له ناقد : لم لا تقول ما يفهم ؟ فأجابه : ولم لا تفهم ما يقال ؟

وقد اختلفت أدباؤنا المعاصرون في الغموض والوضوح اختلافا كبيرا ، فكتب البعض ناقدا لمذهب الغموض ، ومنهم عباس فضلي وسواه ؛ وكذلك رآه أحمد أمين يرجع في كثير من أسبابه إلى « فقر اللغة وقصورها عن الافصاح عن عواطف الشعراء النفسية وميولهم ورغباتهم ، وسواء رضينا أم غضبنا فسيستمر الغموض ـ كما يقول ـ مسيطرا على الشعر حتى تتضح الحياة النفسية » ، وهذا مالا نوافقه

---

(١) ١١٨ المرجع (٢) ٦٧ سر الفصاحة ـ طبعة صبيح

(٣) ٢٠٩ - ٢١٨ سر الفصاحة

عليه ولا نذهب مذهبه فيه ، ويقول عباس فضلى من مقالة له نشرها فى بعض المجلات الأدبية : « كل بديع فى هذا الكون من منظر إلى صوت إلى شعر يلازمه الوضوح الذى هو جوهر الجمال الحقيقى » .. ولكن العقاد يرى أن وراء الغموض فى الشعر والأدب إبداعا فنيا ، والانسان قد يقرأ كتابا غير مرة فيجد فيه كل مرة من معان مالم يره فى القراءات السابقة ، وهو رأى الدكتور طه حسين ولفيف من النقاد .

المذهب السريالى :

وهو نزعة أدبية جديدة متطرفة تدين بالحرية المطلقة ، والخروج على كل عرف وتقليد ، فهى فى الأدب تنفر من موضوعات الفكر الجارية ، وتحتقر الأساليب السائدة فى أشكالها وصورها ومجازاتها وكلماتها ، وتسخر من العقل ومنطقه .. وجل إلهاماتها من الأحلام والرؤى ودفعات اللاشعور والتأثرات الماضية (١)

ومن دعاتها فى فرنسا : ريمبو ، ولوتريامو ، وفى انجلترا : « دافيد جاسلوين » .. وقد تأثرت فيما تأثرت بسيكولوجية فرويد وفلسفة هيجل ، وشعراؤها يستمدون تجاربهم الشعرية من الحلم واللاشعور ، دون اهتمام منهم بالايقاع الموسيقى ، ولا بنظام الكلمات والقفية ..

ويشبه مذهبهم مذهب أهل الطبع فى الشعر العربى ، فهم يرسلون شعرهم إرسالا عفو الخاطر والقريحة ، ويقولون : إن الشعر الذين يجىء غير ذلك ويكون مفعما بالتفكير لا يعيش لأنه ليس مستمدا من نبع الوحى والالهام والشاعرية .. ومن ثم لا يهتم « السرياليون » بأن ينظموا شعرهم على نظام الشعر الحر أو الشعر المرسل أو الشعر المقفى أو أن يكون مزيجا من هذه الألوان والأنواع .

ويظهر هذا المذهب الجديد فى شعر بعض شعرائنا من الشباب ، مثل « كامل أمين » وكامل زهيرى ، وعادل أمين ، وسواهم .

المذهب الوجودى :

اشتهر فى فرنسا هذا المذهب الجديد ، الذى يعد « جان بول سارتر » داعيته الأول ، والذى يقوم على أن الانسان حر فى كل شىء عدا ألا يكون حرا ، ولذلك فالانسان غير مقيد بقانون يحد من حريته ، إنه ذاتى فقط يستطيع أن يختار مايعمل ،

(١) ١٤٠ و ١١ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ـ للسحرتى

والانسان المفرد هو وحدة الجماعة والأصل فى الوجود .. وللوجوديين آراؤهم فى الدين والسياسة والاجتماع والأدب والشعر .

ويقوم محور المذهب الوجودى فى الأدب على تمثيل ذاتية الانسان ، وحقه الحر فى التفكير كما يشاء ، وباللغة التى يريدها .. ويعمل الشعراء الذاتيون على الدعوة إلى آرائهم فى ذاتية الفرد ، وحقه الكامل فى الحرية ، وخاصة حريته الفنية الكاملة ، التى تحرره من كل قيد يقيـــده به النقاد وواضعو أصول النقد والشعر والفن .

خلاصة أخيرة :

وبعد فهذه دراسة سريعة للمذاهب الأدبية الحديثة ، ومدى أثرها فى الشعر العربى الحديث ، ودعوة التجديد فيه .

ولا شك أن الكثير من نقادنا وأدبائنا وشعرائنا المعاصرين ، أصبحوا يقيمون تفكيرهم الأدبى وأصول فهمهم للنقد ولحركة التجديد فى الشعر على هـــذه المذاهب الأدبية المختلفة التى أشرنا اليها ، ونوهنا بصلتها بالشعر العربى الحديث ...

وهى أهم المذاهب الأدبية المعروفة فى الأدب الغربى ، والتى يحتذيها كثير من شعرائنا المعاصرين ، ويعمل على نقدها والغض منها والدعوة إلى اجتنابها فريق آخر من أدبائنا . . وأدبنا العربى يعرف المذاهب الأدبية فى الكتابة الفنية كمذهب عبد الحميد الكاتب ومذاهب ابن المقفع والجاحظ وابن العميد والقاضى الفاضل وابن خلدون والمنفلوطى وطه حسين ، كما يعرفها فى الشعر من حيث الفن والأسلوب كمذاهب المطبوعين والمصنعين والحكماء والمتصوفين الرمزيين والمجددين المبتدعين فى الخيال والفكرة وكمذاهب المعنيين بالأسلوب والمعنيين بالمعنى .. ولكن شتان بين هذه المذاهب الضيقة المحدودة فى أدبنا العربى ، وبين المذاهب الأدبية فى الأدب الغربى المعاصر ، فطرائق الاتباعيين والابتداعيين والواقعيين والبرناسيين ـ التى تبغض الشعر العاطفى ، وتؤثر الصنعة ، وتغرق فى الموسيقى الشعرية وطلب القافية ، وتعنى بالأسلوب والأداء وتحب الوضوح ـ وطريقة الرمزيين . . هى كلها بينها وبين مذاهبنا الأدبية المعروفة بون كبير ، لأن الأدباء الغربيين مجالا إنسانيا عالميا فى أدبهم ، ومذاهب واضحة معروفة ، وينقدشكرى

الرمزية ودعاتها ، وكذلك يصنع الزيات (١) الذى يرجعها إلى صوفية حالة ونوع من الحذلقة والإغراب (٢) .

ويدعو أبو شادى إلى تعاون هذه المذاهب الأدبية المختلفة ، وإلى تقدير جميع المواهب ، وإذا قدر ألوانا من الشعر الرمزى أو السريالى أو سواهما فليس معنى هذا أنه - كما يقول هو - يبخس الضروب الأخرى من الشعر حقها أو يدعو إلى إغفالها ، لأن ثروة اللغة إنما هى بمجموع آرائها ، والخير كل الخير فى تنوع ضروبها لا فى حصرها (٣) .

ويقسم أبو شادى شعراءنا المعاصرين إلى طبقتين اثنتين مطرحا طبقة النظامين المتشاعرين ، وهما طبقة الشعراء ذوى الأصالة الفنية الذين تتصف أعمالهم بقوة الشاعرية وسمو الخيال مع خلود المعانى والقيم ، وطبقة الشعراء ذوى الفخامة اللفظية من أمثال على محمود طه والعقاد ومحمود عماد (٤) .. ويكرر ذلك فى تقسيمه المدارس الشعرية فى الأدب العربى المعاصر إلى ثلاث : أولاها المدرسة الكلاسيكية المجددة تحت الراية الابتداعية وهى التى كان يتزعمها مطران ، وثانيتها المدرسة التجديدية المتطرفة التى تهيم بالسريالية والرمزية ، والثالثة المدرسة المتوسطة التى تحفل بالموسيقى الاتباعية وبجزالة الألفاظ وبالصيغ العريقة المأثورة مع الأخذ بطرف من اجتهاد المدرستين السابقتين ومن شعرائها على محمود طه (٥) .

ويقول أبو شادى : إنه إذا كنا نؤمن بالمذهب الفنى الشامل فى الشعر الذى ينتظم فى الواقع مذاهب فرعية فليس من مذهبنا طبعا أن نغفل الشعر الكلاسيكى القديم أو المجدد ولا ماعداه من فن أصيل ، وإنه لجميل أن يشمل الشعر عظائم ودقائق كثيرة ، لنا أن نحتفى بكل لون من ألوان التفكير والتعبير البشرى ، وعلينا أن نناهض الديكتاتورية الأدبية والفنية لأنها فى النهاية بمثابة سم للأدب والفن (٦) .

---

(١) ١٥٧ دفاع عن البلاغة - ط ١٩٤٥ (٢) ١٥٩ المرجع
(٣) ص ٩٧ رائد الشعر الحديث (٤) ١٨٧ رائد الشعر الحديث
(٥) ٢١١ المرجع (٦) ٩٨ المرجع

الشاعرية الملهمة وأثرها فى التجديد الشعرى

أسلوب الشعر وموضوعه عنصران من عناصره ، أما الأسلوب فيتبدل باختلاف البيئات والشعوب ، والعرب من أوفر الأمم حظا فى الأسلوب والصناعة الشعرية ، وأما موضوع الشعر فيتنوع إلى غنائى وقصصى وتمثيلى ، فإذا أثرى الشعر العربى من اللون القصصى واللون التمثيلى فقد بدأ يسير فى طريق التجديد والتقدم .

وهنـــاك عنصر آخر أهم من تلك العناصر ، هو روح الشعر أو شاعرية الشاعر الملهمة الفياضة ، وتظهر فى مقدرته على الاتصال بنبع الالهام ، وفيض العبقرية ، وإشعاع المواهب ، ومصادر الوحى ، إن الشاعر العظيم كما يقال يتناول أسمى ماتقدمه الطبيعة للبشر ، فينشىء منه هياكل مقدسة لعبادة الفضيلة والجمال . وكل أثر شعرى خالد جميل فللموهبة والالهام اليد الطولى عليه .

إن تنمية روح الشاعر لهى خطوة كبيرة نخطوها فى سبيل التجديد والنهوض بالشعر نهضة فعالة ، ولا يكون ذلك إلا إذا أرهفنا الأذواق ، ونمينا المدارك ووسعنا الأخيلة ، وصحبنا ملكة التفكير والنقد والحكم ، وغرسنا فى النفوس حب الطبع والفطرة والصدق والإخلاص فى الأثر الشعرى ، ليكون الأثر الأدبى رائعا وجميلا ، أكثر من روعته الأسلوبية التى لاأثر لها على أفئدة الناس وعواطفهم ، قرأ لامارتين شعرا لشاعرة فرنسية ، فرآه التعبير الساذج اللطيف المؤثر بكل قوته ومعانيه ، فأعجبه وطرب له ، وقال : « لم تكن الأبيات التى طالعتها شديدة أو رنانة ، ولا حماسية وهاجة ، أو ندية فضفاضة كالياسمين » ، ثم قال عن الشاعرة : « إن فى منظوماتها أشياء خلابة ، وإن الله منحها موهبتين ساميتين : الشعور بدقة ، والتعبير بظرف ، وهما موهبتا المواهب » .

والشاعر يشعر بما لايشعر به غيره من معانى القول ، وهذا الشعور هو أساس الشاعرية وسرها ، ومصـــدر التجارب الشعرية العميقة ، والملكات الفطرية الأصيلة .

ولقد كان القدماء والمقلدون فى الأدب الحديث يجردون الشاعر عن شاعريته ، وروحه ويقيسون عمله الفنى بمقاييس محدودة من اللغة والأساليب ، ويأبون على الشاعر أن يكون ذا طبيعة خاصة وإحساس ممتاز ، ولكن دعاة التجديد يجعلون

ولا تقوم وحدها بخلق الشاعر المجيد ، بل روحه هى كل شىء ، وشاعريته التى تعمل لأداء رسالتها هى أساس مجده الأدبى . . ومن ثم كان القـــدماء من النقاد يقيسون شعر ابن الرومى بمقاييسهم الخاصة فيهبطون بمنزلته عن غيره من الشعراء ؛ فلما جاء العصر الحديث ونظر النقاد إلى شعره نظرة تخالف نظرة أسلافهم الأولين هتفوا بشعره ، ورفعوه إلى مكانه الصحيح بين الشعراء الموهوبين .

أيهـــا الشعراء

أيها الشعراء : افهموا الحياة فهما عميقا دقيقا قبل أن تفهموا أنكم قد أصبحتم شعراء ؛ ووسعوا مداركم بمختلف الثقافات وشتى العلوم لتجدوا مادة خصبة جديدة تعينكم على نظم الشعر والوقوف فى محرابه ، وآمنوا بشخصيتكم وحاولوا أن لا تكتبوا قصيدة إلا إذا كانت خير تعبير عن هذه الشخصية ، وخير توكيدها أمام القراء والأدباء .

أيها الشعراء : إن الحياة أمامكم واسعة عميقة ، وإن أفكار التقدم والتحرر كثيرة فيها الكثير من الحق والعدالة والانصاف .. فلتكن أقلامكم خادمة لرسالة سامية فى الحياة ، هى رسالة الحق والعدل والخير والرحمة والمساواة والأخاء والسلام والتعاون بين الناس .

.. اعزفوا عن اتخاذ هذا الفن الجميل مهنة وحرفة تعيشون بها بين الناس ، وقولوا للغنى أو ذى السلطان الذى يريد أن تكونوا دعاة لأفكاره الرجعية العتيقة : إنه لاخير فى الحياة إذا لم يذهب منها أنت وأمثالك من الناس ، ولاخير فى الشعر إذا لم يوقظ النفوس ويحرر المشاعر لتقف حياتها على محاربة أفكارك الرجعية القديمة البالية التى تريد الناس عبيدا وقد خلقهم الله أحرارا .

آمنوا بأن جمال الشعر فى حقه وصدقه وبساطته وما فيه من إخلاص وحرارة إيمان وجرأة على قول الحق فى أى وقت وأى مكان .

.. أيها الشعراء : إنكم حملة رسالة الاصلاح ، فلا تتأخروا عن حمل المشاعل ، وهداية الناس ، وإنقاذ الانسانية ، والدعوة إلى أرفع المثل فى الحياة ، وتجديد رسالة الأديان فى محاربة الفساد والشر والاهواء والشهوات وطغيان الطغاة الفاسدين .

إن الشاعر حكيم ملهم ، أو نبى مرسل ، فأين أنتم من رسالتكم الخالدة بين الناس .

الشعر يجب أن يلائم حياتنا

الشعر فن روحى يعتمد على إحساس الناس بالخير ، وتذوقهم للجمال . . . ونحن اليوم فى عصر مادى يريد أن يحيل كل شىء مالا وثروة ، ولا يعترف بشىء من الروحيات إلا إذا كان وسيلة للكسب والثراء . فالحياة الحاضرة تريد أن تستغنى عن الشعر ، ونحن لا يمكن أن ندع الشعر ونتخلى عنه ونتركه لهذه المادية تأتمر به وتقتله، فلا مناص لنا من أن نجدد فى الشعر العربى لترضى عنه أذواق الناس ومشاعرهم وثقافتهم ، أو قل : لترضى عنه الحياة الحاضرة بما تشتمل عليه من ثورة ومدنية وحضارة وثقافة ، ولترضى عنه نفسيات الأفراد والجماعات والشعوب المتجددة الثائرة . . وإلا فمصيره الفناء .

يقول رابندرانات تاغور شاعر الهند العظيم من كلمة له عن الشعر : يعيش العالم الآن فى عصر ثورة ، فاعتقاده القديم وميله فى تغير وتبدل ، ولم يشهد التاريخ تطورا أصابه من التقلبات السريعة ما أصاب هذا التطور البادى فى عقلية الجماعة والفرد ، فالأخلاق تختلف والآراء تتغاير ، والاعتقادات تتباين ، والجيل الجديد قد دفعته الرغبة الملحة إلى تجربة كل شىء فى الحياة حتى نسى فن الحياة ، فلا يملك الوقت للتفكير والتأمل ، ولا يجد الفراغ للسرور الهادىء يتمتع به نفسه ، ولا الفرصة للقراءة يغذى بها روحه . لذلك كان فن الشعر أبعد ما يكون عن الازدهار والانتشار ، فالشعراء قليلون ، وروائع الشعر نادرة ، لأن طبيعة العصر تقتضى ذلك .

أنا لا أزعم أنى أفهم ميول العصر ، ولكن أسجل ما عليه الشعر المعاصر من حاضر سيىء ، وحال ألمة ، ليكن السبب فى ذلك متصلا - بأية صورة من الصور - بالحرب وأثرها فى نفوس الشعوب التى صليت بنارها ؛ فإن الأمر الواقع أن ازدهار الشعر فى هذه الساعة من أصعب الأمور ، ومما لا شك فيه أن الناس لا يجدون لثقافة الشعر فراغا .

على أن هذه الحال من الظواهر الطارئة التى لا تلبث أن تزول ، فإن فى الانسان جزءا جوهريا يقتضى الشعر ويتطلبه .. ويزعم فريق من الناس أن تأخر الشعر نتيجة لتقدم العلوم فى الثلاثين سنة الأخيرة ، وهذا غير صحيح فإن نطاق العلم

لايستلزم حتما كساد الشعر . . ولكن الخطر الحقيق الوحيد هو أن الناس فى خلال هذه الأحداث والرجات الاجتماعية الحديثة يصبحون عاجزين عن ترجمة الخواطر بالشعر ، قاصرين عن إدراك الجمال فى القصيد ، وذلك - ولا ريب - عرض من أعراض الهدم ، ومثل هذا العرض لايظهر فى الشعوب الشابة ، لأن حاسة الشعر خاصة من خصائص الشباب ، على أن هذه الحاسة يفقدها المرء بسهولة إذا لم يساعدها بالثقافة والمران ، ومتى فقدها فقد معها نضرة العيش وجمال الحياة .

ويتفاءل الناقد الشاعر أحمد زكى أبو شادى بمستقبل الشعر ، فيقول : « إن(١) أصح مايوصف به عصرنا الحاضر أنه العصر العلمى لا العصر المادى ، وإنى لا أعتبر العلوم عدوة للآداب ، وكل ماحدث وسيحدث أن التآخى بين القوتين العظيمتين سيتوطد ، وأنهما ستندمجان ، وما الشعر فى اعتبارى إلا نبع الاحساس العميق ، والتأمل البعيد ، والنظر إلى ماخلف المظاهر . ومن المشاهد أن رقى الحضارة يرهف الأعصاب ، ويحد الأذهان ، ويزيد رقة الاحساس ، وكل هذه عوامل تنتج الشعر وتهيء النفوس لقبوله ، بل إلى الالحاح فى طلبه غذاء روحيا لها ، فمن ينكر مستقبل الشعر مخطىء ، لم يدرس بعناية العوامل التى أنبتت الشعر منذ فجر المدنية ، ولا تزال تغذيه وتحافظ عليه وستضمن له خلوده » .

وإنى لأرى أن « مذهب الفن للفن » يجب أن يتضاءل ، حتى لا تكون حياة الشعر لنفسه وبعده عن الجماهير وحياتهم سببا من أسباب زيادة الثورة عليه . . إن الشاعر يجب أن يؤمن بأن « الفن للحياة » ، وأن يقف شعره على خدمة الجماعة ومواصلة التجديد فى كل جانب من جوانب الحياة .

إن « حرية الفن » لاتنافى الايمان بنظرية أن « الفن للحياة » فالشاعر الغربى الذى يقول : « أريد للقلم أن يساوى البندقية وأن يوضع مع الحديد فى الصناعة » لايريد أن نسخر اليراع تسخيرا لايتفق مع روح الفن وفطرته وأصالته وأصوله ، إنما يريد أن يكون للقلم رسالة تساوى رسالة الجندى فى المعركة والصانع فى ميدان الصناعة . . فليصف الشاعر كما يشاء جمال الزهر وفتنة الطبيعة وسحر الحبيب ، ولكن ليؤد مع ذلك رسالته فى دفع الحياة نحو الخير والحق والجمال والاخاء والمساواة والحرية .

---

(١) ٢٧ - مسرح الأدب لأحمد زكى أبى شادى

لونان جديدان من الشعر

الشعر العربى إلى عهد قريب لم يكن يعرف اللون القصصى ، ولا الشعر التمثيلى ، وهما لونان من الشعر ذاعا فى آداب اليونان والرومان والآداب الغربية الحديثة ذيوعا كبيرا ، ونظم منهما الكثير من الروائع شعراء الغرب المحدثون : كفيكتور هوجو ، وألفرده موسيه ، ولامارتين ، وشكسبير وسواهم . ولقد ذاعت رواية فكتور هوجو : « البائسون » ذيوعا استحق صاحبها من أجلها الشهرة والخلود ، كما ذاعت رواية « رفائيل » للامارتين ، والكوميديا الالهية لدانتى ، وسواها .

والأدب العربى القديم عرف القصة والرواية على نحو ما فى كليلة ودمنة وعنترة وألف ليلة وليلة ، والأغانى والعقد الفريد وسواها .. ولكن هذه الألوان الطريفة كانت نثرا لا شعرا ، وظل الشعر العربى يجهل الملاحم الطويلة والروايات التمثيلية الطريفة ، حتى جاء العصر الحديث ، فأذاع جورجى زيدان فى النثر القصص التاريخية ، نقلا لهذا اللون من الآداب الأوربية إلى اللغة العربية ، وكان أحمد شوقى أبرع من نظم القصة الشعرية الطويلة ، كما كان أحمد زكى أبو شادى أول من نظم الأوبرات التمثيلية فى اللغة العربية ، كما نظم كثيرا من القصص الشعرية الجديدة ..

ونظم عزيز أباظة « قيس ولبنى » ، و « شجرة الدر » ، وكذلك فعل غيره من الشعراء .

إن من أولى خطوات التجديد فى الشعر ألا يعيش شعرنا العربى فى نطاق اللون الغنائى وحده ، وأن تسود فيه النزعة القصصية والتمثيلية ، فذلك سبيل لتوسيع مجال التعبير والبيان ، وصلة للشعر بالحياة والجماعة الانسانية .

بعض دعوات التجديد فى الشعر المعاصر

يدعو كثير من النقاد والمفكرين إلى التجديد فى الشعر العربى ، حتى يستطيع أن يؤدى رسالته الفنية فى الحياة

ومن هؤلاء الدعاة من يدعون إلى التجديد فى موضوعات الشعر ، ليتسع لشتى

الأغراض ، وألوان الشعور والحياة والطبيعة ، ووصف شتى خواطر النفس الإنسانية وتأملات الفكر فى العالم والحياة . . وهذا تجديد لا يعيبه أحد ، ولا يذمه ناقد . . ويجب أن يمتد ويسير إلى نهايته ، فيصبح الشعر القصصى والتمثيلى دائمين عند الشعراء .

ومنهم من دعوا إلى التجديد فى معانى الشعر ، ليتسع لشتى الأفكار والمعانى التى اتسع لها وشملها الشعر الغربى ، وليتصل بالحضارة وسير الثقافة ، ويلقح بالفلسفات المختلفة ، وبالجديد المبتكر من المعانى . . ولا شك أن هذا محاولة للسمو بالشعر والسير به إلى أهدافه الصحيحة المنشودة ؛ فلا يمكن أن يذم ذلك اللون من التجديد إنسان . .

ومنهم من دعوا إلى التجديد فى أسلوب الشعر وألفاظه وأخيلته ، باختيار الجيد البليغ من أساليب الشعراء القدامى الذى يمثل حياتنا ويوائمها ، وباقتباس مايجدى ويصلح من أساليب الغرب وأخيلته ، اقتباسا بعيدا عن الضعف والركاكة والعجمة ، مع محاولة جعل الأسلوب ممثلا للبيئة التى نعيش فيها ، وهذا فى رأيى منطق مقبول ، إنما الذى لا نقبله هو دعوة المتحرفين الذين يدعون إلى الاقتباس من العامية ، واختيار مايلائم أذواقنا منها من ألفاظ وأساليب وصور واتخاذ البهاء زهير رمزا لشعر البيئة المصرية الصحيحة وممثلا لها .

ومن الدعاة من يدعو إلى التجديد فى أوزان الشعر العربى وقافيته ، فأباحوا للشاعر أن يطلق الشعر من قيود القافية وينظم قصيدته دون التزام قافية خاصة وسموا ذلك الشعر المرسل ، وأباحوا له أن ينظم القصيدة من بحور مختلفة وأوزان متعددة ، وسموا ذلك « بجمع البحور » ؛ أو أن يتحرر من قيود الوزن كافة ، وسموا ذلك « الشعر الحر » ، وممن نظم من الشعر المرسل مطران وشكرى (١) وأبو شادى وإيليا أبو ماضى وسواهم . . وممن نظم من الشعر الحر أبو شادى ولفيف من شعراء مدرسة أبوللو الشعرية . ولا شك أننا لا نؤمن بالفوضى لونا من ألوان التجديد ولا نستسيغ هذا الشعر الحر ، أو مايسمونه « بجمع البحور » أو مايطلقون عليه الشعر المرسل ، ونرى ذلك انحرافا عن طريق التجديد وسبيله الواضحة الصحيحة .

ويرى فريق أن الأوزان العربية الموروثة قليلة جدا لا تكفى فى عصرنا الراهن

---

(١) قصيدة « بابليون والساحر المصرى » أظهر قصائده من الشعر المرسل .

وأنه لاضير من الاصطلاح على أوزان جديدة ، وفى ذلك يقول أحمد أمين من مقالة له عن التجديد فى الأدب : يجب أن يتقدم الشعر فى كل من عنصريه عنصر الوزن وعنصر المعنى ، فنى الوزن نرى أن العرب صبت شعرها فى ستة عشر بحرا ولكن العيب عيب من أتى بعدهم ، فقد قدسوا هذه البحور ، ولم يشاءوا أن يخرجوا عنها قيد شعرة ؛ وعجيب أن نسمح فى عصرنا للموسيقى الشرقية أن تطعم بالموسيقى الغربية ثم لا نفعل ذلك فى الشعر ، يجب أن يتحرر نوابغ الشعراء من هذه القيود ، فليس الحكم هو البحور الستة عشر ولكنه الأذن الموسيقية ، ثم استطرد فدعا إلى التجديد فى موضوع الشعر وفى معانيه وقال : أين الشعراء يضعون أغانى للشعب ويتغنون بما حوته طبيعة بلادهم من جمال ؟ وأين الشعر الاجتماعى العربى الذى يساير نزعات أمم الشرق ومطامعها وآمالها فى الحياة ؟

أما من حيث التجديد فى المعانى والموضوعات الشعرية ، فقد ذكرنا رأينا فيه ، وأما من حيث دعوته إلى التجديد فى الوزن لضيق البحور العربية فأقول له : هلا يكفيك هذه الأوزان الكثيرة الواردة عن العرب ، والتى نظم عليها شعراؤنا القدامى والمحدثون قصائدهم ومقطوعاتهم ؟ وهلا يكفيك أوزان السلسلة والدوبيت والزجل والمواليا وكان وكان والقوما والموشح ؟ ؛ وهلا يكفيك أوزان عكس البحور السبعة ، وزيادات المجددين فى أعاريض البحور وأضربها ؟ إن المجال واسع أمام الشاعر الملهم ، والشاعرية الموهوبة ، التى هى كل شىء فى الشعر .. ثم أقول له أخيرا : ضع دراسة واسعة عن موسيقى الشعر وأوزانه القديمة المولدة بإشراف علماء فن الموسيقى ، ودعنا نناقشك على ضوء هذه الدراسة العلمية الصحيحة .

إن الذين يدعون إلى زيادة قوة تأثير الشعر اتربطه بقلوب القراء والمتذوقين وتجعله أكثر صلة بحياتنا ؛ والذين يدعون إلى تصحيح أذواق شعرائنا المريضة وتوسيع مداركهم وثقافتهم الفنية ؛ ليدعون إلى شىء مقبول سليم ندعو معهم إليه ، ولكن الشىء الذى لا نقبله هو أن تنقلب الدعوة إلى تجديد الشعر هدما له وتنفيرا منه وازدراء له .. إننا ندعو إلى السمو بالعاطفة الشعرية والأصالة فى التجربة ، والعمق فى الفكرة ، وحسن تناول اللغة والألفاظ .

يقول الشاعر بول فاليرى الفرنسى : « إن للشعر فى الأفهام معنيين : أولهما أنه مجموعة العواطف والانفعالات التى تهيجها فى نفوسنا أحداث الزمن ، ومجالى الطبيعة ومعانى الوجود ، وألوان الحياة ، وثانيهما أنه فن قائم وصناعة عجيبة ، تتناول

الأهواء المشبوبة بالتنسيق والتأليف والجلاء ، ثم تبرزها لغة جميلة تطرب لها الأذن ويهتز منها القلب ؛ وبين المعنيين صلة شديدة ؛ والعواطف الانسانية تغاير كل التغاير مانسميه « العاطفة الشعرية » ، فالعاطفة الشعرية تتصل أبدا بالحب والألم والخوف والغضب ، وما إلى هذا من مشاعر النفس وأهواء القلب ، وهى إحساس قوى بحياة غريبة ، وشعور واضح بعالم جديد ، ويستخدم الشاعر أداة حية عملية ليحقق بها فنا أبى إلا أن يثور على المعـــاش ، ويشرف على العمل ، ويسمو على المادة ، ويمتاز الشعر بأنه يتناول الألفاظ على نحو من التركب والتوجيه يخالف مايتناوله منها النثر فى أغلب الأحيان ، فنحن نعجب بالكناية والمجاز فى الشعر أشد العجب ، بل نحن لانعجب بالشعر إلا إذا كان كله أوجله مجازا وكناية ؛ والشعر الذى يعترف بجودته وبلوغه المنزلة الرفيعة التى تملى على القارىء أثر الوحى والاحساس النفسى ، إنما هو فى الواقع من عمل الجهد الدائب والتفكير العميق . . إن الشاعر مضطر إلى النظر طورا فى رقة الألفاظ ، وطورا فى معناها ، أو فى استيفاء الانسجام وتخير الفقرات ؛ فضلا عن شتى المطالب الفكرية والمنطق والنحو وموضوع القصيد وأفانين البديع والوشى وما تو وضع عليه من قواعد » .

إننا ندعو إلى أن يكون الشعر تجربة شعورية عميقة ، تنم عن صادق الادراك وبعده ، وقوة العاطفة وسموها ، وخصب الخيال وتجدده .

دعوة المجددين إلى الشعر المرسل

القافية عنصر مهم فى الشعر العربى ولقد عرف النقاد القدامى الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى ، فالقصيدة فى الشعر العربى تنتهى أبياتها كلها بحرف واحد هو الروى ، والتزام ذلك هو التقفية

وفى بعض اللغات الأخرى لايعرف الشعر القافية ، مثل الشعر اللاتينى واليونانى ، وهناك لغات تشتمل على شعر مقفى وآخر خال من القافية ومنها معظم اللغات الاوربية الحديثة .

إن اللغة العربية من أكثر اللغات عناية بالقافية ، وللقافية فيها دراسات خاصة تعرف بعلم « القوافى » الذى وضعه الخليل بن أحمد المتوفى عام ١٧٤ هـ

وهناك صور كثيرة تتصل بالقافية : فمطلع القصيدة فى الغالب يجىء مصرعا ، أى يتماثل شطراه فى حرف الروى الذى تبنى عليه القصيدة ، مثل قصيدة المعرى فى الرثاء :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى

وقد يحرص بعض الشعراء المترفين على تقفية أجزاء البيت بقافية توافق قافية القصيدة ، وقد يقفون أجزاء الشطر الأول بقافية تخالف القافية التى يجتلبونها لأجزاء الشطر الثانى ، كقول أبى تمام :

تدبير معتصم بالله ، منتقم لله ، مرتغب فى الله ، مرتقب

وإذا كانت القصيدة العربية من بحر الرجز كثرت صور القافية فيها : فقد يسير الشاعر فيها على الطريقة المألوفة فى سائر الأوزان ، بأن تنتهى جميع أبيات القصيدة بقافية واحدة ، كقصيدة مهيار :

أتعلمين يا ابنة الأعاجم كم لأخيك فى الهوى من لائم

وقد يلتزم القافية فى كل شطر من أشطر القصيدة ، فيكون الشطر هو وحدة القصيدة ، ويسمى هذا عند أكثر علماء العروض بيتا ، مثل أراجيز العجاج ورؤبة وأبى نواس وابن المعتز ، يقول أبو نواس :

قد أشهد اللهو بفتيان غرر
من ولد العباس سادات البشر
ومن بنى قحطان والحى مضر

إلى آخر هذه الأرجوزة .. وقد يلتزم الشاعر القافية بين كل شطرين من أشطر القصيدة (١) ، مثل قول أبى العتاهية من أرجوزته الطويلة التى سماها « ذوات الأمثال » :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أى مفسدة
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله

ومثل ذلك « ألفية ابن مالك » وسواها من ألوان الشعر العلمى ؛ وفى شعر كثير من اللغات الأخرى يكثر اتباع هذه الطريقة ، حتى لقد سارت عليها فى أوزان أخرى غير الرجز ، ولكن اللغة العربية لا تسير على ذلك النهج إلا فى الرجز وحده ، وتسمى القصيدة التى على هذا النمط أرجوزة . وقد قصر بعض شعراء العرب نظمهم على الأراجيز ، فسموا « رجازا » ، مثل العجاج ورؤبة ، وكان بعض الشعراء المجيدين يقلدونهم فى نظم الأراجيز ، حتى لا يفوتهم باب من الإحسان فى الشعر ،

(١) ويسمى ذلك بـ« المزدوج »

كبشار وأبي نواس وأبي تمام وابن المعتز ، وأكثروا من نظم الأراجيز فى « فن الطرد » خاصة .

وقد جـــدد الشعراء فى القافية وقيودها ، فتحرروا من التزام القافية فى جميع أبيات القصيدة ، وعمدوا إلى تكرار القوافى فى كل جزء من أجزائها ، كما فى المثلثات والمربعات والمخمسات والمزدوجات والمسمط ، واخترع الأندلسيون الموشحات التى كرروا فيها صور القافية فى القصيدة الواحدة ، وجعلوا ذلك ترويحا للشاعر ، ومساعـدة له على إظهار ترفه الفنى وأداء معانيه الجياشة ، وعونا على تقريب الشعر إلى الجمهور واتخاذه أداة للنغم والموسيق والغناء .

كما اخترع المجددون القدامى فى الشعر العربى صورا أخرى حاكوا فى أكثرها الشعر الفارسى القديم ، كالسلسلة والدوبيت والمواليا والقوما وكان وكان والزجل (١)

والأعم الغالب على القصيدة العربية هو اتحاد أبياتها فى القافية . وذلك نهج قديم موروث عن الشعراء الجاهليين ، وقد طبعت عليه أذواقنا وملكاتنا منذ أمد بعيد .. وللقافية وقعها الساحر فى السمع ، وموسيقاها الجميلة التى تهز العاطفة ، وتستثير الشعور .

وقد أخذ بعض أدبائنا وشعرائنا المجددين يدعون إلى التحرر من القافية ، وإلغائها وإرسال الشعر إرسالا ، تقليدا لبعض اللغات الأوربية ، ومن دعاة هذا الشعر « المرسل » مطران وشكرى وأبو شادى وسواهم ، وهذه الدعوة لا تزال تتأرجح بين مؤيديها ومعارضيها .

لقد وجدت بعض مثل لهذا اللون من الشعر فى الشعر العربى القديم ، وسمى علماء العروض الشعر الذى يختلف فيه الروى بحروف متقاربة المخارج « إكفاء » ، والذى يختلف بحروف متباعدة المخارج « إجازة » ، قال المرزبانى (٢) : « والاكفاء اختلاف حرف الروى ، فهو غلط من العرب ، ولا يجوز ذلك لغيرهم ، لأنه غلط والغلط لا يجعل أصلا فى العربية ، وإنما يغلطون إذا تقاربت مخارج الحروف » ، ومما رواه المرزبانى من هذا الشعر فى كتابه « الموشح » (٣) :

---

(١) راجع فى ذلك كتابى « فن الشعر » بجزئيه الأول والثانى

(٢) ١٩ الموشح طبعة السلفية ١٣٤٣

(٣) ١٩ و ٢٠ المرجع نفسه

فما ليث عرين (١) ذو أظافير وأقدام
كحي إذ تلاقوا و وجوه القوم أقران
وأنت الطاعن النجلا ء منها مزبد آن
وبالكف حسام صا رم أبيض خذام
وقد ترحل بالركب وما نحن بصحبان

ونسب ذلك أبو عبيدة لابنة أبي مسافع وقد قتل أبوها يوم بدر .

وروى الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » هذا المثال من الشعر القديم :

ألاهل ترى ان لم تكن أم مالك بملك يدى ان الكفاء قليل
رأى من خليليه جفاء وغلظة اذا قام يبتاع القلوص ذميم
فقال : أفلا واتركا الرحل انني بمهلكة والعاقبات تدور

وروى أيضا هذا المثال :

رب أخ كنت به مغتبطا أشد كفى بعرى صحبته
تمسكا منى بالود ولا أحسبه يزهد فى شعر ذى أمل

وهذا ومثله مما ورد فى الشعر العربى القديم من باب الشذوذ الفنى للملكات الشعراء العرب الأقدمين ، ولكن شعراءنا المعاصرين جعلوه حجة لهم على سلوك باب ذلك التجديد ، فنظم شكرى الكثير من ذلك ، ومنه قصيدة « نابليون والساحر المصرى » ، ونظم مطران وسواه قصائد عدة من هذا اللون من الشعر ، ونظمت منه سهير القلماوى قصيدتها « ذو الفأس (٢) » ، ونظم أديب معاصر قصة « خسرو وشيرين » شعر مرسلا ، وعرض محمد فريد أبو حديد ترجمتين لقطعة من شعر شكسبير يرثى فيها قيصر ، احداهما نثر والأخرى شعر مرسل (٣) ، وكتب دراسة عن الشعر المرسل (٤) رأى فيها أن القافية غل متين يمنع من الاسترسال فى القول ، وأن الشعر القصصى والرواية الشعرية لابد فيهما من ترك القافية أو الاحتيال عليها ، وذلك هو علة وجود الشعر المرسل فى اللغة مثل الانجليزية ، وقال :

---

(١) رواية المرزبانى : دغريف ، وهو تحريف
(٢) الرسالة العدد الرابع عشر
(٣) الرسالة العدد الثانى عشر
(٤) الرسالة - مجموعة السنة الأولى

للشعر المرسل عيبان : أولهما أنه يحرم الأذن من موسيقى القافية ، والثانية أنه يحطم الحدود بين الأبيات ، فمن أراد الموسيقى والغناء فلابد له من شعر موزون ، فللشعر المرسل موضع غير الأغانى . . ثم عرض قطعة لشكسبير من روايته عطيل فى ترجمتين إحداهما نثر والأخر شعر مرسل ، وترك للشعراء الحكم له أو عليه ... ورأى كاتب أن فى الشعر المرسل أنواعا جديدة من الموسيقى ، يعجز عنها بل قد يفسدها الشعر المقفى (١) .. ويقول الزهاوى شاعر العراق الكبير : القافية عضو أثرى ، قد بقى من كلمات كان يكررها فى آخر كل بيت النادب فى المناحات ، والمتحمس فى الحرب والصدام ، يوم تولد الشعر فى عصور العربية الأولى ؛ ولا بد من زواله لعدم فائدته اليوم ولتقييده الشعر فلا يتقدم حرا كبقية الفنون (٢) » .. وقال كاتب عراقى : « الشعر المرسل قديم العهد ، والمعروف أن الزهاوى هو الشاعر الوحيد فى المحدثين الذى رفع لواء الشعر المرسل ، وهو يعيد الفكرة إلى نشأتها الأولى (٣) » وكتب الدكتور محمد عوض محمد يقول من كلمة له عن الشعر المرسل : « أصبحنا اليوم وأكثر الأدباء متفقون على أن إرسال القافية لا يلائم الشعر العربى ، وعدنا بأنفسنا طائعين إلى حمل السلاسل والأغلال ، مضحين بتلك الحرية العروضية التى لم تنتج لنا إلا كل فاتر تمجه النفس (٤) » وقال العقاد عن الشعر المرسل : إنه غير مقبول فى الذوق (٥) ، ورأى الزيات (٦) أن إلغاء القافية من الشعر يخمد الذهن ويجدب القريحة . وللعقاد رأى قديم يدعو فيه الى الشعر المرسل (٧) » .

ويرى مؤلف كتاب « الشعر المعاصر » أن الأولى ارسال الشعر فى غير الشعر الغنائى (٨) .

وقد نظم أبو حديد قصة خسرو وشيرين شعرا مرسلا ، وكتب يقول (٦) :

---

(١) الرسالة العدد السابع عشر

(٢) راجع كتابى « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » - صفحة ١٥٥

(٣) العدد السابع من الرسالة (٤) العدد الخامس من الرسالة

(٥) العدد ٥٣٨ من الرسالة ، وفى العددين ٥٣٩ و ٥٤٠ - الصادرين فى نوفمبر ١٩٤٣ - بحوث عن الشعر المرسل (٦) الرسالة مجموعة السنة الأولى

(٧) ١٤٦ سحر الشعر لوفائيل بطى

(٨) ١١٨ الشعر المعاصر - طبع ١٩٤٨

« الواقع أن القافية الموحدة التى تلتظم القصيدة من أولها إلى آخرها غير معروفة فى الشعر الغربى ، وقد قال ملتون فى مقدمته لملحمته المشهورة « الفردوس المفقود » إنه عول على نظمها شعرا مرسلا وعلى نبذ القافية نبذا تاما لأنهما أثر من آثار الهمجية ، وكثيرا ما عاقت الشعراء من تسجيل سامى المعانى ، وعلى الرغم من مغالاة ملتون فى قوله هذا — إذ للقافية روعتها ولزومها فى كثير من ضروب الشعر — فلا شك فى أن القافية كثيرا ما تقف عقبة فى طريق المعانى وخاصة فى القصة الشعرية والملحمة الطويلة .

ويقول دعاة الشعر المرسل : إنه قد مكن شكسبير من أن يترك لقومه سبعا وثلاثين قصة تمثيلية من أروع الشعر ، غير قصائده وأغانيه ومقطوعاته الأخرى ، وحين جاء شوقى بعد مضى القرون الطويلة على تاريخ الشعر العربى لينشىء القصة التمثيلية لم يتسع مجهوده لأكثر من ست قصص نجح فى نصفها ولم يوفق فى النصف الآخر ، على أن النقد للتراث الأدبى أثبت أن قيد القافية لم يتح للقصيدة العربية أن تكون وحدة متماسكة فى معانيها ، بل قصر فى غالب الأحوال المعنى الواحد على البيت الواحد ، وورطت الكثيرين من فحول الشعراء ، فكانوا ينتقلون من معنى إلى معنى بغير لباقة ولا مناسبة .

وبعد فالشعر المرسل فى رأيى بدعة جديدة من تقليد دعاة التجديد للغربيين ، ولا مكان له فى الشعر العربى وتقدمه : فهو نهج فنى لا تعرفه العربية فى القديم ، والاستدلال ببعض آثار الشذوذ الفنى للقدماء لا مبرر له ، إذ لم ينظم من الشعر المرسل قصيدة فى القديم ، ولم يعرفه الشعراء فى عصورنا الأدبية المختلفة ، وهو لا يلائم ذوقنا الأدبى ، ويخل بوحدة القصيدة وموسيقاها وتأثيرها ، ولست أدرى لماذا يتجاهل هؤلاء المجددون أثر الترف الفنى فى القصيدة العربية فى اجتذاب القلوب والعواطف والمشاعر ، على أن الأولى بهم أن يعبروا عن أفكارهم ومعانيهم بنثر فنى جميل يصح أن يسمى « الشعر المنثور » ، أن بأسلوب السجع الموقع الحلو . ويوشك « الشعر المرسل » لو نظمنا عليه قصائدنا أن يزيل الفواصل بين الشعر والنثر ، ويجعل الآثار الأدبية كلها من باب واحد ، هو باب النثر . على أن باب التجديد واسع ، ومجاله متعدد ، فلم نصر على الدخول للتجديد من هذا الباب الضيق المحدود وحده ؟ والعربية والشعر القديم والحديث لم يعجزوا عن تصوير شتى المعانى ، ولا عن نظم الرواية الشعرية الطويلة ، كما فعل أبو شادى وشوقى

وسواها ، ولا عن نظم الملاحم كما فعل فى القديم ابن المعتز فى أرجوزته الطويلة فى حياة الخليفة المعتضد العباسى المتوفى عام ٢٨٩ هـ ، وكما فعل ابن عبد ربه فى أرجوزته الطويلة فى الأندلس والخليفة « الناصر لدين الله » المتوفى عام ٣٥٠ هـ. والمسألة الجديرة بالالتفات هى « عبقرية الشاعر ومواهبه الخاصة » وحدها ، فهى كل شىء فى باب التجديد فى الشعر .

وإذا كان الشعر الانجليزى يميل إلى إرسال القافية ، فما ذلك إلا لقلة صور القافية فى أدب اللغة الانجليزية ، حتى كان جون ملتون يذهب إلى أن خير الشعر ما نظم بغير قافية ، ونظم « الفردوس المفقود » ليقيم الدليل على صحة رأيه ؛ .. والأمر بالعكس فى الشعر العربى حتى لتكثر صور القافية وتتعدد ألوانها ...

على أن التقفية أسهل ما فى النظم ، فإنها ليست إلا امتحانا لموهبة الشاعر ومقدرته وبراعته ، وسبيلها أن تعطى السامع الصوت المتسق الذى تتوقعه أذناه ، ولكن ليس فى اللفظ الذى ينتظره ، وأن تجعله أحيانا كثيرة يطول به انتظاره ، ويشتد به إعجابه .

الشعر الحر

وكما دعا لفيف من المجددين إلى الشعر المرسل ، دعوا كذلك إلى الشعر الحر ، الذى لا يلتزم فيه الشاعر قيود الوزن المعروفة ، ومن الدعاة اليه : مطران وأبو شادى وشعراء مدرسة أبولو وبعض الشعراء السوريين واللبنانيين ، وجماعة من طلاب الجامعات المصرية (١) .

ونظم منه السحرتى بعض قصائد منشورة فى ديوانه « أزهار الذكرى » ، كقصيدة الفراشة (٢) وسواها ، ويقول : « لا مفر المجددين فى هذا العصر من تطعيم موسيقى الشعر بالأنغام المنوعة والتفعيلات الجديدة ، ويكون هذا أيضاً بهجر القافية الواحدة ، وخاصة فى القصائد المطولة وفى الشعر التمثيلى (٣) » .. ويقول أمين واصف (٤) : « متى بلغت الموسيقى العربية مبلغ الموسيقى الافرنجية ، وأخذت

(١) ١٢٣ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتى
(٢) ٣٥ و ٣٦ أزهار الذكرى
(٣) ١٢٤ الشعر المعاصر
(٤) ١٨٦ سحر الشعر لرفائيل بطى

فى تقليد « تلاحين » ، « بيتهوفن » وغيره ، ضاقت ذرعا بالأعاريض المعروفة ، واستحدثت أعاريض جديدة بالضرورة » .. ويقول العقاد : « إن أوزاننا وقوافينا أضيق من أن تتفسح لأغراض شاعر تفتحت مقاليق نفسه ، وقرأ الشعر الغربى (١) »

ويقول باحث : « فى الحق أنه يجب أن نتوسط فى الأمر ، بحيث لا تصبح الأوزان جامدة كما يريدها « ورد زورث » ، ولا تتطرق اليها الفوضى كما يبتغى « كولردج » ، ومن الممكن للمحدثين من شعرائنا أن يجددوا ولكن بقدر وفى أناة ، حتى لا يفجأوا قراءهم وسامعيهم بما لم يألفوا أو بما لا يمت للقديم بأى صلة ، وإنما يكون ذلك بالاقتصار فى نظمهم على ماشاع من أوزان وإهمال غيره إهمالا تاما (٢) » .

إن « الشعر الحر » فى رأيى دعوة خالية من كل معنى ، ولا اثر لها فى مستقبل الشعر الحديث .

مجمع البحور

وهو لون من دعوة التجديد فى الشعر العربى التى يدعو اليها لفيف من أدبائنا ، ويقوم على عدم التقيد بوزن واحد من أوزان الشعر العربى ، فيجوز للشاعر أن ينظم قصيدته أجزاء ، كل جزء من بحر ، ويقول الدكتور محمد عوض (٣) : « ظهر فى عصرنا ضرب جديد من الشعر ، لم يعرفه الأوائل ولا الأواخر وقد سميناه « بمجمع البحور » ، فإنه يسوغ للشاعر فى المنظومة الواحدة والموضوع الواحد أن يجمع ماشاء من بحور الشعر فلا نقيد ، فينتقل كما شاء من وزن إلى وزن بلا سبب ظاهر . وربما يؤسف له أن يكون شوقى وهو الشاعر ذو النفس الطويل لا يلتزم وزنا واحدا فى رواياته .. لقد قيل إن شوقى فى ذلك أسوة بكبار الشعراء الروائيين أو القصصيين ، وهذا ليس بصحيح ، فإن جميع روايات شكسبير من وزن واحد ، وملحمتا هوميروس كلتاهما من بحر واحد ، والفردوس المفقود

---

(١) ١٤٣ المرجع السابق

(٢) ١٤ موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم أنيس

(٣) العدد الخامس من الرسالة

المتون من وزن واحد ، والشاهنامة كلها ذات وزن واحد . وكثير من الناس يقر بأن هذا الاكثار من الأوزان - فى روايات شوقى - قد أفقدها قسطا كبيرا من الحسن ؛ .. ورد بعض الأدباء على الدكتور محمد عوض(١) بأن شوقى « لو أجهد نفسه ، وتكلف التكثير ، حتى جاء برواياته من بحر واحد وقافية واحدة ، لقال الناس وقالت أنت أيضا : إنه قد وضع فى عنق الشعر طوقا يغـــله به فى عصر الحرية » .

إننى أؤكد أن « بحمع البحور » عمل فنى غير جدير بالاحترام ، ولا بمقام ذكاء الشاعر ، ولا ندرى كيف استساغ دعاة التجديد الدعوة اليـه والخوض فيه ، إن الشعر العربى كثير الأوزان متعددها ، فهناك البحور الستة عشر ؛ وهناك الأوزان المستحدثة من عكس بعض البحور ، مثل المستطيل والممتد والمتوافر والمطرد المنسرد والمتئد الخ ، وهناك الاختلافات العديدة الناشئة عن اختلاف أوزان البحر الواحد من بحور الشعر العربى بتعدد أعاريضه وأضربه . وهذا الغنى العظيم فى الأوزان ليس له نظير فى أية لغة من اللغات الغربية ، وقد يكون له مثيل إلى حد ما فى اللغات الشرقية التى اقتبست من العربية مثل الفارسية ، والأوزان الافرنجية المتداولة لا تتجاوز الخمسة وبعضها أكثر ذيوعا وانتشارا من الآخر .

إن الدعاة إلى « بحمع البحور » يقلدون بعض الأدباء الأوربيين الذين أعلنوا الثورة على الأوضاع المألوفة ، حتى قام منهم فى آخر القرن التاسع عشر من يشك فى ضرورة الوزن للشعر ، ولم تلق هذه الثورة أنصارا كثيرين إلا فى الولايات المتحدة ، وفى بعض دول قليلة من شعوب أوربا وخاصة بلجيكا ، أما فى انجلترا وفرنسا فإنها لم تصادف نجاحا .

إن بحمع البحور لا يشك أديب فى أنه لا يلائم الشعر العربى ولا الذوق السليم ، والدعوة اليه لن تصادف فى الشرق أى نجاح .

الشعر وحظه من الخلود الفنى

يقيس النقاد خلود الشعر خاصة والأدب عامة بمقاييس مختلفة : ففريق يرون خلود الشعر فى جمال أسلوبه وجلال معانيه وروعة خياله ودقة أفكاره وعمقها وقوة

(١) العدد السابع من الرسالة

عواطف الشاعر فيه وسموها . وفريق يرون خلوده فى حسن تعبيره عن عواطف المجتمع وإحساسه وشعوره ، وفى صدق تصويره للبيئة التى يعيش فيها الشاعر ، وما تزخر به حياة الناس فى عصره من آمال وآلام . وآخرون يرون خلوده فى حسن تعبيره عن النفس الإنسانية والحياة البشرية عامة ، فهم يشيدون بالمتنبى وخلود فنه لأنه يصور عواطف النفوس ومطامحها وآمالها وآلامها ، وينطق عنها ، ويعبر عن مشاعرها ، فى أدق صورة ، وأجل حكمة ، وكذلك يرفعون من شأن ابن الرومى لأنه أجاد فى السخرية من مجتمعه وفى وصف دخائل النفوس وأسرار العواطف ودقيق المشاعر التى تتصل بكل إنسان ، وهكذا شأن شكسبير وجيته وهوجو وسواهم من الشعراء الخالدين ، وكذلك الخيام والمعرى من شعراء الشرق المشهورين .

ولقد كانت الروح الفردى عماد الشعر القديم ، وما إن تزال عماد شعرنا الحديث ، فكلاهما غنائى ، يتفق مع صنوه فى المنهج والصياغة والأسلوب والأداء ، ومن أجل خلو شعر شوقى من الروح الانسانى العام هاجمه العقاد هجوما شديدا ، ولكن الرقى الفكرى والاجتماعى والأدبى والفنى فى عصرنا الراهن ، واشتداد المنافسة فى مجال الفن والأدب ، كانا عاملين كبيرين فى ثورة النقاد على شعرنا المعاصر الذى تخلف عن متابعة حركة التقدم والنهضة ، فهم يطالبون الشعراء بأن يكون شعرهم شديد الصلة بالحياة ، قوى التعبير عنها ، فى جدها ولهوها ، وسلمها وحربها ، وآمالها وآلامها ، وسعادتها وشقائها ، ليكون لإنتاجهم الشعرى حظ من الجودة والخلود . وهكذا نرى أن رقى ذوق القارىء ، ودقة ملكات الناقد ، وحريتها فى النقد والموازنة ، جعل الشاعر يتعقب شعره بالتجويد والتهـــذيب ، لينال ما يمكن أن يناله من ذيوع وخلود .

ويرى بعض الكتاب أن من مؤهلات الخلود الأدبى للشاعر أن يكون شعره مستمدا من لباب المعانى المأخوذة بمهارة من صفحة الكون الزاخر بالحقائق والأحلام ، وأن يؤثر فى الحياة ببعث الحق فيها والرحمة والخير ، ويتأثر بها بتقديس كل ما فيها من جمال ، والتأمل فيما وراءها من أسرار ، والامتزاج بما فيها من روح . . . وتعمل مذاهب النقد على أن تنصف الفن من أهله ، وتضع الشاعر فى مكانه الصحيح ، وعلى أن لا تمنحه الخلود الأدبى إلا إذا كان شعره مثلا أعلى لعبقرية الشعراء الملهمين .

حرى بالشعراء أن يفتحوا باب التجديد فى الشعر ، وأن يحدثوا حركة أدبية جديدة ، وأن تكون لهم ذاتيتهم وشخصيتهم المستقلة فى إنتاجهم الشعرى ، وألا يسرفوا فى التقليد لغيرهم من الشعراء ، وألا يرددوا مذاهب الغربيين ترديدا دون فهم وبصيرة . إننا نطالبهم بأن يحدثوا فى الشعر العربى مذاهب أدبية جديدة تعمل لخدمة الحياة ، وللنهوض بكرامة الفرد والمجتمع ، وللحد من سلطان الرجعية والطغيان والاقطاعية والأهواء . ونطالبهم بأن يؤججوا العواطف ، ويشعلوا المشاعر ، ويوقظوا الهمم ، ويثيروا أفكار الناس وعقولهم لتحيا وتعمل وتجد .. والشاعر الذى سيكون سباقا إلى أداء رسالته هذه فى أمته ، هو الشاعر الخالد الذى يدوى ذكره على مر الأجيال .

إننى لا أرى الخلود الأدبى كما يراه غيرى فى النظم الكثير ، ولا فى الأسلوب الجميل ، أو الفكرة الدقيقة ، أو الحكمة الرائعة . ولكنى أؤمن أن لكل شاعر رسالة ، وأنه إذا أداها وآمن بها ودافع عنها فى خدمة قومه وبنى وطنه والانسانية فسيكون بشعره وأدبه من الخالدين ...

إن النقد الحديث لا يحفل بأنواع الكلام البليغ الممتع ، ولا يمنحه التعظيم والتقدير ، إلا إذا كان صاحبه ذا عقل كبير ، وقلب أكبر من عقله ، وعبقرية موهوبة ، تعطى الناس والوطن والحياة من نفسها أكثر مما تأخذ ، وهـــذا سر ما يزعمه « هوجو » من أن « الشاعر مصلح عظيم ونبى كريم ، أرسله الله لقومه هاديا إلى مواطن الحرية والجمال والحب » .. وعنصر التأمل الذهنى العميق عند الشاعر ، والبساطة التامة فى اللفظ والمعنى والاسلوب ، والاخلاص فى التعبير ، والصدق فى الأداء ، كل هذا ما هو إلا وسيلة الشاعر فى التعبير عن رسالته ليفهمها الناس .. إن عقلية الشاعر وخياله المرهف لأداة تصوير واعية دقيقة ، تلتقط ما يتساقط عليها من أشعة الوجود وألوان الطبيعة وصور الحياة ، وهو أبدا يرقب جيشان عاطفته ، وخفوق قلبه ، ثم يستمتع بهواه وشعوره استمتاعا فيه إحساس عميق بالحياة ، واستيقاف لها قبل أن تطوى ... وهذه كلها أمور لها أهميتها فى العمل الأدبى الذى يعمله الشاعر عند نظم قصيدته ، ولكنها أشياء غير ما نريده من أن يكون عمل الشاعر موجها نحو رسالة جليلة يخـــدمها ، ويخلص لها ، ويضحى فى سبيلها ، ويمنحها حبه ونفسه وحياته . . . إن الشاعر الذى يقول :

الآن والأيام مدبرة تولول بالنواح
والأفق مخضوب الأديم وقد تأذن بالرواح
أقبلت ريحك تبسمين فأين كنت لدى الصباح
وجه الخريف يطل فاستمعى لإعوال الرياح
بعثرت أيام الشباب فويح أيام الشبـــاب
لانستقى إلا على رنق فأنفسنا غضـاب
لم تصف كأس حياتنا يوما ولا لذ الشراب
والآن تنطلقين فى لهف إلى وفى ارتقاب
عيناك والهتان لاهفتان كلهمـــا دعاء
وحنين ملهوف تطلع فى قنوت للسماء
ويحى فأين أنا وأين حنين أيامى الظماء ؟
صمت الخريف يلفنى وعليه شارات المساء
ذهب الزمان هناك فى الأطلال فامضى أنت عنى
ما عاد يوقظنى نداؤك خلسة من بعد وهن
ماتت منای جميعها فعلام يخدعنى التمنى ؟
فرق الزمان طريقنا فامضى وحسبك ذاك منى
هذى خطاى على الطريق وتلك واجفة خطاك
الريح تطمسها فلا خطو ولا أثر هناك
شبحان قد عبرا فلم نشعر بهذا أو بذاك
تتلوها الأشباح والأيام ماضية وراك

قد عمل عملا فنيا ذا قيمة فى تجاربه وموسيقاه ومشـاعره الشعرية ، وعمله هذا يقربه من التقدير الفنى ، ولكنه لو عاش على ذلك العمل وحده دون أن يؤدى رسالة فلن يكون من الخالدين ...

عمل الشاعر والناقد

يبدأ عمل الشاعر حينما يعتاد الملاحظة الدقيقة فى كل شىء مما يحيط به فى الحياة ، ويعى دقائق مايحس أو يشعر به جملة وتفصيلا ، ويسجل كل مايشاهده بدقة فى ذاكرته .. ثم يسير فى عمله الفنى ، حين يحـاول أن ينشر المطوى من ملاحظاته

وتجاربه ومشاعره ، ليضمنها شعره ، فيأخذ فى الاستغراق الكامل ، والتصوف الروحى ، والتبتل فى محراب الفن والجمال ؛ والغوص البعيد فى أعماق النفس وأغوار الذهن ليقف على التفاصيل ، ويسترشد بالأطلام ، ويطلب دلالة الأحلام والرؤى والخيالات والمشاعر ؛ ناسيا تبعاته ووجوده المادى مندمجا فى الأفكار والعواطف والمعانى الروحية ، منطلقا خياله فى الأرض والسماء والماضى والحاضر والمستقبل ، فينسى ماقى الحياة من آلام ، ويسعد بنشوة الاستغراق التام الذى يكون فيه الشاعر حين شعوره بالنشوة وفرحه العميق بلذة التعبير عن النفس وكشف ماغمض من دنيا الخيال والشعور ؛ فإذا هو كأنه يفجر ينبوعا من القوة الباطنة تنعش كيانه كله . . ويستمر الشاعر فى عمله وفى نفسه فرح غامر لما فيها من الاستجابة للحياة ، وتأخذ الانفعالات النفسية تتكون جداول لتسير فى تيار الموهبة الفنية الخالصة ، ومنها يستمد الشاعر مادته الأولى التى ينسج منها شعره ، إذ ليس الشعر براعة فى استعمال الأساليب والألفاظ وصور الأداء كما يفهم أغلب شعرائنا اليوم ؛ وإنما هو استجابة ذاتية من الحواس لما تحس به ، ومن الفكر لما يشعر به ويتأمله . وكلما كان الشاعر دقيق الادراك للاحساس الذى يحاول التعبير عنه وتصويره ، كلما واتته اللغة ، وأسعفه البيان . والشاعر الملهم هو الذى يستطيع أن يصور كل إحساس ـ مهما كان خفيا ـ تصويرا دقيقا واضحا قويا ، ولاشك أن الموهبة الحقة تتجلى فى قدرة التعبير عن تفاصيل الشعور الذى يستعيده الشاعر بالذكرى والتأمل والتفكير ، وفى اختيار الصور الممثلة والمشبهة الجديدة المبتدعة ، التى يروض الشاعر فيها خياله على الابتداع والابتكار الذهنى الخصب ، وفى هجر الألفاظ المكرورة والأساليب المبتذلة والمعانى المألوفة والصور العادية ، مهما تطلب ذلك من جهد ورياضة إرادية وتنقيب فى أعماق النفس والفكر ، وفى اختيار موسيقى القصيدة الخاصة بها اختيارا فنيا دقيقا متصلا متجاوبا ، واختيار القافية المناسبة لموضوع القصيدة ولعواطف الشاعر وللبحر الذى ينظم عليه . . ومامن شك فى أن الشاعر إذا جعل شعوره يخوالجه عميقا ومخلصا ، جرت الألفاظ وتدفقت الأساليب من فمه من غير ماجهد أو إعياء .

وأفكار القصيدة لايشترط أن تكون فخمة جليلة ، أو ضخمة كبيرة ، فإن الشاعر ينظم شعره فى كل مايخطر على فكره . وأية تجربة شعورية يريد أن يتذكرها ، فى وسعه أن يستعيدها فى شعره ؛ وأن يستعيد أقوى ماتناولته مشاعره منها ،

واللحظات التى كان فيها أعمق مايكون شعورا بالحياة فى نفسه وفى العالم حوله . إن مادة الشعر فى متناول الشاعر ، فى عواطف الحب والحزن والتفاؤل والدهشة والحرمان والخيبة ، والعواطف هى الينابيع الصادقة للشعر ، وهى راسبة تحت غطاء حياتنا ، تنتظر أن نهيب بها لتطفو فوق سطح الحياة ، يقول وردزورث : « الشعر عاطفة تستعاد فى حال السكينة » .. إن الشاعر يشعر بلذة الحياة وجمالها وطرافتها أكثر من سواه ، وهو يتناولها ويفهمها من جوانبها الروحية التأملية المشرقة بإشعاعة الأمل والحب والخير والرحمة والسلام والتفاؤل ، وهو أكثر شعورا من غيره بلذة الاغراب عن النفس ، وعن مشاعرها المكبوتة ، وعواطفها المدفونة ، وقوة شعورها المتدفق ، وما فى طواياها من لوعة حزن قد يكون أعمق من أن تفيض لأجله الدموع ، ومن نشوة فرح قد يكون أعظم من أن تعبر عنه اللغة .

وعمل الشاعر فى أثره الفنى هو عمل المتصوف المتعبد ، وهو عمل الموسيقى أو المصور أو الممثل أو النحات أو المغنى حينما يعكفون على إبداع أروع آثارهم الفنية .

والشعر هو كما يعرفونه « حديث الذكريات » ، ومن ثم كان الشعر أقدر لغة على الأيماء والتأثير والسحر ، والشاعر إنما يعبر عن تجاربه الشعرية العميقة ، تعبيرا له أهميته وأثره وقيمته الأدبية ، ويكفى أنه يتمثل فى مخيلة القارىء صورا مفعمة بالحركة والنشاط ، وألوانا عدة من الوحى والالهام والرسالة ، وهذا الشعر يزيد جمالا وروعة حينما يكون لسانا مبينا عن النفس الانسانية ، معبرا عن حياة الناس وآمالهم وآلامهم وأحزانهم وأفراحهم فيهـــا تعبيراً صادقا واضحا قويا جميلا ..

وإذا كانت مقدرة الشاعر ذى التأمل والعاطفة على التعبير عما يجول بنفسه الدقيقة الاحساس تعبيرا جميلا مستلهما من الطبيعة والحياة ، إذا كان ذلك يسمى شعرا ، فإن ماركز فى النفس البشرية من فطرة النقد قد صاحب الشعر ولازمه طول الحيـاة ، ووجهه طوال العصور المختلفـة توجيها بعيـــد الأثر فى تاريخ الشعر .

وعمل الناقد يبدأ حينما يقف فى محراب النقد خاشعا متبتلا ، مصمما على أن يحكم بالعـــدل بين الشعراء مهما كانت آراء الناس . . والعصبيات المختلفة التى تحاول

السيطرة على النقد إن هى إلا جراثيم تفتك بهيكل الأدب والشعر فتكا ذريعا ، وضمير الناقد الذى يستبيح لصاحبه أن يمشى فى ركاب الأهواء هو أعظم جناية على الأدب والشعر من كل شىء .

والناقد يجب أن يبدأ نقده بفهم كل ما أحاط بالشعر فى العصر الذى نظم فيه الأثر الفنى المنقود ، ثم بدراسة صاحب هذا الأثر دراسة عميقة مستقصية ، ثم يدرس كل ما أحاط بهذا الأثر من ملابسات وأحوال سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية ونفسية وأدبية .. ومن ثم يكون قد قطع المرحلة الأولى فى عمله فى النقد ، وبدأ مرحلة جديدة أخرى .

يستعرض الناقد أمامه القصيدة : فيدرس مافيها من طبع أو صنعة ، ومن رقة أو جزالة ، ومن غموض أو وضوح ، ومن ابتكار أو تقليد ، ويدرس المذهب الفنى للشاعر الذى سار عليه فى نظم قصيدته ، ومنزلة قصيدته فى الفن الأدبى والتعبير الشعرى ، وخصائص القصيدة فى ألفاظها وجملها وأساليبها وأفكارها ومعانيها وأغراضها ومدى توفيق الشاعر فيها ، وآراء النقاد فى هذه القصيدة ، ويستعرض عناصر القصيدة عنصرا فعنصرا مع تفصيل الكلام عليه وتحليله ، ويوضح رأيه فى كل ماتحتوى عليه القصيدة من عيوب أو حسنات ، وفى مدى ظهور شخصية الشاعر فى أثره الشعرى ، وبعد ذلك يصدر حكمه الأخير .

ومن ثم نرى الأعباء الكبيرة التى يتحملها كل من الشاعر والناقد ، دون ماتردد أو خوف ، وكل من الشاعر والناقد يتعاون مع أخيه تعاونا تاما واضحا ، فالشاعر يحدث الأثر الأدبى ، والناقد ينقده ، ويوجه بنقده الشعراء إلى مذاهب الشعر ومناهج القريض ، فيفيد الشعراء من هذا التوجيه فائدة كبيرة لايمكن أن يقلل من خطرها إنسان .

ولهذا كانت للنقد آثاره البعيدة فى حياة الشعر على اختلاف العصور والأجيال والبيئات والشعوب .

إن حياة الشعر العربى المعاصر ان تستكمل قوتها وخصبها ونهضتها إلا بالناقد الحر النزيه الموجه ، فأين هو هذا الناقد الجرىء ؟...

كيف ننقد الشعر ؟

المناهج مختلفة فى النظر إلى الشعر ونقده ؛ فالقدامى يرجعون إلى عناصر الشعر الأولى حين يريدون نقد شاعر فيحكمون اللفظ والأسلوب والمعنى والوزن والقافية ؛ كما فعل قدامة وأبو هلال وابن رشيق وابن سنان ؛ ومن قبل هؤلاء ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة ، ثم تلاهم الآمدى وأبو الحسن الجرجانى ، الذين كانوا يرجعون فى نقد الشعر إلى الأسلوب والمعنى .. والقدامى من النقاد على أى حال لم يتجاوز نقدهم البيت والأبيات .

ويقول كاتب(١) : « لقد اعتاد جل نقاد العربية إذا أرادوا بحث أثر أدبى أن ينظروا إلى مافيه من الأفكار والأخيلة : أجديدة هى فيذكر صاحبها بالفضل أم سبقه بها غيره ؟ ... والحق أنهم مسرفون : وأن عليهم أن ينظروا إلى أسلوب الأداء نفسه أهو جديد أم مستعار ؟ » .. وليس ماذهب إليه هذا الكاتب صحيحا ، فكثير من نقاد العربية جعلوا مقياس نقدهم الآثار الفنية هو المعنى والأسلوب ، وكثير آخرون رجعوا إلى الأسلوب وحده فجعلوه الحكم فى الحكومة الأدبية دون ماسواه .

ولقد كان البلاغيون العرب يدورون فى نقدهم للشعر حول ألوان البلاغة من وصل وفصل وتقديم وتأخير وذكر وحذف وتشبيه واستعارة ومجاز وكناية وطباق ومقابلة وجناس وتورية إلى غير ذلك .. وكان شيخ النقاد والبلاغيين هو عبد القاهر الجرجانى الذى دل فى نقده على ذوقه الأدبى المرهف المهذب ..

ولعل الباقلانى هو أول ناقد فى اللغة العربية نقد قصيدة كاملة نقدا مفصلا ، بنقده لمعلقة امرىء القيس وشرحه لعيوب النظم فيها فى كتابه « إعجاز القرآن الكريم » ، وتلاه فى ذلك النهج ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » .

ويختلف عبد القاهر عن قدامة فى نقد الشعر فى أن الثانى يعتبر النقد الأدبى علما له أصوله وقواعده التى يسير عليها النقاد ، أما الأول فيرى النقد الأدبى فنا طليقا لا يخضع إلا لحكم الذوق الأدبى السليم والملكات الفنية الناضجة .

ولقد كان أرسطو أول ناقد نظر إلى النقد كعلم ، وسن نظرية للشعر جرى عليها

(١) هو الدكتور سيد نوفل من مقال له نشر فى مجلة الرسالة

فى نقده (١) ، فرأى أن الشعر ـ مثل سائر الفنون ـ تقليد أو محاكاة للطبيعة والإنسان ، ثم قسمه إلى أنواع ثلاثة : شعر غنائى ، وقصصى ، وتمثيلى ، ووضع لكل هذه حدودا ومكانا فى العمل الأدبى . وظلت نظريته سائدة ذائعة ، وتأثرها قدامة فيمن تأثر بها من النقاد .. أما عبد القاهر الجرجانى فقد سبق بمذهبه فى النقد مدرسة الرومانتيكيين فى فرنسا ، التى حاربت نظرة الكلاسيكيين الموروثة إلى النقد كعلم له أصوله ومناهجه وقواعده ، ورجعت إلى الشعور والعاطفة والنفس فى أحكام النقد ، وإلى هذا نادى سانت بيف فى قوله « ليس هناك قواعد تخلق الكاتب الكلاسيكى » ، وقوله : « النقد لا يمكن أن يصبح علما موضوعيا ، وسيبقى فنا دقيقا فى يد من يحاولون استخدامه » ، ويقول « جيل لمتر » : إننا نحكم بالجودة على ما نحب ، أى أننا نرى حسنا ما نحب » .. أما تين الناقد الفرنسى فكان يعتبر النقد الأدبى علما يسير على مناهج مدروسة .

وفى القرن العشرين قام جماعة من الأدباء فى مصر يدعون إلى مذاهب جديدة فى نقد الشعر والشعراء ، بعضها يرجع إلى مذاهب النقاد العرب القدامى ، وبعضها يرجع إلى مذاهب الغربيين فى نقد الشعر ، وحدد فريق منهم عناصر الشعر تحديدا متصلا : من العاطفة والخيال والفكرة والأسلوب ، ونقدوا الشعر على أساسها .. أما طه حسين فقد عرض فى صدر كتابه « الأدب الجاهلى » مقاييس تصلح أن تكون مقاييس للنقد الأدبى ، ومن بينها المقياس الأدبى والمقياس التاريخى والمقياس السياسى ، وهى مقاييس للنقاد الغربيين فى دراسة التاريخ الأدبى ، ولقد حكم مذهب ديكارت فى الشك فى أحكامه على الشعراء الجاهليين ، فنقد شعر العصر الجاهلى نقدا قائما على الشك فى كل شىء ، وقد بنى على هذا الشك نظريته فى انتحال الشعر الجاهلى .. ونقد العقاد ابن الرومى نقدا تأثر فيه بالتحليل النفسى والطريقة التاريخية ، ونقد رمزى مفتاح العقاد فى كتاب « رسائل النقد » نقدا تأثر فيه بالدراسات النفسية .

ويقسم بعض الأدباء المعاصرين مناهج النقد إلى ثلاثة : المنهج الفنى . والتاريخى ، والنفسى ، ويرى أنه من مجموعة هذه المناهج قد ينشأ لنا منهج أدبى كامل (٢) للنقد .

---

(١) راجع قواعد النقد الأدبى لآسل كرومبى فى تحليل نظرية أرسطو فى النقد

(٢) ١٢٣ النقد الأدبى لسيد قطب

ويشرح السحرتى فى كتابه (١) مذاهب النقد ، ويرجعها إلى المذهب الفنى ، والمذهب الواقعى ، والمذهب الفقهى .

والمذهب الفنى ينظر فيه إلى روح العمل الفنى ، وإلى صدقه وأصالته وأسلوبه ، دون اعتبار لموضوعه أو لقواعد اللغة ، فهو يلقى عنايته إلى تجربة القصيدة الشعرية وإلى الانفعال والخيال والمعانى والموسيقى والأسلوب والصياغة (٢) .. والمذهب الواقعى لا ينظر كما ينظر المذهب الفنى إلى التجربة الشعرية والصياغة والفكر والخيال والانفعال فقط ، وإنما يدخل فى اعتباره موضوع الأثر الفنى ، فإن اتصل بالحياة والمجتمع فهو جيد ، وإلا فهو فن ردىء (٢) .. أما المذهب الفقهى فهو ينظر فى الشعر إلى نحوه وصرفه وعروضه وبيانه وبديعه ، وفى بعض الأحيان إلى معانيه (٢) .

ويرى بعض الأدباء المعاصرين أن تسود النزعة العلمية فى النقد وأن يتصل النقد اتصالا قويا بالعلوم الجديدة ، من أمثال علم الجمال وعلم الاجتماع وعلم النفس ...

وهذه المذاهب المختلفة لها مظهرها فى نقد الشعر فى العصر الحديث فى مصر خاصة . وتظهر بصور مختلفة فى كتاب « الديوان » للعقاد والمازنى ، وكتاب « على السفود » للرافعى ، وكتاب « رسائل النقد » لرمزى مفتاح ، و « حافظ وشوقى » لطه حسين ، وسواها ؛ كما تظهر فيما كتبه الدكتور أحمد زكى أبو شادى عن النقد والشعر من دراسات خصبة ممتعة فى مقدمات دواوينه المختلفة ، وفى مجلته « أبوللو » .

ومن مظاهر النقد اختلاف أدبائنا فى شوقى وحافظ اختلافا كبيرا ؛ فالدكتور طه حسين يقول عنهما : إنهما لم يبلغا من التفوق ما كنت أحب لهما وأتمنى للشعر العربى الحديث ، ولكن لا ينبغى أن نلومهما فى ذلك فلم يكن هذان الشاعران إلا مرآتين صادقتين للعصر الذى عاشا فيه ، وقد أديا ما ألهمهما هذا العصر فأحسنا الأداء .. ويرى العقاد أن اسم الشاعر يشير إلى تعريفه ، فهو من يشعر ويشعر ، وقال عن حافظ : « يعجبنى منه ذاك الجلال ، وإن كنت أعتقد أن الجلال الظاهر لا يتطلب من شعرائه سموا فى المشاعر ، أو أفضلية لها على شعراء الجمال ؛ وكان يعيب

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ـ للسحرتى ص ٧-٢٣ طبعة ١٩٤٨

(٢) راجع الشعر المعاصر للسحرتى .

« رسميات » شوقى أو تقليدياته دائما ؛ وقال (١) إن الشعر يقاس بمقاييس ثلاثة : أولها أن الشعر قيمة إنسانية قبل أن يكون قيمة لفظية أو صناعية ؛ فيحتفظ الشعر بقيمته الكبرى إذا ترجم إلى جميع اللغات ، وثانيها أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه ، فالشاعر الذى لا يعبر عن نفسه صانع وليس ذاشخصية أدبية ، وثالثها أن القصيدة بنية حية وليست أجزاء متناثرة يجمعها الوزن والقافية ؛ وحكم هذه المقاييس فى نقد حافظ وشوقى ، فرأى أن حافظا أشعر ولكن شوقيا أقدر .

ومع ذلك كله فحركة النقد الأدبى لآثار الشعراء المعاصرين ضعيفة جدا ، وقد زادت ضعفا على ضعف منذ الحرب العالمية الثانية ، فلم يظهر شعراء موهوبون أو ناقد ممتاز يستطيع أن يوجه الشعر العربى وجهة عالية ، وبتأثير ضعف النقد لا يزال مذهبنا الأدبى فى نظم الشعر بعيدا عن مناهج النقد الحديثة حتى اليوم .

ولكن ناقدا جريئا هو مصطفى عبد اللطيف السحرتى ، وضع مقاييس دقيقة للنقد وطبقها تطبيقا جريئا على الشعر المعاصر فى كتابه « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » .. ومن هذه المقاييس : التجربة الشعرية ، والصياغة الشعرية ، والوحدة الشعرية ، والفكرة فى الشعر .

ومع ذلك كله فإنى أرى أن نجمع فى النقد للشعر بين تقدير فكرة الشاعر كيف أداها ؟ ومدى نصيبها من العمق والامتاع واللذة وصدق التعبير ، وبين حظ الشاعر من التجديد والتقليد والطبع والصنعة ، ومدى شخصيته فى الأثر الفنى الذى ينظمه ، ونصيب شعره من حيث قيم الفن الأدبى ، ومنزلة أثره الشعرى بين الآثار الفنية فى الشعر العربى .. مع دراسة الجو الأدبى للقصيدة ، ومدى تلاؤم موضوعها وخيالها ومعانيها مع روح الشاعر وجو قصيدته الفنى .

أى أن ننظر إلى الأثر الفنى فى جملته نظرة خاصة تعتمد على ذوق الناقد الحر الموجه وشعوره بخطر آرائه فى النقد والحكم الأدبى .

إن الناقد الحر يستطيع أن يخلق نهضة حقيقية للشعر المعاصر إذا أقام منهجه فى النقد على أصول التقدير الخالص للشعر ، ومهمة النقد فى توجيهه ويقظته وبعثه من الخمول الذى يعيش فيه اليوم .

---

(١) راجع مقالا له بعنوان « مقاييس وأصول فى النقد والشعر » — الرسالة العدد ٧١٩ — ١٤ إبريل ١٩٤٧

لقد هاجم أفلاطون الشعر والشعراء هجوما قويا حرا ، وهاجم فى جمهوريته هوميروس وهسيود وسواهما بعنف وحدة ، حتى قال عن الالياذة إنه يجب حظرها فى دولتنا سواء صيغت فى قالب الحقيقة أو المجـــاز لأن الطفل لا يميز بين الحقيقة والمجاز ، وقرر وجوب حذف بعض أبيات هوميروس التى تصف العالم الآخر ، لالأنه ينكر شاعريتها ، بل لأنه يخشى أن تؤثر فى الأمة فيخشى الناس الموت وينفرون من القتال ويصيرون جبناء ، كما قرر أنه لا يبيح الشعر التقليدى بأى حال من الأحوال ، وأن المقلد لا يعرف علما ، ولا يملك رأيا صحيحا .. وقد أثمر هذا النقد المر فى توجيه الشعر اليونانى القديم توجيها قويا مثمرا ، لأن قوة الناقد الأدبى يليها ظهور حركة أدبية ناهضة .

ولقد كان أرسطو فى نقده عالما وفيلسوفا دقيق الملاحظة للطبيعة والفن ، كما كان أول زعماء المدرسة الفكرية أو الاتباعية فى النقد . وكان يرى أن الشعر فرع من التقليد والمحاكاة للحياة والطبيعة . كما كان يرجع فى نقده إلى حكم الفكر لا العاطفة ، ومع ذلك فقد كان لآرائه فى نقد الشعر ضجة كبرى ظل أثرها واضحا قوى فى الشعر اليونانى القديم وفى الشعر العربى الحديث حتى اليوم .. ومذهبه فى النقد العلمى يخالف مذهب النقد عند مدرسة الشعوريين ، الذين يذهبون إلى أن النقد هو سجل الروح ، « فالناقد لا يرى فى العمل الفنى أكثر من وحى يوحى اليه بعمل جديد قد لا يكون بينه وبين العمل المنقود أى وجه من وجوه الشبه » كما يقول أوسكار وايلد ، ولقد كان تين الناقد الفرنسى يرى أن شاعرية شكسبير إنما أتت من أنه أبعد الناس عن المنطق العادى وتفكير القدماء المتزن ، فى حين كان كارليل يرى أن ميزة الشاعر الأولى فى أن عقليته خصبة ناضجة وعميقة ، وهذان الناقدان يحكمان حكما قديما متباينا لأنهما يؤمنان بأن النقد إنما هو سجل روح الناقد ونفسه ومشاعره فحسب ، بعكس « رولى » الذى نقد شكسبير نقدا علميا بعيدا عن آراء مدرسة الشعوريين فى نقده . . وبين عبد القاهر الجرجانى صاحب « أسرار البـــلاغة » و « دلائل الاعجاز » ومدرسة الشعوريين فى النقد والحكم على الشعر والشعراء شبه واضح ظاهر .. ومع ذلك كله فهؤلاء النقاد ذوو أثر بعيد فى الشعر الغربى ، وتطوره ، وتأثيرهم فيه أحدث أجل النتائج فى تاريخ الشعر والأدب .

مذاهب النقـــد

— ١ —

مذهب النقد السائد فى الآداب العربية القديمة هو المذهب الفقهى الذى يعتمد على تحليل النص ودراسته من حيث البلاغة وقواعد العربية ـ النحو والصرف ـ واللغة والعروض ، وبيان مابين معناه ومعانى السابقين والمعاصرين من تشابه أو احتذاء .. وتقسيم النص إلى جمل أو أبيات والتحدث عن كل جملة أو بيت على أنه وحدة فنية مستقلة بذاتها ، وقد سار على ذلك ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المعتز والآمدى والجرجانى .. ولكن قدامة بن جعفر يسير فى تحديد النقد على التحـــدث عن عناصر الأدب عنصرا عنصرا ، من معنى ولفظ وسواهما ويشرح أسباب الجودة أو القبح فى كل مع القرب من المذهب الفقهى فى النقد ، ويحتذيه فى ذلك أبو هلال وابن سنان وابن رشيق .. أما عبد القاهر الجرجانى فقد نحا فى النقد منحى التحليل الأدبى القريب من المنهج الفقهى ، وتحدث عن صلة البلاغة بالنفس والعاطفة والخيال حديثا قويا مستفيضا .

ولا تزال هذه المناهج القديمة هى أظهر مايغلب على أدبائنا اليوم ، ويتسم أغلب النقد المعاصر بسماتها .. وهذه المناهج تغفل التجربة الشعرية والصياغة الفنية والقيم الشعورية والأثر الأدبى جملة وصلته بصاحبه ومدى توفيقه فى أداء المشاعر الخفية والعواطف الدقيقة .. ولا تزال آراء نقادنا القدامى المعاصرين غامضة مجملة قليلة الأهمية فى فهم الأدب ، ولا يزال الاختلاف بينها كثيرا والحكم الأدبى متفاوتا ، لأنها آراء لا تقوم على الدراسة الأدبية الصحيحة ، وإنما تقوم على الحب والبغض الذاتى المحدود .. ومن ثم فإن هذا المنهج الفقهى الواضح فى النقد العربى عجز ولا يزال عاجزا عن الوفاء بحق الثقافة الأدبية العالية وإنارة السبيل أمام دارسى الأدب ونقاده .

— ٢ —

وقد ساد فى أوربا مذهب جديد فى النقد سماه أنصاره المذهب الفنى ، وعماده الحكم على النص الأدبى من حيث روحه (١) وموسيقاه وأصـــالته وعناصره وصدقه وتجربته الشعرية .

---

(١) راجع ص ٧ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتى

وقد دعا إلى هذا المذهب الفنى فى النقد واحتذاه جماعة من المجددين فى أدبنا المعاصر ، ومن أوائلهم : شكرى ومطران وأبو شادى ، وقد حكم العقاد والمازنى على شعر شوقى وحافظ متأثرين به ، كما حكم العقاد على ابن الرومى على ضوئه .

وهو مذهب أصيل لانجد له أثراً فى نقدنا العربى القديم إلا فى ومضات قليلة ، نلمسها عند القاضى الجرجانى وعبد القاهر .

وقد رأى سيد قطب فى كتابه « النقد الأدبى » أن هذا المنهج الفنى هو الذى ساد الآداب العربية القديمة (١) ، وهو رأى لايعتمد على فهم صحيح لروح النقد الأدبى فى لغتنا العربية ، كما رأى أن مذاهب النقد ثلاثة : المنهج الفنى والمنهج التاريخى والمنهج النفسى ، وهذا خلاف تقسيمنا الذى نسير عليه والذى فصل الكلام فيه السحرتى الناقد المشهور فى كتابه « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » .. ويرى سيد قطب أن المنهج الكامل فى النقد هو اجتماع هذه المناهج الثلاثة التى عدها فى منهج واحد سماه « المنهج التكاملى (٢) » .

— ٣ —

وقد سادت نزعة جديدة فى النقد سميت النزعة الواقعية ، أو المنهج الواقعى ، وأساس هذه النزعة هو النظر إلى موضوع الأثر الأدبى ، فإن كان بينه وبين الحياة والمجتمع صلة فهو أثر أدبى قيم تجب العناية به والاشادة بمنزلته ، وإن كان لايعالج شأنا من شئون الحياة والمجتمع والناس فهو أثر أدبى يجب أن يموت وأن يختفى .. فإذا عالج الأدب الموضوعات الانسانية العالية الخالدة كان أقرب إلى الخلود الأدبى .

إن المذهب الواقعى الاجتماعى فى النقد يحارب نظرية الفن للفن التى أشاعت مذهب النقد الفردى فى الأدب الأوربى ، وهو « الذى يبحث عن الشاعر فى الشاعر نفسه ولا يرتضى أن يبذل جهدا كبيرا فى وصف بيئته ، والألمام بأحوال عصره ، وإنما يكتفى بأن يمر بها لماما وأن يعرضها عرضا سريعا (٣) » .

يرى توفيق الحكيم أن الفن ليس من الضرورى أن يكون له غاية اجتماعية

---

(١) ص ١٢٥ المرجع (٢) ص ٢٤٧ المرجع

(٣) ٣٦ على هامش الأدب والنقد لعلى أدهم

أو سياسية أو دينية أو غير ذلك ، وإنما هدفه الأول أن يكون فنا جميلا فحسب .. فليس على الأديب أن يكرس حياته وفنه لخدمة الحياة والناس ، وللتوجيه الوطنى أو القومى أو الانسانى ، وإنما عليه أن ينشىء فى الفن ، مجردا عن كل غاية ... ويذهب أحمد أمين إلى نظرية « الفن للحياة » فيرى أن العمل الفنى لاقيمة له إذا لم يكن مستمدا من الحياة ، ولم تكن غايته خدمتها .

فالمذهب الواقعى أوالاجتماعى يرى (١) أن الأدب والفن ليس مما تجود به قرائح الأفراد ، وإنما مصدره الجماعة وروح الشعب فهو ثمرة إحساسها ونتيجة تفكيرها .

وكان اليونانيون القدماء يرون أن للشعر وظيفة ، وكانت تلك الوظيفة هى التعليم (٢) ، ويقول هوراس : « غاية الشعراء إما الافادة أو الامتاع ، أو إثارة اللذة وشرح عبر الحياة فى آن واحد (٣) » .. ولقد هاجم أفلاطون الشعراء فى عصره ، وكان هذا الهجوم خروجا على النظرة اليونانية القديمة التى كانت ترى فى الشعر منبعا للتعليم(٤) ، ورأى أنه يجب أن يكون الصدق لا اللذة رائدا للشعر والمحكى يجب أن يكون جميلا وإن شئت فقل خيرا (٥) .

إن الصراع بين المذهب الفردى والواقعى الاجتماعى فى النقد قديم ، ومن أنصار المذهب الواقعى جماعة من رواد أدبنا الحديث ، وقد دعا بعضهم إلى الانسانية والعالمية فى الأدب ، ومن أوائلهم الدكتور أحمد زكى أبو شادى الذى يقول فى اللاجئين العرب :

خرس فمن عن ويلهم يتكلم ... ومعذبون لهم ثقام جهنم
جنت السياسة مثلما جنت الوغى ... والظالمون الغاشمون عليهم
وتشردوا لايملكون وجودهم ... لو كان يمتلك الوجود لهم
ضاعت معاقلهم ، وضاعت قبلها ... أمم ، وهان معزز ومنعم
ليس المقام مقام لوم شامل ... ولعل أول من يلام اللوّم
والناس .. ماللناس لم يتأثروا ؟ ... والأهل .. ماللأهل لم يتندموا

---

(١) ٣٧ المرجع (٢) ٢٥ فن الشعر لهوراس — ترجمة لويس عوض
(٣) ٣٥ المرجع (٤) ٧ كتاب الشعر لأرسطاليس — إحسان عباس
(٥) ٨ المرجع

هـذا أوان التضحيات فما لهم
ضنوا بأرهى الواجبات وأحجموا(١)

وننتقل من المذهب الواقعى إلى المذهب الفقهى القديم لننقد كلة « تشردوا » ، ونرى أن الأولى بمكانها « قد شردوا » .

وبعد فهذا حديث موجز عن مذاهب النقد وحركاته فى آدابنا المعاصرة .

وأرى أن الجمع بين المذاهب الثلاثة ـ الفقهى والفنى والواقعى ـ فى النقد يؤدى بنا الى أحكام أصدق وآراء أشمل فى الحكم على الأدب والشعر والآثار والنصوص المختلفة وفهم الخصائص والمميزات والسمات لكل أديب وشاعر والعوامل المؤثرة فى الأدب وصلة القديم بالحديث والحديث بالقديم .. وبذلك نتنقل إلى مرحلة جديدة فى النقد قد تصل بنا فيما بعد الى النضج الفنى الكامل وإلى نهضة أدبية شاملة ، وإلى الذوق العالى الرفيع

وإذا قرأنا رأى نيتشه الفيلسوف الألمانى : « رسالة الكاتب هى الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذى يبعث فيه » لم يفتنا أن نفهم أن الحقيقة التى يريدها نيتشه هى الحقيقة التى تملأ الحياة قوة ووجودا وشعورا بالسيادة ، فهى حقيقة الوجود الكامل ، وبذلك يتسنى لنا أن نرد رأى نيتشه إلى تأييد غالب للرأى الواقعى فى الأدب والنقد . . وحول المذهب الواقعى يدور هيكل فى تعريفه الأدب بأنه « فن جميل غايته تبليغ الناس رسالة ما فى الحياة والوجود من حق وجمال ، بواسطة الكلام ، والأديب هو الذى يؤدى هذه الرسالة (٢)

الأسلوب وخصائصه

الأسلوب هو نهج الكاتب والأديب فى صياغة أفكاره ، وتصوير عواطفه والتعبير عن مشاعره ، والاعراب عما يدور بخلده ، فهو الألفاظ المؤلفة على نسق يؤدى المعانى التى يجيش بها عقل الأديب ، ويكون أقرب لنيل المقصود من الكلام ، وبلوغ الهدف من الاصابة والايضاح

وهو إما أسلوب علمى أو خطابى أو أدبى ، وهدف الأسلوب بلوغ الغاية فى البيان عن طريق اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر فى النفس ، وتشيع المتعة فى القلب ، وغاية

(١) ديوان من السماء ـ أحمد زكى أبو شادى (٢) ٢٦ ثورة الأدب لهيكل

البلاغة أن توضح لنا الى أى مدى يمكن التأثير فى القلوب بوساطة الاسلوب ، الذى ينقل أفكار الاديب الى قارئيه ، ويصور دقيق مشاعره ووجداناته ، ويمثل شخصيته فى إبانة ووضوح ؛ والأساليب تتفاوت بتفاوت البيئة ، واختلاف الأجيال ؛ وتعدد الموضوعات التى تتطلب الرقة حينا أو الجزالة حينا آخر . . . وبلاغة الكلام فى مطابقة الاسلوب لمقتضى الحال ، بأن يوائم الموضوع الذى يتحدث فيه الاديب ؛ ويلائم ثقافات القراء وعقلياتهم ، ويوافق ذوق الكاتب نفسه ويمثل شخصيته الادبية تمام التمثيل . والحكم فى جودة الاساليب أو رداءتها هو الذوق المرهف الحساس بمعانى الجمال والقبح واسباب الحسن والدمامة ، والأسلوب البليغ أوصاف ثلاثة :

أولها الوضوح فى نقل المعانى إلى ذهن القارىء : بسعة الثقافة اللغوية والعربية وبترك التعقيد اللفظى والأغراب والحوشية ، وبكثرة المران على الكتابة وتعودها وتسلسل الجمل ودقتها فى التعبير .

وثانيها القوة وشدة التأثير على النفوس والبلوغ إلى دقيق العواطف والوصول إلى خفى المواهب والمشاعر ، بأن يكون فى الأسلوب حياة تجعله أشبه بالحى منه بالميت وذلك بإيثار الأسلوب الذى يوقظ غافى الذكريات وينبه ساكن الأحلام والخيالات وبترك السوقية والعامية والابتذال ، واستعمال الجمل والألفاظ القوية لأداء المعانى القوية ، والمقدرة على صياغة الأسلوب ونظمه ، والتوفيق فى استعمال الطباق والمقابلة وقصر الجمل مع حسن الرصف فى أحيان كثيرة ، وقوة عاطفة الأديب وعقيدته أحيانا أخرى .

وثالثها الحرص على جمال الأسلوب حتى يبعث البهجة واللذة والاطمئنان والسعادة النفسية فى نفس القارىء ، ويشيع الفرح النفسى العميق ، وذلك بترك التكرار الثقيل ، والإطالة المملة فى صوغ الجملة ، وتجنب الألفاظ الثقيلة على السمع ، وبإيثار أن يطابق الاسلوب المعنى ، وأن يكون مختارا مهذبا عاليا ، وبإدخال بعض ألوان التحسين اللفظى فى الأسلوب دون تكلف أو استكراه .

إن الأسلوب هو الكاتب ، فليكن صورة واضحة لأدق مشاعره ، وأخفى عواطفه وغامض آماله وأحلامه وآلامه ؛ وليحرص الأديب على إيثار الطبع وتنزيل الكلام منازله ، وأن يكون اللفظ سمحا كريما ، عليه رونق البلاغة وسمة الفصاحة ، وجمال الوضوح والبيان . مع الطبع والذوق المتمكن ، وبلوغ الغاية فى التعبير والتصوير والتأثير

أهم المؤثرات فى الأدب [1]

هناك عوامل عدة تؤثر فى الأدب رقيا وضعفا ، وتعمل عملهـــا الدائم فى الأدب ، الذى هو لون من ألوان الفنون ، يتأثر كما تتأثر هى بألوان الطبيعة ، وحال الاجتماع ، ونظام السياسة ، وأنواع العقائد ، وغير ذلك من العوامل والمؤثرات . التى يخضع لها الأدب ، وصناعة البيان .

وأول هـذه العوامل والمؤثرات الحياة السياسية ، فقد تقوى الأمم فتشجع الآداب والفنون لتنهض بأعباء السياسة وتبعات الملك والسلطان ، وتعمل على ترجمة الآثار الأدبية الأجنبية ، فيقوى الأدب . وقد تضعف الأمة فتضعف آدابها ، وتموت روح الفن والمواهب فيها ، والحرية السياسية تستلزم رقى الخطابة ونشوء الشعر السياسى كما حدث فى عهد بنى أمية . . وفى الأدب العربى ظاهرة غريبة ، هى أنه فى عصر الضعف السياسى فى العصر العباسى الثانى نهضت العلوم وازدهرت الآداب ، لظهور آثار حركة الترجمة العقلية ، وظهور أثر تشجيع الخلفاء للشعر والأدب والعلوم

ولقد ظهرت الخطابة السياسية فى عصور الحرية ، ظهرت فى الأغريق القدماء فى خطب ديمستين ، وظهرت فى الرومان فى خطب شيشرون وغيره ، وظهرت فى مصر فى أوائل القرن العشرين على يد مصطفى كامل وسعد زغلول .

ونشأ الشعر السياسى فى عهد بنى أمية ، ونشأ فى مصر فى العهد الحـديث وفى تركيا اثر اعلان الدستور العثمانى عقب حركة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ ، ولا ينهض الشعر الحماسى والوطنى إلا حين تشتد العصبيات ، وتكثر الخصومات ويتجادل الناس ، وتتنوع فيهم الأحزاب .

وثانيها الدين نفسه وما يتصل به من عقائد وعادات وتقاليد وأخلاق وآداب ، والدين ذو أثر كبير فى حياة الناس والجماعات والأمم وفى أخلاقهم وفى الأدب نفسه شعرا ونثرا ؛ وهو الذى خلق الشعر الدينى فى الأمم القديمة ، كمصر والأغريق والعبرانيين والفنيقيين والهنود والايرانيين ، والشعر الدينى هو أول خطوة فى

---

(١) أصول النقد الأدبى للشايب ، مقالة الدكتور أحمد ضيف فى مجلة دار العلوم ، أصول الأدب للزيات ص ١٥-٢٧ طبعة ١٩٤٦ ، التوجيه الأدبى ص ١٣-١٩ طبعة ١٩٤٠ ، ٢٩ - ٣٦ الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام للمؤلف والأستاذين حسن جاد وعبد الحميد المسلوت الطبعة الأولى .

تاريخ الشعر عند الامم على مايرى بعض النقاد . . وبتأثير الدين نشأ فن التمثيل الذى كان يتصل أولا بالعقيدة اتصالا وثيقا فظهر التمثيل فى كنائس أوربا لتمثيل القصص الدينية . . وأدب الزهد والحكمة والموعظة والتصوف والنسك مدين فى نشأته للدين نفسه ، وسجع الكهان هو على ما أرى أول أثر فى الادب الجاهلى للدين نفسه .

وثالث العوامل المؤثرة فى الادب الإقليم والمناخ ، فأدب البادية غير آداب الامم المتحضرة ، والادب فى الاندلس غيره فى الشام ، وهو فى مصر سواه فى ممالك أوربا أو السودان مثلا . . وما الخشونة والغرابة والوحشية فى الشعر الجاهلى القديم إلا أثر الصحراء الجافة القاسية وحياتها ؟ بل إن الادب اليوم فى مصر غيره فى الشام والعراق مثلا .

ورابع هذه المؤثرات استعداد الامة الفطرى ؛ ومن ثم غلب على العرب الخيال والشعر ، فلما أتاح لهم الإسلام الرقى والنهوض ظهر فيهم النثر الفنى ؛ كما اشتهرت أمة اليونان بفطرتها على البلاغة وصناعة النقد ، والرومان لم ينبغوا فى الادب إلا بعد أن قلدوا آداب الاغريق ، بل إن الادب العربى يختلف عن الآداب الاوربية القديمة والحديثة على السواء ، لخصائص العرب العقلية التى تميزهم عن الامم الآرية ، والجنس الآرى يميل إلى الاستنباط والابتكار والتجديد والتحليل والتعمق ، أما الجنس العربى فيميل إلى الخمول والكسل العقلى وإلى التعميم والبساطة والاجمال ، ولخصائص الاجناس واستعداد الامة الفطرى أثر خطير على الادب وفنونه . . والاتصال بين الشعوب المختلفة واختلاط الاجناس المتعددة عن طريق الجوار والمصاهرة والحرب والتجارة ، لذلك كله أثر كبير فى تطور الادب ، فالرومانيون تأثروا بآداب الاغريق بعد اتصال الشعبين ، والعرب أفادوا من اليونان والرومان والفرس وسواهم بعد اختلاطهم بهم بالفتح والتجاور واشتباك المصالح ، وظهر أثر ذلك واضحا فى الثقافات والآداب ، وفى عصر النهضة الحديثة اشتد اتصال المصريين بأوربا وذاعت الآداب الأوربية بيننا ، فبدأ الأدب المصرى يتحرر من أغلاله ، ويسير منطلقا من قيوده ، وينهض بعد كبوته الطويلة .

وقد تتصل الأمم بعضها ببعض عن طريق الحروب ، التى تخلق الأبطال ، وتشيع روح البطولة والفتوة ، وتكثر فيها وبعدها الأساطير والملاحم الأدبية الطويلة ، مثل مهابهاراته الهندية التى تصور الحروب بين الشعوب الهندية ، والشاهنامة

الفارسية التى تصف الحروب الطويلة بين أهل إيران وطوران وتتحدث عن تاريخ الأكاسرة وحروبهم التى كانت فخرا للفرس الأوائل ورمزا للخصومة الدائمة بين إلـهى الخير والشر ، وكذلك الالياذة اليونانية التى تدور حول حروب الاغريق مع أهل طروادة .. وفى الحروب المستمرة بين العرب والافرنج فى الأندلس نظمت أغانى رولان الفرنسية .. ومن ثم فالحرب هى التى خلقت الشعر القصصى أو شعر الملاحم الطويلة الذى هو ميزة الآداب الآرية ، والذى خلا منه أدبنا العربى .. وبسبب الحروب الصليبية دونت قصص عنترة وسيرة بنى هلال والأميرة ذات الهمة ، إثارة للهمم والبطولة والفتوة والنجدة .

وبتأثير اتصال الأمم بعضها ببعض يشيع التقليد والاحتذاء فى الاداب ، فلقد اغترف الشعر اللاتينى فى عصر اوغسطس من شعر الاغريق وقلده فى الأنواع والمعانى والخيال والأوزان ، وكان الأدب الفرنسى قبل رنسار وماليرب متردداً بين تقليد اللاتينية والاغريقية .. وكان التمثيل فى أوربا فى العصور الوسطى قاصرا على تمثيل القصص الدينية ، فلما بعثت الآداب القديمة من لاتينية ويونانية وأقبل عليها الأدباء ، واطلعوا على الأدب التمثيلى وآثاره القديمة أخذوا يحاكونه ويتهافتون على تقليده فكان ذلك سببا فى دخول فن التمثيل فى طور جديد . ولقد أفاد الأدب العربى من آداب الفرس مما يظهر واضحا فى كتاب كليلة ودمنة وسواه من الآثار الأدبيـــة المترجمة .. ولما بسط الإسلام نفوذه على بلاد الفرس أخذ الأدب الفارسى يقلد الآداب العربية ويحتذيها فى الأوزان والمعانى والخيالات مما يتضح فى الشعر الفارسى منذ القرن الثالث الهجرى كما فى شعر الدقيقى والفارسى وسواهما ، ومما يظهر فى النثر الفارسى منذ القرن الخامس .. والأدب التركى أيضا ماهو إلا تقليد الآداب الفارسية منذ القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، إلى أن قام بعض المجددين يدعون إلى التجديد وترك التقليد ، ومن هؤلاء الوزير ضيا المتوفى عام ١٢٩٥ هـ ، وكمال بكن ، وأكرم بك وناجى ، وسواهم .. بل إن ظهور الأدب القصصى والتمثيلى فى آداب لغتنا إنما هو أثر لتقليدنا الآداب الغربية .

وخامس هذه المؤثرات هو رقى الحضارة وتقدم المدنية التى تساعد على نماء الخيال ورقة الصور وعذوبة الأساليب وسعة الثقافة وتنوع معانى الشعر وأساليب الخطابة .. ولذلك نجد الفرق واضحا بين الأدب الجاهلى والأدب العباسى ، ونجد الشعر الغنائى وشعر الغزل العذرى ينشآن فى الحجاز فى عصر بنى أمية تبعا

للترف الذى عاش فيه الحجازيون ، كما نجد الموشحات تظهر فى الأندلس وكذلك الشعر العامى فى بغداد والأندلس .. ولاغرو فى كل ذلك فإن طبيعة العمران وما ينشأ عنه من توزيع الثروة ونشوء أحوال للاجتماع . كل ذلك من شأنه أن يحدث تطورا فى الأدب ورقيا فى الخيال وتعددا فى الصور والأساليب وأنواع الأدب .

وسادس هذه المؤثرات هى حظ الأمة من الثقافة والعلوم ، فإن انتشار العلم يرقى العقل ويغذى الخيال ويرقق الشعور ويؤجج العواطف ، ويخلق ألوانا من الآداب : كالشعر التعليمى ، وكالمحاورات الفلسفية التى من بينها محاورات أفلاطون ، ومحاورات شيشرون فى البلاغة والفلسفة والأخلاق :. ومن هذه الالوان الجديدة التى تنشأ برقى الثقافة القصص الخيالية كرسالة الغفران ، وحى بن يقظان لابن طفيل ، والتوابع والزوابع لابن شهيد ، والكوميديا الالهية لدانتى ... ومن الألوان الجديدة أيضا القصص التاريخية التى ظهرت فى انجلترا فى القرن التاسع عشر ، وشاعت فى فرنسا والمانيا ، واحتذاها جورجى زيدان فى قصصه الإسلامية وأحمد شوقى فى رواياته الشعرية التمثيلية . . ولانتشار العلم أثره الواضح فى زيادة مادة اللغة واتساع أساليبها ونمو صورها ، وفى رقى النثر خاصة ، فالنثر اليونانى لم ينهض إلا بعد هوميروس ـ الذى ظهر فى القرن التاسع قبل الميلاد ـ بأربعة قرون ، أى فى القرن الخامس قبل الميلاد ، حين دون تاريخ توسيديد ومحاورات أفلاطون وخطب ديمستين ؛ وكذلك النثر العربى لم يأخذ حظه من النضوج والقوة إلا على يد ابن المقفع المتوفى عام ١٤٣ هـ بعد أن ذاعت الثقافات الأصيلة والمترجمة ، وكذلك النثر فى فرنسا لم يرتق إلا بتأثير الفلاسفة والعلماء فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كبسكال وباكون وديكارت وسواهم .

ومن العوامل المؤثرة فى الأدب التنافس الأدبى وظهور النقد ، والأسواق والاجتماعات الأدبية العامة ، وسوى ذلك مما ينهض بالأدب ويؤثر فيه .

عناصر الأثر الأدبى

— ١ —

والأثر الأدبى : الذى نقرؤه فنرضى أحيانا ، ونسخط عليه أحيانا أخرى ، والذى يؤثر فينا تأثيرا قويا ، فيؤجج مشاعرنا ، ويثير يقظتنا الفكرية والروحية

والأدبية ، ويبعث فينا الحماسة والشجاعة وحب الجمال وتذوقه وتعشق المثل الأعلى والسعي اليه .. لهـــذا الأثر الأدبي ، أو بعبارة أخرى لكل أثر أدبي عناصر ومقومات ، يتألف منها ، ويستمد روحه من كيانها ، ويعمل عمله فى النفوس والألباب عن طريقها .

ولقد كان الأدباء يرجعون هذه العناصر إلى المعنى حينا ، وإلى اللفظ حينا آخر ، وإليهما معا فى أحيان كثيرة . وكان الجاحظ يرى العنصر الفعال فى البلاغة الأدبية هو النظم والأسلوب ، وعلى نهجه سار عبد القاهر الجرجانى ، أما ابن قتيبة فجعل الجمال الأدبي راجعا إما إلى اللفظ أو المعنى أو اليهما جميعا ، فإن خلا النص الأدبي من جمال اللفظ أو المعنى أو منهما معا كان أثراً ميتا لا أهمية له ، وأما قدامة فقد درس الشعر وجعل عناصره اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، وعلى نهجه سار العسكرى وابن رشيق وابن سنان ، ويتلاقى معه فى أمور كثيرة ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » .

أما النقاد المحدثون فيجعلون أصول الأثر الأدبي وعناصره فى : الأسلوب والمعنى والعاطفة والخيال ، وسنتحدث عنها واحدة واحدة .

— ٢ —

أما الخيال فهو من أهم عناصر الأثر الأدبي ، ونحن نعلم أن معلوماتنا عن الكون والحياة وأنفسنا تصلنا عن طريق الحواس المختلفة ، وأن شعور المرء بأشياء حاضرة فعلا ، تؤثر فى حواسه ، هو ما نسميه « الادراك الحسى » .. أما شعور الإنسان بأشياء غير حاضرة ، واستعادة المرء فى ذهنه الصور التى أدركها من قبل بالحس ، فهو ما نسميه الخيال أو التخيل ، فأنت حين تجلس فى حجرة مكتبك وترى مافيها وتتعمق فى رؤية جميع ماتحتوى عليه ، يكون إدراكك لها حينئذ إدراكا حسيا ، أما إذا حاولت وأنت خارج منزلك أن تستحضر صورتها فى ذهنك ، فيكون ذلك تصورا وتخيلا ، وتكون الصورة القائمة فى ذهنك حينئذ صورة عقلية أو ما نطلق عليه اسم « الخيال » .

وتمتاز الصورة العقلية أو ما نسميه خيالا بعدة خصائص منها :

١ — أن الصور العقلية تكون أقل وضوحا من الصور الحسية .

٢ — وأنها لا تقيدها قيود المكان والزمان ، فإن العقل يضعها فى أى زمن وأى مكان كان .

٣ — وأنها قابلة للتصوير حسبما يراه الأديب

والصور التى نتصورها بملكاتنا قد تكون صورا لأمور مدركة بالبصر أو بالسمع أو باللمس أو بالذوق أو بالشم أو بالحركة مثلا .. وقد تكون هذه الصور مطابقة للادراك الحسى تمام المطابقة ، وقد تكون من باب التخيل الابتداعى أو بمعنى آخر الابتكارى كأن تتصور جبلا من زئبق أو إنسانا فى صورة أبى الهول مثلا ؛ فيجمع عقلك حينئذ أجزاء الصورة المتخيلة من صور مختلفة متعددة معهودة لديك من قبل ، وترتبها ترتيبا جديدا ، حتى تزيد أو تنقص وتكبر أو تصغر ، وتضيف إليها أجزاء جديدة أو تعيد ترتيب أجزائها على طراز جديد .

ولكن علماء البيان يقسمون الصور المستحضرة فى ذهنك إلى قسمين :

١ — صور ترتسم فى الخيال بعد إدراكها بالحس المشترك ؛ حيث تتأدى اليه من طريق الحواس الظاهرة .. وهذه الصور عندهم داخلة فى الحسيات .

٢ — صور ترتسم فى خيالك ، وهى معدومة فرض اجتماعها من أمور كل واحد منها مما يدرك بالحس ، كقول الصنوبرى :

وكان عمر الشقيق إذا تصـــوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

فانه قد تخيل أعلاما من ياقوت منشورة على رماح زبرجد ، وهذه الصورة مما لا يدرك الحس لأن الحس إنما يدرك ما هو موجود فى المادة حاضر عند المدرك على هيئات محسوسة مخصوصة به ، لكن المواد التى تركبت منها الصورة ، من الأعلام والياقوت والرماح والزبرجد كل منها محسوس بالبصر ... فذلك وما أشبهه من هذا النوع هو وحده ما يسمى عند علماء البيان « الخيال » ، أما النوع الأول فليس منه عندهم ؛ فالخيال عندهم هو القوة التى من شأنها تركيب الصور والمعانى وتفصيلها والتصرف فيها واختراع أشياء لا حقيقة لها كانسان له جناحان مثلا ، وهـــذه القوة لا تسكن ولا تنام أبدا والنفس هى التى تستخدمها كما تريد .. ومثل ذلك أيضا قول ابن المعتز فى الهلال: وانظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

أما علماء النفس فيعدون من الخيال أيضا استحضار الصور المدركة بالحواس كما هى عليه من غير زيادة ولا نقص وإن كانوا يعدون هذا خيالا ضعيفا ، كما يجعلون من باب الخيال ابتداع الصور المركبة من حسيات وابتكارها على نمط يخالف نمط الحس المشاهد الملموس .

ومهما يكن فإن لعنصر الخيال شأنا كبيرا فى الأعمال العقلية وفى الحياة العملية نفسها ، فهو خطوة أرقى من الادراك الحسى ومن مجرد التذكر نفسه ، فالتخيل يعين الانسان على استغلال الماضى للمستقبل ، ولولا التخيل لأصبحت حيـــاة الانسان فقيرة كل الفقر ، ولكانت حياته النفسية ضئيلة محدودة ، فهو الأصل فى تكوين المثل العليا ، وفى اختيار الطرق التى قد تؤدى إلى بلوغها ، وهو الذى يعيننا على فهم الحقائق والفنون ، وله أثر كبير فى دائرة العلم ومخترعات الحضارة الحديثة .

ولهذا العنصر أيضاً أثره فى النص الأدبى ، فالشاعر يلتقط كل مارأى وماسمع طول حياته ، ولايفوته منظر حتى ولوكان من أدق المشاهد وأخفاها أو حفيف أوراق الشجر ، ثم يخزنه ثم يهيم الخيال ، فيستخرج منه صورا وآراء متناسبة متسقة فى الأوقات الملائمة ، كما يرى رسكن .

وتبدو صور الخيال فى النص الأدبى فى التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وحسن التعليل والمبالغة وماشابه ذلك . والخيال يغلب على الشعر أكثر من غلبته على النثر ، والأديب يستطيع بخياله أن يبعث فى النص الأدبى قوة وروحا وحياة ، وكلما تعمق الأديب فى الأدب وتذوقه كانت حاجته إلى الخيال أكثر ..

والخيال هو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة وإشعالها ، وهو الذى يملك به الشاعر والأديب نفس القارىء والسامع ، ويجعلها تتعجب وتطرب من مشاهد الصور فى القصيدة .

ويجب فى الخيال أن يكون متآلفا متسقا لاعيب فيه ولا شىء يشوب اتفاقه واتساقه ، فقول شوقى :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى تمسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بعضا سابحات به وأبدين بعضا

تجد فيه اضطرابا فى الخيال وتناقضا بين البيتين ، فقد جعل فى البيت الأول القصور غارقة فى الماء مذعورة يمسك بعضها بعضا ، ثم صور ذلك فى البيت الثانى بصورة العذارى السابحات فى الماء يخفين فيه بعض أجسامهن ويبدين بعضا ، ففاته الاتساق فى مشاهد الخيال ومرائيه .

وتقرأ قول أبى شادى فى رثاء مغنية :

أيندثر الفن باللقـــدر ويحنى على الحسن حتى النظر ؟

ويغرق فى اليم هذا الضياء وكم طاف بالكون حتى عثر ؟
وكنا نخاف حنين القلوب اليه ونخشى وثوب النظر

فتجد خيالا موحدا متئدا متآلف الصور والاشكال .. وكذلك تقرأ قول الشابى :

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الوليد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليد

فتجد وتيرة واحدة من الصور والخيال والانغام العذبة الجميلة .

— ٣ —

وأما العاطفة ، أو الانفعال أو التجربة الشعرية فى فن الشعر ، فنعنى بها الحالة التى تتشبع فيها نفس الأديب والشاعر بموضوع أو فكرة أو مشاهدة ، وتؤثر فيه تأثيرا قويا يدفعه إلى التعبير عن مشاعره والاعراب عما يجول بخلده .. على أن الانفعالات المختلفة من غضب وخوف وفرح ورضا وأمل وألم إنما هى حالات وجدانية سريعة الزوال ، بيد أن هذه الحالات الوجدانية البسيطة قد تتركب وتستمر وتطبع صاحبها بطابع خاص ، وتركز فيه الاستعداد لحب شىء أو كرهه ، فتكوين هذا الوجدان ونشوء هذا الاستعداد هو مايطلق عليه كلمة عاطفة ، فالعواطف إذن حالات وجدانية مركبة ؛ إذ تستثار بنمو العاطفة جملة انفعالات مختلفة تظهر كل واحدة منها حسب الظروف والأحوال ، كما فى عاطفة الحب مثلا التى ينشأ عنها الفرح بلقاء الحبيب والحزن لفراقه والشوق لرؤيته والسرور بسروره .. والعاطفة تبدأ نحو شىء أو شخص ثم تتدرج فتظهر نحو معنى مجرد كحب الحرية أو العلم أو الفن مثلا وكراهية الظلم والاستبداد . وهى التى تطبع الانسان بطابع خاص ، وتوجه مجهوده وتسوقه لعمل معين ، ومن العواطف مايسمو بالنفس كحب الفن والعلم والتضحية وماشابه ذلك .

والعاطفة عنصر كبير من عناصر النص الأدبى ، وهى التى تميزه عن النص العلمى ، وتجعله شيقا جذابا على الرغم من تكراره وإعادة تلاوته .. والأدب سجل للعواطف الانسانية ، ولأدق مشاعر الأديب وخواطره ، والأديب الموفق هو الذى ينقل القارىء إلى جوه الفنى . اقرأ للشاعر السودانى التيجانى يوسف بشير :

هذه الذرة كم تحمل فى العالم سرا

قف لديها وامتزج فى ذاتها عمقا وغورا
وانطلق فى جوها المملوء إيمانا وبرا
وتنقـــل بين كبرى فى الذرارى وصغرى
تركل الكون لايفتر تسبيحا وذكرا (١)

فترى العاطفة القوية التى تنطق بها تجربة شعرية عميقة

وقد عبر القدماء عن العاطفة وأثرها فى الشعر فقالوا : « أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب والنابغة إذا رهب وعنترة إذا غضب » ، ومن ثم قالوا : إنما يبنى الشعر على الرغبة والرهبة والطرب والغضب .

والعاطفة هى التى تفتح منافذ الحياة والكون والروح أمام الانسان ، ولا بد فيها من الصدق والحيوية والاستواء والنشاط والاعتدال والصحة ، ومن ثم نجد الفرق كبيرا بين محب يتغزل ، وبين رجل يتكلف الغزل تكلفا دون أن يشقى بالوصال والصد واللقاء والفراق والشوق والوجد والرضا والنفور والدلال والجمال . ونجد قوة العاطفة واضحة فى قول محمد بن زريق البغدادى :

لاتعذليه فإن العذل يولعـــه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
جاوزت فى لومه حدا أضر به من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
فاستعملى الرفق فى تأنيبه بدلا من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
أستودع الله فى بغداد لى قمرا بالكرخ من فلك الازرار مطلعه
ودعتـــه وبودى لو يودعنى صفو الحياة وأنى لا أودعه

فنجد العاطفة هنا قوية جياشة فى موسيقى عذبة جميلة حلوة مؤثرة .

والعاطفة هى التى تفرق بين مانسميهم الأدباء والمتأدبين ، وتفرق أيضا بين الشعراء والنظامين ، وتدفع بالشعر الجيد إلى الذيوع والخلود .

— ٤ —

والعنصر الثالث من عناصر الأدب هو الفكرة أو الحقيقة أو المعنى ، وهى أساس العاطفة ، فلا بد من تمازج الفكرة بالعاطفة ، والأدب الذى ينقصـــه الفكرة أدب ميت خامل ضعيف ، لأن الأدب ليس أسلوبا وتعبيرا فحسب ، بل

(١) ص٧ ديوان إشراقة للنيجانى ط ١٩٤٩ - الخرطوم

لا بد فيه من أن يضيف إلى معلوماتنا جديدا عن الكون والحياة والوجود والناس .

ويجب أن تكون الأفكار والمعانى فى الأدب واضحة ليس فيها لون من التعقيد المعنوى ، كما يجب أن تكون صحيحة جديدة دقيقة فياضة ..

ومن ثم نكره ترداد الأفكار المسروقة ، ونكره الأفكار السطحية والتافهة ونمنع التناقض والتعقيـــد فى المعانى ، ونشترط الحيوية والروح والقوة والتناسب فيها .

— ٥ —

والعنصر الأخير هو النظم أو الصورة أو الاسلوب أو العبارة وهو عنصر ضخم فى النص الأدبى .

وتتركب الصورة من الالفاظ والموسيقى ولا بد فى الاسلوب من الوضوح والقوة والجمال والحيوية والتأثير .

ونشترط فيه البعد عن الصنعة والتقليد ، وعن الاغراب والوحشية ، وعن الابتذال والسوقية ، وعن التكلف والاستكراه ، مع التناسب فى الرقة والجزالة ، ولذلك عيب على الشاعر القديم قوله :

ألا أيها النوام ويحكم هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب ؟

لأن الشطر الأول لبس ثوب الجزالة والقوة ، والثانى ظهر بمظهر العذوبة .

وقد جعل الجاحظ وعبد القاهر الأسلوب مظهر البلاغة ودليلها وحـــده ، لأن الأدب يعتمد اعتمادا قويا على التفوق فى اختيار الألفاظ وعلى الاجادة فى التعبير .

ولا بد من أن يكون الاسلوب معبرا عن شخصية صاحبه وروحه ومواهبه وملكاته ، وأن يتسم بطابع الجمال والابانة والوضوح .

***

وبعد فهذه هى عناصر الأدب لم نشأ أن نفيض فى الكلام عليها ، وإن كان بحثها مما يستدعى الاطالة ، ويتطلب مزيدا من الشرح والبيان ..

الدراسات الأدبية فى القديم والحديث

— ١ —

كان فى العرب منذ العصر الجاهلى رواة للشعراء ، يذيعون قصائدهم فى كل مكان ، وكان هؤلاء الرواة منذ العهد الأموى أظهر القائمين بالدراسة الأدبية ، ثم تعددت مناهج هؤلاء الرواة ، وظهر فيهم النقاد والعلماء ، واتخذوا الأدب مهنة وروايته صناعة ، وغلب عليهم الاهتمام برواية الاشعار وطرائف الآداب والحكم والقصص والأخبار والأنساب وما اليها من جوامع الكلم ونوادر البلاغات .

وفى القرن الثالث نجد ابن سلام الجمحى يهتم بدراسة الشعراء ، ويرتب الجاهليين والإسلاميين منهم طبقات ، وذلك فى كتابه القيم « طبقات الشعراء » .. كما نجد الجاحظ يعنى بجمع أطراف من أدب الحكمة والزهد والنوادر والقصص والأمثال والخطابة والرسائل وكثير من روائع الشعر ، ويضمن ذلك كله كتابه الحافل « البيان والتبيين » ، وقد أعجب العلماء فى كل عصر بنهج الجاحظ ، فحذا حذوه المبرد فى الكامل ، وابن عبد ربه فى العقد ، والقالى فى « الأمالى » ، ثم الحصرى فى زهر الآداب ، والأبشيهى فى المستطرف ، والعاملى فى الكشكول ... كما أن طريقة ابن سلام فى الحديث عن الشعراء خاصة قد راقت لكثير من الأدباء فقلدوه فيها ، ومن هؤلاء : ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » ، وابن المعتز فى كتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ، وسواهم كأبى الفرج الأصفهانى الذى ألف كتابه الأغانى فى تراجم الشعراء الجاهليين والإسلاميين وبعض المحدثين ، وساق فى ثنايا هذه التراجم بدائع الآداب والحكم والأخبار والقصص والروايات والأساطير والآثار والانساب ، ودرس الثعالبى فى يتيمة الدهر شعراء كل إقليم ... وقد عنى بعض الأدباء بتراجم العلماء والكتاب وألفوا فيها كياقوت فى معجم الأدباء ، والفتح بن خاقان فى « قلائد العقيان » الذى قصره على شعراء الأندلس ، وابن خلكان فى « وفيات الأعيان » وابن شاكر فى « فوات الوفيات » ؛ وإن شمل هذان الكتابان تراجم بعض الفقهاء والقواد ورجال السياسة ، وقريب من هذا النمط بغية الوعاة للسيوطى وإن كان قد قصرها على النحاة واللغويين الذين كان جمهورهم من رجال الأدب ، وفى القرن الحادى عشر ألف المقرى كتابه « نفح الطيب » ووقفه على الأدب الاندلسى .

هذا النهج فى دراسة الأدب العربى كان يسير معه نهج آخر طريف ، يتصل بنقد الشعر والأدب ، والموازنة بين الشعراء ، ومن أسبق من كتب فى هذا النهج ابن المدبر فى الرسالة العذراء ، وقدامة فى نقد الشعر ونقد النثر ، والآمدى فى الموازنة ، وأبو هلال فى الصناعتين ، والجرجانى فى الوساطة ، وابن رشيق فى العمدة ، والخفاجى فى سر الفصـــاحة ، وعبدالقاهر فى أسرار البلاغة وهو الذى وضع أصول علم البلاغة العربية ، وابن الأثير فى المثل السائر .

— ٢ —

ولم يقف الأمر عند هذه الدراسات والمناهج ، بل اصطلح بعض العلماء على توسيع النظرة لعلوم الأدب العربى ودراساته ، فاطلقوا اسم « علوم الأدب » لا على الشعر والنثر والنقد والموازنة والتراجم الأدبية فحسب ، بل جعلوا هذا الاسم شاملا لكل مامن شأنه أن يساعد على تقويم اللسان وتصحيح الملكات وتهـــذيب الفطر الادبية ، واختلفوا فى عدد هذه العلوم . . . فالزمخشرى يقسمها إلى :

ا ـ أصول وهى علوم : اللغة والصرف والاشتقاق والنحو والمعانى والبيان والبديع والعروض والقوافى .

ب ـ وفروع وهى علوم : الإملاء وقرض الشعر والانشاء وعلم المحاضرات ومنه التاريخ .

وهذا فى رأيى لايساير الحق كثيرا ، إذ أن ماجعله الزمخشرى فروعا أكثره يجب أن يكون من الأصول فى علم الادب ، أما الاصول التى ذكرها فهى ثقافات عربية متممة لاغير . .

وابن الانبارى المتوفى عام ٥٧٧ هـ يرى أن علوم الادب ثمانية : النحو واللغة والصرف والعروض والقوافى وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم ، ويقول إنه ألحق بهذه العلوم الثمانية علمين آخرين وضعهما ، وهما علم الجدل فى النحو وعلم أصول النحو .

والسكاكى يجعل علوم الادب خمسة ، هى علم الصرف ، وعلم النحو ، وعلما المعانى والبيان ، وعلم الاستدلال ، وعلم الشعر (العروض والقوافى) .

وفى خزانة الادب : قال الاندلسى فى شرح بديعية ابن جابر : علوم الادب

ستة : اللغة ، والصرف ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، والبديع(١). ويقول صاحب نفح الطيب : علم الأدب فى الأندلس كان مقصورا على مايحفظ من التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات وهو أنبل علم عندهم .

— ٣ —

وقد سارت بعض الدراسات الأدبية فى العصر الحديث على النهج القديم كما تراه فى أمثال كتاب « الوسيلة الأدبية » للمرصفى ، وكتاب « المواهب الفتحية » لحمزة فتح الله ، ومجانى الأدب ، وشعراء النصرانية ، وسوى هذه الكتب .

ولكن الدراسات الأدبية فى أوربا منذ القرن الثامن عشر كانت تسير على منهج آخر ، كان باكون الفيلسوف الفرنسى م ١٦٢٦ أول من ابتكره وأرشد إليه ، إذ جعل التاريخ ثلاثة أنواع : التاريخ الدينى ، وتاريخ الاجتماع ، وتاريخ الآداب والفنون ، وبذلك كان أول من ميز الآداب والفنون بالتأريخ ، وقد اقتبس الإيطاليون فى القرن الثامن عشر هـذا المنهج التاريخى الأدبى فى دراسة الأدب ، وطبقوه على دراسة الأدب العربى فكانوا اول من ابتكر علم تاريخ أدب اللغة العربية ، وعنى المستشرقون ولا سيما الألمانيون بهذه الدراسات الشرقية الجديدة فى أدب اللغة العربية . ونقلها عنهم حسن توفيق العدل على إثر عودته من ألمانيا عام ١٨٩٢ وقيامه بتدريس هذا العلم فى المعلمين العليا ودار العلوم .

وأساس هذا المنهج الجديد الجمع فى دراسة أدبنا بين المنهج الأدبى والمنهج التاريخى ، وذلك بتقسيم تاريخ أدبنا العربى إلى عصور ، ودراسة أدب كل عصر ، دراسة استيعاب وتحليل ، وشرح المؤثرات التى أثرت على الأدب العربى فى كل عصر وأشهر الأعلام التى نبغت فيه من شعراء وأدباء وكتاب . وهذا المنهج سار عليه جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية والزيات فى تاريخ الأدب العربى وأصحاب المفصل والوسيط ، والمرحوم محمود مصطفى والأستاذ محمد هاشم عطية والأستاذ السباعى بيومى ، فى كتبهم فى تاريخ الأدب العربى ، وسواهم من مشهورى الأدباء الذين كتبوا فى هذه الدراسات .

وألف الرافعى كتابه « تاريخ آداب العرب » وقد طبع فى ثلاثة أجزاء ؛ وينقد فيه المنهج التاريخى ، ويدعو إلى أن يكون تاريخ الأدب فى كل أمة مفصلا وفق

(١) ٣ : ١٢٣ ـ الخزانة لشرحى الدين عبد الحميد .

حوادثها الأدبية (١) ، وعلى هذا المنهج درس الأدب . . وقريب من منهجه هذا منهج أحمد أمين فى ضحى الإسلام وفجر الإسلام وظهر الإسلام ، وينقد طه حسين المنهج التاريخى الذى لا يعنى إلا بجعل الأدب تابعا للصور السياسية وحدها ، ويرى أن الحياة السياسية لا تصلح مطلقا لأن تكون مقياسا للحياة الأدبية ، وإنما السياسة كغيرها من المؤثرات فى الأدب ، ويرى أن دراسة الأدب العربى وفق هـــذا المنهج التاريخى — على نحو ما كان الأدباء فى دار العلوم ومدارس الحكومة يسيرون عليه فى أوائل القرن العشرين — إن هى إلا دراسة صورية لا تثقف عقلا ، ولا تربى ذوقا (٢) . . ويعرض طه حسين المناهج الأوربية الحديثة فى دراسة تاريخ الآداب (٣) ومن بينها : المنهج العلمى الذى كان من أعـــلامه فى فرنسا سانت بوف وتين وبرونتيير ، يدعو بوف إلى استنباط قوانين علم تاريخ الأدب من دراسة شخصيات الكتاب والشعراء دراسة نفسية واسعة ، ويدعو تين إلى دراسة المؤثرات العامة فى الأدب من الجنس والبيئة والزمان ، ويرى أنه ينبغى أن يكون الغرض الصحيح من درس الأدب والبحث عن تاريخه هو تحقيق هذه المؤثرات التى كونت الكاتب والشاعر ؛ ويدعو برونتيير إلى دراسة الفنون الأدبية المختلفة فى تدرجها الأدبى خلال الأجيال كالشعر التمثيلى والشعر القصصى مثلا .

ومن المناهج الأخرى المنهج الأدبى أو المقياس الأدبى ، الذى يتحرى عرض أذواق الكتاب والشعراء وشخصياتهم إلى جانب ذوق المؤرخ الأدبى وشخصيته

وتستطيع أن تعلم كيف كان درس الأدب فى مصر فى أوائل القرن العشرين فى الأزهر ودار العلوم والجامعة المصرية ، بقراءة مقدمة كتابى « تجديد ذكرى أبى العلاء » ، و « الأدب الجاهلى » لطه حسين .

وقد استمر العلماء الأدباء فى مصر يبحثون « كيف ندرس الأدب » سنين طوالا ، وكان الجدل بين أنصار القديم وأنصار الجديد حول ذلك شديدا ؛ وكان لهذا الحجاج أثره فى تجديد دراسات الأدب ، فسرعان ما رأينا بعض الأدباء يؤلفون فى النقد الأدبى ، وآخرون يكتبون عن الأسلوب ، والبعض يكتبون دارسين لألوان الأدب وفنونه ، وأصبح علم مثل علم النقد متعدد الاتجاهات ، فالبعض

---

(١) ٦ - ١٨ ج ١ الرافعى (٢) ٣٦ - ٣٨ فى الأدب الجاهلى — طه حسين — طبعة ١٩٢٧ (٣) صفحة ٤٠ المرجع نفسه وما بعدها .

يدرسون تاريخ علم النقد الأدبي ، والبعض يدرسون أصول النقد ونظرياته ، وآخرون يدرسون النقد ليوازنوا بين الأدباء بعضهم والبعض الآخر وهذا مايصح أن نسميه « الموازنات الادبية » .

إن دراسة الادب الإنشائي شعرا أو نثرا ، ودراسة الادب الوصفي نقدا وتاريخا لآداب اللغة العربية ، قد دخلت فى مرحلة جديدة ، بينها وبين القديم فروق واسعة

فلقد جدد الادباء المعاصرون فى دراسات الادب ، ومزجوا به علم النفس ، وكتبوا فى النقد ، وألف زكى مبارك وسواه فى الموازنات بين الشعراء ، وحاولوا عرض الادب القديم عرضا حديثا جذابا ، وحللوا الشخصيات الادبية تحليلا قويا جذابا ، كما فعل طه حسين فى كتابه « تجديد ذكرى أبي العلاء » ، والعقاد فى « ابن الرومى » والمؤلف فى كتابه « ابن المعتز وتراثه فى الادب والنقد والبيان » الذى جمع ألوانا قوية من التصوير الادبى المشرق .

وقد مزجت الدراسة الادبية أحيانا بالنقد والادب والتاريخ .

ومع ذلك فلا زلنا فى أولى الخطوات فى خدمة الادب العربى وأداء رسالته وفى التجديد المثمر فى باب الدراسات الادبية ، ولا زلنا ننتظر خطوات أخرى تقربنا من التجديد والانتاج الادبى العميق الواضح الشخصية ، وفى رأيى أن أساتذة الادب هم المسئولون عن هذا التقصير الذى نعيش فيه ونرى آثاره واضحة جلية فى حياتنا الادبية الراهنة ، فهم بكسلهم وخمولهم يقفون عن الانتاج ويتركون البحث والدراسة ، ويكرهون تلامذتهم فى الادب العربى كافة .

— ٤ —

ومهما يكن فإنى أرى أن نجدد فى دراسات الادب العربى ، وأن تشمل هذه الدراسات مايلى :

١ ـ النصوص الادبية المختلفة شعرا ونثرا لأعلام الادب فى شتى عصوره .

٢ ـ تراجم الكتاب والادباء والخطباء والشعراء ، مع دراسة طبقاتهم الأدبية المختلفة .

٣ ـ علم تاريخ أدب اللغة العربية .

٤ ـ علم النقد الادبى بقسميه « التاريخى والفنى » .

٥ ـ علم الموازنات الادبية .

٦ - علم أصول البلاغة العربية.

٧ - علم إعجاز القرآن الكريم .

٨ - علم الادب المقارن .

٩ - دراسات عامة للآداب المترجمة الحديثة .

١٠ - دراسات للفنون الادبية المختلفة : كفن القصة والرسالة والرواية الخ .

١١ - دراسات مكملة فى علوم اللغة العربية والنحو والصرف والعروض والاملاء والتفسير والحديث والمنطق وفقه اللغة والتاريخ ، وأخرى لعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال ، وثالثة لاصول الفنون الجميلة على اختلاف ألوانها ومناحيها . . مع دراسات واسعة للبلاغة العربية فى شتى مؤلفاتها القديمة والحديثة .

مطران ومذهبه فى التجديد

— ١ —

كان مطران يريد التجديد فى الشعر منذ نعومة أظافره ، ولقى دونه مالقى من عنت ، وبذل فيه مابذل من جهد ، عن عقيدة راسخة فى نفسه ، وكان يحلم بوقوع معجزة أدبية خالدة على يديه ، هى تحرر الشعر والتجديد فيه والنهوض به .. يقول مطران من كلمة عن مذهبه فى التجديد : « اضطررت مراعاة للأحوال التى حفت بها نشأتى ألا أفاجىء الناس بكل ماكان يجيش بخاطرى ، وخاصة الصورة التى كنت أوثرها للتعبير لو كنت طليقا ، فجاريت العتيق فى الصورة بقدر ماوسعه جهدى ، وتحررت منه - وأنا فى الظاهر أتابعه - بنوع خاص فى الوصف والتصوير ومتابعة العرض . وبهذه الطريقة مهدت للجديد قبولا فى دوائر كانت ضيقة ، ثم أخذت تتسع إلى ماوراء ظنى .

ويقول : أريد التجديد أكثر مما أردته فى كل آن . أريده ولا أكيفه ، ولكننى أشيم له بوارق تدل على ملامحه الكبرى من وراء مجهودات طائفة تتكاثر يوما فيوما ، ففى كثير مما يضع هؤلاء الموضعون فى طليعة النهضة أجد التفكير بمعناه البعيد الغور الثقيل التكاليف الذى هو منبع الابتكار . أجد ذلك التفكير يحل تدريجا محل الخيال المشتت الذاهب فى تشتيت الذهن ضروب المذاهب ، الخيال الذى لايصدر عن الحقيقة غالبا ، ولا يرجع اليها إلا بخيوط دقيقة أحيانا من أطرافه النائية .

أتمنى كل التمنى أن تصبح لغتنا فى شعرها ونثرها صالحة لضروب التعبير السليم قاطبة ، وما أجدرها أن تبقى أم اللغات ، كما نقول مباهين .

أريد أن أستطيع تصوير كل دقيق وجليل من معانى النفس تعميما أو تخصيصا ، أريد أن أستطيع الكتابة إلى أخى فى أى بلد عربى ، أصف له بلسانى العربى أى أداة نسيجا أو مادة بسيطة أو مركبة من أى جنس ومن أى لون ومن أى مزيج من الأجناس والألوان وأجزائها ، فيفهمه بعينه ، وفى الشعر خصوصا أريد أن أخرج من الابتذال وأن أغنى عن طرق ماطرق ألف مرة لأعيش به عيشى فى زمانى ، وأبارى أو أجارى أسمى ماتضعه قرائح أعاظم الأدباء من الأجانب الذين أصبحت على اتصال روحى وذهنى دائم بل غير منقطع دقيقة واحدة بهم . أنا أريد

أن تكون لفتى شريكتى رؤية وسماعا وشعورا تلقاه كل مايجد ، وأن تتناوله ، وأن تعينى على الافصاح عنه .

أريد ألا أشهد الآيات الباهرات يتحفنى بها عصرى وأنا كأننى بمعزل عنها ، ولا شغل لى إزاءها إلا أن أرجع إلى ما كان لألف سنة خلت ، وأن أحس كما أحس القوم فى تلك الحقب . . أن تتعلم أولا لغتك ، وأن تتمكن منها كل التمكن ، وأن تستذكر منها كل مافى مفرداتها وتراكيبها وأساليبها السليمة الفصيحة من شائق ورائق ومطرب وجميل ، وأن تمثل هذه المادة تمثيلا ثم تحملها وهى مصورة إلى معملك الأسمى وهو ذهنك ، وتبتكر وتحدث سببا صحيحا كريما لتكليفك الناس أن يقرأوا شعرك ونثرك . وإلا فان لم تكن إلا محاكيا فما حاجتهم اليك والسابقون أفصح منك لسانا ، وأبلغ بيانا ، وأقدر على التصرف فى لغتهم الطبيعية ، حتى أخذوها بالرضاع ؟ .

ثم إن لم تكن إلا ناقلا مترجما ، أو مقتبسا كما يقولون ، أو مختلسا من روائع لغة أجنبية تظنها مجهولة كما يفعل غير واحد من متأدبى هذا الوقت ، فما أغنى أمتك عن هذه المحاولات التى تشف رقعها المتناكرة عن الخديعة لها فى أمرك ، دون أى نفع لها فى تلك المختلسات .

ثم إن لم تكن إلا غريبا فى زمنك ، وليست لك نوازع إنسانية سامية ، ولا أريحيات وطنية ، ولا نقوش غير مسبوقة تصف بها أحساب قومك أو مجد آبائك وأجدادك ، ولا روايات تمثيلية أو كتابية . . ولا ، ولا . فلا رعاية ولا حرمة لغربتك عند الذين يعقلون . ولو تبينت مافى طوايا نفوسهم لوجدتهم يعدونك من عوامل التأخير والانحطاط والجمود .

كان مطران يريد أن يكون شعرنا مرآة صادقة لعصرنا فى مختلف أنواع رقيه . ويريد — كما تغير كل شىء فى الدنيا — أن يتغير شعرنا مع بقائه شرقيا ومع بقائه عربيا . وهذا ليس بإعجاز . والتجديد كائنا ما كان لايحيط بالمدى الواسع الذى يتشعب إليه التجديد فى رأيه ، بل هناك مجال للعقل المبتكر والفكر المولد والتصور البارع ، يستطيع الأديب والمتأدب أن يجيل بصره فى لبابه أو فى أطرافه متى قارن عن تدبير وروية بين ما كان عليه البيان فى أزمنته الأولى وما صار إليه بعدها فى حقبه . فهو بمثل هذه المقارنة سواء كانت فى مخلفات العرب أم فى مخلفات الشرق أم فى مخلفات الغربيين يتبين من الوجوه والسبل ما لا تبينه له التعاريف

الموجزة أو المفصلة . وفى الأنحاء المتعددة من ذلك المجال وفى أشواطه التى يظهر من اختلافها الاختلاف فى التقدير والتعبير بين روح وآخر من الدهر ، يجد المرن الذى تستعين به قريحته على اختيار مذهب تنطلق فيه خالصة مع الزحام ، مرموقة الأثر بين آلاف من القرائح التى جرت إلى مثل غايتها . فالسبيل أن تطالع فى أدبنا وفى أدب غيرنا كل ما تستطيع مطالعته بلا سأم ولا انقطاع ، وأن تحفل للجزئيات والكليات ، وأن تتبين المناحى ، وخصوصا مواقع التباين بين عصر وعصر فى صوغ اللفظ وسوق المعنى وخلق المذهب بعد المذهب . وبعد أن تأخذ من كل ما تطالعه مادة عملك ووسائل تعبيرك ، وترجع إلى ما تؤثره سجيتك ويوحيه قلبك ويمليه عرفانك ويهذبه نقدك . وعندئذ تعرف كيف يكون المثال من أمثلة تلك الكيفية ؛ التى يشعر بضرورتها ، ويتخيل جمالها وروعتها ، ولكن لا تستطاع صنعتها .

— ٢ —

وفى يوم الخميس ٣٠ من يونيو ١٩٤٩ توفى خليل مطران فى القاهرة ، بعد حياة حافلة بمواكب النبوغ والعبقرية .

ويتجلى فن مطران الشعرى فى إنتاجه الغر ، الحافل بآيات الموهبة والملكة والأصالة والطلاقة الفنية .. يقول مطران من قصيدة له عنوانها «زهرة سامرتنى» :

باتت لدى وطالعت ما لا يطالعه سواها
حسناء من ورد الخما ئل أبهجت نظرى حلاها
قامت على متأود من قدها حلو التثنى
وكأنما فيها الحلى كملت على قدر التمنى
يجلو محياها بيا ض شف عن أدنى احمرار
مترقص فيه الندى بالنور فوق حجاب نار
متكوف أوراقها بعض على بعض بعطف
ولكل واحدة ثنا يا الثغر حين سما لرشف
باتت وكأس الماء مس كنها وموردها جميعا
فى موضع منه تط ل على إطلالا بديعا
وإخالها سهرت على الليل مصغية رفيقه
وإخالها نظرت أو اس تمعت نوازعى الرقيقه

حتى إذا لاح الصبا ح لمحت فيها كالذبول
من إثر ما شهدته من آلام وجداني العليل
لكن بعثت بها وفي الـ ـمعنى شفيع للهديه
فلأجل أن تلقاك قد أعددتها منذ العشيه
فاذا أصابت حظوة بجمالها الأسنى فأحر
ويزيد فضلك إن رمي ت وراء ظاهرها بفكر
إن تسألها ما رأت والنوم كشاف الشعور
من ذلك الحب الذي خبأته لك في الضمير
تبلغك عني ماشجا ها من أساي ومن أنيني
وبين لعينك ما توا ري تحت ظاهري الرزين

ويقول من قصيدة في حفلة تكريم له عام ١٩٤٧ :

أمر من يطلب الخلود عسير لايعار الخلود من يستعير
ذاك أسمى مطالب المجد لايد ركه مدع ولا مغرور
غاية الفن لاترام وما يقـرب منها إلا الذكي الصبور
أدهش الخلق رافئيل ولم يبلغه منه ماشاءه التصوير
أشعر الخلق كان هوميرهل أد رك منه كل المنى هومير؟
لم يتم الذي توخاه جوتى لا ولم يقض ما اشتهى شكسبير
في الفرنسيس هل تقضى مرام لجيد أو استمر مرير
ومن العرب لايحاشي امرؤ القيس ويناى عن القياس جرير
قال شيئا عما أراد حبيب وتغنى بما تسنى الضرير
وأتى معجزاته المتنبي وهي مما أراد شيء يسير
سل فحول القريض عمن بهم أثل مجدا هذا الزمان الأخير
هل اسامي أو حافظ أو لإسماعيل فيمن أجاد شعراً نظير
جاء شوقي ببعض مارام منه وهو في الحق للقريض أمير
كلهم لم يصل إلى ما توخى فثوى في الطريق وهو حسير
سره وحيه فلم يأل جهدا وأبى العجز أن يتم السرور
ولكل مكانه من هوى النا س وكل بالتكرمات جدير
هذه يا أحبتي سانحات لاتماري في الحق والحق نور

كان فى الشعر لى مرام خطير فمدا طوقى المرام الخطير
هائم فى الوجود أسأله الوحـــى كما يسأل الغنى الفقـــير
لهج ما ادخرت عزما ولكـــن مرادى ناء وباعى قصير
أكبرونى ولست أكبر نفسى أنا فى الفن مستفيد صغير
فوق شعرى شعر وفوق أجل الشـــعر ماقدر البديع القـدير
لايضيق صدر شاعر بأخيه يكره الفضل أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملت فيها ليس تحصى شموسها والبدور
كل جرم يعلو ويصبح نجما فله حيز وفيـــه يدور
والنجوم التى تلوح وتخفى ربوات وما يضيق الأثير
إن هذا الإكرام للفن ، لا لى والمرام الذى ابتغيتم كبير

وأنت إذ تقرأ شعره مدحا وغزلا ووصفا وتفجعا وغير ذلك ، تكاد تلمس فيه فلسفة الرضا غالبة على سياقه ، متفشية فى روحه ، حتى ليخيل إليك أنه أدرك جميع حقائق الحياة ، فاستوى عنده حلوها ومرها ، وصفوها وكدرها .

وكان لمطران رسالة تدفعه إلى السمو بالإنسانية إلى أرفع مكان تستأهله بحيث لايكون لها من هدف إلا الحرية والعدل ، وتأمين الخائف ، وإطعام الساغب ورد ظلامة المظلوم .

ويقول الدكتور إسماعيل أدهم فى تصوير الطور الأول من حياة مطران : ينتسب خليل مطران إلى أسرة عربية ، وولد بمدينة بعلبك فى شهر يوليو عام ١٨٧٢ ، وعاش أيام طفولته الأولى مفصحا بحركاته وأعماله عن مزاج عصبى أصيل ، وطبيعة ذات حيوية زائدة ومشاعر متقدة واحساس زاخر .

وأرسل به والده إلى زحلة ليتعلم فيهـــا أصول الكتابة والقراءة ، فانتقل الغلام إلى زحلة ، وهنالك فى مدرسة أولية أخذ يتعلم مبادىء الكتابة وأصول الحساب ، حتى أوفى على التمام ، فأرسله والده إلى بيروت ، وظل الغلام بالمدرسة ردحاً من الزمن حتى بلغ السابعة عشرة ، ثم تخرج من الكلية وقد فاز بمحصول ثقافى مناسب ، وبعد أن تثقف ثقافة عربية خالصة من جهة ؛ واتصل بالثقافة الأوربية اتصالا تاما من جهة أخرى ، وكان من مقومات تثقفه بالثقافة العربية أن مدرسه كان الشيخ إبراهيم اليازجى إمام اللغة فى عصره . وعنه أخذ الأدب والثقافة العربية الخالصة . على أن الشيخ إبراهيم اليازجى إن أزجى به الى

ميدان الأدب العربى البحت ، فقد كان اتصال الفتى بالآداب الفرنسية بالكلية سببا فى أن تتفتح نفسه عن آفاق جديدة من الحياة والشعور لم يجد ما يكافئها فى الأدب العربى الخالص ، ومن هنا اعتقد الفتى ـ وهو ابن ثقافتين ـ أن المستقبل فى الأدب العربى ، ليس للنماذج التى تذهب تحاكى طرائق القدامى فى المعانى والأشكال ، والمشاعر والصور ، وانما للنماذج التى تعبر عن روح العصر وخلجاته ومشاعره واتجاهاته فى قالب عربى رصين . وحاول مطران أن يطرق الأدب والشعر على هذا الاعتبار . كان العهد الذى أخذ فيه مطران ينظم الشعر من النهج الجديد ، خاضعا لموحيات العصر القديم . فقد كان سريان الشعر ـ شعر الفحول المطبوعين من شعراء العربية الخلص فى العصر الأموى والعباسى ، والمشهود لهم بالسبق فى الشاعرية ـ بين أيدى المتأدبين ، على أثر قيام الطباعة فى الشرق الأدنى والاهتمام بطبع دواوين شعر الفحول ، سببا فى إحياء الشعر العربى ودبباجته الجزلة . وكان يساعد على ذلك احياء اللغة العربية الخالصة من شوائب العجمة . وكان كل هذا يمهد السبيل لتدور الشاعرية على الأغراض القديمة التى دار عليها الشعر العربى القديم . غير أن مطران الذى تفتحت نفسيته على آفاق جديدة من الحياة والشعور فى الآداب الأوربية ، ولمس قوة حركة التجديد فى الأدب التركى بجهود شناسى وضيا ونامق كمال وعبد الحق حامد ، أدرك أن الحياة التى تدور فى عصره غير الحياة التى كانت تدور فى العصور السالفة ، وأن الأغراض التى يقول فيها الشعر شعراء العرب الأقدمون لا تلزم شعراء عصره ، وعلى هـــذا الأساس جعل الشاعرية شيئا يدور حول روح العصر . وجعل البيان الشعرى شيئا مرنا ، وليس بالشىء الجامد الذى له رسم خاص ، بل يدور مع العصر ويتطور مع تطور الزمان وان كان يتقوم بالمبادى الأولى الثابتة .

ونظم مطران فى الفترة التى انقضت بين عامى ١٨٨٨ و ١٨٩٠ بعض القصائد على النسق القديم الذى كان شعراء العرب ينظمون الشعر على غراره . وكان حديث العهد فى التخرج من الكلية غير أنه اكتسب شهرة واسعة فى بيروت ، وكانت حاضرة الأدب والعلم والفن فى القطر السورى ولبنان ، ومن أعظم حواضر الثقافة فى الشرق فى ذلك العصر . ولم يكن ينازع مطران الشهرة من أقرانه غير شكيب ارسلان الذى كان حديث التخرج من كلية الحكمة ، والياس صالح الذى تخرج من الكلية الأميركية . وفى صيف عام ١٨٩٠ خرج مطران من

بيروت ووجهته باريس . ووصل اليها وأقام فيها ردحا من الزمن ، بعد أن عرج فى طريقه اليها على الاسكندرية . وانتهى مطران الى باريس ، وأقام فيها ردحا من الزمن ، متصلا برجال الحركة الوطنية التركية فى باريس .

كانت حياة مطران فى باريس نشاطا متصلا ، فى سبيل الدرس والتزود من آداب الأفرنج من جهة والجهاد فى سبيل الدستور وتحرير العناصر التى فى الدولة العثمانية من جهة أخرى . ولقد اتصلت الأسباب بين نفس مطران فى تلك الفترة وبين شعر « الفرد دى موسيه » ، فقد فتن مطران ، وهو فى عنفوان الشباب ، ومشاعره فى فورة اتقادها ، بروعة الأحساس وعمق المشاعر التى يتميز بها شاعر الفرنسيين الرومانسى ، ومن هنا كان وقوعه تحت تأثير موسيه ، مما يظهر بعد فى القصائد الأولى من ديوانه . وكانت معرفة مطران بالتركية والانكليزية ، سببا فى أن يحاول الاطلاع على آداب الأتراك والانكليز فى لغاتهم الأصلية ، فقرأ لأعلام المدرسة الجديدة فى تركيا ما كتبوه من الشعر وما أخرجوه من المسرحيات والآثار الأدبية . وتأثر بمطالعاته ، وعلى وجه خاص بآثار نامق كمال وناجى واكرم وحامد من أعلام الأدب التركى ، كما أنه اطلع على آداب الانكليز اطلاعا سريعا فى تلك الأيام ، وإن عاد إليها فى الطور الثانى وأوائل الطور الثالث من عمره يمعن فى مطالعتها ويحاول أن ينقل بعض روائعها إلى العربية . وتبدو شاعرية مطران فى الطور الأول وإن كانت متقومة بطرائق القدامى فى النظم واضحة الخطوط ظاهرة المعالم . وأول شىء يطالعك من شعره مطاوعة الانفعال الشديد للاستجابة الهادئة التى تجعل الذهن مجالا للتدخل لتصفية ألوان الاحساس وضبط المشاعر والعمل على تناسب الخطوط بين الصورة من حيث كمالها وسكينتها وبين الأسلوب من حيث الوضوح والجزالة . وطبيعة المعاودة من نفسه كانت تعطيه الوقت للعناية بالتفاصيل والجزئيات ، ومن هنا كان شعره يخرج معبرا عن فكرة مطردة تصاحبها مشاعر متسقة وإدراكات مسترسلة تصاحب الفكرة . وأنت يمكنك أن تلمس هذا فى شعر مطران منذ الطور الأول من حياته ، تلمسه بوضوح فى قصيدته عن « بيننا وفتح باريس » وإن طغى الغرض الاتباعى على معظم مواقف القصيدة فحاول أن يخفت من صوت مشاعره ، ولكن الخلجات التى تطالعك من القصيدة لا تجعلك تشك فى صحة ماذكرناه

وضاق الخليل ذرعا بعيون السلطان عبد الحميد فنزح عن باريس ، وحدثته النفس أن يرحل إلى أمريكا الجنوبية ولكنه آثر العيش فى بلده عربى فقفل إلى مصر ووطئت قدماه الاسكندرية ، وانضم إلى تحرير الأهرام ، ورأس تحريرها ردحا من الزمن ، وما بزغ فجر القرن العشرين حتى كان اسم الخليل قد لمع فى سماء الشعر والأدب . أنشأ مجلة الجوائب المصرية ، ثم أحالها صحيفة يومية ، واشترك فى تحرير المؤيد واللواء ، فكان صحفيا عف القلم طاهر السريرة ، وافتتح ابن يعلبك فى الشعر العربى عصرا من التجديد ، بسمو المعنى وعنفوان العبارة وطرافة التصوير . يقول فيه حافظ إنه على رأس أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد ، وصدعوا قيود التقييد ، وأوسعوا صدر الشعر العربى للخيال الأعجمى . كما يقول فيه شوقى إنه هو المؤلف بين الأسلوب الافرنجى فى نظم الشعر وبين النهج العربى ، فطران رائد مدرسة شقت للشعر طرقا وعرة ، أسسها على مواهب من دقة الفكر وإرهاف الحس وسعة الخيال ، وصادق العاطفة ، ما أنشد شعرا لا يجاوب شعوره الصحيح ، أو فكره السليم . تتجلى قوة صنعته فى الجمع بين الفكرة الطريفة والعبارة المتينة أو الرشيقة .

ويقول فيه الدكتور طه حسين : « عرفت مطران معجبا بشعره ، مؤثرا له على شعر المعاصرين جميعا ، وكنت أسمع شعره وشعر حافظ وشوقى فأوثر شعر مطران فى وجه حافظ وشوقى ، لا احتياط إلا فى ديباجته التى كنت أراها مقصرة عن معانيه بعض التقصير . وكان حافظ وشوقى يسمعان ويعرفان ولا ينكران ، وكنت أزعم لهما جميعا أن مطران فى المحدثين كأبى تمام فى العصر القديم ، وأنهما وغيرهما من الشعراء يعيشون حول مطران كما كان شعراء العراق والشام يعيشون حول أبى تمام ، وكنت أهون على حافظ فأحدثه حديث البحترى حين قال فى بعض مجالسه وقد ذكر أبو تمام : إنه الأستاذ والرئيس والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له المبرد وكان حاضرا لمجلسه لله أنت يا أبا عبادة أى الله إلا أن تكون كريما من جميع جوانبك ، وكان حافظ رحمه الله إذا سمع منى هذا الحديث قال : ليكن مطران ما شئت لحسبى أن أكون كالبحترى ، ثار على القديم منذ مطلع هذا القرن الميلادى وآمن بوحدة القصيدة ، وآثر العناية بالمعنى على الاحتفال باللفظ البراق ، ونظم القصة الشعرية الرمزية والتاريخية والمتخيلة ، فى وقت كان هم وصفائه فيه التهالك على المديح المصطنع وتقليد القدامى فيما أتقنوه من الحفاوة باللفظ » .

ويقول عنه عادل الغضبان (١) : عالج مطران الشعر يوم عالجه ، فإذا فيه حذو كل شيء فى عصره ، تدفعه الملكة إلى أن ينفس عن صدره ، ويقول شعراً ، وأغلب مايكون ذلك الشعر مطبوعا بطابع التقليد والمحاكاة ، وقلما انبثقت منهما أشعة شعر جديد تختلج فيه روح العصر ، ويتسم بسمات الشاعر ، حتى تنجلى للشاعر الموهوب حقيقة الشعر ، ويستبين له فيه وضح السبيل .. وهكذا كان مطران ، نظم مقلداً ومحاكيا ، غير أن موهبة الشعر لظى يضطرم فى الفؤاد ، فحركت ريح الحياة موهبة مطران فاتقدت ، وعاد مطران إلى الشعر بعد إذ وضحت لعينيه سبله واستقام له أوده ، فتغنى وصدح وكان من غنائه : « فتاة الجبل الأسود » و « مقتل بزرجمهر » و « الجنين الشهيد » و « أشعة رنجتن » ، إلى قصائد أخرى من هذا الطراز كانت الأسس فى بنيان الشعر الحديث . طلع مطران على العالم العربى بهذا الشعر الحديث ، فأكبره فريق وازور عنه فريق ، وكذلك شأن الناس فى كل جديد ، إلى أن استقرت الفكرة فى نفوس الشباب اليوم بعد اعتمال ، فنهضوا يسلكون هذا النهج الجديد ، ويبرز فيه من اجتمعت له موهبة الشعر وأدوات البيان ، وكيفما كان الأمر فشعر الخليل مرآة عصره وبلاده ، رثى وواسى ، ومدح وهنأ ووصف ورسم وعلم وهذب ، وجمع وسجل ، وثار واستثار ، ورضى واسترضى ، وبح مرقه بالسحر ينفثه أفانين وألوانا ، ويخلد على الزمن فضائل النفوس ومآثر الكرام ، ويصور فى « حكاية عاشقين » أعلى درجات السمو فى الحب والوفاء . . أما فن مطران فتتعدد الجوانب ، فقد تجلى وحيه وفنه فى ثقافة شاملة وعلم واسع وعقل كبير يوازن بين الكليات والجزئيات بحيث ينفض قلمه عن القصيدة الواحدة فإذا هى خلق سوى جميل الهيكل متناسب الأعضاء ، وآية هذا أنه يعرف مايريد أن يقول ويعرف كيف يضع معانيه مواضع استحقاقها ويوفق بين حلقاتها ؛ فهو الذى يقودها ويعين مواقعها فلا يستسلم لها ولا يعنو لجور قافية أو تركيب . . وفن مطران جلى فى تقصى المعنى والإحاطة به إحاطة تامة لا يند عنه شعاع منه مهما دق واستتر فأكثر تشبيهاته صور كاملة ، وحسبنا أن نشير منها إلى مثل واحد فيه كل الغناء ، رثى مطران أخاه شوقى وناح عليه نوح المفجوع بالأخ الشقيق ، ثم عرضت له عبقريته ، فشبهه بالنيل ولكن أتراه قنع بالتشبيه العابر ؟ كلا فقد مضى فيه إلى أبعد دقائق التشبيه فقال :

---

(١) مجلة الكتاب عدد مايو ١٩٤٧

فأرى مثالا رائعا فى صورة ... للنيل تمـــلأ منه عين الرائى
النيل يجرى فى عقيق دافق ... من حيث ينبع فى الربى الشماء
يسقى سهول الريف بعد حزونه ... ويديل عمرانا من الاقواء
مايعترضه من الحواجز يعده ... ويعد إلى الإحياء والارواء
حتى إذا رد الفيافى جنة ... فيها عـــلا ودنا من الأرجاء
أوفى على السد الأخير ودونه ... قرب المصير إلى محيط عفاء
فطفى وشارف من خلاف زاخراً ... كالبحر ذى الإزباد والارغاء
ثم ارتمى بفيوضه من حالق ... فى المهبط الصادى من الجرعاء
فتحدرت وكأن منهمراتها ... خصل من الأنوار والأنداء
مسموعة الايقاع فى أقصى مدى ... جذلى بما تهـــدى من الآلاء
إن أخطأت قطراً مواقع غيثها ... أحظته بالمهجات والأصداء
لله در قريحة كانت لهـــا ... هذى النهاية من سنى وسناء
رفعتك من علياء فانيـــة إلى ... ما ليس بالفانى من العلياء

وعلى هذا الغرار تجرى صور مطران فى قصائده زاخرة بألوان الخيال والجمال ، ويتحدث عنه صديقه الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، فيقول (١) : قل بين أعلام الأدب والشعر والفن من تهيب الحديث عنهم ، تهيبنا الحديث عن مطران الذى ولدت الرومانسية والرمزية الحديثة فى العربية على يديه قبل مطلع القرن العشرين ، فإن المنن الضخمة التى أسداها هذا العلم الشامخ إلى الأدب العربى الجديد نظما ونثرا ، وشرف بها مصر وطنه المختار ، فوق تقديرنا ، لقد أشرب مطران حب الحرية منذ صغره ، وتمكن منه هذا الحب إلى نهاية أجله ، طلع مطران على الشعر العربى وخير ماظهر منه حينئذ التجديد الكلاسيكى الذى أنجبه محمـــود سامى البارودى وشكيب أرسلان ، فأشرق بفنون من الشعر الأصيل نبه اليها روحه الانسانى ومطالعاته العالمية الحية وان تكن تلك المطالعات باللغة الفرنسية ، ولازمه طول عمره حب الاطلاع الواسع هذا ، فانتظم المعرفة بآداب كثيرة من غربية وشرقية بله الأدب العربى الصميم القديم والمعاصر ، وهكذا مج الأدب الجديد من ألوان الرحيق الشهى ما أثر فى جميع رواد الشعر الحديث على اختلاف مشاربهم ، بفضل هذا المعلم المرشد الملهم ، الذى خلق آفاقا جديدة من التأمل والاحساس

(١) مجلة الأديب ـ عدد أكتوبر ١٩٥٣

والتصوف حتى استحق أن يدعى شاعر العربية الابتداعى الأول ، وما كان الشعر العربى فى أى وقت فقيراً فى المذهب الواقعى ولا فى الحكم التجريبية والأمثال الفلسفية ، فلم يجىء مطران ولا أحد بعده ببدعة فى هذا الباب ؛ اللهم إلا فى أسلوب التناول الفنى الطلق . وإنما جاء مطران وتلاميذه بما هو أعظم ، جاء مطران بمذهب الحرية الفنية الصحيحة التى تحترم شخصية الشاعر واستقلال الفن عن الصناعة والبهارج والأناقة الزخرفية وكل ما يفرض العبودية على الفن من ألفاظ وقيود اتباعية لا يحتملها الجمال المطبوع وأصالة الفن . دعم مطران وحدة القصيدة وشخصية الشاعر وعزز رسالته كما تدعم الديمقراطية حقوق الانسان ، وفتح له باب الحياة على مصراعيه ، كما أفسح له آفاق الخيال ، وأبرز له كل شىء فى هذا الوجود ـ صغيراً كان أم كبيراً ـ كموضوع شعرى خليق بعنايته وأهل للتناول الفنى إذا ما استطاع الشاعر أن يتجاوب معه ، وحبب إليه الموضوعات الانسانية بدل الاقتصار على العواطف الذاتية فحسب ، وأقنع شعراء مدرسته بأن على كل منهم رسالة مثالية لابد له من أدائها ؛ وليست وظيفة الشاعر أن يكون نظاما لغويا او بين المرتلين الانتهازيين ، بل عليه أن يكون بين زعماء الفكر ورسل الوجدان ودعاة الاصلاح وأعلام الايمان لجيلهم ولما بعد جيلهم ، وأن يجمع بين كل القيم التى تؤهل للزعامة الروحية والعقلية والتى تزاوج ما بين أحلام الشاعر وحكمة الفيلسوف الواقعى . بهذه التعاليم وما إليها أنجب مطران وتلاميذه إنجابا ممتازا شرف العربية كما أغنى الأدب الانسانى الصادق ؛ ولئن كانت لمطران مناسبات شتى لقصائده العامة تبعا للأوضاع الاجتماعية والسياسية فى مصر والشرق العربى ، إلا أن جميع هذا الشعر زاخر بكل العناصر الرفيعة التى يتميز بها شعره ، كيفما كان عنوانه وموضوعه ومناسبته . وعاطفة الحب التى ألهبت فؤاد مطران فى صباه ثم ألقته فى لجة الحزن العميق بقية حياته هى دعامة الزاوية فى بنيان شعره الوجدانى وهى التى أسبغت الحنان على إخوانياته العديدة ، من ذكريات وتقدير ورثاء ، والتى حفل بها ديوانه الرائع ، ونماذج الخيال الشعرى المدهش فى قصائده أعظم من أن تحصر ، ومن أقدمها قصيدته « فنجان قهوة » ، وقد نظم خليل مطران الكهل والشيخ الروائع مناضلة عن الحرية والديمقراطية والكرامة الانسانية ، فغذى بها الشعور الوطنى جيلا بعد جيل .

وقد أقيم لمطران فى آخر مارس عام ١٩٤٧ حفل تكريم ، تقديرا لجهاده الأدبى وذلك قبل وفاته بعامين . . ومات صديقه أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام فى

يناير ١٩٤٨ ، فرثاه بهذه القصيدة :

لما يكد يسبق القضاء نذير ... وتقضى عمر وتم مصير
إن رزء الجميل العلم الفر ... د لرزء فى المشرقين كبير
إن بكته وأجمعت أمم الضا ... د فمن مثله بذاك جدير ؟
كم فتى كان فى فتاها المسجى ... يملأ العين فضله الموفور
وبح قلبى طال الثواء وحولى ... دائرات على الرفاق تدور
لا اعتراض على القضاء ولكن ... كل يوم مصاب ، هذا كثير
ماذمامى ، ماتجدق ، ماوفائى ... ان يك النوح فالفداء يسير
أسفا أيها الرفيق المولى ... والأخ البر والصفى الأثير
قد تقدمت فى الحياة فهلا ... سرنا فى بقائك التأخير
أخلا المجلس الذى كان يغشا ... ه أديب ونائب ووزير ؟
وسراة إن فرقتهم شجون ... فلكل أنس به وسرور
يلتقيهم حلو الفكاهة طلق ال ... وجه ثبت الجنان سمح وقور
أين تلك الأسمار كانت بها نص ... فو الليالى وأين ذاك السمير
يا لقومى مثال أنطون لوصو ... رته لم يحط به التصوير
كيف وصفى ماجل أو دق منه ... والضنى مقعدى فمن لى عذير ؟
خلق كامل وطبع رقيق ... وذكاء جم وجاه وفير
وخلال من معدن الأدب الزا ... هى بأنواره لهن صدور
عالم عامل له أثر فى ... كل ماينفع الحمى مأثور
كاتب نسج وحده وخطيب ... ماله فى المناظرين نظير
لم يزاول نظم القريض ولكن ... بز أسمى النظيم منه النثير
إن علا منبرا القول فما فى ال ... محشد إلا التهليل والتكبير
شأنه فى الشيوخ بلغه غا ... ية مايبلغ الحصيف الصبور
واسع الصدر والحوادث قد تشـ ... تد حتى بها تضيق الصدور
فى الأمور الصعاب يمضى فمايثـ ... نى عنانا حتى تراض الأمور
صحفى فى كل مطلع شمس ... يبعث الرأى بالهدى وينير
تخذ الصدق فى السياسة نهجا ... وعداه التضليل والتغرير

من أعـــلام الشعراء المحدثين

— ١ —

كان العصر الحديث يزدان بشعراء موهوبين فى الشرق العربى . . وكما ازدانت الهند بإقبال شاعر الاسلام ، وتاغور شاعر العاطفة العالمى . كان شوقى شاعر القصور ، وحافظ شاعر الشعب والقومية ، والزهاوى شاعر الثورة على التقاليد والجمود ، والرصافى شاعر القومية العربية ، وصبرى شاعر العاطفة الغنائية الرائعة . وحفنى ناصف شاعر المصرية بأخص أوصافها ، والكاظمى شاعر الآلام والأشجان والحنين إلى الوطن والدفاع عن المظلومين .

وقد اختلف الناس فى حافظ وشوقى ، فرفع فريق من النقـــاد مكانتهما فى الشعر المصرى الحديث إلى القمة ، وأزرى عليهما فريق آخرون ، ومنهم العقاد والمازنى وطه حسين . وكانت المنافسة على أية حال شديدة بين الشاعرين ، فلكل منهما أنصاره . وكان الناس يرون فى شوقى أنه شاعر « الرسميات » والمجاملات ، ولكنه تغير بعد منفاه ونظم روائعه ومسرحياته الباقية . . أما حافظ فكان الجمهور يرونه شاعر مصر الوطنى المعبر عن آمالها وآلامها ، يصور الجهاد الوطنى ويستجيب له

والكثيرون من النقاد يفضلون الشاعرين على مطران ، وإن تعصب لمطران دعاة التجديد ، ورفعوا من منزلته الشعرية ، ونوهوا بروائعه فى التجديد .

وللناقد الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى دراسة قيمة لمطران وشعره نشرت فى مطبعة المقتطف عام ١٩٤٩ ، وهى من أجمع الدراسات عن مطران مع صغر حجمها ، وعنوان هذه الدراسة « خليل مطران الرجل والشاعر » ، وقد أشاد فيها بمكانة مطران الرفيعة فى الشعر المعاصر .

ويرى كاتب أن خليل مطران رأس حركة جديدة فى تاريخ الآداب العربية ، وأنه قـــد حول مجرى الشعر العربى من الذاتية إلى الموضوعية . فلقد تجرد عن ذاتيته ، ونظم فى الأمور الموضوعية ، فكان شعره متحد الأجزاء كامل الوحدة . نقرأ قصيدة لخليل مطران فاذا بنا أمام فكرة استلهمها من التاريخ أو من حادثة شاهدها ، أو ذكرى مرت عليه ، فصاغها بخياله الواسع شعراً ، وهو لاينسى هذه الفكرة من أول القصيدة إلى آخرها ، فهى فى كل بيت من أبياتها ،

فالقصيدة عنده وحدة كاملة ، على أن خليل مطران لم يشأ ان يقطع الصلة بينه وبين أسلافه ومعاصريه ، فنظم فى التهانى والرثاء والمديح والتكريم أيضا . والحق أن الانسان مهما أراد أن يتجرد من ماضيه وحاضره فلابد أن يؤثرا فيه شاء أم أبى

ولما مات حافظ إبراهيم وأحمد شوقى كتب طه حسين يقول إن إمارة الشعر قد انتقلت بعد وفاة الشاعرين الكبيرين من مصر إلى العراق . فهاج هذا القول أدباء لبنان ، فكتب أحدهم مقالا انتقد فيه رأى الدكتور طه أشد الانتقاد ، وقال كيف تنتقل إمارة الشعر إلى العراق وفى مصر مطران ؟ فرد الدكتور على هذا الانتقاد بأن خليل مطران يختلف فى شعره عن شوقى وحافظ ، وأن مذهبه فى الشعر يباين مذهبهما فيه ، فمن الطبعى أن لايكون خلفاً لشوقى فى إمارة مذهبه .. وللدكتور طه فى شعر مطران رأى أكثر وضوحا وبيانا نقتطف منه مايلى : « مطران ثائر على الشعر القديم ، ناهض مع المجددين ، وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه فأعرض عن الشعر ، ثم اضطر فعاد إليه ، وحاول أن يعود إليه مجدداً لامقلداً ، وهو ينبئك بأنه يعرض عليك فى ديوانه شيئا من شعره القديم لتتبين به مقدار ماوصل إليه من التجديد ، وهو متواضع لايزعم أنه بلغ من التجديد مايريد ، وإنما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده . وهو شجاع لايعتذر ولا يتلطف ، وإنما يعلن ثورته على القديم واغتباطه بالعصر الذى يعيش فيه وحرصه على أن يلائم بين شعره وبين هذا العصر ، وهو معتدل ، فهو لا يرفض القديم كله وإنما يحتفظ بأصول اللغة وأساليبها فى حرية ، كما يتأثر القدماء فى إطلاق فطرتهم على سجيتها ، لايكظم فطرته ولا يغشيها بالأستار الخداعة الخلابة . وله فى جمال الشعر مذهب ، إن لم يكن واضحاً كل الوضوح ، ولا مبتكراً كل الابتكار ، فهو على كل حال مذهب قيم ، لأنه يمثل شيئا من المثل الأعلى الفنى فى هذا العصر ، فهو يكره هذا الشعر الذى تستقل فيه الأبيات وتتنافر وتتدابر ، ويريد أن تكون القصيدة وحدة ملتئمة الأجزاء » .

وكان أبو شادى يجاهر بأنه يعد مطرانا زعيم المجددين وشوقيا زعيم الشعراء المحافظين ، وحافظا الشاعر الشعبى فى عمود ثلاثة ، ويقول أبو شادى : إن شوقيا مازال أرق شعراء العربية وأعذبهم أسلوبا ، إذا ما أرسل شعره إرسالا ، وإن انحطت مرتبته الفنية فى زمنه الأخير . . ويعترف بأن لشوقى أيادى سابغة على الأدب والتجديد ، دع عنك الجيد الممتع من منظومه الذى لايخجلنا ترجمته إلى

لغة أوربية ، وإن كان ذلك فى مقطوعات معينة فى الغالب ، وإذا نظرنا إلى مطران وجدناه الشاعر العصرى صاحب الأوصاف والقصص والموضوعات الطريفة الباقية بجدتها ، الذى تتمثل دائما شخصيته فى شعره ، ولا يتطرق إلى أدبه التكلف وحب المحاكاة والشغف بمعارضة القدماء وغير ذلك من أنواع العبث الصناعى ، ولمطران نزعة إنسانية عالية وإخلاص لأدبه ، فشعره شعر فنى وإنسانى ليس شعر اللغة العربية وحدها . وأما حافظ فشعره شعر الجمهور والمجتمع ، وقد عيب عليه هذا النوع من الشعر مع أنه لاغنى للمجتمع عنه فى وقتنا هذا لاسيما فى مصر والشرق العربى ، ولن يعوق تفنن الشاعر إذا شاء ذلك وسمحت له مواهبه ، وأحسب أن حافظا بكسله وإصغائه للنقاد الجامدين هو الجانى وحده على شعره ، لأنه يلجأ كثيرا إلى اتهام عقله ، ويتخلى عن الكثير من شعره المطبوع المرتجل فتكون النتيجة تصنعا وفشلا فى أكثر الحالات ، ولكن له مع ذلك حسنات معدودة . .

وكان شوقى شاعر البلاط فى زمنه ، وكان يتتلمذ على المتنبى ويحاكيه ويعارضه ويقتبس منه ، كما كان مرآة للشعر الفرنسى ، ولم يكن يوما ما شاعر الشعب بالمعنى الصحيح كما كان حافظ إبراهيم ، ولم تكن له نفسية المتنبى بأية حال كما عرف وسجل ذلك المستقلون من معاصريه النقاد والأدباء النزيهين . ولقد برغ نجم شوقى فى زمن تألق فيه نجم خليل مطران وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم بصفة خاصة ، فكانت لمطران رسالة مستمدة من الانسانية أولا ومن القومية ثانيا ، إلى جانب شعره الوجدانى وشعر الطبيعة المنوع ، وكانت رسالة إسماعيل صبرى وجدانية وطنية صرفة وأقلها الجانب الوطنى ، وأغلبها شعر العواطف المترفة التى لاتحمل أية رسالة فوق المتعة الموسيقية والأناقة الفنية للترويح عن النفس . وكانت رسالة حافظ وطنية سياسية شعبية إلى أبعد غاية ، وإن حفظت له نماذج رائعة فى شكوى الزمان . وأما رسالة شوقى فكانت التغنى بمجد مصر ثم بتاريخ الاسلام والعرب تسعفه فى ذلك ثقافته التاريخية ، ولاريب أن شوقيا كان صادقا فى تاريخياته المنوعة التى تجلت فيها عبقريته ولم يبزه أحد فيها . وتفوقه فى هذا المضمار جدير بالتمجيد والتبجيل ، وإنها لرسالة ذات قيمة كبيرة لايعاديها أى إنسان حصيف ولا أى ناقد منصف ، إلا إذا جاز أن يعادى من يسجل أمجاد التاريخ القومى بإخلاص ولذة بل وشراهة . لقد كانت المتنبى شخصية واحدة بارزة تجلت فى شعره ، أما

أحمد شوقى وعباس محمود العقاد وإيليا أبو ماضى وأمثالهم، فمن أولئك الشعراء الذين لهم جملة شخصيات ، وأحمد شوقى بصفة خاصة لايدل شعره على شخصيته إطلاقا ، بل ربما كانت عكس مايصور فى شعره كما يشهد بذلك جميع معاصريه من المؤرخين . وقد عمل المتنبى فى مصر على تأسيس مدرسة شعرية قوية ، وأحبه مفكروها ، وإن كرهه ولاتها . ولم يكن كذلك شأن شوقى الذى بر به شعراؤها الشباب حتى بعد مماته ، ومع ذلك كان يغار حتى ممن كانوا يعدون فى حكم تلاميذه . وكان للمتنبى غرور عبقريته ، وكذلك كان لشوقى غروره ، ولكنه جعل من حوله يقومون بالمعارك من أجله بينما تحدث هو بالسلام ! ولا ريب أن أحمد شوقى فى بحمل شاعريته وآثاره مرحلة تقدمية فى الشعر . ولقد أثبت أحمد شوقى بألمعيته كفاية العربية لاستيعاب المعانى العصرية فى أسلوب كلاسيكى ساحر يمرح فيه الخيال كما تتدالل الموسيقى والمعانى وتتألق الصور فتنة للقارئين . وشعر حافظ الوجدانى يمثل إنسانيته البرمة بالمفاسد ، كما يمثل مرحه وظرفه ، ومنه مايمثل تعاطفه البشرى فى النكبات والأحداث العالمية . ولكن أعظم مايمثله حافظ هو مصر التى أحبها ودللها وزجرها وأرشدها ودافع عنها ، وسخر من كل من حاول أن يثنيه عن إيمانه وجهاده وأن يستحوذ على قيثارته . حافظ هو مصر العاتية الحاضرة ، لامصر القديمة التى احتفى بها شوقى أجمل احتفاء ، ولامصر الإسلامية التى نافح عنها أحمد محرم ، فشاعرنا بسمائه وروحه هو هو مصر البائسة الوجلة المتيقظة المترددة المتقدمة ، هو مصر الشاعرة . لم تكن لحافظ ثقافة شوقى التاريخية أو الأدبية الفرنجية ، فلم تكن له آفاق شوقى ، بل ولا آفاق غيره من شعراء الشباب المتضلعين من الآداب العالمية ، أو أولئك الذين جمعوا بين المعارف الأدبية والعلمية ، ولكن طبع حافظ الشعرى كان أصيلا جذابا ، ولحافظ مفاتن وصفية وحكم سائرة ، وكلها تشع بروح تقدمية جذابة ، وإن اتبع غالبا المذهب الواقعى فى عرضه(١) » .

— ٢ —

ويرى (٢) أبو شادى أنه يجمع بين مطران وشكرى الأدب والفن والانسانية ، أما مطران فبعد أن تشرب كلا من الأدبين العربى والأوربى أسمعت قيثارته العرب

---

(١) ٢١٥ و ٢١٦ رائد الشعر الحديث (٢) ٢١٨ رائد الشعر الحديث .

فى العقد الأخير من القرن الماضى ألحانا لاعهد لهم بها من قبل ، وقد دار ابتكاره حول التناول الفنى للطبيعة البشرية فى صورها المتعددة ، ومن بينها نفسه فى حالاتها المختلفة ، مراعيا وحدة القصيدة ، غير متهيب تطويع اللغة للمعانى والأخيلة الشعرية ، موشيا شعره الأصيل بالرومانطيقية الفرنسية اللطيفة ، وخالقا بجرأته ومواهبه مدرسة متحررة ، وأثر فى ذلك الحين فى أدباء كثيرين من الشبان كشوقى وصبرى ومصطفى نجيب ، واستمر تأثيره الأدبى فى صور شتى جيلا بعد جيل . لقد تفرعت على تعاليم مطران مدارس شعرية متحررة متنوعة ، منها مدرسة شكرى التى انتسب إليها المازنى والعقاد ، ولكن البون شاسع بين الأستاذ وتلاميذه . ولا نعرف لشكرى ما يمكن أن ينعت بالشعر التقليدى إلا ما نظمه غناء ، وهو فى ديوانه الأول يطلع علينا بفرائد ابتداعية شائقة ، ويحمل علم الشعر المرسل . وما عدا عبد القادر المازنى لا نعرف أحدا من تلاميذ شكرى احتفظ فى الغالب برقته الوجدانية العذبة . . وقلده الآخرون فى تفكيره ونظراته وفى الجامد من أساليبه . لقد عنى شكرى بالجانب الفكرى التأملى ، وبتجديد ما خلفه أمثال المعرى وابن الرومى وملتون وپوب ، وبالمزاوجة بين هذه التأملات الفكرية النفسية والتأثرات الوجدانية والانطباعات الصوفية والعاطفية والطبيعية ، وقد شجعته وألهمته وثبات مطران الرومانطيقية قبل عهده بعقدين ، ولكن شكرى عب من الأدب الانجليزى بدل أن يعب من الأدب الفرنسى ، الذى استوى مطران فى صباه ، وكذلك نجد شكرى الرائد المحلق فى الشعر المرسل ، إلى جانب عظمة معانيه العميقة المتغلغلة

ويقول عبد الرحمن شكرى (١) : إنه تأثر فى مطلع حياته الأدبية ببشار بن برد والحسن ابن هانىء ومسلم بن الوليد والعباس بن الأحنف وأبى تمام وابن المعتز والشريف الرضى والمعرى وغيرهم ، وقد أفاده المتنبى ومنعه عند اطلاعه على الشعر الاوربى من الاندفاع وراء الأوهام والمغالاة والتجارب العقيمة ، ولاسيما أن هذا الاطلاع وهذا الاحتذاء للشعر العباسى العالى فى كتاب الوسيلة الأدبية وغيره من الكتب كانا فى سن مبكرة جداً ، كما تأثر بشعر التنميق والصنعة العباسية قبل أن يتأثر بشعر العاطفة العذرى الذى هو أقدم منه زمناً ، ولو أن الصنعة العباسية فى بعضها عبث فى العاطفة الفنية ؛ ولم يتأثر بشعر الشعراء العذريين من شعراء العرب إلا بعد حين ولعل اطلاعه على نسيب كتاب « الذخيرة الذهبية » فى الشعر الانجليزى

(١) من مقالة له بعنوان « الشعر والثقافة » ـ مقتطف يونيو ١٩٣٩ .

ونسيب بيرون وشلي قال من مغالاته فى عبث نسيب الصنعة العباسية وأكسبه شيئا من العاطفة الفنية وقد علمه بيرون نشدان الحرية وإن كان لا ينتصر لها على طريقة السياسى ، وإنما على طريقة الشاعر ، كما فى قصيدة « الحرية » و « العصر الذهبى » وغيرهما ، وقد كان يحب شلى أيضا من أعماق قلبه .

— ٣ —

وكذلك كان إسماعيل صبرى من شعراء مصر المعدودين فى مطلع القرن العشرين ، وقد استقبل الحياة فى ٢٠ فبراير عام ١٨٥٤ حيث كانت حركة الإحياء الأدبى سائرة فى خطاها الجادة العاملة ، وتزود صبرى بكثير من الثقافات الأدبية القديمة ، وقرأ طويلا فى الشعر العربى وأحبه محاولا تقليده ونظمه ، فى قصائد هى مجرد تقليد واضح فى أغراضها ومعانيها وأساليبها وخيالها للشعراء الكبار فى عصره : كالبارودى وعبد الله فكرى . وإن ظهرت عليها حينا مسحة رقيقة من جمال روحه وشخصيته ، ثم أخذ يقرأ بحكم ثقافته فى الأدب الفرنسى ، ثم سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق فى جامعاتها . . تأثر بالبحترى فى روحه الغنائى كثيرا ، وتأثر بألوان من الخيال فى الشعر العربى ، وببعض مميزات الشعر الفرنسى ؛ فلما استوى سنه ، ونضج شعره ، بدأت شخصيته الأدبية تظهر بوضوح فى قصائده ، وخاصة تلك التى نظمها يصف بها عواطفه ومشاعره ، ويتغنى فيها بأناشيد الهوى والحب والجمال والحكمة والتصوف والروحية العميقة والوطنية ؛ وكان شعره يجمع بين عمق المعنى وحلاوة اللفظ ، فى بساطة وصدق وقوة عاطفة ؛ وكان يكره الصنعة والتعمل والتعقيد .

ويقول فيه طه حسين فى المقدمة التى كتبها لديوانه : أجمع الجيل الذى عاصر صبرى على أنه كان شاعرا ممتازا ، وعلى أنه كان علما من أعلام الشعر فيه ؛ وكان صبرى مقلا شديد الإقلال ، ولم يكن يتخذ الشعر صناعة ، وإنما كان يتخذه لونا من ألوان الترف ، وفنا من فنون الامتياز العقلى والأدبى الرفيع ؛ تفكه صبرى فى شعره بعض الشىء ، ولكنه لم يعرف الفكاهة الخاصة التى تنتهى إلى الضحك لا تتجاوزه إلى شىء آخر . وفى الشعر السياسى لصبرى هذا الروح المصرى الذى نعرفه فى شعر حافظ وشوقى ، ونعرفه فى حياة الجيل كله ، هذه الوطنية الحادة الطامحة إلى مثل أعلى غير محدود .

على أن صبرى على قلة منظومه ، كان شاعرا واسع الاطلاع ، موفور الثقافة قوى الخيال ، متعدد الجوانب والآفاق الشعرية . نظم أجمل المقطعات فى الغزل والوصف والاجتماعيات والوطنيات ، وتفوق تفوقا نادراً فى الشعر الصوفى وفى المراثى ، وتجلت موهبته المصرية الأصيلة فى أغانيه . . فأما غزله فرقيق ، عذب عذوبة الطبع المصرى ، تمازجه حسرة الفلاسفة ، ويشوبه أسف الحكماء وإحساسهم بفناء كل ما فى الحياة من متع الحب وأحلام الهوى ، فناء مطرداً مروعا ، ومن نماذجه قوله :

تزود من الأقمار قبل أفولها ... لظلمة أيام الفراق وطولها
فرب وداع ينفع المرء بعضه ... إذا رضيت نفس امرىء بقليلها
غدا تفعل الأشجان بالركب فعلها ... وتجتث هاتيك المنى من أصولها
ويدرى أخو الأشواق سر هلوعه ... لذكر النوى والخوف قبل نزولها
لقد بوغتت تلك المنى فتصرمت ... ولم تقض منها النفس أيسر سولها
أأنت رزين أيها القلب فى غد ... كمهدك أم سار وراء حمولها

ولقد يبرح الحب بالشاعر ، وتهتاجه الذكرى ، فيشعر بوحدته ، ويلمس عذاب قلبه ، ويدرك أن ذكريات الماضى لن ترد إليه سعادته ، فينشد صائحا متحرراً :

اقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ... ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا ... حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

وحين يحس دل حبيبه ، وصده وجفاءه وإعراضه ، يعاتبه فى رفق هذا العتاب الجميل :

لما تبوأ من فؤادى منزلا ... وغدا يسلط مقلتيه عليه
ناديته مسترحما من زفرة ... أفضت بأسرار الضمير إليه
رفقا بمنزلك الذى تحتله ... يا من يخرب بيته بيديه !

فهذه البساطة فى التعبير تدلنا على أن الشاعر قد عرف الحب حق المعرفة فلم يمثله بخياله بل صوره بقلبه النابض ونفسه المختلجة حرارة وحياة . . وأما الوصف فقد نبغ فيه إسماعيل صبرى نبوغا لا يقل عن نبوغه فى الغزل . فعينه الثاقبة شديدة الملاحظة ، لا يغيب عنها شىء . ومن هنا كان شعره الوصفى أقرب ما يكون إلى تمثيل الواقع تمثيلا دقيقا ، لا يطغى عليه الخيال فتضطرب معالمه ، ولا تنوء عليه الاستعارات فتقطع الصلة بينه وبين الحقيقة ، بل على النقيض تدنيه منها وتضاعف

تأثيره قوة وفتنة ، كما ترى فى هذه الأبيات التى يرسم فيها لمحات البرق والسحاب :

أبرق يتوج هـام الربى ... وإلا فهاتيـك نار القرى
كأن سنـاه عيون مراض ... يحاولن تحقيق شمس الضحى
وإلا فتلك مصابيح قبـل ... طفاء يثرن لصدع الدجى
وإلا فتلك سيوف تميـل ... بأيدى كماة عراهـا الونى
وإلا مواطىء خيـل على ... صخور تطاير منهـا اللظى
تكاد تطير اشتياقا لهـا ... إذا أشرفت ظامئات الربى
كأن الثرى رام تقبيلها ... فمد اليهـا رؤوس الزبى
إذا هى مرت بواد محيـل ... وجرت عليـه ذيول الحيا
كسته مطارف من سندس ... وأنست جوانبـه ما ظما !

ويتفرد فى الاجتماعيات والوطنيات ، بنظرات حرة ، ونزعات تجديدية ، وعواطف تجيش حماسة ونخوة . فشعره الاجتماعى مثال التركيز والقدرة على حصر الفكرة الكبيرة فى أضيق حيز ممكن ، بحيث تثبت فى الذهن وترسخ فى قرارة النفس ، كقوله :

يامن تزوج باثنتين ألا اتئد ... ألقيت نفسك ظالما فى الهاوية
ما العدل بين الضرتين بممكن ... لو كنت تعدل ما أخذت الثانية

ويمتاز شعره الوطنى بفيض ايمانه بواجب إنهاض أمته وابلاغها بين شعوب العالم المتحضر المكانة الخليقة بماضيها المجيد . وأما شعره الصوفى فيدل على ولع شديد بالتأمل التجريدى ، وعلى رغبة عميقة فى التطلع الى ماوراء الطبيعة واكتناه سر الأشخاص والأشياء ، والاتصال بالقوة الخالقة العليا . والواقع أن الأصل فى سمو شاعرية اسماعيل صبرى ، وحبه البساطة ، وغرامه بالصدق ، كامن فى نزعته الصوفية . . . وأخيرا توفى صبرى فى ١٦ مارس ١٩٢٣ .

— ٤ —

وهناك شاعر كان يعاصر صبرى ، وهو ولى الدين يكن ، الذى ولد فى الأستانة عام ١٨٧٣ ، وجاء به أبوه الى القاهرة فى فجر حياته ، ثم فقد والده وهو دون السادسة ، والتحق بالمدرسة ، حيث تتلمذ على أستاذه الشيخ محمد النشار ، ثم التحق

بوظائف النيابة ، مع ميل شديد إلى الأدب والشعر .

وتنقل بين الأستانة والقاهرة ، وأصدر جريدته « الاستقامة » ، ثم نفاه السلطان عبد الحميد إلى « سيواس » ؛ ولما أعلن الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ عاد من المنفى ، فالتحق بخدمة خديوى مصر . ويكن شاعر مصرى رغم أصله التركى ، فقد نشأ وتعلم وقضى معظم حياته فى القاهرة . وله شعر متنوع فى كثير من أغراض الشعر وفنونه ، نظمه فى السياسة والاجتماع والوصف والمدح والرثاء والحكمة والمثل والشكوى والحنين ، وله ديوان مطبوع . يقول لعبد الحميد متهكما ساخرا :

تجود بالعفو لكن لست تضمره كما يجود مريض الموت بالمال
ماذا يؤمل من آتيك ذو أمل وأنت ماضيك لا يلتام بالحال

وقال يعارض قصيدة شوقى التى قالها فى وداع عبد الحميد عند ماخلع عام ١٩٠٩ ، والتى جاء فى مطلعها :

سل يلدزا ذات القصور هل جاءها نبأ البدور

يقول الشاعر فى ثورة وطنية عميقة ، يخاطب شوقى :

هاجتك خالية القصور وشجتك آفلة البدور
وذكرت سكان الحمى ونسيت سكان القبور
وبكيت بالدمع الغزيـ ـر لباعث الدمع الغزير
ولواهب المال الكثيـ ـر وناهب المال الكثير
إن كان أخلى يلدزا مخلى الخورنق والسدير
أو فاستسرت من سما ها أنجم بعد الظهور
فلتأهلن من بعدها آلاف أطلال ودور
بعض النجوم ثوابت والبعض دائمة المسير

ويدافع عن الزهاوى الشاعر حينما أسر ، فيقول :

أسير بدار الظلم أعياه آسره أما من فتى فى الناس حر يناصره
أفى الناس أحرار وفيهم أحبة فما لأخيهم لا يرى من يؤازره ؟
عفاه على الزوراء بعد (جمالها) إذا ربعه المعمور أخلق داثره
ألم به خطب من الجور فادح كما انقض باز أقتم الريش كاسره

أحين هوى عبد الحميد بعرشه وغبره بالذم فى الناس غابره
يقوم رجال يستعيدون عهده وفينا نيازى قائم وعساكره
ألا قد بغت هذى العمائم بغيها فدارت على القوم الكرام دوائره

— ٥ —

أما الشاعر حفنى ناصف فقد توفى عن ثلاثة وستين عاما ، وذلك فى الخامس والعشرين من فبراير عام ١٩١٩ ، حيث قضى حياته مجاهدا فى سبيل الوطن والأدب والعربية والتعليم والقضاء .

ولد بعد وفاة والده بثلاثة أشهر فى « بركة الحج » ، وقدم إلى الأزهر وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، حيث درس فيه تسع سنين ، ثم التحق بدار العلوم واشتغل بالتدريس ثم بالقضاء ، ثم عين كبيرا لمفتشى اللغة العربية خلفا للمرحوم حمزة فتح الله ، وألف فى اللغة والأدب والنحو والصرف والعروض والدين ؛ وعمل فى الصحافة فى المؤيد والأهرام ، وله خطب فى الثورة العرابية . وقد امتاز نثره ، بالجمع بين الجزالة والسهولة الممتنعة . وابنته « باحثة البادية » لها مقام مشهور فى الأدب والشعر ، ومات من الحزن عليها بعد وفاتها بقليل .

كان شعره صافى الديباجة والطبع ، ناصع الأسلوب ، بارع الأداء ، ومعانيه مصبوغة بصبغة الفلسفة العميقة السهلة التناول . وكان حفنى ناصف حريصا على التجديد فى الشعر ، ومع ذلك كان يأخذ من محاسن القديم ماشاء له ذوقه المطبوع أن يأخذ .. وصف الحرب العالمية الأولى ، فقال :

مدافع تستك المسامع دونها وتخرج من أفواههن جهنم
إذا فغرت أفواهها الكريهة تدك الرواسى ، والحصون تحطم
وسفن تبارت فى المسير أراقما إذا زال منها أرقم صال أرقم
إذا انساب منها بضعة نحو معقل فلا شىء مما يتقى الموت يعصم
وغواصة كالحوت تسبح خفية تطيح بمرماها سفائن عوم
وطيارة لا يبلغ النسر شأوها تدل على جيش العدو ، وترجم
فتنقض منها كالصواعق تارة كرات . وأحيانا تسدد أسهم
وأنبوبة تنساب منها سوائل ترد هواء الجو يعمى ويبكم
متى فارقت أنبوبها صرن صرصراً إذا اشتم منها القوم فالقوم جثم

فى الجو تصعق وفى البحر مارج ... وفى البر أعضاء تطير ومعصم
وفى كل ناد رنة وتحسر ... وفى كل دار ، أيها سرت ، مأتم
فلم يخل هم من بكاء ، ويافع ... ولم تخل منه ذات بعل ، وأيم
فياويح شبان تخوض غمارها ... وياويل شبان عن الموت أحجموا

ولم تكن النكبة تفارقه حتى فى مواقف الاستعطاف والرثاء ، ففى حفل خيرى نراه يقول :

واحسرتاه ألا يولى الجميل سوى ... أمثال «روتشيلد» أو أشباه «قارونا»
أعط القليل ، فما فى البر من حرج ... على امرىء ، وقليل منك يكفينا

ويقول من قصيدة أنشدها فى حفلة لإعانة الطلبة الأغراب فى الأزهر :

فالت إلى أذنى بغيها ، تقول لى : ... تجنب قرى الأضياف بالكرم الشعرى

وفى رثائه المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، يقول مشيرا إلى رحلتهما معا إلى فينا واستوكهلم لتمثيل مصر فى مؤتمر المستشرقين ، وكان الشيخ قد حرص هناك على زيه الشرقى :

كم فى « فينا » وفى « استكهلم » صوره ... مصور القوم عن بعد وعن كثب
وكم أحاط بنا خلق تسائلنا ... من كل منجذب فى إثر منجذب :
مليك أى بلاد ذاك ؟ قلت لهم : ... هذا الإمام مليك العلم والأدب !

وقال يرد على من أخذوا عليه إقلاله من نظم الشعر :

شعر — على قلته — جيد ... والشعر لا يمتاز بالطول
الدر بالقيراط مقياسه ... والأرض بالفرسخ والميل !

ولاحظ حفنى ناصف أن الأربعة الذين سبقوه هو وحافظ فى رثاء الإمام محمد عبده ، قد مانوا واحدا بعد واحد بترتيب وقوفهم موقف الرثاء ، فكتب إلى حافظ يقول

أتذكر إذ كنا على القبر ستة ... نعدد آثار الإمام ونندب ؟
وقفنا بترتيب وقد دب بيننا ... ممات على وفق الرثاء مرتب
«أبو خطوة» ولى ، وفقاه «عاصم» ... وجاء لـ « عبد الرازق » الموت يطلب
فلبى ، وغابت بعده شمس « قاسم » ... وعما قريب نجم محياى يغرب
فلا تخش هلكا ماحييت ، وإن أمت ... فما أنت إلا خائف تترقب
فخاطر ، وقع تحت الزام ولا تخف ... ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب

وخض لجج الهيجاء أعزل ، آمنا فان المنايا منك تجرى وتهرب

فلما عين حفنى ناصف عميدا لمفتشى اللغة العربية ، وأقيمت حفلة لتكريمه ، أشار حافظ إلى هذا المعنى فقال :

أخشى عليك المنايا حتى كأنك منى
إذا شكوت صداعا أطلت تسهيد جفنى
وإن عراك هزال هيأت لحدى وقطنى
وإن دعوت لحى يوما ، فإياك أعنى
عمرى بعمرك رهن فعش ألف قرن

— ٦ —

وفى يوم الخميس ٢ مايو ١٩٣٥ وفى القاهرة مات عبد المحسن الكاظمى الشاعر العراقى الكبير ، عن سن عالية ، وشهرة ذائعة ، وهو من الذين أسهموا فى نهضة الشعر الحديث بقسط كبير ، من السليقة الخاصة ، والقريحة الطيعة ، والبديهة التى ترتجل القصيدة المطولة عفو الساعة .. هبط الكاظمى مصر منذ خمسة وثلاثين عاما فطابت له فيها الاقامة ، ولاذ بكنف الامام محمد عبده ، وهو يومئذ موئل العلم والأدب ، فظاهر نعمه عليه كما ظاهرها على الشنقيطى وحافظ والمنفلوطى ؛ حتى اتصل سببه ، وأثمر أدبه فى حماه وتحت عينه . ولم يبتغ الكاظمى الوسيلة إلى الحياة إلا بالشعر ، لذلك نكد عيشه قليلا بعد الامام ، فرضى بميسور الكفاف من الرزق ، وبالانتاج القليل من القريض ، وأقعده ضعف القلب وكلال البصر وتقدم السن عن غشيان المجالس والأندية ، حتى استأثرت به رحمة الله .

لقد كان الكاظمى عراقى المنشأ والمنبت ، مصرى المقام والمنزل . أقيمت له بعد وفاته حفلة تأبين بدار الأوبرا فى القاهرة فى ١٠ إبريل ١٩٣٦ بإشراف الرابطة العربية ، التى كان عضوا من أعضائها ، وكان من خطبائها عدد كبير من العلماء والأدباء .

ورثاه صديقه معروف الرصافى ـ وقد توفى الرصافى بعده بسنين ، وذلك عام ١٩٤٥ ـ بقصيدة طويلة ، جاء فيها :

ليس من غاية الحياة البقاء فلذا خاب فى الخلود الرجاء
غير أن الحياة بالعز عند الـ ـحر غاية غراء

أى فخر للناعمين بعيش لم تجاله عزة قعساء
وكفى المرء بعد موت حياة أن ذكراه حلوة حسناء
قد قضى الكاظمى وهو جدير أن تعزى فى موته الشعراء
ذكرته نعاته بنعوت قبله حاز مثلها العظماء
فلئن كان ما يقولون حقا إنهم بالذى نسوا لؤماء
كيف ينسون فى الحياة أديبا عبقريا عنت له الأدباء
أفينسى حيا ويذكر ميتا إن هذا ما تنكر العقلاء
إن هذا أمر يتيه ضلالا فى بوادى تفسيره الحكماء
ضحكوا منه فى الحياة ومذ ما ت تعالى نحيبهم والبكاء
يكرم الميت بالثناء وتحيا عندكم فى المهانة الأحياء
كل من يخبر الأناسى خبرى لايبالى أأحسنوا أم أساؤا
أنا جربتهم إلى أن تساوى الـ يوم عندى سبابهم والثناء
قد تمادى فى القائلين غلو وتوالى فى الفاعلين رياء
أيها الكاظمى نم مستريحا حيث لا مبغض ولا إيذاء
عشت فى مصر باحترام يؤديـ ـه إليك الأماثل الفضلاء
أى حر فى الشرق عاش سعيداً لم تشب صفو عيشه الأقذاء
وهنيئا إن لم تعش فى العراقيـ ـن مضاعا تنتابك الأرزاء
من شقاء العراق أن ذوى النعـ ـمة فيه أجانب غرباء
إن جفتنا بلادنا فهى حب ومن الحب يستلذ الجفاء
لم تحل عن عهودها مذ جفتنا بل لها الود عندنا والوفاء
قد بكينا شجواً عليها ومنها وعنانا سـقامها والشقاء
كم أردنا سخطا عليها ولكن غلب السخط فى القلوب الرضاء
إنما هذه المواطن أم مستحق لها علينا الولاء
إن خدمنا فلا نريد جزاء ومن الأم هل يراد جزاء ؟
إنما نحن مصلحون وما إن غاية المصلحين إلا الوفاء
نحن كالشمع حين ذاب اشتعالا فهدى المظلمين منه الضياء

ويقول عنه صديقه عبد القادر المغربى من كلمة نشرت فى الرسالة بعنوان : « صديقى الكاظمى » : كان الشيخ عبد المحسن يخص بإعجابه من بين شعراء العراق ابراهيم الطباطبائى النجفى ، الذى جمع بين جودة الشعر وحسن الانشاد . ولم آسف على شىء أسفى على خبر كان حدثنى به فلم أستقص تدوينه فى مذكراتى عنه ، وهو ما وصفه لى من نشأته الشعرية تحت إشراف أخيه الأكبر ، وكانت دار أخيه فى بغداد أو الكاظمية مثابة لشعراء الشيعة وأدبائهم ، فكان الكاظمى الحدث يطارحهم الأدب ويسابقهم إلى قرض الشعر ، وكان أحيانا يجيد إجادة يعجب بها القوم . والكاظمى ينظم الشعر على طريقة شعراء عرب الجزيرة ، من حيث متانة الأسلوب وجزالة الألفاظ ، وربما امتاز عن كثيرين منهم بخلو شعره من المعاظلة والتعقيد والاغراب . وكما أنه تفوق على شعراء زمانه بهذه الطريقة الفحلة نراه امتاز عنهم أيضا بأنه يرتجل الشعر ارتجالا غاية فى السلاسة لا جمجمة فيه ولا تلكؤ ، وإذا ارتجله وقع شعره المرتجل فى قالب طريقته الشعرية المطبوعة ، أى أنه مهما طال نفسه فى الارتجال جاء شعره المرتجل موسوما بطابعه الشخصى ، متقاودا مستوى المتون ، لا تباين فيه ولا تفاوت ، لا يخذل آخره أوله ، ولا ينوء عجزه بكلكله ، وهذا موضع الغرابة فى ارتجاله . وربما لا يجاريه فى هذه المزية إلا القليل من الشعراء الأقدمين ، بله المتأخرين من شعراء هذه الأيام .

وقد ولد الكاظمى فى بغداد عام ١٢٨٢هـ ؛ ومال إلى الأدب ، واتصل بجمال الدين الأفغانى حين كان فى بغداد ، وهاجر من وطنه مشردا فى البلاد العربية حتى استقر به المقام فى مصر ، خوفا من بطش الباطشين . وله ديوان شعر كبير مطبوع ، وكتب أخرى(١) .. ومن شعره من قصيدته « الحرية » :

يكفى جمالك أنت فيه يوسف ... وكفى محبك أنه يعقوب
أمنية الشعبين أنت فضيلة ... تاقت إليك قبائل وشعوب
حرية الأمصار أنت حبيبة ... فى حبها يستعذب التعذيب
حتام نحتمل المذلة طوعا ... ولنا بآفاق البلاد وثوب

---

(١) راجع ترجمته فى ص ٩٧ وما بعدها من « الأدب العصرى فى العراق »

— ٧ —

أما الرصافى ، فقد كان شاعر الاجتماع القومية ، وكان الزهاوى يكسف شهرته ، كما كان شوقى يكسف شهرة حافظ . ولما مات الرصافى سنة ١٩٤٥ ، ترك وصية جديرة بالتسجيل ، فهى تدل على نفسية هذا الشاعر الكبير : « كل ما كتبته من نظم ونثر لم أجعل هدفى فيه صفتى الشخصية وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذى عشت فيه والقوم الذين أنا منهم ونشأت بينهم . لذلك لم أوفق إلى شىء فى حياتى يسمى الرفاهية والسعادة فى الحياة . لا أملك سوى فراشى الذى أنام فيه ، وثيابى التى ألبسها ؛ وكل ما عدا ذلك من الأثاث الحقير الذى فى سكنى ليس لى ، بل هو مال أهله الذين يساكنونى . . كل من اعترض لى فى حياتى فهو فى حل منى ، وإن كان هناك من اعتديت عليه أنا فهو بالخيار ، إن شاء عفا عنى وإلا قضى بينه وبينى الذى هو أحكم الحاكمين » .

وقد ولد الرصافى عام ١٢٩٢ هـ فى بغداد ، ودخل عدة مدارس يتلقى العلم فيها ، ودرس العلوم العربية والاسلامية على محمود شكرى الآلوسى وسواه من علماء بغداد ، ثم اشتغل بالتدريس ؛ وطاف بالعراق وتركيا والبلاد العربية . وألف كتابا فى الأناشيد المدرسية ، وله ديوان ، ومحاضرات فى الأدب العربى فى جزءين(١) . . ومن شعره التهكمى :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم
وتأخروا عن كل ما يقضى بأن تتقدموا
ودعوا التفهم جانبا فالخير أن لا تفهموا
وتشبثوا فى جهلكم فالشر أن تتعلموا
والعدل لا تتوسموا والظلم لا تتجهموا
من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكرم
فليمس لا سمع ولا بصر لديه ولا فم
لا يستحق كرامة إلا الأصم الأبكم

(١) راجع ترجمته فى ص٦٧ وما بعدها من كتاب « الأدب العصرى فى العراق » ، وقد أخرج الأستاذ مصطفى على دراسة طويلة عن الرصافى نشرها فى كتاب

ناجى الشاعر

— ١ —

قف تأمل مغرب العمـ ـر وإخفاق الشعـــاع
وابك جبـار الليالى هـــده طول الصراع
وا ضياع الحزن والدمـ ـع على العمر المضاع
مايهم الناس من نجـ ـم على وشـــك الزماع
غاب من بعد طلوع وخبا بعـــد التماع
طال بى سهدى وإعيا ئى وقدحان اضطجاعى

بهذه الأبيات رثى ابراهيم ناجى الشاعر نفسه ، وهو فى نضرة الشباب ، ولما يبلغ آماله من الحياة ؛ الحياة التى عاش فيها شقيا ، حتى انطفأ المصباح ، وجف الكأس ، ولاقى ربه ، فى الخامس والعشرين من شهر آذار ـ مارس ـ عام ١٩٥٣

ولقد عاش ناجى فى طليعة المجددين من شعراء عصره ؛ مستغرقا فى نشوة رائعة : من الأحلام الجميلة ، والأمانى العذاب ، والصوفية الوادعة القريرة ، وترجمانا معبرا عن العواطف البشرية السامية ، والوجدانات الرقيقة المهذبة :

وأنا الذى قضى الحياة معبرا ومرجعا لخوالج الوجدان

وكان خير تعبير عن الروح المصرى ، وأصدق صورة لمصر الشاعرة ، فى مرحها وتفاؤلها وثقتها بالحياة . وفى ابتسامتها الرقيقة فى وجه الأحداث ، وفى صدق الشعور ، ورقة الاحساس ، وعمق التجربة ، ودقة الفهم لمذاهب الفن وأصوله وروح التجديد الحق فيه ..

— ٢ —

وما من ريب فى أن شاعرية ناجى مصدرها الأول إشعاع الألم فى نفسه وقلبه ومشاعره ، فهو بحق شاعر الألم ، الألم الدفين من أوصاب الحياة وعذاب البيئة ، وجحود المجتمع ، ونسيان العبقرية والمواهب وإنكارها ؛ وقد أورثه ذلك قوة العاطفة وصفاءها ، وسمو الروح وإشراق النفس ، ونغمة صوفية متبتلة حزينة حائرة ؛ ولاشىء يجلو ضمائر الأحرار مثل الألم ، كما يقول ناجى نفسه :

آه من هاته الشدائد فهى النار تبلو القلوب فى الأخيار

إن قلب العظيم ياقوتة تسـ ـمو سموا وتزدهى بالثار
أى شىء فى الدهر كالألم الجبـ ـار يجلو ضمائر الأحرار

ولقد قضى ناجى عمره وهو شقى بحياته وأحلامه وأمانيه :

أشترى الأحلام فى سوق المنى وأبيع العمر فى سوق الهموم

يود لو يرجع إلى عهد طفولته وجهله القديم ، ليفر من حاضره وعلمه وذكائه :

آه من يأخذ عمرى كله ويعيد الطفل والجهل القديما

لأن الذكاء فى عصره محنة ، ويرهق صاحبه من أمره عسرا :

ويح الذكاء وما يكلفه من الثمن الذكاء

وكان يشكو عقوق عصره ، وجحود النبوغ فيه ، مناديا بتكريم العبقرية وتقديرها :

كرموا نابغيكم واعرفوهم فضياع النبوغ فى الإنكار

حزينا أسفا ، لأن الخطوب لاحقته ، حتى كادت أن تغطى على الاشراق فى فكره ، والألهام فى خاطره :

صدأ الحوادث بدل الاشراق فى فكرى وكدر خاطرى المصقولا
وتتابع الأنواء فى أفق الصبا لم يبق لى صحوا أراه جميـــلا

ورأى مصر وطنه على رحبها ليس فيها سامر أو مصغ لشاعرها الموهوب :

فيا مصر مافيك العشية سامر ولا فيك من مصغ لشاعرك الفرد

فاتخذ من دموعه لحنا يسرى عن نفسه الآلام ، ومن شعره نايا يوقع عليه أناشيد العزاء :

أصـــير الدمع لحنا وأجعـــل الشعر نايا

ويبكى آماله المحطمة التى لم تسعفه بالسعادة ، والتى عاش يروى عمره من أكاذيبها ، زاده العفاف والخلق النبيل والضمير الحى كما يقول :

رى عمرى من أكاذيب المنى وطعامى من عفاف وضمير

ولكن ماذا يجديه ذلك فى الحياة ؟ :

يادهر لم أشك الكلال ولا ملكت خطوب الدهر إرهاقى
عذبت أيامى بعفتهـــا وقتلتها بصفاء أخـــلاقى

ولقد جرب ناجى الحياة وعركها ، وذاق طعمها ، ولكنه وجد كل شىء مرا فى فمه :

كل شى صار مرا فى فمى بعد ما أصبحت بالدنيا عليما

وكان يضحك وقلبه منطو على الألم الدفين ، والحزن الممض :

انظرى ضحكى ورقصى فرحا وأنا أحمل قلبا ذبحا

ويسير فى الدنيا وحيدا غريبا بين الناس :

أجرجر وحدتى فى كل حشد وأحمل غربتى فى كل جمع

فى عالم من النسيان والعدم :

فيض من النسيان يغمرنى إنى لأحمد سيله العرما
مستسلما الموت يغرقنى فرحان حين أعانق العدما

وفى حياة كلها سراب :

عمرى سراب فى بقايا سراب وكل أيامى المواضى اغتراب

وتمر به قافلة العيش فلا يجد فيها إلا اللظى والضنى والأوار :

ما انتفاعى وتلك قافلة العيش وفى ركبها اللظى والدمار
الدمار الرهيب والعدم الشا مل واللفح والضنى والأوار

وتمضى به الليالى حالكة سوداء ، تقضى على رجائه فى الحياة :

لاأراك الله حالى والليالى كاسفات ليس فيهن شعاع
قد بلوت الويل فيها لا بلوتا وأنا أبدأ يومى بالمساء
وعرفت الضيق ضيق القلب حتى لم أجد فى الكون ثقبا من رجاء(١)

ويسير من غمرة إلى غمرة ، وهو يعاتب الليالى ؛ والليالى لاترق ولا ترحم :

لقيت ضنكا من الليالى فمن غمار إلى غمار
قد طال عتبى على الليالى وطال للراحم انتظارى

فعمره كله ظلام لا نور فيه ، ولا شعاع يبدد دياجيه ، كما يقول عن نفسه :

طال به الليل على حيرة وامتد كالموجة يغشاه
يسأل الليل على طوله عن ذلك الليل وعقباه
والنور أين النور هل غاله ماح محا الفجر وأخفاه؟

---

(١) اختلاف القافية هنا وفيما يأتى منشؤه تعدد القوافى فى القصيدة الواحدة عند ناجى

وهو حائر، يرى أيامه ولياليه الماضيات هباء فى هباء ولا يعرف شيئا عن مصيره فى الأيام الآتيات :

ليالى مرت هباء عقـــيما فهل تتوالى البواقى سدى

هذا القلق الواضح ، وتلك الحيرة الشديدة ، يرجعان أول ما يرجعان إلى فساد القيم والموازين فى عصر ناجى ، وإلى انحطاط الأخلاق وفساد الضمائر ، وكثرة الأحقاد ، وإلى روح الأثرة البغيضة ، التى يصفها ناجى فيقول :

كل يعيش لنفسه فى أمة شقيت بطول تفرق الآباد

وإلى إجداب البيئة ، وكساد سوق الوفاء :

ياكم غرست وكم سقيت وكم نضدت من زهر وأوراق
ما حيلتى والأرض مجدبة ؟ سيان إقـــلالى وإغداقى
أين الذين رفعت فانحدروا وبنيتهم بنيان خـــلاق ؟
إن الوفاء بضاعة كسدت وما آل صاحبها إلى الأملاق

وإلى انقلاب أمور الحياة ، وأوضاع الزمان ومعايير الناس :

شاهت الدنيا وجوها ورؤى وتولاها سهوم ووجوم

وإلى انعدام روح العدالة الاجتماعية فى وطنه ؛ حتى تغشاه الظلام، وصمد للظلم وكاد أن يتهاوى منكبه ، لولا بقية فيه من ثقة وكبرياء :

قد تغشانى ظلام لا أرى فيه مغدای ولا منقلبى
صامدا للظلم والظلم له معول يهدمنى عن كثب
وأنا أدفعه عن منكبى بيدى حتى تهاوى منكبى
وتماسكت فلم يبق سوى كبرياء هى درع اللائب

وإلى دقة إحساس الشاعر ، وارتفاعه عن عالم الناس :

سموت ودق احساسى وجزت عوالم البشر
نسيت صغائر الناس غفرت إساءة القدر

ومع ذلك كله ، مع هذا الظلام الشديد ، عاش الشاعر أبيا عزيزا مستكبرا :

قد عاش وهو معذب بإبائه ولقد يلاقى فى يومه مستكبرا

يبث شكاته لمن يأنس فيه الرقة والصفاء ، حتى ليبثها للنيل ، فيقول فى ألم دفين يصور أحقاد الحاقدين ، ومنافسة المنافسين :

أقبلت للنيل المبارك شاكيا ... زمنى وقد كثرت على همومى
ومسحت كفى والجبين بمائه ... على أهدئ ثورة المحموم
أيخيفنى العشب الضعيف أنا الذى ... أسلمت للشوك الممض أديمى
إنى لأحمل جعبتى متحديا ... زمنى بها وحواسدى وخصومى
أحنى لعرش الله رأسا ما انحنى ... بالذل يوما فى رحاب عظيم

ويشكوه أيضا فيقول :

يانهر رويت كل ظامى ... فراح ريان إن يذق
فكن رحيما على أوامى ... فلى فم بات يحترق

وتغلبه أحداث الحياة الجامحة فى عصره فيبكى ، كأن قلبه لم يعرف الكبرياء :

وكأن القضاء يسخر منى ... حين أبكى وما عرفت البكاء
ويح دمعى وويح ذلة نفسى ... لم تدع لى أحداثه كبرياء

ويتطلع ببصره إلى السماء ، وإلى القمر ، فيتمنى أن يعيش فى عالم غير عالمه ، ويخاطب القمر قائلا :

خذنى اليك ونجنى مما أعانى فى الثرى
قدحى ترنق فاسقنى قدح الشعاع مطهرا

وهو يحاول الفرار من عالم الحقيقة والأسى بالنشوة الغانية ، يقول :

نحن أرواح حيارى ثملت ... وانتشت سكرى على لحن أساها

ولكنه مهما ابتعد عن دنيا الصحو ، فإن الحياة أمامه سجن كبير ، لا يستطيع منه فرارا :

ياسجين الحياة أين الفرار ؟ ... أوصد الليل بابه والنهار

— ٣ —

ولا شك أن النهضة الأدبية الحديثة فى مصر ، والمعارك الثائرة بين المجددين والمحافظين فى الشعر ، قد لفتت الشاعر منذ مطلع شبابه إلى الأدب والشعر ، وجعلته يهيم بهما ، وأنضجت من شاعريته وموهبته فى القريض ، وكذلك اتصاله بالحركات التجديدية فى الأدب المصرى ، وبرجالها ، وانضمامه إلى مدرسة أبولو الشعرية ، التى تزعمها الدكتور الشاعر أحمد زكى أبو شادى . . . هذا إلى ملكات فنية نادرة ، وذوق يتذوق الجمال ويجيد التعبير عنه ، وذكاء عجيب انطبعت عليه

عليه شخصيته ، وثقافة واسعة اتسم بها الشاعر ووعاها منذ صغره ، وكثرة المنافسات بينه وبين الشعراء ، إلى غير ذلك من العوامل التي كان لها أثر في نفسه وشاعريته . ويذكر ناجي في ديوانه « وراء الغمام » الذي صدر عام ١٩٣٤ عدة مقطوعات جيدة نظمها وهو في الثالثة عشرة من سني حياته ، مما ينم عن تأصل ملكات الشعر في نفسه .

— ٤ —

وكان ناجي طبيبا نابغا ، ولكنه كان شاعرا عبقريا ، والطب والشعر يتصلان بالعاطفة الأنسانية النبيلة في الرجل المهذب ، ويقول ناجي معبرا عن ذلك أصدق تعبير :

الناس تسأل والهواجس جمة ... طب وشعر كيف يتفقان؟
الشعر مرحمة النفوس وسره ... هبة السماء ومنحة الديان
والطب مرحمة الجسوم ونبعه ... من ذلك الفيض العلي الشان
ومن الغمام ومن معين خلقه ... يجدان إلهاما ويستقيان

ويقول بمثل نزعته النبيلة الحرة :

لاخير في قلم إذا هو لم يكن ... حرا طهورا كالشعاع الهادي
بالطب أو بالشعر أو بكليهما ... كل الجهود فداء هذا الوادي

وكان ميل ناجي إلى الأدب أقوى من ميله إلى الطب ، فعكف على الآداب العربية القديمة والحديثة قراءة وبحثا ، وعلى الآداب الغربية كذلك ، كما شغف بكتب التاريخ وبالملاحم والقصص . ولم تكن هوايته للادب والشعر للّهو والاستمتاع شأن غيره من الشعراء ، ولكنه كان منذ مطلع شبابه ملتفتا بجميع جوارحه الى الأدب ودراسته دراسة منظمة عميقة قوية ، وكانت ثقافته واسعة في الطب وفي وفي علم النفس وفي النقد الأدبي وفي القصة التي كان يكتبها ويجيد فيها . . وكان تفكير ناجي تفكيرا علميا ثقافيا منظما ، كما كان دائبا على الاطلاع المستمر في العلوم والفنون والآداب ، لا يكاد يفوته مؤلف جديد ولا رأي جديد ، وكانت عقليته تهضم شتى الثقافات التي يقرؤها ، وتحيلها غذاء فنيا عميقا في نفسه ، وتعد منه موهبة من أخص خصائصها الخلق والابتكار والتجديد وظهور الشخصية في شتى ما ينتجه من فن وأدب جميل . وذلك كله ما يجعلنا نصف الشاعر فنقول : « إنه كان

عالما شاعرا أديبا ناقـــدا قصصيا طيبا يشار اليه بالبنان » ، وموضع ثقة الناس وإجلالهم . . .

— ٥ —

وأشهد أن ناجى كان من أكثر الشعراء فهما للشعر ومذاهبه وروح التجديد فيه ؛ وكان ينبع الشعر من أعماق قلبه ، وأغوار نفسه الحزينة المتطلعة للعزاء والسلوى ، يقول فى مقدمة ديوانه « ليالى القاهرة » : الشعر عندى هو النافذة التى أطل منها على الحياة ، وأشرف منها على الأبد وما وراء الأبد ، هو الهواء الذى أتنفسه ، وهو البلسم الذى داويت به جراح نفسى عندما عز الأساة . ويؤكد ناجى ماقلناه من أن شعره نبع الألم والحزن النفسى العميق فى أطواء حياته فيقول

إنمـــا الشعر مزهر قد حكى قصة الأمم
وبأوتاره المـــنى تتـــلاقى وتزدحم
هو نای مرجع الشجى وما كتم
هو قيثارة الزما ن ونجواه من قدم
هو أنشودة الحيـــا ة وفيض من النغم
هو آهات شاعر عرف الحب والألم

وكان ناجى لايرى الشعر إلا موهبة ، وطبعا لا أثر للتكلف فيه ، وكان كذلك ينظم قصائده ، حتى لانحس فيها تعقيدا أو غرابة ، ولا تعملا أو تصنعا بغيضا ، ويقول فى ديوانه « ليالى القاهرة » :

وأشهد أن الشعر شىء مشى بنا مع الطبع ، جل الطبع أن يتكلفا
وفى دمنا يجرى به متواصـــلا مع النفس الجارى ، وينساب مرهفا

وكان يجل الفن عن أن يمتهن فى سبيل أعراض الحياة الدنيا ، ويستلهم الطبيعة صوره فى شعره :

اكتب لوجه الفن لاتعدل به عرض الحياة ولا الجطام الفانى
واستلهم الأم الطبيعة وحدها كم فى الطبيعة من سرى معانى

ويؤكد حرصه على استلهام الطبيعة ومحاكاتها فى الفن فيقول :

الفن ما حاكى الطبيعة آخـذا منهـا ومن إعجازها بغرار
مسترسلا رجعا كمين ثرة شتى السيول سحيقة الأغوار

متعاليا حتى الأشعة مشرقا متألقا كالكوكب السيار

وناجى شاعر لا يعرف الزيف فى الشعور ، ولا التقليد فى العاطفة ، فلا يستمد إحساسه بالجمـــال من إحساس شاعر سواه . . وكان يعرف الشعر بأنه موسيقى وإقناع وخيال وصور (١) . فموسيقى الشعر عنده تأتى بالبراعة فى اختيار اللفظ وانسجامه ، ليؤدى المعنى المطلوب ؛ وهى ـ من حيث حاجتها إلى اللفظ والصياغة والانسجام ـ فى حاجة إلى الألمام الواسع باللغة وأساليبها ، مع الذوق المرهف ، والأذن التى تحسن الاستماع وتميز الأنغام . . أما الأقناع ففى حيث يضطرك الشاعر إلى متابعته ، وإلى السير وراء رأيه والايمان به ، ويملك عليك مشاعرك ؛ من غير أن يملك ، أو يشعرك أنه يقودك ، وأنت تتبع ساحرا جبارا لا خلاص لك منه ؛ وشعر ناجى يتسم بقوته فى إقناعه ؛ فإذا راح يصف لك شيئا له فى نفسه مكانة ، بلغ فى ذلك الذروة أحيانا ، وقادك معه إلى حيث تقتنع بما رأى ، وتؤمن بما آمن به . . وأما الخيال فبإطلاق النفس للتصورات العالية ، لا للاستعارات والكنايات اللفظية . . وأما الصور الشعرية فيعنى بها ناجى أنك حين تقرأ للشاعر قطعة من شعره يكون الشىء كأنه مرسوم أمامك بوضوح شديد ، ومجسم بارز تجاه بصرك وكان كذلك شعر ناجى ، فكل كلمة فيه ترسم صورة ، ؟ فى البيت والقصيدة . وإذا كرر الشعراء ألفاظا وجملا فإن ناجى لا يرسم إلا صورا قوية واضحة رائعة ، ولذلك نلمح فى شعره الخوالج النفسية العميقة ، والانطباعات الذهنية الدقيقة ، واللمحات الفنية المستشرفة المستلهمة ؛ ونشاهد فيه صورا جميلة : لشتى المدركات التى تتجاوب معها نفس الشاعر تجاوبا قويا حيا ، ولذاتيته وطابعه وطريقة تفكيره وألوان عاطفته ، ونوازع مشاعره المتأججة المحتدمة .

ويؤمن ناجى بالحرية الفنية ، التى تنطلق بمواهب الشاعر إلى أرحب الآفاق ، ويطل منها على الأجواء البعيدة من المعـــانى والأخيلة وموسيقى الشعر ، ولذلك امتاز شعره بالجـــدة فى التعبير والخيال والمعنى ، وبأن معانيه إلى قلبك أقرب من ألفاظه إلى سمعك . . ويجمع أسلوبه بين العذوبة والجزالة ، فى جمال أخاذ ، مع السلامة من التكلف ، ومع روعة المطالع ، وجودة المقاطع ؛ ومع ظهور روح التجديد والابتكار ؛ واحتفاظ الشاعر بذاتيته ولونه الخاص وطابعه

---

(١) مجلة أبولو عدد ديسمبر ١٩٣٢ صفحة ٣٥٥ .

المصرى الشرقى الجميل ، ووضوح آثار الثقافات العربية والغربية فى أكثر شعره ، وأسلوبه كذلك فيه رقة متناهية ، وألفاظه خير تعبير عن نفسه الحالمة المفعمة بالألم والحيرة ، ولغة شعره أقرب مايكون إلى لغة كلامه

والقصيدة عنده قد تتعدد قوافيها وأوزانها بتعدد الرنين الموسيقى الذى يريد أن يعبر به عن عاطفته وخيالاته ، وذلك مما ساعده على الإجادة البارعة فى الملاحم والقصص الشعرى البديع : وقد أبدع ناجى فى رباعياته إبداعا قويا ، ونرجح أنه تأثر فيها برباعيات الخيام وروحه ، وكان شاعرا مطبوعا يحترم النغم ، ولكنه لايحترم النمل ويتعالى على قيود الصنعة . .

ويؤمن ناجى بوحدة القصيدة فى الروح والفن والتعبير والفكرة ، وتجد ملحمة الاطلال وملحمة السراب وقصيدته الخريف ، وسواها — مما اشتمل عليه من قصائد ديوانه : ليالى القاهرة — خير تعبير دقيق عن هذه الوحدة الفنية الكاملة . ومن أروع قصائده أو ملاحمه الطويلة فى ديوانه المذكور قصيدة : ليالى القاهرة ، وهى متعة بديعة حقا ، وأجمل مافيها الليلة (١) السادسة ، التى يصف فيها قصة لقاء فى ظلمات ليالى القاهرة خلال الحرب العظمى ، وكذلك ملحمة الأطلال ، ، وهى قصة حب عاثر تنتهى بأنه صار هو أطلال روح وصارت هى أطلال جسد كما يقول ناجى ، وهى من بحر الرمل الغنائى المشهور وقافيتها متعددة ، ومثلها فى ذلك كله قصيدة الخريف ، أما « ليالى القاهرة » فتعددة الأوزان والقوافى ، وكذلك « ملحمة السراب »

وتجربته الشعرية العميقة من أجل خصائص شعره ، انظر إليه وهو يقول من « ملحمة الأطلال » :

أعطنى حريتى أطلق يدى ... إننى أعطيت مااستبقيت شيء
آه من قيدك أدمى معصمى ... لم أبقيه ؟ وما أبقى علي
ما احتفاظى بعهود لم تصنها ... وإلام الأسر والدنيا لدى ؟
ها أنا جفت دموعى فاعف عنها ... إنها قبلك لم تبذل لحى
وهب الطائر عن عشك طارا ... جفت الغدران والثلج أغارا
هذه الدنيا قلوب جمدت ... خبت الشعلة والجمر توارى

(١) ٢٥ — ٢٨ من الديوان « ليالى القاهرة »

وإذا ما قبس القلب غدا من رماد لا تسـله كيف صارا
لاتسل واذكر عذاب المصطلى وهو يذكيه فلا يقبس نارا
ياحبيبي كل شيء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعد ما عز اللقاء
فإذا أنكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل إلى غايته لا تقل شيئا وقل الحظ شاء

هذه الموسيقى والقافية فى مطلع الأبيات ، بل والصوفية الهائمة ، أشبه ما تكون بروح ابن الفارض فى قصائده .. وفى الأبيات شعور عميق بالموضوع الذى ينظم فيه الشاعر ، وبالأفكار التى يتحدث عنها ، والهواجس التى تدور فى خلده ، والشاعر فيها يرسم لك أعماق نفسه وخواطره المنطوية على أنبل المشاعر وأسماها . . واقرأ له يصور قصة حب فرغ منها ، وطرحه وراءه:

ذوت الصبابة وانطوت وفرغت من آلامها
لكننى ألقى المنا يا من بقايا جامها
عادت إلى الذكريا ت بحشدها وزحامها
فى ليلة ليلاء أر قنى عصيب ظلامها
هدأت رسائل حبها كالطفل فى أحلامها
أشعلت فيها النار تر عى فى عزيز حطامها
تغتال قصة حبنا من بدئها لختامها
أحرقتها ورميت قا بى فى صميم ضرامها

فستقرأ تصويرا نفسيا حزينا ، لذكريات حبه الضائع ، وكأنما تمر أمام عينيك صور متحركة ناطقة ، تمثل هذه القصة الدامية من بدئها لختامها كما يقول الشاعر . . واستمع اليه من قصيدة « العودة » يصور مشاعره وقد عاد الى دار أحبابه ، فوجدها قد تغيرت ، وعبثت بها يد الأحداث :

هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحا ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء
دار أحلامى وحبي لقيتنا فى جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهي كانت إن رأتنا يضحك النور إلينا من بعيد

رفرف القلب بجنبي كالذبيح وأنا أهتف يا قلب اشتد
فيجيب الدمع والقلب الجريح لم عدنا ، ليت أنا لم نعد
أين ناديك وأين السمر أين أهلوك بساطا وندامى ؟

ويذكرني هذا بقول مهيار الديلمي في وصف دار أحبابه ، وقد عبثت بها أيدي البلى ، وذلك من قصيدة طويلة بديعة :

أجتدي المزن ، وماذا أربي أن تجود المزن أطلالا رماما
وقليلا فيك أن أدعو لها مارآني الله أستجدي الغماما
أين سكانك لا أين هم ؟ أحجازا أقبلوها أم شآما ؟
صدعوا بعد التئام ، وغدت بهم أيدي الموامي تترامى

ولا شك أنك ستقف مذهولا حائرا أمام تلك الصور الفنية الحية النابضة بالدم والروح ، التي رسمها ناجي في أبياته ، لدار أحبابه وأحلامه ، التي لقيته في جمود ووحشة وكآبة ، أثارت مشاعره وهزت عواطفه ، وحركت وجدانه . . وانظر إلى ناجي يصور هذه اللحظات الدامعة ، لحظات الوداع ، بعد سعادة طويلة بلقاء الأحباب :

وانتهينا بعد مازال الرحيق وأفقنا ، ليت أنا لا نفيق
يقظة طاحت بأحلام الكرى وتولى الليل والليل صديق
وإذا النور نذير طالع وإذا الفجر مطل كالحريق
وإذا الدنيا كما نعرفها وإذا الأحباب كل في الطريق

ويصف ساعة من ساعات اللقاء الجميلة الممتعة ، وفرحه النفسي العميق فيها فيقول

مرت الساعة كالحلم السعيد ومشت نشوتها مشي الرحيق
ذهب العمر وذا عمر جديد عشته من فلك الحلو الرقيق
مرت الساعة والليل دنا والهوى الصامت يغدو ويروح
وتلاشت واختفت أجسادنا واعتنقنا في الدجى روحا بروح
التقت أرواحنا في ساحة كغريبين استراحا من سفر
وحططنا رحلنا في واحة زادنا فيها الأماني والذكر

وناجي مجدد حقا يعرف كيف ينظم قصيدته في إجادة ، وكيف يملؤها بالصور الناطقة المعبرة ، وكيف يجعلها تمثل عاطفة قوية جياشة نبيلة ، وهو يختار لها

أروع الأساليب وجديد الأخيلة والمعانى . وهو أحد شعراء مدرسة أبولو الشعرية التى كونها أبو شادى فى القاهرة عام ١٩٣٢ ، وجعل وجهتها التجديد فى الشعر العربى المعاصر ، والسمو به ، ومحاربة الأغلال الفنية ، والانطلاق به من قيود الصنعة والابتذال والتكلف ، والتعبير به عن دقائق النفس وعميق المشاعر والادراك . . وكان ناجى يشعر بالحياة شعورا قويا ؛ ويتجه إلى الجانب العاطفى الغنائى التصويرى ؛ وهو فى طليعة شعراء المدرسة الرومانسية الحديثة فى الشعر المعاصر ، ويعد أسلوبه من أرقى الأساليب فى المدرسة الكلاسيكية المجددة تحت الراية الابتداعية ، فهو يحب الاحتفاظ بأصول اللغة وأساليبها فى حرية(١) ، مجددا فى التجوز بالألفاظ عن معانيها الحقيقية ، محتفيا باللفظ المختار القريب إلى البساطة والسلاسة ، وقد شمل التجديد عنده الوزن الشعرى الذى ينظم منه قصائده فى أحيان قليلة . . وهو فى ديوانه « وراء الغمام » رومانتيكى مستغرق فى التأمل والحيرة . وفى ديوانه « ليالى القاهرة » الذى ظهر بعد الأول بأكثر من عشر سنوات يميل إلى النزعة الصوفية الانسانية

وشاعرنا خبير بالمذهب الفنى فى النقد ؛ الذى ينظر إلى التجربة الشعرية ، والصياغة الفنية متأثرا فى ذلك بمطران وأبى شادى ، وله كثير من الدراسات النقدية الممتعة عن الشعر المعاصر وأعلامه وشعراء الغرب الموهوبين ، ومن بحوثه دراسة للشعر الحديث ومكانة أبى شادى فيه ، وهى من مقدمات ديوان أحمد زكى أبى شادى : « أطياف الربيع » ، وله دراسة مستقلة عن توفيق الحكيم ؛ نشرها الكيالى مع دراسات أخرى عن هذا الأديب المصرى المشهور فى كتاب مستقل : « توفيق الحكيم »

— ٦ —

ولناجى شخصية مستقلة فى التعبير الفنى الخالص . . انظر إليه وهو يقول :

أقول وقد وسدته راحتى كما توسد طفل متعب راحة المهد

كيف يدق ذوقه المرهف فى اختيار الأسلوب والألفاظ ، وفى جعله المهد راحة ، وفى رسم هذه الصورة الفنية الممتازة ، بما فيها من تشبيه دقيق بليغ ، فى طلاقة وحرية تعبيرية كاملة . . واسمعه يقول فى وصف موقف وداع مؤثر :

---

(١) التحليل السيكولوجى فى شعر ناجى للاستاذ حليم مترى — مقتطف مايو ١٩٥٠

وما راع قلبي منك إلا فراشة من الدمع حامت فوق عرش من الورد
مجنحة صيغت من النور والندى ترف على روض وتهفو إلى ورد
بها مثل مابي ياحبيبي وسيدى من الشجن القتال والظمأ المردى
لقد أقفر المحراب من صلواته فليس به من شاعر ساهر بعدى
وقفنا وقد حان النوى أي موقف نحاول فيه الصبر والصبر لا يجدى

فتجد من هذه الفراشة المجنحة من الدمع ، التي تنطلق من مآقي حبيبه ، فترف على خصل شعره المتدلية ، وتحوم على خده الجميل المورد ، وماوشى به هذه الصورة الشعرية الدقيقة ، دليلا على شاعرية ثرة ممتلئة بالصور والألوان . . ويصف ناجى نظارة فى مرقص فيقول :

فقدوا حجاهم حينما طربوا دووا دوى البحر صخابا
فاذا استقروا لحظة صخبوا لا يملكون النفس إعجابا

ويصف الراقصة نفسها فيقول :

من هاته الحسناء ياعينى ؟ السحر كلها وظلها
كالطير من غصن إلى غصن وثابة وثب الفؤاد لها

وهى صورة دقيقة لا يعدل جمالها جمال . . ويصف حبيبة جاءت لموعده ، تمشى من بعيد ، وهو يتطلع اليها فيعرفها :

ميزتها بشبابها الغض وبقدها أفديه من قد

ثم يقابلها فى فرح ونشوة وهو يقول :

من أنت يامن روحها اقتربت منى وخاطب دمعها روحى
صيته فى كأسى وماسكبت فيه سوى أنات مذبوح

فنجد صورا حية ، وأسلوبا بارعا متخيرا متميزا بطلاقة فنية نادرة . . . وانظر إلى خياله المجنح العجيب حين يقول :

أفديك باكية وجازعة قد لفها فى ثوبه الغسق
ودعتها شمسا مودعة ذهبت وعندى الجرح والشفق

ويكرر هذه الصورة فيقول فى رثاء شوقى :

فاذهب كما ذهب النهار مضى قد شيعته مدامع الشفق
واغرب كما غرب الشعاع قضى رقت عليه جوانح الغسق

ومن روائع صور الخيال فى شعره قوله :

مر يومى كأمسه وأتى لي ل بهيج ترف فيه السماء
قد جلت فيه عرسها كل نجم قدح يستحم فيه الضياء

وهذه صورة جميلة أخرى رائعة الخيال ، صورة جلوس الشاعر مع قلبه يتحدثان عن اللقاء الموعود ، وكيف ركب الشاعر هو وقلبه الوهم يبتغيان دار حبيبته ، وحديث قلبه الفرح له ، وحديثه مع قلبه ، ثم حديثه مع حبيبه ؛ مما نعد « ناجيا » سباقا فيه على الشعراء وسبقه فى مخاطبة مالك قلبه بأيها النور :

لاتقل لى فى غد موعـدنا فالغد الموعود ناء كالنجوم
أغدا قلت فعلمنى اصطبارا ليتنى أختصر العمر اختصارا
عبرت بى نشوة من فرح فرقصنا أنا والقلب سكارى
انفردنا أنا والقلب عشيا ننسج الآمال والنجوى سويا
فركبنا الوهم نبغى دارها وطوينا الدهر والعالم طيا
قال لى القلب أحقا ماباغنا كيف نام القدر الساهر عنا
قلت لاتجزع فكم من منزل عز حتى صار فوق المتمنى
أيها النور سلاما وخشوعا أيها المعبد صمتا وركوعا
رب قول كنت أعددته لك إذ ألقاك يأبى أن يطيعا
وحبيس من عتاب فى فمى قد عصانى فتفجرت دموعا

وهى صورة فريدة لايمكن لقلم أن يتحدث عنها واصفا جمالها وروعتها .

ويصف ناجى ظلام القاهرة أيام الحرب الأخيرة فيقول فى عمق تصوير :

ركود وإبهام وصمة ووحشة وقد لفها الغيب المحجب فى برد

ومع ذلك كله فناجى خير ممثل الروح المصرى المرح الطروب ، وكان يستعمل فى شعره ، وخاصة فى الفكاهة ، بعض الألفاظ المصرية الصميمة ، يقول يخاطب سيدة حسناء زوجها أعمى بغيض :

ياجمالا فى التعب يلقى ويرمى يالظلم الحظوظ والحظ أعمى
ياجمال الصبا وأنس النفوس خبرينا عن زوجك « المنحوس »
حدثى أنت عن عماه « الحبيسى » وصفى لى الغرام « بالتحسيس »

ثم يصف زوجها فيقول :

كذليل الأبقار إذ ربطوه وتراهم بخرقـة عصبوه
فإذا ما عصاهم ضربوه وتمشى على غناء « الأدوس »

فالمنحوس والحيسى والتحسيس والأدوس هى ألفاظ معروفة فى العامية المصرية ، وهى مع ذلك كثيرا ماتستعمل فى الفكاهة ، على أنها فى هذا المقام أبدع شىء فى التصوير الفنى الذى أراده الشاعر .

وناجى لا يؤمن بأن يعيش الشاعر فى الماضى ، ولا بأن ينقطع عن قافلة الحياة ، أو يتأخر عن حمل مشعل النور ليهدى قومه ويكون رائد الأحرار إلى الحرية ، وهو مع ذلك يدافع عن شوقى ، وقد وقف فى حفل تأبينه رائيا ، ويرد على من يرميه بالنكوص عن زعامة الشعراء الأحرار ، والداعين إلى النهوض بالأمة ، ردا لا يؤمن به ناجى فى قرارة نفسه ، قال :

ماذا تبعث فى قريضك ثاويا أو ماضيا حافلا بكل فخار
حتى اتهمت فقال قوم : شاعر ناجى الطلول وطاف بالآثار
فجلوت ما لم يشهدوا ورسمت ما لم يعهدوا من معجز الأفكار
شيخ يدب إلى الأصيل وقلبه وجنانه فى نضرة الأسحار
ويرى والحياة الحب والحب الحيا ة ، هما شعار العيش أى شعار

وبعد فكأنما كان ناجى يتحدث عن نفسه ، حين رثى « شوقيا » بقصيدة منها هذه الأبيات :

قبس أضاء العالمين كما تضىء لهم ذكاء
ثم اختفى خلف الغيو ب مخلفا ظلم المساء
فكأنما هبة السنا ء قد استردتها السماء

— ٧ —

ولقد برع ناجى فى الغزل براعة فائقة ، ووقف كثيرا من ملاحمه الطويلة عليه ، كملحمة الأطلال والخريف وسواهما ، فضلا عن قصائده الطويلة التى تحدث فيها عن فلسفة الحب حديثا عميقا شيقا ممتعا . . . ولا بدع فالحب عنده حديث العلا ، وأنشودة الخلد :

وإنما الحب حديث العلا أنشودة الخلد ونحن الرواة

ويقول من « ملحمة السراب » متأثرا بعض التأثر فى بعض أبياته بشوقى :

أفق لا يحد للعين قد ضا ق فأمسى والسجن هذا الفضاء
التقينا كما التقى بعد تطوا ف على القفر فى السرى أنضاء

قطعوا شوطهم على الدم والشو ك وراحوا على اللهيب وجاءوا
صدفة ثم وقفة فاتفاق فاشتياق فوعد فلقاء
فقليل من السعادة لايكـ ـمل فيه ولا يطول الهناء
فحنين فلوعة فاحتراق فحميم وقوده الشهداء

وعاش ناجى طول حياته فى جحيم الحب ظامئا مستسقيا يشكو حظه القاسى وجده العاثر

متى يرق الحظ ياقاسى ويلتقى المنسى والناسى
متى وهل من حيلة فى متى وفى خيالات وأحداس؟
وأنت كأس الحسن لكننا مثل حباب حام بالكاس

ويندب آماله فيه ، ويعلن آلامه التى أشعل الهوى ضرامها .

كم تجرعنا هوانا ولقينا من هوانا
وبلونا نار حب لم نذق فيها أمانا
ياحبيبى هدأ الليـ ـل ولم يسهر سوانا
لا الدجى ضمد جرحينا ولا الصبح شفانا
لا الهوى رق على الشا كى ولا قاسيه لانا

ويتحدث عن الدنيا ، دنيا الحب الهوى ، فيقول :

كل بهـا قيس إذا جن الدجى نزع الأباء وباح بالبرحاء
فإذا تداركه النهـار طوى المدا مع فى الفؤاد وظن فى السعداء

وكان يهرب من دنيا الشقاء ، ويجفف دموعه فيها بكأس حبه المترعة ، كما يقول

أصبحت من يأسى لوان الردى يهتف بى صحت به : هيا
هيا فما فى الأرض من مطمح ولا أرى لى بعـدها شيا
ماذا بقائى هاهنا بعدما نفضت منه اليوم كفيا
أهرب من يأسى لكأسى التى أدفن فيها أملى الحيا
يا أيهـا الهارب من جنتى تعال أو هات جناحيا
نبكى شبا بينا ونبكى المنى وترتمى بين ذراعيا

بل كان يقدم حياته قربانا لأحبابه :

قدمت قربانى إليك بقية من مهجة ضاعت على الأحباب

ويتلذذ بنار الألم فى حبه :

يامن أحب وأفتدى ويلذ لى فيه الألم
لك حسن نور الخميـــلة طل صبحا فابتسم
لك نضرة الفجر الجميـــل على الذرائب والقمم

وهو يرى الحياة والكون جميعا فى حبه وأحبابه :

أغر حسنك أن الخلد جدوله وأنه من غريب السحر منبعه
هيهات يخلد حسن لا يزوله شعر من النسق الأعلى ويرفعه
تعال وادن بيوم لا نحس به أجسادنا فى صفاء لا يضيعه
لكن أحسك تجرى فى صميم دمى أنت الحياة وأنت الكون أجمعه

ولقد عاش مجهودا ، يستريح من عناء الحياة وأوصابها فى واحة الحب الهادئة :

سناك صلاة أحلامى وهذا الركن محرابى
به ألقيت آلامى وفيه طرحت أوصابى

وما أعمق الشعور الدافق بحب الجمال وتقديره ، فى قول ناجى :

تتراءى فى الشباب العطر نفحة تحمل طيب السحر
وقف العمر لها معتذرا وثنى الركب عنان السفر

وحين يطول غياب ليلاه عنه يشعر بأن الربيع جفاه ، وأن أيامه ولياليه جرداء قفراء :

لا القوم راحوا بأخبار ولا جاءوا ولا اقلبك عن ليلاك أنباء
جفا الربيع ليالينا وغادرها وأقفر الروض لا ظل ولا ماء

وانظر إلى ناجى كيف يتحدث عن الحب والجمال ، ويصف حبيبه الذى رماه فأصماه ، وجيده الرائع البديع :

قد من مرمر ، وشعشعه الفجـ ـر بورد ، وصب فيه الضياء
زاشنى صائد رمانى ، فأدما نى ، وولى الجانى وعاش الداء

ويصف شعوره النفسى العميق بالسعادة ، وقد سار مع حبيبه فى طريق طويل ، فتمنى لو طال الطريق وطال وطال ، حتى يمشى فيه إلى الأبد :

نمشى وقد طال الطريق بنا ونود لو نمشى إلى الأبد
ونود لو خلت الحياة لنا كطريقنا ، وغدت بلا أحد

وحبيبه يمشى فى كبرياء ، وكأنه ملك من السماء ، وناجى يصف مشيته وكبرياءه ،

وحسنه الظالم ، وسحره العبق ، وطرفه الساهم ، وطلعته المشرقة ، ومنطقه الساحر الجميل ، فيقول

واثق الخطوة يمشى ملكا ظالم الحسن شهى الكبرياء
عبق السحر كأنفاس الربى ساهم الطرف كأحلام المساء
مشرق الطلعة ، فى منطقه لغة النور وتعبير السماء

ويخاطب حبيبته فى لهجة ساحرة فيقول :

يا من غفت والفجر من دارها شمشع فى الآفاق أبهى سناه
قد طرق الباب فتى متعب طال به السير وكلت خطاه
نقل فى الأيام أقدامه يبغى خيالا ماثلا فى مناه
عندك قد حط رحال المنى وفى حمى حسنك ألقى عصاه

ويقضى مع حبيبه وقتا قصيرا مملوءا بالسعادة ، فيصف ذلك ويقول :

يالها من حقبة كانت على قصر فيها كآماد فساح
نتمنى كلما طابت لنا أن يظل الليل مجهول الصباح

حتى ضحكة حبيبه يصفها ناجى فيقول مجودا ، بارعا فى الصورة التى رسمها ، والتى لم أر لشاعر مثلها :

تطوف مطاف الحنان العميم وتسقط كالنعمة الوافرة
وتمتد مثل امتداد العباب وترجع كالموجة الساخرة
وتنقش أصداءها فى القلوب وتبقى مدى العمر فى الذاكرة
فيارقة سكبت فى النفوس كما تسكب الخمرة القاهرة
نسينا بك العالم الدنيوى وأسمعتنا نغم الآخرة

وهو وصف رائع جديد النغم والموسيقى والصـــور ، ويدعو لليـــلاه ولدارها فيقول :

ياسقى الله لليـــلى أيكة وجزاها الخير عنا ورعاها
وغـذاها من أمانينـا ومن حبنا الشهد المصفى وسقاها

ويشعر بسحر الجمال من جميع أطرافه ، حتى بسحر البنان ، فيقول :

أصغ لى وانظر ودع كفك فى كفى حينا
يا بنانا ساحرا قد حكم الأقدار فينا

هذا ، وسواه مما سبق قبل هذا الفصل ، ومما لم أذكره فى هذا البحث ، صور واضحة لغزل ناجى الشاعر الغنائى المبدع ، وشاعر العاطفة والوجدان الرقيق . . وأشهد أنه ليس لأحد من المعاصرين رقة ناجى ، وسلامة طبعه ، وذوقه فى الغزل العذرى الجميل

— ٨ —

ولناجى فلسفة فى الحياة ، خاصة به هو وحده ، فهو يذهب إلى أن الألم سر العبقرية ، وإلى أن جحود المواهب قتل لها ، وقد سبق أن ذكرنا شواهد ذلك من شعره ؛ وهو يرى الحياة والمجد للاقوياء لا للضعفاء :

الجو ملك النسر يغشاه على ما يشتهى والغاب للآساد

وأن الحياة رواية طالت ، وستطول إلى آخر الآباد

سيان ما أجهل أو أعلم من غامض الليل ولغز النهار ؟
سيستمر المسرح الأعظم رواية طالت وأين الستار ؟

وهو يقف أمام مشاهد الحياة مذهولا حائرا باكيا رحيما ساخرا من الناس :

وا رحمتاه للقوى الصبور يقضى الليالى فى كفاح سخيف
وكيف لا أبكى لكدح الفقير أقصى مناه أن ينال الرغيف
كم صحت إذ أبصرت هذا الجهاد وميسم الذلة فوق الجباه
يا حسرتا مما يلاقى العباد أكل هذا فى سبيل الحياه ؟
وفى سبيل الزاد والمآكل تملأ صدر الأرض إعوالا
كم يسخر النجم بنا من عل وكم يرانا الله أطفالا

ويقف أمام الحياة الآخرة مشدوها حائرا لا يدرى نصيبه فيها ، فيقول متمنيا لنفسه منها السعادة :

يا أيها العالم الأخـــير ماذا ترى فيك من نصيب
أراحة فيـك للضمـــير أم موعد فيك من حبيب
كم يعذب الموت لو تراه أو كان فيك اللقاء يرجى
ينفض عن عينه كراه يقبل الراقـد المسجى

وهو يتألم ، يتألم لبنى الانسان الكادحين الأشقياء ، الذين علمهم الفقر وحب الحياة الجبن والخمول ، ويستطرد من ذلك إلى النقمة على القضاء :

قد صار حب الحياة منا يقنع بالجيفة السبـــاع

وعلم السمح أن يضنا وأبت الجبين فى الطباع
مللت فى هاته العوالم مهزله الموت والحياه
وصورة القيد فى المعاصم ووصمة الذل فى الجباه
هياكل تعبر السنين واحدة العيش والنظام
واحدة السخط والأنين واحدة الحقد والخصام
مابالها أعين الفلك منتشرات على الفضاء
تطل من قاتم الحلك بغير فهم ولا ذكاء؟

إلى غير ذلك من نظراته الحائرة الساخرة فى الحياة والناس ، والتى نستطيع أن نأخذ من مجموعها فلسفة خاصة بالشاعر ، جماعها الألم والحيرة والبكاء على الأشقياء فى الحياة ، والهتاف بحياة عزيزة كريمة عادلة للفرد فى كل مكان ، والتطلع الدائم إلى ظل ظليل من السعادة يشمل بنى الإنسان جميعا .

— ٩ —

وناجى مع ذلك شاعر المشاعر المصرية فى أجلى معانيها ، وهو — وإن ثار على مجتمعه وعصره وحاضره — يقدس وطنه ، ويعتز بمجده ، وينشد له العزة والكرامة والقوة ، ولمواطنيه الرفاهية والخير والتقدم والنهضة . يقول الشاعر متحدثا عن مصر وطنه ومحرابه والجنة الكبرى ، وعن شباب النيل ملاذ الأمة :

حلمنا نولى وجهنا شطر حبها ونغمد فيها الصبر والجهد والعمرا
نبث بها روح الحياة قوية ونقتل فيها الضنك والذل والفقرا
نحطم أغلالا ونمحو حوائلا ونخلق فيها الفكر والعمل الحرا
سلاما شباب النيل فى كل موقف على الدهر يجنى أو يجاب الفخرا
تعالوا نشيد مصنعا ، رب مصنع يدر على صناعنا المغنم الوفرا
تعالوا نشيد ملجأ، رب ملجأ يضم حطام البؤس والأوجه الصفرا

ويتحدث كذلك عن شعب مصر ، بمناسبة نضاله فى سبيل الحرية والمجد :

زعموكم أمة هازلة كذب الزاعم فيما زعم
ياشباب النيل فتيان الحمى وحماة الدار أشبال الأجم
حطموا القيد الذى حطمكم واجعلوا أمتكم فوق الأمم

ويفخر فى كل موطن بأمته وبلاده :

أمتى أمة العلا وأبى الهول والحرم

ويصرخ فى شباب الوطن ، ينادبهم ليدفعوا عن المواطنين آلام الفقر والجهل والمرض :

صونوا البلاد وأدركوا فلاحكم كاد الحمى يغدو بغير عماد
حيران من مرض إلى بؤس إلى كرب تمر به بلا تعداد
ومن المصائب فى زمانك أن ترى بلدا كثير مناهل الوراد
والخير مدرار عليه ، وربه جوعان محروم الرعاية صادى

ويصف حياة الفقراء المشردين الهائمين على وجوههم فى الطرقات ، فيقول فى فقير منهم :

وسادته الأحجار والمضجع الثرى ويفترش الأفريز فى الحر والبرد

ويخاطب على إبراهيم جراح مصر الكبير ، يطلب منه أن يحارب الخول فى أرض الوطن فيقول :

على لقد ملكت (عصاة) موسى فقم واضرب بها أفعى الخول

إلى غير ذلك من أحاديث الشاعر عن وطنه ، ودعوته للنهوض به . . .

وبمناسبة ذلك نذكر أن الشاعر كانت له صلة وثيقة ببعض رجالات مصر ، وفى مقدمتهم إبراهيم دسوقى أباظة رئيس جامعة أدباء العروبة ، عليه رضوان الله ورحمته ؛ وقد انضم ناجى إلى هذه الجامعة منذ عام ١٩٤٥ ، وفى ديوانه « ليالى القاهرة » صور كثيرة تنم عن الصلة التى ربطت بين الشاعر وبينه ، يقول فيه ناجى :

أبى ، أخى ، كعبة آمالنا أكرمتنى أكرمك الله

ويقول :

أيها المصباح صرنا حوله كفراش حام بالنور يطوف

ويقول :

أقسمت بالشمس فى ضحاها أقسمت بالبدر وبالدرارى
بفضلك الماحق الدياجى كأنه وضح النهار

ويقول أيضا فيه بمناسبة حفل تكريم أقيم له ، وألقى ناجى فيه قصيدة :

منى نلتها كانت لأنفسنا منى تلفت تجد مصرا بأجمعها هنا

وما بعجيب موطن البدر فى العلا وما بجديد أن يرى الأفق مسكنا

ويتحدث الشاعر فى هذه القصيدة عن نفسه فيقول :

فراش على مصباح مجدك حائم وأى فراش من جلالك مادنا ؟

ويصور سر هذه الصلة الوثيقة التى ربطته بهذا الرجل العظيم ، فيقول :

كيف أنسى فضـــله وهو الذى زاد عنى عاديات الحقب

واقرأ هذه الأبيات لناجى فى تكريم عبد الحميد عبد الحق ، فهى صورة لبر الشاعر بوطنه ، وحبه لقوميته ، يقول :

إى وربى لأنت من صور المجـ ـضى ومجد الجدود والآباء
وجلال الصعيد والملك فى الوا دى عزيز البنود ضافى اللواء
قد ينام التراث جيـلا فجيـلا غافيا فى مجاهل خرساء
وتنام الروح العريقة فى المجـ ـد لتبدو فى طلعة سمراء
فتراها مصرية السمت والقو ة والعزم والحجا والمضاء
قسما قد غفا الجلال ليصحو من جديد فى وجهك الوضاء

والأزهر معقل القومية المصرية ، والجامعة العربية الإسلامية فى مصر ، يصفه ناجى ويصف حياة أبنائه وصفا رقيقا رائعا ، فيقول متحدثا عن الشاب الأزهرى زكى مبارك ، فى مرح مشتق من مرح الطبيعة المصرية الصميمة :

أين يمضى ؟ الأزهر الشامخ الرأ س القوى الباقى على الأدهار
مطلع عبده وسعدا ورهط المجد والبأس والعلى والفخار
« عمموه وقفطنوه » فأمسى أمل القوم فارس المضمار
ومضى يطلب العلوم وحيدا موحشا قلبه غريب الدار
ناظرا فى هوامش تأكل العقـ ـل وتبلى نواضر الأبصار
لا يبالى الطوى ولا يحفل الأ قدار جاءت بكل أمر ضارى
لا يبالى غداة يصغى إلى الشـ ـيخ وللشيخ هالة من وقار
أحصير ممزق أم حرير مقعد المجاهـد الصبار
عجبى من « مجاور » ضاق بالأز هر ، واحيرة النفوس الكبار
ثم أمسى « مطربشا » واكتسى « البذلة » ما بين ليلة ونهار
ثم أمسى « مبرنطا » يقصد « السـ ـين » ويغزو مدينة الأنوار

إلى غير ذلك من مظاهر وطنية الشاعر ، وحبه لقوميته . ولبلاده ، وتقديسه لمجدها الخالد ، وتاريخها القديم .

— ١٠ —

وبعد فهذه هى قصة ناجى الشاعر ، قصة حياته الفنية والأدبية بإيجاز ، كما يرسمها لنا ديوانه « وراء الغمام » وديوانه الآخر « ليالى القاهرة »

وما أحرانا جميعا ـ معشر الأدباء فى مصر ـ أن نتكاتف على إخراج جميع آثار ناجى الأدبية والنقدية والشعرية والقصصية ، لتكون سجلا خالدا لموهبة من أجل المواهب فى حياتنا الأدبية ، وقدوة طيبة يحتذيها شباب مصر فى الحاضر والمستقبل .

وأخيرا فتحية وإجلالا لذكرى ناجى العاطرة ، ولأدبه العالى ، وشعره المتحرر ، الممتلىء بآيات الجمال والحكمة ، وأنغام الوطنية والحرية .

ولا يفوتنا أن نذكر أن ناجى قد ولد فى حى شبرا بالقاهرة عام ١٨٩٨ ، وتخرج من مدرسة الطب عام ١٩٢٢ ، وعين طبيبا بمصلحة « السكك الحديدية » ثم نقل الى وزارة الصحة ، فوزارة الأوقاف حيث شغل منصب مدير القسم الطبى بها ، وطلب احالته الى المعاش فى أواخر عام ١٩٥٢ . .

وقد أصدر عام ١٩٣٤ مجلته « حكيم البيت » ، وكان عضوا فى جمعية « أبولو الشعرية » . . وله قصص كثيرة ، منها . مدينة الأحلام ، والحرمان ، والنوافذ المغلقة . . وله رسائل عديدة منها : رسالة الحياة ، وكيف تعرف الناس ، وله دراسة عن شكسبير نشرت ملحقا لعدد مجلة أبولو الذى صدر فى سبتمبر ١٩٣٤ . . وقد اشترك مع الدكتور اسماعيل أحمد أدهم فى كتاب « توفيق الحكيم الفنان الحائر » . . وترجم للفرقة القومية للتمثيل والموسيقى مسرحية « الجريمة والعقاب » مقتبسة عن ديستويفسكى ، ثم مسرحية « الموت فى اجازة » عن الايطالية (١) . . وقد جمع الشاعر أحمد رامى كثيرا من شعره ، وستنشره دار المعارف فى ديوان جديد بعنوان « الطائر الجريح »

---

(١) ولناجى دراسة أدبية عن « ولز » الأديب ـ نشرت فى المقتطف عدد مايو ١٩٣٣ . . وللأديب الكبير حليم متى دراسة أدبية طويلة عن ناجى عنوانها « اتجاهات ثقافية فى شعر ناجى » نشرت فى صحيفة البعثة الكويتية . . وللاستاذ الكبير محمد ناجى محاضرة طويلة عن « ناجى وديكنز » نشرت فى بعض المجلات الأدبية

التيجانى يوسف بشير الشاعر

— ١ —

فى عمر الزهور ، وإشراقة الشباب ، مات شاعر السودان المبدع ، المرحوم التيجانى يوسف بن بشير (١٩١٢ — ١٩٣٧) ، صاحب ديوان « إشراقة » ، الذى يجمع أروع الألهامات الشعرية ، وأجل الآيات المعبرة عن شاعرية أصيلة موهوبة عرفها السودان فى العصر الحديث

والسودان يعتز من قديم بأدبائه وشعرائه المشهورين ، ومن أوائل من نعرفهم من شعراء السودان الشيخ فرح تكتوك المتوفى نحو عام ١٠١٧ هـ صاحب الأناشيد الصوفية الذائعة ... ومنهم الشيخ عمر الأزهرى (١٢٧٠ — ١٣٣٣ هـ) ، والشيخ محمد عمر البنا (١٢٦٤ هـ - ١٩١٩ م) ، والشيخ بابكر بدرى (١٢٨٣ هـ - ١٩١٩ م) وكان ناظرا لكلية غوردون ، والشيخ الطيب السراجى ، وأحمد يوسف نعمة ، والشيخ عبد الله محمد عمر البنا ، وعبد الله حسن كردى ، وعبد الله عبد الرحمن الضرير ، وعبد المجيد وصفى ، وعثمان هاشم ، والشيخ على الشامى ؛ والشيخ ابراهيم محمد مدنى ؛ وأحمد محمد صالح ، وعبد الرحمن شوقى ؛ وصالح عبد القادر ؛ والشيخ حسيب على حسيب ، وعثمان حسن بدرى ؛ وتوفيق أحمد ، ومحمود أنيس ؛ ومحمد حافظ الأمين ؛ والشيخ محمد بن الطاهر المجذوب ، والشيخ مدثر البوشى ، والشيخ مدثر ابراهيم ، ومن شعراء السودان أيضا . الشيخ الأمين محمد الضرير (١٢٣١ - ١٣٠٢ هـ) ، والشيخ الحسين زهراء ، والشيخ ابراهيم شريف الدولابى الكردفانى ، والشيخ أبو القاسم أحمد هاشم ، والشيخ اسماعيل عبد القادر المفتى الكردفانى (١٢٦٠ - ١٣١٦ هـ) ، والشيخ الطيب أحمد هاشم ، والشيخ ابراهيم أحمد هاشم ، والشيخ أحمد المرضى . . ومن أشهر الشعراء فى السودان كذلك الشيخ محمد سعيد العباسى ، وله ديوان مطبوع ، ومن شعره قوله :

خان عهد الهوى وأخلف وعدا ظالم أحرق الحشاشة صدا
إن سألت النوال ضن وإن غبت تجنى بها وإن زرت صدا

وله :

منيت نفسى آمالا يماطلنى بها زمانى من حين إلى حين

وصرت لاأرتضى إلا العلا أبدا ماقد لقيت من التبريح يكفيني

وأهم الحوادث السياسية ذات الأثر البعيد فى الشعر السودانى الحديث : فتح مصر للسودان عام ١٨٢٢ وما تلاه من الاتصال الثقافى والفكرى والأدبى بين أبناء الوادى شماله وجنوبه ، ثم حركة المهدية عام ١٣٠٠ هـ - ١٨٨١ م ، والتى لاتزال ذات أثر كبير فى حياة السودان الاجتماعية والعقلية . . ويحمل مشعل الثقافة فى السودان معهد ام درمان العلمى الذى تخرج منه شاعرنا التيجانى بشير ، وكلية غوردون الجامعية التى أنشئت فى أوائل القرن العشرين فى الخرطوم . والصلات الثقافية بين مصر والسودان قوية متينة منذ أجيال ، بل من قديم العصور ، ويصور شاعرنا التيجانى هذه الصلات فى قصيدته الرائعة « ثقافة مصر » ، فيقول :

عادنى اليوم من حديثك يا مصـ ـر رقى وطوفت بى ذكرى
وهفا باسمك الفؤاد ، ولجت بسمات على الخواطر سكرى
من أتى صخرة الوجود ففرا ها وأجرى منها الذى كان أجرى
هو من صاغنا على حرم النيـ ـل وشطآنه دعاء وشكرا
إنما مصر والشقيق الأخ السو دان كانا لخافق النيل صدرا
حفظا مجده القديم وشادا منه صيتا ورفعا منه ذكرا
فسلوا النيل عن كرائم أوسعـ ـنا دراريها احتفاظا وقدرا
مارغبنا عنها ولكن دهرا ناوأتنا صروفه كان دهرا
أفلسنا إلى هوى جمعتنا سرحة الفكر فى أواصر كبرى ؟
أفكانت إلا الأصول استقرت حيث كانت لنازح ماستقرا ؟
مصر راشت وثقفت وأعدت منه شمسا وأطلعت منه بدرا
كيف ياقومنا نباعد من قيـ ـد رين شدا وساندا البعض أزرا
كيف قولوا يجانب النيل شطيـ ـه ويجرى على شواطىء أخرى ؟
كلما أنكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعا وفكرا
جئت فى حدها غرارا لحيا الله مستودع الثقافة مصرا
نضر الله وجهها فهى ماتز داد إلا بعدا على وعسرا

ويسترسل فى حديثه الممتع الجميل ، مبديا رأيه فى الصلات بين مصر والسودان ، ووجوب توثيق الصلات الفكرية والأدبية بينهما ، فيقول :

يا ابن مصر وعندنا لك مانأ مل تبليغه من الخير مصرا

قل لها فى صراحة الحق ، والحـ ـق بأن يؤثر الصراحة أخرى
وثق من علائق الادب البا قى ولا تحفلى بأشياء أخرى
وقفى بالصلات من حيث لاتعـ ـرف إلا مسالك الفكر بحرى
كل مافى الورى عدا العلم لايكـ ـبر شعبا ولا يمجد قطرا

والقصيدة يجب أن يعيها كل إنسان فى وادى النيل ، ويجعلها نشيده ولحنه المردد صباحا ومساء .

والتيجانى ابن السودان البار ، وفتاه الوفى ؛ وديوانه « إشراقة » ، وما جمع من شعره فى كتاب « الروائع اشعراء الجيل » الذى نشره الأستاذ محمد فهمى ، من أنفس الذخائر الأدبية التى يجب أن يعتز بها كل سودانى مخلص لبلاده ونهضتها . وفى شعر التيجانى صور رائعة عن السودان ومشاهد الطبيعة والحياة فى ربوعه ، وألوان من العادات الذائعة بين أهله ، ومن ثم فهو « لوحة » فنية كبيرة ، تمثل السودان الحديث أتم تمثيل ، وفى قصيدته « الخرطوم » صور جميلة لعاصمة السودان الحديثة ، ويقول التيجانى فى مطلعها :

مدينة كالزهرة الموناقة تتفح بالطيب على قطرها
ضفافها السحرية المورقة يخفق قلب النيل فى صـــدرها
تحسبها أغنيية مطرقة تغمها الحسن على سحرها
وشمسها الخمرية المشرقة تفرغ كأس الضوء فى بدرها

وكذلك يصف « التيجانى » جزيرة « توتى » المواجهة للخرطوم فى قصيدته « توتى فى الصباح » (١) وصفا جميلا ، ويصف صوراً من حياته العاطفيـــة فى قصيدته « من هنا وهناك »(٢) فى بلدة « أم درمان » حيث كان الشاعر يقيم فى داره القريبة من « حى المسالمة » فى « أم درمان » .

وينطوى قلب التيجانى على حب وثيق للسودان وزعيمه الروحى الكبير الامام السيد المهدى الأكبر ، مما يصور جوانب منه فى قصيدته « الزاهد »(٣) التى يقول فى مطلعها :

فى دجى مطبق ويوم دجوجى وليـــل مقفقف مقرور
ولدت ثورة البلاد على أحمد ان كوخ وفى ذراعى فقير

---

(١) ٣٥ ديوان إشراقة (٢) ص ٤٧ المرجع (٣) ص ١٢ المرجع

ومنهـــا :

أيهذا « الثنى » مرحى بغدا ك إلينا ، أهلا بلقيا البشير

ولم ينسى التيجانى وطنه الثانى مصر ، ويفيض ديوان « إشراقة » بالكثير من مظاهر حبه له ، وهو فى قصيدته « رسل الشباب فى مصر » يعبر عن حبه العميق لمصر ، وكذلك فى قصيدته « أمل(١) » التى يبدو أنها قطعة من قصيدته « ثقافة مصر » . . ويقول من القصيدة المذكورة :

أملى فى الزمان مصر فحيا الله مستودع الثقافة مصرا

نضر الله وجهها فهى ماتز داد إلا بعداً على وعسرا

ويبدو أن التيجانى كان يتمنى زيارة مصر أو الحياة فيها ، فقعد به الدهر عما يريد ، وإن كان قد تثقف بأدب كتابها وشعرائها ونقادها ومفكريها وعلمائها ، وتتلمذ عليهم تلمذة روحية عميقة يصورها قوله :

كلما أنكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعا وفكرا

وقد ولد التيجانى فى أم درمان عام ١٩١٢ ، واسمه أحمد ، ولقب بالتيجانى تيمنا بصاحب الطريقة التيجانية المعروفة ، ووالده الجليل هو الشيخ يوسف بشير ابن الامام جزرى الكتيابى (٢) ـ وحفظ الشاب الناشىء القرآن فى « الخلوة » ، أو المكتب كما هو معروف فى مصر ، على يد عمه الشيخ محمد القاضى الكتيابى ، ثم التحق بمعهد أم درمان العلمى وتخرج منه ، ويصف التيجانى حياته فى الخلوة فى قصيدة سماها « الخلوة(٣) » وصفا جميلا خصبا .. ثم اشتغل بالأدب والصحافة حتى توفاه الله فى الخامسة والعشرين من سنى حياته .. وقد طبع ديوانه « إشراقة » فى مصر على حساب الأستاذ على البربر ، ثم أعيد طبعه فى الخرطوم عام ١٩٤٩ فى المطبعة الوطنية .

وشعر التيجانى ممزوج بروح صوفية عميقة ، وخيال بديع ، وهو حلو الأسلوب ، أنيق الديباجة ، قوى التعبير ، عميق فى تجربته الشعرية ، صادق فى عاطفته الشاعرة الأصيلة .. وتصور صوفية الشاعر قصائد عدة فى الديوان ، منها قصيدته « الله » ، التى تفيض بصوفية عجيبة ، ويقول منها فى تآخى الأديان :

---

(١) ص ٤٥ المرجع (٢) نسبة إلى أسرته ، وهى أسرة عريقة من الأسر السودانية

(٣) ص ٥٨ ديوان إشراقة

كلها فى الثرى دوافع خير بنت وهب شقيقة العذراء

ويصور هذه الروابط والأخوة بين الأديان فى قصيدته الأخرى « كنائس ومساجد » ، التى يقول فيها :

درج الحسن فى مواكب عينى مدرج الحب فى مساجد أحمد

ومن مظاهر الروح الصوفى فى شعر التيجانى قصيدته « الصوفى المعذب » ، التى يقول فيها فى عذوبة وفلسفة عميقة :

هذه الذرة كم تحـ ـمل فى العـالم سرا
قف لديهـا وامتزج فى ذاتهـا عمقا وغورا
وانطلق فى جوها المم لوء إيمـانا وبرا
وتنقل بين كبرى فى الذرارى وصغرى
تر كل الكون لايف تر تسبيحا وذكرا
سل هزار الحقل من أ بته وردا وزهرا
وسل الوردة من أو دعها طيبا ونشرا
تنظر الروح وتسمع بين أعماقك أمرا

ومن هذه القصيدة الرائعة أيضا :

الوجود الحق ما أو سع فى النفس مداه
والسكون المحض ما أو ثق بالروح عراه
كل ما فى الكون يمشى فى حناياه الإله
هـذه النملة فى رة تها رجع صداه
أنا وحدى كنت أستجلى من العـالم همسه
أسمع الخطرة فى الذ ر وأستبطن حسه
واضطراب النور فى خف قته أسمع جرسه

وكان التيجانى - على الرغم من إيمانه العميق وصوفيته الهادئة - تعتريه كثير من الشكوك فى الحياة ، مما يصوره بوضوح فى شعره ، يقول من قصيدته « الصوفى المعذب » :

فشت غائلة الشك إلى لجر يقينى

ويقول من قصيدته « ودعت أمس يقينى » :

مضى بك العقل لم تسعد به أثرا واعتادك الشك إذ ضاقت بك السوح

ويقول من قصيدته « حيرة » :

بين اثنتين أسر أم أبكى قبس اليقين وجذوة الشك

ويقول من قصيدته « الصبي العابد » :

ومضى الشك باليقين ، فلا ه فؤاد تأكلته الرزايا

ويقول من قصيدته « يؤلمني شكي » :

أشك يؤلمني شكي وأبحث عن برد اليقين فيغني فيه مجهودي
أشك عن رضا مني ويقتلني شكي ويذبل من وسواسه عودي

وكان في شبابه الغض يشعر بالحزن العميق في قلبه ، مما يعبر عنه في قوله من قصيدته « الصوفي المعذب » :

للمنايا السود آمالي وللموت رجائي

وفي قصيدته « قلب الفيلسوف » فلسفة حائرة ، ويقول فيها يعبر عن ثقته بالحق في قلبه :

في موضع السر من دنياي متسع للحق أفتأ يرعاني وأرعاه
هنا الحقيقة في جنبي ، هنا قبس من السموات في قلبي ، هنا الله

وفي قصيدة « ثورة » كثير من الصور النفسية العميقة التي تنير جوانب حياته ونفسه المضطربة الثائرة ، ويقول فيها :

إنها ثورة الشباب يبسا مراعيه وما كالصبا أقر لعيني

ويبدو أن في البيت تحريفا ، وقع فيه ناشر الديوان ، مما أدى إلى اختلال الوزن ، ولعل صحة البيت :

ثورة للشباب يبسا مراعيه وما كالصبا أقر لعيني

ومنها قوله يصور حياته وحياة وطنه :

قف بنا نملأ البلاد حماسا ونقوض من ركنها المرجحن
هي للنازحين مورد جود وهي للآهلين مبعث ضن
حسب قلبي من الأسى ما ألاقي ملء جنبي من كلال وأين
وبحسبي من حاجة عوز يد فع نفسي إلى فراق وبين

وآيات الشاعر في الطبيعة وفي وصف الجمال ، ورسم العواطف ، وتصوير حبه وهواه ، كثيرة متعددة مملوءة بالأشراق الفني ، والطلاقة التعبيرية ، والتحرر

من قيود الصنعة . يقول الشاعر من قصيدته « جمال وقلوب » :

وعبدناك ياجمـــال وصغنا لك أنفاسنا هياما وحبا
ووهبنا لك الحيـــاة وفجر نا ينابيعهـــا لعينيك قربى
من ترى وزع المفاتن ياحس ن ، ومن ذا أوحى لنا أن نحبا ؟
من ترى علم القلوب هوى الحس ن ، وقال : اعبدى من السحر ربا؟
من ترى وثق العرى بين مسحو رين أسماهما جمـــالا وقلبا ؟

ومن قصيدته « زهى الحسن » يقول :

لاتثأرى من فؤادى كفى بدمعى ثارا
آمنت بالحسن بردا وبالصبابة نارا

وقصيدة التيجانى « نفس » تصف لنا فى فلسفة عميقة النفس الانسانية أو نفس الشاعر ، فى رقة وجمال وحلاوة ، وبعد عن خشونة الفلسفة وغموضها ، وذلك مايبعد بينها وبين قصائد المفكرين والفلاسفة فى النفس ، كقصيدة « ابن سينا » وسواه ، يقول التيجانى :

سبحانك اللهم نف س كلها عطف ولين
وتر من الناى المقد س من بقايا المرسلين
من قدس داجية الشعو ر وطهر واضحة الجبين
من كل سحر فى الوجو د وساحر فى العالمين
من مهبط الروح العز يز وعنصر الجسم المهين
صيغت فكانت حرة أبدا على مر السنين

وكان التيجانى يعيش معلقا من المال ، ولكنه كان غنيا بالآمال الواسعة العريضة يقول من قصيدته « دنياى » :

مالى ثراؤك من ذخر ولا مال فلتبق دنياك ، حسبى كنز آمالى

وفى هذا البحث نشير إلى قول الشاعر من قصيدته « المعهد العلمى »

ودعت غض صباى تحت ظلاله ودفنت بيض سنى فى محرابه

فهو أصدق صورة للشاعر الشاب ، الذى ودع غض صباه تحت ظلال معهده ، لا بل قل تحت ظلال الحياة المكدودة المتعبة التى كان يحياها ، ودفن آماله وناضر شبابه فى محرابه ، لا بل فى هموم الحياة وأحزانها المرهقة لكل ذى شعور حى وقلب كبير .

ولم تنس مصر التيجانى شاعر الوادى ، فكرمت ذكراه فى حفل أدبى كبير أقيم بنادى نقابة الصحفيين فى القاهـــرة فى مايو عام ١٩٤٦ ، وكتبت عنه الصحف والمجلات الأدبية الفصـــول الطوال . . رحم الله التيجانى ، وألبسه ثوب الخلود (١) :

— ٢ —

وكان التيجانى يكتب إلى المجلات الأدبية فى مصر والسودان ، فى الأدب والشعر والنقد ، ومن أطرف ماقرأناه له فى مجلة الفجر السودانية مقال بعنوان «مشكلة أدبية كبرى بين الشاعر والناقد» قدم له محرر المجلة بقوله : «صاحب البحث شاعر قبل أن يكون ناقدا ، وهو يزعم أن النقاد بوجه عام نظريون ماديون علميون ، والشعراء بحكم شاعريتهم خياليون ، والبحث طريف فى ذاته ، ولعله جاء فى أوانه لأن للغموض فى الشعر اليوم أنصارا» : ويقول التيجانى فى مقاله (٢) : «إذا توقف فهم الأشياء على الذوق ، وانقسمت الأنفس فى داخلها إلى مذاهب وشيع ، وتناصرت العواطف والأعصاب ، وتقاعل العقل والقلب ، واضطرب الوجود الداخلى وتعددت مقاييسه ، وتبلدت نفوس وشطت نفوس ، وكان جفاف وكان لين ، وكان تناكر وكان ائتلاف ، هنالك يصبح سلطان العقل ضيقا محدودا لا أثر له فى حكم يصدره ، أو أمر يبديه . وإلا كان سادرا فى ضلاله متى حاول أن يقف من الذوق موقف الهيمنة والسلطان ، وهل يمكن أن يكون الذوق شيئا تتحكم فيه أقيسة المنطق ، أو ضربا من العلوم النظرية التى يخضعها العقل لسلطانه فينفذ منها إلى أقصى ماتصل إليه أطرافها من دقة وعمق . لا ، لن يكون ذلك ، ولن تحلم القوى العقلية نفسها أن تستحيل يوما إلى قوة روحية بحتة .

ثم يرجع التيجانى إلى هؤلاء النقاد ، الذين يريدون إخضاع الذوق لأحكام العقل ومقاييس المنطق ، وحدود العلم ، فيتهمهم بأنهم «بذلك يتحيفون على الشعر الحديث ، وعلى مناهج الشعر الحديث ، وينظرون إلى الحركة الأدبية نظرة شك وارتياب .

---

(١) ولصديق الأستاذ رضوان إبراهيم مصطفى الأديب المعروف دراسة أدبية عن التيجانى بشير وشعره ، وسينشرها فى القريب .

(٢) مجلة الفجر السودانية ـ عدد نوفمبر ١٩٣٤ ـ المجلد ١ ـ عدد ١١ ـ الخرطوم ص ٤٩٧ وما بعدها .

والتيجانى يعنى بذلك ما أثاره بعض النقاد فى مصر (١) حول « الألحان الضائعة » للشاعر حسن كامل الصيرفى والملاح التائه لعلى محمود طه ، ونقده لبعض أساليبهما ، مثل « شرب الضوء » و « رشف الأشعة » ، و « التهام النظرات » ؛ إذ يدهشه حيرة النقاد وجمودهم أمام أرق المعانى وأعذب الألفاظ ، وتساؤلهم فى خبث عما تعنيه هذه الكلمات ، ويقول : إنه لن يستطيع الشاعر أن يقنع أحدا منهم بأنه إنما يعنى كذا أو كذا من المعانى الروحية ، لأن مثل هذا الناقد لن يفهمها ؛ حتى ولو أفرغها له الشاعر فى قرارة روحه ، ويرى أن الشعراء فى هذا يقفون أمام أمرين : « إما أن يأخذوا بيد النقاد إلى البحر الذى ينهلون منه ؛ ويطلون بهم من الثنيات التى يهبط عليهم منها شياطين الشعر » ، وإما أن يظلوا كما هم ، ويظل موقفهم من النقاد كما هو ، فيبقى الأمر معقدا ، وتزداد الهوة سحقا واتساعا .

ويقول التيجانى : إن « هذه فى نظرى مشكلة أدبية كبرى ، لا يمكن حلها بمثل تلك السهولة التى ألفناها » فى المشكلات الأدبية قديما وحديثا . ويرجعها إلى ما فى ملكات الشاعر المعاصر من تلطف فى المعانى واندفاع مع الهواجس ، وتوغل فى الشعور ، وافتنان فى التعبير ، وإلى ما نراه عنده من عمـــق وشذوذ فى توثب الخيالات بعضها إثر بعض ، وتزاحمها فى البيت الواحد من الشعر الحديث ، ومن خروج على ما ألفه الشعراء من مناهج ظل ومازال يسلكها الشعر القديم ، وينا صرها القدماء ، فأهم ميزات الشعر الحديث - كما يرى التيجانى - أنه « أصبح يؤدى واجبه فى الحياة كلغة سماوية عليا ، لا كاصطلاحات بشرية قاصرة ، وأصبح الشعراء يؤدون واجبهم كأنبياء تفتح لهم أبواب السماء لا كؤلاء الناس » .

ويؤكد التيجانى رأيه فى كثرة واستمرار الخصومات الأدبية حول الغموض فى الشعر وغرابة المعنى وتعقده وإبهامه ؛ ويقول : الحق أن الأشياء إذا كان فهمها مقصورا على الذوق كان التباين فيها شديداً واضحا بين الناس .

ثم يعرض المازنى ، ويلوح بخطئه مع كونه شاعرا فى نقده لديوان على محمود طه ويستمر فى حديثه قائلا : « ولقد قرأت فصلا لبعض النقاد يأخذ فيه على صاحب الألحان الضائعة ، كثيرا من أمثال :

عصرت روحى خمرا للورى وهوى ... وما تذوقت منها بعض ماشربوا

---

(٢) هو طاهر الطناحى - البلاغ ٦ سبتمبر ١٩٣٤ .

ويسأل كيف تعصر الروح والعصر شيء مادى والروح روح لا مادة . . ويرى التيجانى أن ذلك تعنت واضطراب لا يدل على ذوق أو نزاهة أدبية .

— ٣ —

ويقول محمد مفتاح الفيتورى الشاعر السودانى الشاب(١) من دراسة له عن التيجانى بشير : الشيخ يوسف بن بشير شيخ الطريقة التيجانية فى السودان هو والد شاعرنا أحمد بن يوسف بن بشير بن محمد ابن الإمام جزرى الكتيانى ، وولد له الشاعر عام ١٩١٢ ، بمدينة أم درمان .

وكانت « خلوة » الشيخ الكتيانى معهد طفولته الذى حفظ فيه القرآن الكريم ، وقد وصف التيجانى فيما بعد هذه الفترة من حياته فى شعره ، وصفاً دقيقا عميقاً حيث يقول فى قصيدته « الخلوة » :

هب من نومه . . يدغدغ عينيه مشيحا بوجهه للصباح
ساخطا يلعن السماء . . وما فى الأرض من عالم ومن أشباح
ضمخت ثوبه الدواة . . وروت رأسه من عبيرها الفواح
ورمى نظرة إلى شيخه الجبار مستبطنا خفى المناحى
نظرة فسرت منازع عينيه وتمت عما به من جراح

والمرحلة الثانية من مراحل حياته الدراسية كانت فى معهد « أم درمان » العلمى الذى ظل يتلقى فيه عن شيوخه الثقات ، أصول اللغة وفروع الشريعة ، وآداب العربية ، حتى السنة الأولى الثانوية . . وانقطعت بعد ذلك نهائيا صلته بكل معاهد العلم ودور التعليم ، وودع التيجانى هذه الفترة الثانية بقصيدة تمتزج فى أبياتها الحسرة على فراق معهده الحبيب ، بالفرحة لانطلاقه من قيود التلمذة وأثقالها العنيفة على حريته :

ودعت غض صباى تحت ظلاله ودفنت بيض سنى فى عرابه
ولقيت من عنت والزيود ، مشا كلا وبكيت من عمرو ومن إعرابه

يقول الأستاذ محمد أحمد الغمراوى شيخ رواق دارفور بالأزهر : إن هنالك أسبابا كثيرة تجمعت كلها لتحث التيجانى على سرعة مغادرة المعهد . . ولعل أهم هذه الأسباب طبيعة التيجانى نفسه : آراؤه وأفكاره واتجاهاته . . كانت أفكاره الفلسفية العميقة ، وآراؤه المتحررة ، واتجاهاته الثورية ، شيئا جديدا على بيئته ،

(١) مجلة العالم العربى - ١٩٥٢

حتى لقدرماه الكثيرون بالإلحاد والمروق والكفر . . ولم أستطع الايمان بهذا الرأى كدافع قوى يدفع التيجانى إلى هجر معهـــده ، واخوانه وأساتذته ، وعزوت ذلك إلى أسباب أخرى ربما يكون من بعضها حاجة والده إلى يده الضاربة بالفأس ، لايده الممسكة بالقلم ، ولكنى لما رحت أتصفح تراثه الشعرى قرأت فيما قرأت له :

ما كنت أوثر فى دينى وتوحيدى ... خوادع الآل عن زادى ومورودى
غرون بى وبحسبى أن راويتى ... ملأى هريقت على ظمأى من البيد
أفرغتها وبرغمى أنها انحدرت ... بيضاء كالروح فى سوداء صيخود
أشك لاعن رضا منى ، ويقتلنى ... شكى ، ويذبل من وسواسه عودى

وهنا تجلت لى بعض ظلال الآراء المتحررة التى تراود نفس التيجانى وهو يحاول أن يخفيها ، ولكنه لايلبث أن يعرب عن هذا الشك الكبير بقوله :

أيها العقل أنت ياحيرة العقل ... ولما تكن بنفسك أجدر
ياقوى تهدم الحياة وتبنيها ... وتذرو الورى هباء وعثير
أإله فى الأرض أنت؟ أم الشيطان ... ينهى فى العالمين ويأمر
وجنون أم أنت عقل؟ وموجود ... حقيق ! أم أنت وهم مصور ! ؟

وعميت الحظوظ ، واشتبهت الدروب أمام ناظر التيجانى ، فوقف حائراً يسأل :

بين اثنتين أسر أم أبكى ؟ ... قبس اليقين وجذوة الشك !

ولكن هذا الشك الذى يخامر نفسه كان أعمق من أن يكون « بدعة » أو هدفا لذاته ، ولكنه الشك الذى يسمو الى مرتبة اليقين:

شكها فى هدى الحقيقة إيمان ... وفى ضوئها يقين مجوهر
مابها أن تسام فى الأرض خسفا ... أو تعادى فى رأيها أو تكفر

ويقول فى صدق وإيمان عميق !

مازلت أكبر فى الشباب وأغتدى ... وأروح بين بخ ويامرحى به
حتى رميت ، ولست أول كوكب ... نفس الزمان عليه فضل شهابه
قالوا وأرجفت النفوس وأوجفت ... هلما ، وهاج وماج قسور غابه
« كفر ابن يوسف » من طغى واعتدى ... وبغى ! ! ولست بعابىء أو آبه
قالوا احرقوه ودمروه ! بل انسفوا ... للريح ناجس عظمـــه وإهابه

ولو ان فوق الموت من متلمس للمرء مد إلى من أسبابه

وذهب التيجانى إلى الأرض . . أرض آبائه وأجداده الأولين ، يحرثها مع الحارثين ، ويبذرها مع الباذرين ، ويسقيها بدمه وعرقه ، حتى إذا جاء يوم الحصاد المنتظر ، مضى مع الماضين ، يجنى ثمر الأيام وأشواك الليالى الكادحة . . ولكن روحه القلق ، وطموحه المتوثب ، وقوة إرادته وإيمانه بنفسه ، كل ذلك كان أكبر من أن تقيده أرض ، أو تحده حدود ، وكان هذا التطور الجديد فى حياة التيجانى تطورا فى حياة الصحافة السودانية الناشئة ، فقد كانت المجال الوحيد الذى برزت فيه مواهب التيجانى الأدبية . ولقد ظل التيجانى يعتصر قواه ، فشاع فى بدنه الوهن ، وأسلمته جهوده المضنية إلى ضرب من الارهاق ، أنهك أعصابه . وظل فى صراع عنيف بين الحياة التى أحبها وحرص عليها ، حتى تسلل المرض إلى رئتيه فى غفلة . وطلع على الناس ذات صباح أحد أقربائه ينعاه ويبكيه .

ويقول الأديب السودانى الشاب أبوه حمد حسب الله من كلمة له بعنوان « نحو أدب سودانى » : « إذا نظرنا إلى ماقاله الشعراء السودانيون الشيوخ باحثين عن أدب سودانى لم نكد نجد إلا تقليد أعمى للأدب العربى القديم أو الحديث ، بل تجدهم أحيانا يسرقون معانى القدماء ويسكبونها فى أساليب ضعيفة . ولقد جرهم هذا التقليد إلى الوقوع فيما وقع فيه بعض الشعراء القدامى كافتتاح قصائد الرثاء بالنسيب .. هذا عرض سريع لحالة الشعر قبل التيجانى . . ولقد كان التيجانى صادقا فى إحساسه ، دقيقا فى تصويره للبيئة السودانية ؛ له فطنة تجيد التقاط الصور الفريدة ، والتيجانى أول من عنى بتصوير العادات السودانية مما يكسو شعره بجمال الواقعية وصدق الشعور فى كثير من الأحيان ، يقول فى قصيدة بعنوان « على قبر حبيب » :

أنت عوفيت ياجيوب وذاك قبر الحبيب « يكسر »

فكسر القبر عادة يعرفها سكان أم درمان ، وشعر التيجانى حافل بصدق الأداء والشعور ، ولا أكون مغاليا حين أقول إن التيجانى كان رائدا فى تكوين أدب سودانى يعبق بأريج البيئة السودانية ، ويصور عاداتها وأخلاقها وطبائعها .. وكم يكون جميلا لو ترسم شعراء الشباب خطا التيجانى وتمموا ما بدأه ، فأضافوا إلى الأدب العربى مجدا طريفا . . ويقول أيضا من كلمة له بعنوان « كيف ندرس التيجانى ؟ » : نرى كثيرا من المحاولات لدراسة التيجانى ومعظمها قام به أدباء

مصريون جزاهم الله عن الأدب خيرا ، ولكننا مع تقديرنا لهم سنوجه إليهم بعض النقد فى طريقة دراساتهم ، ذلك أنهم اعتمدوا فى دراساتهم على شعر التيجانى وعلى تلك المقـــدمة لديوانه ، فجاءت دراساتهم سطحية ينقصها التعمق . لقد عاش التيجانى فى بيئة يصطرع فيها الشباب والشيوخ المتمسكون بكل قديم الذين يعدون كل من يحاول الخروج عن القديم مارقا عن الدين والأخـــلاق ، والتيجانى كان متوثبا ومن بيت متدين ، ومن هنا كان يستعمل الرمزية الموضوعية فى كثير من شعره ، ولا يستطيع الناقد أن يصل إلى أسرار شعره إلا بعد أن يعرف مناسبات هذه القصائد . . . ترى هل عرف النقاد المصريون هذه المناسبات : ؟ ! كلا هاهو ذا ناجى . . يعرض لقصيدته « من وراء نافذة » فيقول إنها تصور موقف الشاعر الفليسوف ماوراء الطبيعة ، وهو فهم طبعى يفهمه كل من يدفع اليه بالديوان دون أن يقف على مناسبة القصيدة ما دامت قد سيطرت على ملكته الناقدة الفكرة القائلة إن التيجانى فيلسوف ، ولكن التيجانى يصف فتاة بيضاء رآها من وراء نافذة زجاجية فبدت كالماء مختبئا وراء النور . . هذا ماذكره أصدقاؤه . . وكيف يدرك ناجى جمال الواقعية فى هذا البيت :

واعصروا قلبى المفزع للحســـن وعوذوه بـ « نوح »

إنه لاشك يقول إن القافية هى التى جاءت بكلمة « نوح » ولكن الذى عاش فى البيئة السودانية ورأى العامة يعتقدون أن اسم نوح يدفع كل شر يدرك جمال هذه الواقعية الحلوة وما موقفه من هذه الأبيات من قصيدته « الخلوة » ـ أى الكتاب :

زهرات شتى منوعة الألـ ـوان من سوسن الربى والأقاحى
متعت شمسها فعاودها إلـ ـف هوى يستقيدها المراح
ونفوس سجى الكرى فى حوا شيها ودب الفتور فى الأرواح
فارجحنت مهومات وما تبـ ـرح مركوزة على الألواح
كلما لفها النعاس وأضـــفى فوقها عالما ندى الجناح
قصف الرعد فى المكان ودوى مرزما صاخبا قوى الصباح
فاستفاقت وهيمنت بعض أشيا ء وعادت وعاد قصف الرياح

فانظر إلى هؤلاء الصبية الذين أخذ الكرى بمعاقد أجفانهم فارتكزوا على ألواحهم الصغيرة ، وراحوا فى إغفاءة قلقة أخرجهم منها صوت (الفقى) قاصفا كالرعد ولكنهم لم يخرجوا إلا أشباحا لاتحس ولا تشعر ثم راحوا فى سبات عميق

وعاد قصف الرعد أشد مما كان . . إن كثيرا من السودانيين الذين لم يقرأوا فى « الخلوة » يفوتهم جمال هذه الصورة بله ناجى . . وكيف يدرك جمال هذه الصورة وواقعيتها :

أراوح فى صبية وادعين سواسية كصغار النعم

إنها صورة فنية جميلة ولـــكن لا يشعر بجمالها إلا الذين عاشوا عيشة بدوية فرأوا صغار الضأن تغدو وتروح .

هذا كله بالنسبة إلى النقاد المصريين ، أما السودانيون الذين تصدوا لنقد التيجانى فهم فى حاجة إلى ثقافة الناقد . . فالثقافة ناقصة والذوق ضعيف ، والتجربة فى أول الطريق ، وإذا أراد أحدهم أن يتكلم عن التيجانى أعشى ناظريه وهج شاعريته فكبا على وجهه يمهمم بكلمات الإعجاب والتقدير ، والتيجانى كغيره من الشعراء يسف أحيانا إسفافا شائنا . . . استمع إلى هذه القصيدة : « دنياى »

مابى ثراؤك من ذخر ولا مال فاستبق دنياك حسبى كنز آمالى
مابى شقيت ومابى إن نعمت وما بالقلب زهو الغنى أو رقة الحال
دنياى وهى من الدنيا على نفسى أثرى من التبر أو أسمى من المال
وهبت للناس من دنيا مطامعهم ماعندها لى من نعمى وإقبال . .
فليتركوا لى أحلامى وما نسجت حولى من الضنك إن لم يرضهم حالى
وهبتهم من لذاذاتى وصمت فلم أطعم لذيذا ولم أفطر على حالى
ولا غنيت وما أبغى ولا رغبت دنياى فى وفرة منها وإقلال
وعشت أنعم فى عدمى ويسعدنى أنى تخففت من إصرى وأثقالى
أولئك الناس . . لم أطرق حقائقهم فما لهم بى . . لا أهلى ولا آلى
جانبت باطل أيامى وزهدنى فيها خوادع ما يطفو من الآل

إننى أكاد أنفيها عن التيجانى لولا بعض ومضات هنا وهناك ولولا ماقدمته من أن لكل شاعر لحظات إشراق ولحظات يخف فيها النبض الشعورى إلى درجـــة الهمود . . وأخيرا أقول : إن التيجانى شاعر رحب الثقافة قوى النبض يحلق بخيال مجنح واقعى فى كثير من صوره ولا يستطيع دراسته إلا ناقد تتوافر فيه كل ميزات الناقد ويكون خبيرا بالبيئة السودانية التى عاش فيها الشاعر ، وكلنا فى ارتقابه

ويقول ناجى من دراسة للشاعر ذيل بها الديوان : إذا كانت انجلترا تعد شكسبير من مفاخرها ، وتؤثره على الهند التى هى الدرة فى تاج الامبراطورية ، فانى لا أبالغ إذا قلت إن عبقرية التيجانى مفخرة لأهل السودان ، بل لسكان الوادى ، ولو مد الله فى أجله لكان له شأن خطير ، على أن ماترك من آثار يجعله يأخذ مكانه بين نوابغ الشعراء . . ثم قسم ناجى الشعر إلى : غنائى ، وتمثيلى ومنه الشعر المسرحى وتحدث عن الناحية الغنائية الموسيقية فى شعر التيجانى ، ورآها كاملة فيه ، واستشهد بقصيدة «جمال وقلوب» التى يقول فيها :

وعبدناك ياجمال وصغنا لك أنفاسنا هياما وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجر نا ينابيعها لعينيك قربى

وكذلك بقصيدته « النائم المسحور » ومطلعها :

أيها النائم فى مهد أغانى ولحنى

ورأى أن الناحية التمثيلية فى شعر التيجانى واضحة كل الوضوح ، واستشهد بقصيدته :

مغناك فى حجر الآباد مغناه وفوق دنياك فى الأيام دنياه
أطل من جبل الأحقاب محتملا سفر الحياة على مكدود سيماه

ثم يقول ناجى عنه : إنه شاعر مجيد ، وينوه بثورته الدامية على المجتمع وضلالاته ويتحدث الدكتور عثمان أمين عن فلسفة التيجانى فى شعره ، فى كلمة له ذيل بها الديوان أيضا .

أبو القاسم الشـــابى

— ١ —

عندما نقرأ قصيدة الشاعر التونسى الكبير أبى القاسم الشابى (١٩٠٩ — ١٩٢٤) ، التى سماها « صلوات فى هيكل الحب » ، وسواها ، من روائع آثاره الفنية ، نجد أنفسنا أمام صور جديدة من الشعر ، تحمل سمة التجديد والابتكار ، وروعة الفن الخالق الموهوب ، وتزدحم بطاقة فنية مبدعة ، لها خصائصها الكثيرة المتنوعة : من ثراء المعانى ، وجدة التصوير ، وحلاوة الأسلوب ، وعذوبة اللفظ ، وعمق الشعور ، وصدق العاطفة ، وتحليق الخيال . . يقول الشابى فى قصيدته « صلوات فى هيكل الحب » :

عذبة أنت ، كالطفولة ، كالأحـ ... لام كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمـ ... ـراء كالورد ، كابتسام الوليد
يالها من وداعة وجمـــال ... وشباب ، منعم أملود !
يالها من طهارة ، تبعث النقـ ... ـديس فى مهجة الشقى العنيد !
يالها رقة ، تكاد ترف الـ ... ـورد منها فى الصخرة الجلمود !
أنت . ما أنت ؟ . أنت رسم جميل ... عبقرى من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق ... وجمال مقدس معبـــود
أنت . ما أنت ؟ أنت فجر من السحـ ... ـر تجلى لقلبى المعبـــود
فأراه الحياة فى مونق الحسـ ... ـن وجلى له خفايا الخلود
أنت روح الربيع ، تختال فى الدو ... ـنيا فتهتز رائعات الورود
وتهب الحياة سكرى من العطـ ... ـر ، ويدوى الوجود بالتغريد
كلما أبصرتك عيناى تمشيـ ... ـن بخطو موقع كالنشـــيد
خفق القلب للحياة ، ورف الزهـ ... ـر فى حقل عمرى المجدود
وانتشت روحى الكئيبة بالحب ... وغنت كالبلبل الغـريد
أنت تحيين فى فؤادى ما قد ... مات فى أمسى السعيد الفقيد
أنت أنشودة الأناشيد ، غنا ... ك إله الغناء رب القصيد

فيك شب الشباب ، وشجه السحـ ـر ، وشدو الهوى ، وعطر الورود
وتراءى الجمال يرقص رقصـــا قدســـيا على أغانى الوجـود
كل شيء موقع فيـــك ، حتى الفتة الجيد واهتزاز النهـــود
يا ابنة النور ، إننى أنا وحدى من رأى فيك روعة المعبـــود
فدعينى أعيش فى ظلك العذ ـب وفى قرب حسنك المشـــهود
عيشة للجمال والفن ، والا لهام والطهر والسنا والسجـــود
وامنحينى السلام والفرح الرو حى يا ضوء فجرى المنشـــود
وابعثى فى دمى الحرارة ، على أتغنى مع المنى من جـــديد
فالصباح الجميل ينعش بالدف ء حياة المحطم المكدود
أنقذينى ، فقد سئمت ظلامى ! أنقذينى ، فقد سئمت ركودى

وهى تصوير رائع ، تجديد كل الجدة ، المشاعر الأنسانية الرقيقة ، التى يضنيها الحب ، ويسحرها الجمال ، وتعصف بها الذكريات الرقاقة ، وليس وراء ذلك غاية لمستزيد فى وصف الحسن وروعته ، وفعله فى الألباب ، وأثره فى النفوس ، أليس الشابى قد أبدع فى هذه الطائفة من الألحان الجميلة ، والأنغام المتساوقة المؤثرة ، التى أودع فيها كل مايودعه شاعر عبقرى هائم بالجمال الأبدى الذى ليس له نهاية ، وما أرق الشابى وأصدقه حين يصف حياته فى قوله :

أنقذينى فقد سئمت ظلامى أنقذينى ، فقد سئمت ركودى

والقصيدة لا يرجع التجديد فيها إلى النهج والصياغة ، فهى إنما تسير على النهج القديم من حيث اتحاد الوزن والقافية واستكمال خصائص القصيدة العربية جملة ، وإنما يرجع التجديد فيها إلى ثراء معانيها ، وخصب تصويرها ، وهذه الوحدة الشاملة للقصيدة التى تتمشى فى سائر أجزائها وصورها ومعانيها ، وإلى تلك الصوفية الحالمة ، والطفولة الساحرة ، والسذاجة البريئة فى التصور والتصوير والتعبير ، وإلى تجربتها الشعرية العميقة ، وعواطفها المشبوبة القوية ، ولغتها الشبيهة بلغة الحلم والخيال ، وإلى عناصر فنية أخرى نعجز عن وصفها واستجلاء أسرارها البعيدة العميقة ... وإذا ماتركنا هذه القصيدة إلى قصيدته الأخرى « من أغانى الرعاة » التى يقول فيها

أقبل الصبح يغنى للحياة الناعسة
والربى تحلم فى ظل الغصون المائسة

والصبا ترقص أوراق الزهور اليابسة
وتهادى النور فى تلك الفجاج الدامسة
أقبل الصبح جميلا ، يملأ الأفق بهاء
فتمطى الزهر والطير وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحى ، وغنى للحياه
فأفيقى ياخرافى ، وهلمى ياشياه !
واقطفى من كلأ الأرض ، ومرعاها الجديد
واسمعى شبابتى تشدو بمعسول النشيد
نغم يصعد من قلبى كأنفاس الورود
ثم يسمو طائرا كالبلبل الشادى السعيد
وإذا جئنا إلى الغاب وغطانا الشجر
فاقطفى ما شئت من عشب وزهر وثمر
أرضعته الشمس بالضوء ، وغذاه القمر
وارتوى من قطرات الطل فى وقت السحر
وامرحى ما شئت فى الوديان ، أو فوق التلال
واربضى فى ظلها الوارف ، إن خفت الكلال
واسمعى الريح تغنى فى شماريخ الجبال
لن تملى ياخرافى فى حمى الغاب الظليل
فزمان الغاب طفل لاعب عذب جميل
وزمان الناس شيخ عابس الوجه ثقيل
يتمشى فى ملال فوق هاتيك السهول
لك فى الغابات مرعاى ومسعاى الجميل
ولى الانشاد والعزف إلى وقت الأصيل
فاذا طالت ظلال الكلأ الغض الضئيل
فلهلمى نرجع المسعى إلى الحى النبيل !

نجد أطرف تصوير لجانب من جوانب الطبيعة ، تصوير ليس ترجمة لصور ومشاهد ومناظر ، وإنما هو قطعة حية من الطبيعة ، وصورة نابضة بالجمال المتدفق

الساحر ، الذى يقف أمامه عقل الشاعر متأملا مفكرا حائرا ، ثم يصفه بلغة تحمل الدقة والعمق والعذوبة والمرح والانطلاق الفنى البعيد ، ويؤدى كل مشاعره ومشاهده بألوان جميلة من الخيال البديع ؛ والأنغام العذبة ، ويتحدث بلغة لاتكد العقل ، وإنما تنفذ إلى مسارب النفس فى لطف ورقة كما ينفذ الهواء إلى مسارب الجسد يحمل الأمل والحياة ، والشابى فى هذه الصورة ؛ وفى صوره عامة يدخل إلى العقل الانسانى من جانب لايدخل منه الشعراء ، فهو يدلف إليه من العقل الباطن ، والمشاعر الخفية ؛ والعواطف الدفينة فى أعماق الإنسان ، إن لغته أشبه بلغة الطفولة بكل ماتحتوى عليه من حنان وسحر ومتعة وروعة وعذوبة وجمال ، وهى مع ذلك تؤدى أروع الصور الشعرية الدقيقة ؛ وتعبر عن أرفع المعانى البشرية العميقة ، وتحلق بأجنحة من خيال جميل متعدد الألوان والظلال والسمات .

ولقد كان أبو القاسم شاعرا عبقريا مطبوعا يغنى للحب والجمال والحرية ، ويجيد التعبير عن الحياة الإنسانية ، ويعشق الطبيعة ويراها مأوى لروحه ومسكنا لمشاعره .

وكان يفهم الشعر حق الفهم ، ويفهم مدى التجديد فيه ، وينظم القصيدة العربية أحيانا على نمط جديد حقا من حيث صور الوزن والقافية والخيال وكان يعرف الشعر بأنه « تصوير وتعبير » . وينتج الروائع منه فى إجادة بالغة نادرة .

وكانت نفس الشابى حرة أبية ، تعشق الحرية وتكثر من الهتاف بها ؛ وتدعو العبيد إلى أن يثوروا لكرامتهم ، والمستعبدين إلى أن يرفعوا رؤوسهم إلى السماء وكان يرى وطنه المجيد « تونس العربية » نهبا موزعا بين استعمار غاشم ورجعية قاتلة ، فأخذ يرسل ألحانه لتنبه شعبه الغافى إلى الحياة ، ولتوقظهم من سبات العدم ، وكانت ألحانا مؤثرة رائعة عجيبة . . انظر إلى الشاعر فى قصيدته « النبى المجهول » كيف يخاطب أمته :

أيها الشعب ليتنى كنت حطا ... با ، فأهوى على الجذوع بفأسى
ليتنى كنت كالسيول إذا سا ... لت تهد القبور رمسا برمس
ليتنى كنت كالرياح فأطوى ... كل مايخنق الزهور بنحسى (١)
ليتنى كنت كالشتاء أغشى ... كل ما أذبل الخريف بقرسى

(١) النحس : الريح الباردة عند إدبارها .

ليت لى قوة العواصف يا شعـ ـبى ، فألقى إليك ثورة نفسى
ليت لى قوة الأعاصير لكن أنت حى يقضى الحياة برمس
أنت روح غبية تكره النو ر ، وتقضى الدهور فى ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق إن طا فت حواليك دون مس وجس
فى صباح الحياة ضمخت أكوا بى وأترعتها بخمرة نفسى
ثم قدمتها اليك فأهرة ت رحيقى ودست ياشعب كأسى
فتألمت ثم أسكت آلا مى وكفكفت من شعورى وحسى
ثم نضدت من أزاهير قلبى باقة لم يمسها أى إنس
ثم قدمتها إليك ، فزة ت ورودى ودستها أى دوس
ثم ألبستنى من الحزن ثوبا وبشوك الصخور توجت رأسى
ها أنا ذاهب الى الغاب ياشعـ ـبى لأقضى الحياة وحدى بيأسى
ها أنا ذاهب الى الغاب على فى صميم الغابات أدفن نفسى
ثم أنساك ما استطعت فما أنـ ـت بأهل لخمرتى ولكأسى
سوف أتلو على الطيور أناشيـ ـدى ، وأفضى لها بأحزان نفسى
فهى تدرى معنى الحياة وتدرى أن مجد النفوس يقظة حس
ثم أقضى هناك فى ظلمة الليـ ـل وألقى الى الوجود بيأسى
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلـ ـو تخط السيول حفرة رمسى
وتظل الطيور تلغو على قبـ ـرى ، ويشدو النسيم فوق بهمس
وتظل الفصول تمشى حوالى كما كن فى غضارة أمسى
أيها الشعب أنت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغسى
أنت فى الكون قوة لم تمسها فكرة عبقرية ذات بأس
أنت فى الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس
والشقى الشقى من كان مثلى فى حساسيتى ورقة نفسى
هكذا قال شاعر ناول الشعـ ـب رحيق الحياة فى خير كأس
فأشاحوا عنها ومروا غضابا واستخفوا به وقالوا بيأس :
قد أضاع الحياة فى ملعب الجن فيا بؤسه ، أصيب بمس
إنه ساحر تعلمه السحـ ـر الشياطين كل مطلع شمس
أبعدوا الكافر الخبيث عن الحيـ ـى كل إن الخبيث منبع رجس

اطردوه ولا تصيخوا إليه فهو روح شريرة ذات نحس
هكذا قال شاعر فيلسوف عاش فى شعبه الغبى بتعس
جهل الناس روحه وأغانيـ ـه فساموا شعوره سوم بخس
فهو فى مذهب الحياة نبى وهو فى شعبه مصاب بمس
هكذا قال ثم سار الى الغا ب ليحيا حياة شعر وقدس

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة الطويلة وأوصافه الممتعة إثر ذلك لحياته فى ظلال الطبيعة هناك فى معبد الغاب الجميل ؛ وهذه السينية الجميلة التى تبلغ ثمانية وخمسين بيتا تقف مع روائع الشعر العربى جنبا إلى جنب ، وهى نفحة قدسية جميلة ، فى خيال شارد بعيد ، وتعبير لطيف خصب حى . . مما لا نستطيع أن نفيض معه فى شرح خصائصها واحدة واحدة ، والقارىء المتذوق يرى أنها لا تقل عن سينية البحترى وشوقى وأبى شادى إجادة وروعة . . ذلك هو الشابى الشاعر الخالد ، الذى قضى حياته فى وطنه تونس ، ولد عام ١٩٠٩ ببلدة الشابية من قرى مدينة « توزر » عاصمة الواحات التونسية الجميلة بالجنوب ، من أسرة ذات حسب ومجد ، وكان والده الشيخ محمد بن أبى القاسم الشابى يتولى وظيفة قاض شرعى ، وتنقل فى مدن كثيرة ، منها قفصة وزغوان ، وينتمى إلى قبيلة الشابية ذات الآثار المذكورة فى تاريخ تونس . . وحفظ الشاعر القرآن الكريم فى طفولته ، وهو فى سن التاسعة ، وتلقى على والده مبادىء العلوم الدينية والعربية . . ثم التحق بجامع الزيتونة بالعاصمة « تونس » عام ١٩٢١ يدرس فيها العلوم الدينية ، ونال منها شهادة التطويع عام ١٩٢٦ ، ثم التحق إثر ذلك بمدرسة الحقوق التونسية وتخرج منها عام ١٩٣٠ حيث حصل على إجازة الحقوق . . ثم أصيب بمرض تضخم القلب فانقطع عن متابعة الحياة العلمية إلى العناية بصحته وعلاج نفسه من المرض ، إلى أن وافاه الأجل فى ٩ اكتوبر ١٩٣٤ ، ودفن فى الشابية مسقط رأسه

هذه هى حياته العامة ، أما حياته الفكرية والأدبية ، فتبدأ منذ أن التحق بالزيتونة حيث عكف على قراءة الآثار الأدبية القديمة والآثار الجديدة ، ومنها أدب المهجريين كجبران وأبى ماضى ونعيمة . . كما والى القراءة فى الصحف والمجلات الأدبية المنوعة والأسفار الحديثة التى تخرجها المطابع كل يوم ، وقرأ لرواد الأدب الحديث ، ومن بينهم شوقى وحافظ ومطران وطه حسين وهيكل وأبى شادى والعقاد والمازنى وشكرى وسواهم ، وكانت مجلات المقتطف والهلال

والسياسة الأسبوعية ثم الرسالة أخيرا ذات أثر فكرى وأدبى كبير فى البلاد العربية . وقرأ الشابى للرافعى والمنفلوطى وسواهم ، كما قرأ كثيرا من الآداب الغربية المترجمة ، إذ لم يكن يعرف لغة أجنبية . . وكانت مطالعاته كثيرة فى الأدب العربى الحديث بالمهجر الأمريكى ، واستبد به أسلوب جبران ، وكانت أشعاره الأولى ذات نزعة صوفية جميلة حلوة . وكان نثره شعرا منثورا ، وكان يتخير موضوعه ويتحدث عن فلسفة الحياة فى شعره وهو شاب صغير ، فى رقة إحساس ، واشتعال عاطفة ، وسمو خيال ، وفى تفاؤل وإيمان بالحياة ، كان ينطفىء رويدا رويدا ، وخاصة بموت والده عام ١٩٢٩ ؛ ثم بدائه العضال الذى أصيب به ، ثم بأحداث الحياة ومظالم الاستعمار فى وطنه . . وكان جبارا متمردا على القديم ، ثائرا على حياة الاستعباد والهوان التى يعيش فيها شعبه

واتصل الشابى بمدرسة أبولو الأدبية وبرائدها الدكتور أحمد زكى أبى شادى اتصالا فكريا وأدبيا واسعا ، كان له صداه فى تفكيره ومنزعه ، وظل يرسل قصائده البديعة إلى مجلة أبولو فتنشر فيها حتى وافاه الموت . وكان مع ذلك لأدب طه حسين أثر فى عقليته ، وتأثر — فيمن تأثر بهم من القدماء — بالمعرى وابن الرومى والخيام وابن الفارض .

وكان شعره يتسم بقوة التعبير وبراعة العرض والتصوير ، ومتانة الاسلوب ، وسعة فى اللغة ، وقوة وسمو فى الخيال ، وجمال فى التراكيب ودقة فى الاستعارة والمجاز والكناية والتشبيه .

وفى عام ١٩٤٦ أقام أدباء تونس على قبر الشابى ضريحا فخما ، اعترافا بما أسدى للادب والفكر التونسى من أياد بيض . . وقد كتبت دراسات متعددة عن الشابى ، نذكر منها العدد الخاص الذى أصدره الدكتور أحمد زكى أبو شادى من مجلته « الأمام » — التى كان يصدرها فى الإسكندرية — وقد صدر عام ١٩٣٦ ، ثم دراستين قيمتين عن الشابى فى مجلة أبولو عدد ديسمبر ١٩٣٤ ، والأولى منهما بعنوان « أبو القاسم الشابى ، نظرة فى شعره عامة » ، وهى بقلم الاستاذ حسن محمد محمود ، والثانية عنوانها « فن الشابى » وهى بقلم نظمى خليل . . وقد أخرج الاستاذ أبو القاسم محمد كرو الأديب التونسى أخيرا كتابا قيما عنوانه « الشابى — حياته ، شعره » ونشرته المكتبة العلمية ببيروت — بشارع المعرض ، وقد درس فيه حياة الشابى وشعره ، وعرض أشهر قصائده ، وأهدى كتابه إلى عبقرية الشابى وروحه وإلى محبى شعره

ومقدرى نبوغه ، وحلاه بصورة للشابى ، وبمقدمة تحليلية ، ثم تحدث عن الحياة الثقافية والنهضة الحاضرة فى تونس ، وعرض لحياة الشاعر بالدراسة ، ثم تحدث عن البيئة الاجتماعية ، وعن الأدب المهجرى وأثره فى شاعرية الشابى ، وعن زواج الشابى ، وحبه ، ومؤلفاته ومن أهمها كتابه « الخيال الشعرى عند العرب » وهو دراسة نقدية نشرها الشابى فى حياته ، ولم يظهر ديوان شعرى حتى اليوم يضم جميع قصائد الشابى ، وفى مجلة أبولو عدد يناير ١٩٣٤ نشر الشابى اعلانا عن ديوانه « أغانى الحياة » وقرب ظهوره ودعا إلى الاشتراك فيه ، إلا أن الديوان لم يظهر فى حياة الشاعر ولا بعد وفاته حتى اليوم ، ويبشرنا الأستاذ كرو بأن شقيق الفقيد الدكتور الشابى - الذى نال قريبا الدكتوراه فى الأدب العربى من جامعات فرنسا - سيخرج ديوان شقيقه الشاعر أبى القاسم الشابى فى أقرب وقت ، وتقع هذه الدراسات التى كتبها الأستاذ كرو فى أربع وتسعين صفحة من كتابه القيم ، ثم يلى ذلك مختارات من شعر الشابى فى ديوانه أغانى الحياة ، والتى نظمها قبل العشرين عاما من عمره وبعدها .. ومن الدراسات التى كتبت عن الشابى مقالة للاستاذ حسن سيالة الأديب التونسى بعنوان « فقيد الأدب التونسى أبو القاسم الشابى » وقد نشرت فى مجلة الرسالة المصرية أواخر عام ١٩٣٤ ، وأقيمت فى القاهرة ندوة أدبية عام ١٩٤٦ فى « نادى الصحفيين » تحدث فيها كثير من الأدباء عن الشابى وشعره . . وفى مجلة العالم الأدبى التونسية - التى يصدرها الأستاذ زين العابدين السنوسى صاحب دار العرب للنشر والطبع بتونس ومدير جريدة تونس - كثير من الدراسات الأدبية والنقدية عن الشابى ، وكذلك فى مجلتى الثريا والاسبوع - اللتين يصدرهما فى تونس الاستاذ نور الدين بن محمود صاحب دار المعرفة للنشر والتوزيع - فيهما العديد من الدراسات عن الشابى وشعره ، ويلقى شعر الشابى الكثير من الاهتمام فى البيئات الادبية فى العالم العربى كافة ، وذلك لما حواه من أصالة وتحرر وانطلاق وثورة فكرية حرة وثروة واسعة فى الخيال والمعانى ، وتجديد فى روح القصيدة العربية وفنها . وقد نشرت مجلة القلم الجديد التى يصدرها الاستاذ عيسى الناعورى فى عمان دراسة قيمة عن الشابى (١) الدكتور أحمد زكى أبى شادى ، وذلك فى أعداد مجموعة السنة الاولى للمجلة الصادرة عام ١٩٥٣

---

(١) من الخطأ الشائع قراءة « الشابى » بتخفيف الباء ، والصواب تشديدها

ومن ميزات شعر الشابي الحيوية المتدفقة ، والأمل الضاحك فى صدر شبابه ، بل حتى وهـــو يقاوم المرض الوبيل الذى أصيب به ، فتراه يقول من قصيدته « نشيد الجبار » :

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا بالسحب والأمطار والأنواء

ويتدفق شعر الشابي بالمشاعر الرائعة العميقة ، وكان كثيرا مايردد قوله من قصيدته « فكرة الفنان » :

عش بالشعور وللشعور فانما دنياك كون عواطف وشعور
واجعل شعورك فى الطبيعة قائدا فهو الخبير بتيهها المسحور

ويتحدث الشابي عن الشعر فى قصيدته « ياشعر » حديثا عذبا فيقول

ياشعر أنت جمال أضو واء الغروب الساحرة
ياهمس أمواج المسا ء الباسمات الحائرة
ياشعر ياقيثارة الأحلا م يا ابن صبابتى
لولاك مت بلوعتى وبشقوتى وكآبتى
فيك انطوت نفس وفيـ ـك بكيت كل مشاعرى
فاصدح على قمم الحيا ة بلوعتى ياطائرى

ويقول يصف شعره من قصيدة « مناجاة » :

أنت ياشعرى فلذة من فؤادى تتغنى ، وقطعة من وجودى
فيك مافى جوانحى من حنين أبدى إلى صميم الوجود
فيك مافى طفولتى من سلام وقنوع وغبطة وسعود
فيك ما فى شبيبتى من أمان باسمات ومن غرام سعيد
فيك مافى شبيبتى من قنوط مدلهم وحيرة وجمود
أنت ياشعر صفحة من حياتى أنت ياشعر قصة من وجودى
أنت ياشعر إن فرحت أغار دى وإن رنت الكآبة عودى

والشابي فى أعماق نفسه ـ على الرغم هموم الحياة وأحداثها وحزنه على بلاده ومرضه ـ متفائل أشد التفاؤل ، يحب الحياة ويتذوقها ، وينصت لمشاهدها ولهام الجمال الأبدى فيها ، ويتغنى بالطبيعة وسحرها ، ويتمنى أن يعيش فى عزلة عيشة هادئة « للجمال والفن » كما يقول من قصيدته « أمل الشاعر » :

ليت لى أن أعيش فى هذه الدنـ يا بعيدا بوحدتى وانفرادى
عيشة للجمال والفن أبغيـ ـها بعيدا عن أمتى وبلادى
لا أعنى نفسى بأحزان شعبى فهو يحيا بظلمة الآباد
حسب نفسى من الأسى ما لديها من طريف مستحدث وتلاد
وعن الناس لا أفكر فى النا س ولا فى حديث تلك النوادى

ويعبر الشابى عن تفاؤله فى قصيدته « الأبد الصغير » تعبيرا ممتعا فيقول :

يا قلب كم قد تمليت الحياة وكم راقصتها مرحا ما مسك السأم
وأنت أنت شباب خالد نضر مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم

وكذلك قصيدته « الإيمان بالحياة » تعبر عن تفاؤله الشديد ، ويقول منها :

إن ابن آدم فى قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الإيمان

ولكن الحياة كانت أقوى من الشابى وتفاؤله ، وكانت أحزانها الكئيبة تغير من هذا التفاؤل المشرق شيئا فشيئا حتى ليقول من قصيدته « فى ظلال الغاب »

مهما تضاحكت الحيا ة فإننى أبدا كئيب
أصغى لأوجاع الكآ بة والكآبة لا تجيب

ويقول من قصيدته « الملل الأليم »

سئمت الحياة وما فى الحياة ولما تجاوزت فجر الشباب

ويقول فى قصيدته « ايها الليل » يعبر عما فى قلبه من اختلاط الأمل باليأس وصولة الشقاء فى الحياة على بنى الانسان

ليس فى الدهر طائر يتغنى فى ضفاف الحياة غير كئيب

وكذلك يقول من قصيدته « قلب الأم »

وتظل تمشى فى جوا ر الموت أفراح الحياة
ويغرد الشحرور ما بين الجماجم والرفات
والأرض حالمة تغنى بين أسراب النجوم
أنشودة الماضى البعيـ ـد وسورة الأزل القديم

ويوضح ذلك فى قصيدته « الجنة الضائعة » فيقول

قد كنت فى زمن الطفو لة والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلا بل والجداول والزهور
لا تحفل الدنيا تدو ر بأهلها أو لا تدور

والیوم أحیا مرهق الأعـ ـصاب مشبوب الشعور
متأجج الاحساس أحـ ـفل بالعظیم وبالحقیر
تمشی علی قلبی الحیا ة ویزحف الکون الکبیر
هذا مصیری یابنی الدنیـ ـا فما أشق المصیر

ثم یزداد إحساسه بوطأة الحیاة علیه ، ویشعر أنها تطلبه لتقتص منه ، لا لذنب جناه الشاعر ، ولکن لقلبه الکبیر ، وعاطفته النبیلة ، ومشاعره المرهفة وأناشیده فی الحریة والحق والجمال ، فیصرخ من أعماق نفسه قائلا من قصیدته « الأشواق التائهة » فی حزن عمیق ومسحة من الیأس والألم وشعور شدید بالغربة فی وطنه وزمنه :

یاصمیم الحیاة کم أنا فی الدنـ ـیا غریب أشق بغربة نفسی
بین قوم لایفهمون أناشیـ ـد فؤادی ولا معانی بؤسی
فی وجود مکبل بقیود تائه فی ظلام شك ونحس
فاحتضنی وضمنی لك بالمأ ضی،فهذا الوجود علة یأسی
لیتنی لم یعانق الفجر أحلا می ولم یلثم الضیاء جفونی
لیتنی لم أزل کما کنت ضوءا شائعا فی الوجود غیر سجین

ویصیح الشاب فی حیرة وشك وشقاء ، متشائما من دهره المملوء بالخداع لائذا بإیمانه الروحی العمیق ، وسکینة نفسه الباقیة :

ملئ الدهر بالخداع فکم قد ضلل الناس من إمام وقس
کلما أسأل الحیاة عن الحق ؟ تکف الحیاة عن کل همس
لم أجد فی الحیاة نغما بدیعا یستبینی سوی سکینة نفسی
فسئمت الحیاة إلا غرارا تتلاشی بها أناشید یأسی
حجبت شقوة الدهور علی جفـ ـنی شعاع الرجاء من قبل رمسی
ناولتنی الحیاة کأسا دهاقا بالأمانی فما تناولت کأسی
وسقتنی من التعاسة أکوا با تجرعتها فیاشد تعسی

ثم تزداد حیرته ، ویزداد شکه ، ویعبر عن هذا الشك وتلك الحیرة ، فی قوله من قصیدته « فی ظل وادی الموت » :

نحن نمشی وحولنا هذه الأکـ ـوان تمشی ، لکن لأیة غایة ؟
نحن نمشی مع العصافیر للشمـ ـس ، وهذا الربیع ینفخ نایه . .

نحن نتلو رواية الكون للمو ت ولكن ماذا ختام الرواية
ثم ماذا هذا ، أنا صرت فى الد نيا بعيدا عن لهوها وغناها
فى ظلام الفناء أدفن أيا مى ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوى بصمت حزن مضجر على قدميا
جف سحر الحياة يا قلبى البا كى فهيا نجرب الموت هيا

وفى هذه الابيات روح شعر الهجر واضحة ، ـ يقول إيليا أبو ماضى من قصيدته « الطلاسم » :

جئت لا أعلم من أين ؟ ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقا ، فمشيت
وسأبقى سائرا ، إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ، كيف أبصرت طريقى ، لست أدرى
إننى جئت وأمضى . وأنا لا أعلم
أنا لغـــز ، وذهابى كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا اللغز لغز أعظم
لا يجادل ، ذو الحجى من قال : إنى لست أدرى
أنا لا أذكر شيئا من حياتى الماضيه
أنا لا أعرف شيئا عن حياتى الآتيه
لى ذات غير أنى لست أدرى ماهيه ؟
فمتى تعرف ذاتى كنه ذاتى ، لست أدرى

وروح الاقتباس والتأثر والاحتذاء واضحة

وأناشيد الشابى فى الحرية والدفاع عن حق أمته فى حياة الكرامة الانسانية ، لا تعد ، ولا يشبع منها ، وهى سمة واضحة فى شعره . . يقول الشابى من قصيدته « إرادة الحياة » يعلن حق الشعوب فى الحرية :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر فى جـــوها واندثر
ومن لم يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر
هو الكون حى يحب الحياة ويحتقر الميت المندثر

فلا الأفق يحضن ميت الطيور ولا النحل يلثم ميت الزهر
إذا طمحت للحياة النفوس فلا بد أن يستجيب القدر

ويرى مظالم الاستعمار فى وطنه فيثور، وتغلى الثورة فى نفسه ، فيقول من قصيدته « إلى طغاة العالم » :

ألا أيها الظالم المستبد حبيب الفناء عدو الحياه
سخرت بأنات شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه
وعشت تدنس سحر الوجود وتبذر شوك الأسى فى رباه
رويدك لايخدعنك الربيع وسحر الفضاء وضوء الصباح
فنى الأفق الرحب هول الظلام وقصف الرعود وعصف الرياح
ولا تهزأن بنوح الضعيف فمن يبذر الشوك يجن الجراح

ويرى الشابى بعض الناس من أبناء وطنه يسالم المستعمرين ، ويحنى جبهته لمن كبل أمته بالقيود ، فيصرخ فيه قائلا من قصيدته « يا ابن أمى » :

خلقت طليقا كطيف النسيم وحرا كنور الضحى فى سماه
فما لك ترضى بذل القيود وتحنى لمن كبلوك الجباه
وتسكت فى النفس صوت الحياة القوى اذا ما تغنى صداه
أتخشى نشيد السماء الجميل أترهب نور السما فى فضاه؟
ألا انهض وسر فى سبيل الحياة فمن نام لم تنتظره الحياه
الى النور فالنور عذب جميل الى النور فالنور ظل الإله

ويهدد المستعمر الظالم فيقول من قصيدته « زئير العاصفة »

ألا أيها الظلم المصعر خده رويدك ان الدهر يبنى ويهدم
أغرك أن الشعب مغض على قذى لك الويل من يوم به الشر قشعم
سيثأر للعز المحطم تاجه رجال، إذا جاش الردى فهموهمو
رجال يرون الذل عارا وسبة ولا يرهبون الموت والموت مقدم

ويؤلمه اضطهاد الاحرار فى وطنه فيقول :

لست أبكى لعسف ليل طويل أو لريح غدا العفاء وشاحه
إنما عبرتى لخطب ثقيل قد عرانا ولم نجد من أزاحه
كلما قام فى البلاد خطيب موقظ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الإلهى بالعسـ ـف ، أماتوا صداحه ونواحه

ضيع الدهر مجد شعبي ولكن سترد الحياة يوما وشاحه

وألحان الشابي فى المرأة والحب والجمال والطبيعة ألحان باقية مابقى الزمان ، ونختم هذه الدراسة بأبيات له من قصيدته « أبكيك للحب » ، يقول الشابي :

لست يا أمتى أبكيـ ـك لمجد أو لجاه
سلبته منى الدنـ ـيا وبزتنى رداه
فأنا أحتقر المجـ ـد وأوهام الحياة
إنما أبكيك للحب الذى كان بهاه

يملأ الدنيـا فأنى سرت فى الدنيـا أراه
فاذا مالاح فجر كان فى الفجر سناه
وإذا غرد طير كان فى الشدو صداه

رحم الله الشابي ، وجعل فى أدبه الباقى خير عوض عن شخصه الفانى . . هذا ولصديقنا الكبير الاستاذ أبى القاسم كرو سفر كبير جديد ، سيخرجه عن الشابي فى حياته وبعد موته

— ٢ —

ولقد كان الشابي من مدرسة أبولو الشعرية ، وكان يراسل « مجلة أبولو » وهو فى وطنه . وابو شادى هو الذى سمى مدرسته الشعرية مدرسة أبولو ، وكتب فى صدر عدد ابريل ١٩٣٣ من مجلة « أبولو » بعنوان « مدرسة أبولو » يقول : « يعمل شعراء « أبولو » على تطهير بيئات الشعر والتسامى به من شتى الوجوه ، وعلى التسامى بالنقد الأدبى ذاته . . إن مدرسة أبرلو مدرسة تعارن وإنصاف وإصلاح وتجديد . وعلى هذه الأركان وحدها يقوم بناؤها . فأما الفردية والأنانية والتصنع وإنكار المواهب فصفات أبعد ماتكون عن مبادئها » . . ومن الجدير بالعناية هنا أن نعرف رأى عميد مدرسة أبولو فى شاعرها الشابي .

يقول أبو شادى (١) : إن مانؤثره هو إنسانيات هذا الشاعر المحلق . الذى لم تعقه أحلامه عن النزول إلى ميدان المجتمع والسير فى مواكب البشرية ، عازفا مشجعا هاديا . . ويعجب أبو شادى بروائع هذا الشاعر إعجابا كبيرا ، وليس هذا بعجيب من أبى شادى مقدر المواهب الأدبية حق قدرها ، دون تأثر فى حكمه عليها بضجيج أو عصبية أو جاه . . ولقد أفسح أبو شادى صدر مجلته أبولو

(١) من حديث له « فى صوت أمريكا » عن الشابي

للشابي وهو حي ؛ فلما مات الشابي نشر عنه فيها الكثير من الدراسات والبحوث ، ورثاه في أبو شادي بمرثية جيدة

ويقول أبو شادي من بحث له بمناسبة صدور كتاب الأستاذ الأديب التونسي الكبير أبي القاسم محمد كرو عن الشابي : يحسبنا أن نشير إلى أن الشابي النابغة ظهر ككثير من النوابغ في وسط متأخر بحكم الظروف السياسية والاجتماعية المعروفة ، فلم يتجاوب ذلك الوسط معه ، ولكنه ارتفع فوق الوسط كما ترتفع المنارة ، فلا تحس بها الأرض التي تحتها ولكنها تشع الى مسافات بعيدة ، والشابي لم يتأثر بالأدب المهجري أي تأثر خاص ، ولو جاء شطر أو بيت له في صياغته الكلاسيكة - مع اختلاف المعاني - مماثلا لصياغة جبران أو سواه ، مثلما تقع الحافر على الحافر كما يقال . لقد كانت للشابي ذاكرة فوتوغرافية ، وهو الذي أتم حفظ القرآن الشريف في التاسعة من عمره حفظاً كاملا ، كما كان له اطلاع واسع - عن طريق اللغة العربية التي لم يكن يعرف سواها - على آداب شتى مترجمة ، لا على الأدب العربي وحده ، وكانت له قبل كل هذا وبعده لوذعية أصيلة حلقت فوق كل تقليد وتأثر حتى منذ نعومة أظفاره ، وعلى ذلك لنا أن نعتقد أن أية مشابهة بين شعره وبين بعض الشعراء المهجريين هي من باب المصادفة لا أكثر . ولعل أعظم تجاوب للشابي كان مع زملائه شعراء أبولو حتى قبل ظهور مدرستها . ونحن شخصيا أولعنا بالشابي لا لعبقريته الفنية فحسب ، بل لإنسانيته الرفيعة ولوطنيته السامية أيضا ، وكان التجاوب بيننا تاما مع تميزه هو في شعره بأناقة لا نعرف لها نظيراً إلا في قصائد الشاعر الفحل العظيم بشارة الخوري . مثال ذلك موسيقى الشابي في قصيدته الخالدة « صلوات في هيكل الحب » التي يقول في مطلعها :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد !

فهي متجاوبة مع قصيدة « عرس المأتم » (١) التي كان يعجب بها الشابي في مطلعها غير المسبوق إلى طرازه :

عذبة أنت في الخفاء ، وفي الجهر ، وفي الهجر ، يا أغاني الظلام !
بلغي العاشق الأمين مدى العمر شـــقاء لقلبه المستهام
وارقئي أدمعي ، فحسبي عزاء أن يسر الحبيب من إيلامي !

(١) من ديوان زينب لأبي شادي .

ومثال آخر قصيدته العظيمة « إرادة الحياة » فانه متجاوب فى مغزاها مع الشطر الأخير من قصيدة « النهضة إرادة » (١) ، وقصيدته الجميلة « الصباح الجديد » التى يقول فى مطلعها :

اســكتى ياجراح ! واسكتى ياشجون !

هو متجاوب فيها وفى موســيقاها مع قصيدتين رائدتين هما قصيدة « الوداع » (٢) وقد جاء فى مطلعها :

انتهب ياشعاع نبض قلبى الحزين
حان وقت الوداع ليتــه لا يحين
انتهب ياشــعاع أنا ذاك القريب
إن روحى مشاع فى مداك العجيب !

وقصيدة « بعد الصيف » (٣) التى جاء فى مطلعها :

اضحكى يارمال من هدير المياه
غاب ملك الخيال وتجــلى سواه
ذاك بحر الدموع من بكاء الزمان
فهو دوما مروع من مآل الهوان
كل حسن بناه بيــديه يزول
ومراراً رثاه وأطال العويل
اضحكى يارمال من فتونى العظيم
أنا عبد الجمــال الضرير الحكيم !

وكان الشــابى كما كان ناجى معجبا بكلتــا القصيدتين ، وكلاهما نسج على منوالها . . ومهما يكن من شىء فاننا نؤمن بأن الشابى كان ذاعبقرية فنية أصيلة فى منتهى الأناقة ، كما كان وطنيا عظيم الإخلاص متأهبا للزعامة فى بيئته ، وفى هذا يختلف عن ناجى الذى اقتصر جل شعره على وجدانياته الذاتية وغنائياته العاطفية ولم يسهم فى الحركة الوطنية . وكان هــذا من أسباب ولوعنا بالشابى ، الذى يوصف إجمالا بأنه الفنان المبدع المحلق ، والإنسانى النبيل ، والوطنى الغيور المضحى . وقد حقق بمثاليته الشريفة تأميلنا فى أن يكون الشاعر زعيما هاديا بين بنى قومه ،

(١) ديوان الشفق الباكى لأبى شادى (٢) قطرة من يراع الجزء الثانى لأبى شادى
(٣) ديوان أشعة وظلال لأبى شادى .

إن لم يكن أيضا زعيما إنسانيا . وفى هذه النزعة والتعبير عنها كان تجاوب الشابى معنا كاملا ، وكنا نعمل كجنود فى فرقة واحدة .

كما كتب أبو شادى مقدمة لديوان الشابى « الأشواق التائهة » الذى يعزم الأديب الشاعر الحجازى محمد العامر الرميح إصداره عما قريب ، ويقول أبو شادى فى هذه الدراسة : . . الأشواق التائهة أحلام علوية مجنحة لا تعرف القرار ، يحدوها ألق ساحر ، ثم تستوعبه ، وتفتش عن عوالم ترضيها حتى إذا ما بلغتها لم تقنع بها وراحت تبدع عوالم جديدة لها ، ثم لم تكتف بما أبدعته ، بل أخذت روحها الخلاقة تواصل الابداع متممة أو ناسخة ، تلك هى الأشواق التائهة للشاعر الخالد أبى القاسم الشابى ، الذى ولد من النور ورضع منه وتغنى به فى هيكل الحب صلوات روحانية تفيض بالجمال الالهى . ولئن لم يعمر فى هذا الوجود فكذلك عمر النور ، لمحة من الأبد ، وهو هو الأبد الذى لا أول له ولا آخر . يصفه المولعون العابدون ولا ينتهون ، ولا يشبعون وصفا وتعريفا . إنها لعبقرية فذة توحى بتأملات لا حصر لها ، فتتولد من هذه التأملات أطياف وألوان جميلة لا يغنى أحدها عن الآخر . كذلك شأننا نحن ، فكلما درسنا شعر الشابى ودونا خواطرنا فيه ساقنا التأمل الى الجديد من الخواطر والمشاعر ، وتفرعت من نشوتنا نشوة أخرى . . إن شعر الشابى هو شعر العبقرية والتفوق ، فله قدسية نورانية يصعب تعريفها ، وسواء لدينا فجرها أو شروقها ، لأنها على اختلاف منازلها تتألق بالجمال ، وتنم عن رسالة سامية لو لم يقلها شعرا لتألقت فى وجهه نورا ، هذا الصبى الصغير الذى لم يبلغ العشرين يحس فى باكورة عمره إحساس العبقرى فيقول :

لا أقرض الشعر أبغى به اقتناص نوال
الشعر إن لم يكن فى جماله ذا جلال
فانما هو طيف يسعى بوادى الضلال
يقضى الحياة طريدا فى ذلة واعتزال !

لسنا ممن يسوغ بأى حال وضع النقد الموضوعى موضعا ثانويا ، بحيث نرضخ الحكم على الطاقة الشعرية الى ما عداها من الاعتبارات فى تقدير القيمة الفنية للشعر ، ولسنا ممن يذهبون مذهب التشريح والتفلية الذى يتناسى وحدة القصيد . ولسنا ممن يبخسون أى فنان قدره لمجرد أنه ذو شخصية طالحة لا يستحق الاحترام ، ولسنا ممن يتعصب لشاعر ما لأنه يعبر عن فلسفتنا وعواطفنا تعبيرا أكمل ،

متغافلين عن قيمة الجوهر الذى يهديه وعن كفايته الفنية الخالصة ، ولسنا من عباد التعابير البراقة والبيان المزخرف الأخاذ . ومع ذلك لا ننكر أن الفن إذا امتزج بالتسامى فى سبيكة واحدة ، وأن الطاقة الشعرية المحلقة إذا تشربت الايمان الرفيع تشربا لا ينفصم عنها ، وأن الفن إذا صار لسان النبوة وترجمان التسامى أو توأمه ، فان مثل هذا الفن المركب الرفيع يكون فى اعتبارنا جديرا باعتبار أسمى . وهذه نظرة تختلف جد الاختلاف عن إرضاخ كرامة الفن أو تقديره للأهواء الذاتية والتعصبات الشخصية والمسائل والاعتبارات العرضية . . والشابى هو أحد أولئك الأفذاذ العالمى الروح الذين لم يهووا النقد الموضوعى لحسب من ناحية الطاقة الفنية القوية الغنية ، بل هووا كذلك مقاييس المثالية الرفيعة من خلقية ووطنية وإنسانية ، وكانت معجزتهم فى الازدواج بين هذه المزايا وفى الانسجام التام بينها ، وهذا قلما يكون إلا للصفوة الموهوبين . . فهذا الشابى الشاعر الوطنى الثائر الرائد فى « تونس الجميلة » و « زئير الماصفة » منذ صباه هو ذاته الشاعر الانسانى فى « لعلعة الحق » و « الحرب » والشاعر الوجدانى فى « فن الظلام » و « الزنبقة الذابلة » و « الدموع » و « أغنية الأحزان » والشاعر المتفلسف فى « نظرة فى الحياة » و « مأتم القلب » و « الأمل القنوط » والمصلح الاجتماعى أيضا ، وهو كذلك الشاعر المتصوف والعاشق المتبتل فى « شكوى اليتيم » و « أيها الليل » و « الملل الأليم » و « أيها الحب » و « حيرة » و « جدول الحب » و « ياشعر » — كل هذا التراث الثمين من شعر فتى لم يبلغ العشرين . أما بعد هذه السن فاننا نواجه الشابى ذاته ؛ ولكن فى نفس أطول ونضوج أبلغ وتحليل أعمق وتفاعل أكمل وتصوير أشمل . استمع مثلا إلى قوله من قصيدته « مناجاة » :

أنت ياشعر فلذة من فؤادى تتغنى وقطعة من وجودى
فيك مافى جوانحى من حنين أبدى إلى صميم الوجود
فيك مافى خواطرى من بلاء فيك مافى عواطفى من نشيد
فيك مافى عوالمى من ظلام سرمدى ومن صباح وليد
فيك ما فى عوالمى من نجوم ضاحكات خلف الغمام الشرود
فيك مافى عوالمى من ضباب وسراب ويقظة وهجود

والتى تتلاحق فيها الصور تلاحقا فنيا سريعا لا نعرف شاعرا آخر أغرم به ..

لقد اكتنفت حياة الشابي هموم عديدة ولاقى من عنت الناس وجحودهم حيا وميتا الشيء الكثير ، ومات والأدب أحوج ما يكون لألمعيته ؛ وصاح والداء ينشب أظفاره فيه :

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا ... بالسحب والأمطار والأنواء
لا ألمح الظل الكئيب ولا أرى ... مافى قرار الهوة السوداء
وأسير فى دنيا المشاعر حالما ... غردا ، وتلك طبيعة الشعراء
أشدو بموسيقى الحياة ووحيها ... وأذيب روح الكون فى إنشائى
وأصيخ للصوت الالهى الذى ... يحيى بقلبى ميت الأصـــداء
أمشى بروح حالم ، متوهج ... فى ظلمـــة الآلام والأدواء
النور فى قلبى وبين جوانحى ... فعلام أخشى السير فى الظلماء ؟
إن أنا الناى الذى لاتنتهى ... أنغامـــه مادام فى الاحياء
وأنا الخضم الرحب ، ليس تزيده ... إلا حيـــاة سطوة الانواء !

إلى آخر هذه القصيدة العجيبة ، ولكنها ليست بأعجب من بقية شعره الذى يتجلى فيه جميعا حب الاستغراق فى المعـــانى والتحليق بالاخيلة والمثاليات النبيلة والتأنق الموسيقى فى الألفاظ ، وكل ذلك عن طبيعة سمحة مصقولة رضعت من أفاويق اللغة ، ومن البيان العربى المصفى منذ طفولتها ، ومن القرآن الشريف . . . إن كل قصيدة من قصائد الشابي طالت أم قصرت ، صورة مكبرة أو مصغرة لهذه المزايا الفنية . وهو قبل هذا وبعده المؤمن بالحياة إيمانه بالجمال والحرية والساخط على طغاة العالم ، والمصلى فى هيكل الحب ، والمناجى الطبيعة دون ملل ، والمتفائل دائما ، واللهفان على وطنه أو جنته الضائعة ، وأخيراً المعانق الموت فى غير وجل عناق الفيلسوف الذى ينشد التجربة والعلم حتى تجربة الموت ، لقد كانت حياة الشابي سلسلة متلاحقة من النكبات والمآسى فى حبه وفى أسرته وفى وطنه ، كما كان حساسا إزاء نكبات الانسانية عامة ، فرثى لسقطاتها وبكى لها كأنما كان يبكى قومه وأهاب بها لتنهض وتقوى وتتقى . وعشرات القصائد التى أتحفنا بها فى فترة من حياته لم تتجاوز ست سنوات هى ترجمان صادق لأحاسيسه الشريفة ، وذخيرة مميزة فى التراث الأدبى المعاصر ، ومبعث قوة خارقة لأدب الانبعاث القومى فى العالم العربى لافى تونس فحسب . فثورته على الطغيان والمتجبرين ، وعلى الرجعية

المقيتة ، وعلى جميع القيود التى ترسف فيها البشرية ، هى شعلة متأججة هادية ، ولو لم يكن فن الشابى قويا بجميع عناصره ، أصيلا محلقا ، لما اكتسبت رسالته القوة التى خلعتها عليها مواهبه النادرة ، فالتعبير الغث قد يكون عبئا على الفكرة فيهوى بها بدل أن ينهض ولو كانت طبيعتها السمو ، وهذا مالا يفوت الناقد الموضوعى . . قيل إن النقد الفنى يجب أن يحصر همه فى الطاقة الشعرية وحدها ، وكثيرا ما دافعنا نحن عن حقها فى التقدير ، ومع ذلك فقد لا تتجاوز الطاقة الشعرية الضائعة طيش النيازك أو عبث الصواريخ ، أما الشابى فقد أبى أن تحمل طاقته الخارقة سوى الحقائق الأزلية الخالدة ، أبى ذلك بطبعه وبتزاوج الوعى مع اللاوعى فى نفسه تزاوجا غير مفتعل فخلدت رسالته فى فنه وخلد فنه فى رسالته ، ولم يستطع أحد من آلاف المنتشين برحيقه أن يفرق بين الطعم والجوهر ، فهو وحدة شاملة تأبى على الناقد التحليل ، وتهب النشوة والالهام لصائدى النغم والخيال ولصائدى المثالية الحية على السواء :

أيها الشعب ليتنى كنت حطا — با ، فأهوى على الجذوع بفأسى
ثم أنساك ما استطعت فما أن — ت بأهل لخمرتى ولكأسى

ويقسو على شعبه ، ولكنها قسوة المحب المبصر ، وما كان يأسه أو استسلامه إلا عارضا زائلا يحفزه إلى همة جديدة :

ها أنا ذاهب الى الغاب ياشع — بى لأقضى الحياة وحدى بيأس

خدم الشابى الأدب والعرب والإنسانية بحياته وموته على السواء ، ودفع وحده الثمن غاليا لذلك . وبعد أن كانت مهمتنا جد شاقة فى الربع الأول من هذا القرن سعيا للتنويه بأدب الشباب صار المثل الأعلى الذى ضربه الشابى بشعره يحفز النقاد والمجلات الآن الى الاهتمام باشعار الشرتونى والفيتورى وتاج السر وأمثالهم . وإذا كان الشباب كالربيع رمز الحياة المتجددة فهو أول من يطالب باذاعة أدب الشابى فى هذا الشعر المتجدد الحى .

ويقول أبو شادى من كلمة أخرى له عن الشابى ، أذيعت من صوت «أمريكا» : لأبى القاسم الشابى الشاعر روائع كثيرة ، ظفرت جمعية أبولو ومجلتها التى عنيت قبل سواها بابراز فنه بالقسط الأوفر منها ، وإنه لتصعب المفاضلة بين قصائده هذه فجميعها تتسم بالجمال الفنى الأنيق بكامل عناصره . . أتؤثر قصيدته « صلوات فى هيكل الحب » التى يقول فى مطلعها :

عذبة أنت ، كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ، كالورد ، كابتسام الوليد

وكلها على هذا النسق من الاندماج فى الطبيعة ، ومن الارتفاع بالحسيات إلى المعنويات القريبة والبعيدة ؟ ، أم نؤثر قصيدته الفلسفية الواقعية « السعادة » التى يقول منها :

ترجو السعادة يافلى ، ولو وجدت فى الكون لم يشتعل حزن ولا ألم
ولاستحالت حياة الناس أجمعها وزلزلت هاته الأكوان والنظم
خذ الحياة كما جاءتك مبتسما فى كفها الغار أو فى كفها العدم

أم نؤثر قصيدته « الأشواق الناشة » وقد جمعت بين ألوان من اليأس واحتقار الوجود والتصوف ، إذ يقول :

ياصميم الحياة ! كم أنا فى الدنيا غريب ! أشق بغربة نفسى
بين قوم لايفهمون أناشيد فؤادى ، ولا معانى بؤسى
فى وجود مكبل بقيود تائه فى ظلام شك ونحس
فاحتضنى ، وضمنى لك بالماضى ، فهذا الوجود علة يأسى !

أم نؤثر قصيدته « الجنة الضائعة » التى يذكر فيها عهد الطفولة ، ويعرضه عرضا فنيا بديعا بصوره الفاتنة المنوعة ، ثم يختمها بهذه الحرقة :

قد كنت فى زمن الطفولة والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابل والجداول والزهور
واليوم أحيا مرهق الأعصاب مشبوب الشعور
متأجج الإحساس ، أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشى على قلبى الحياة ، ويزحف الكون الكبير
هذا مصيرى ، يابنى الدنيا ، فما أشق المصير !

أم نؤثر قصيدته « الأبد الصغير » المفعمة بالتأملات الفلسفية الوجدانية ، وبها يخاطب دنيا قلبه :

يا قلب ! كم فيك من دنيا محجبة كأنها حين يبدو فجرها « إرم » !
ياقلب ! كم فيك من كون ، قد اتقدت فيه الشموس وعاشت فوقه الأمم
يا قلب كم فيك من أفق تنمقه كواكب تتجلى ، ثم تنعدم
ياقلب ! كم فيك من قبر ، قد انطفأت فيه الحياة ، وضجت تحته الرمم

يا قلب ! كم فيك من غاب ومن جبل دوت به الريح أو تسمو به القمم
يا قلب ! كم فيك من كهف قد انبجست منه الجداول تجرى ماؤها لجم
كأنك الأبد المجهول . . . قد عجزت عنك النهى وأكفهرت حولك الظلم !

أم نؤثر قصيدته الفلسفية المتشككة الحائرة « فى ظل وادى الموت » التى يتشوق فى ختامها إلى تجربة العدم :

ثم ماذا ؟ هذا أنا . صرت فى الدنيا بعيداً عن لهوها وغناها
فى ظلال الفناء أدفن أيامى ، ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوى بصمت محزن مضجر على قدميا
جف سحر الحياة يا قلبى الباكى فهيا نجرب الموت ، هيا !

أم نؤثر قصيدته الوجدانية الفريدة « الصباح الجديد » ، التى تغنت بها مواكب عديدة ولا تزال :

اسكتى يا جراح واسكنى يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطل الصباح من وراء القرون

أم نؤثر « ألحانه السكرى » العذبة العميقة التى يقول فى ختامها :

أيها الدهر ! أيها الزمن الجارى إلى غير وجهة وقرار !
أيها الكون ! أيها الفلك الدوار بالفجر والدجى والنهار ؛
أيها الموت ! أيها القدر الأعمى ! قفوا حيث أنتمو أو فسيروا
ودعونا هنا : نغنى لنا الأحلام والحب والوجود الكبير

أم نؤثر قصيدته الواقعية المريرة « الناس » التى تشجى منها زفرته :

ماقدس المثل الأعلى وجمله فى أعين الناس إلا أنه حلم !
ولو مشى فيهمو حيا لحطمه قوم ، وقالوا بخبث « إنه صنم »
لايعبد الناس إلا كل منعدم ممنع ، ولمن حاباهمو العدم
حتى العباقرة الأفذاذ جسمهم يلقى الشقاء ، وتلقى مجدها الرمم
الناس لاينصفون الحى بينهمو حتى إذا ماتوارى عنهمو ندموا
الويل للناس من أهوائهم أبداً يمشى الزمان وريح الشر تحتدم

أم نؤثر قصيدته « من أغانى الرعاة » التى جاءت من وحى استشفائه الذى لم يجد بعين دراهم من الشمال التونسى ، وكل بيت من أبياتها صور شعرية متألقة بجمال

الطبيعة التى كانت تحتضنه وترعاه فى مرضه بين جبال وأودية وغابات ، وفيها يخاطب خرافه وشياهه بأعذب الألحان ؟ أم تؤثر قصيدته المتفائلة « الايمان بالحياة » وإن كانت عليها مسحة الرثاء لوالده ؟ أم تؤثر قصيدته الشامخة « نشيد الجبار أو هكذا غنى پرومثيوس » ، التى يرد فيها على حساده الشانئين ويقول عن نفسه بعد مماته :

فانا السعيد بأننى متحول ... عن عالم الآثام والبغضاء
لأذوب فى لجر الجمال السرمدى ... وأرتوى من منهل الاضواء

أم تؤثر قصائده التأملية العاطفية أمثال « الرواية الغريبة » و « أيتها الحالمة بين العواصف » و « صوت من السماء » ، وكلهـــا آيات من الرقة الحساسة والرومانطيقية الجميلة الساحرة ؟ . . إنما تؤثره هو إنسانيات هذا الشاعر المحلق الذى لم تعقه أحلامه عن النزول إلى ميدان المجتمع والسير فى موكب البشرية ، عازفا مشجعا هاديا مهيبا بالصاغرين :

إذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى ... ولابد للقيد أن ينكسر
اذا ماطمحت الى غاية ... ركبت المنى ونسيت الحذر
ولم تتجنب وعور الشعاب ... ولا تبعة اللهب المستعر
ومن لم يحب صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفر

ولم تزل قصائده الموجهة الى الشعب ترانيم سماوية خالدة ، وان سكن جثمانه القبر

جميل صدقي الزهاوي

في أول يوم من آذار - مارس - عام ١٩٣٦ ، توفي جميل صدقي الزهاوي ، الشاعر العراقي الكبير ، فاهتزت لوفاته أقطار الشرق العربي ، ذلك لأن الزهاوي لم يكن شاعراً مجدداً ، دقيق الحس ، مفتوح القلب ، مرهف السمع ، متقد العاطفة ، ثائر القلب ، فحسب ، بل كان إلى هذا كله فيلسوفا تعمق في دراسة الفلسفة ونفذ إلى ماوراء المادة والطبيعة ، فخبر أحوالها وتفهم مادق من أسرارها ، وكان في فلسفته متأثراً بأبي العلاء المعري ، مترسما خطاه ، متبعا أساليبه ؛ ونظرة في ملحمته « ثورة في الجحيم » ومعارضتها برسالة الغفران ، تؤيد ماذهب إليه . ولا غرو فان كلا من الشاعرين الفيلسوفين كان يسخر من التقاليد الموروثة ؛ ويقول الزهاوي في المعري :

وإن أكبر شيء فيك يعجبني ... سخرية بتقاليد وعصيان
وأنكروا فيك الحاداً وزندقة ... وعل ما أنكروه فيك بهتان
إني تلمذت في بيتي عليك وإن ... أبلت عظامك أزمان وأزمان
أصابني في زماني ما أصابك من ... حيف فما رد هذا الحيف إنسان

وشعره حر طليق ، لايتقيد بالسلاسل والأغلال ، ينزع فيه نحو الطبيعة المطلقة ، مخترقا التقاليد التي ورثها الأبناء عن الآباء ، خاليا من الصناعات اللفظية والخيالات الوهمية ، نزاعا إلى التجديد ، ثائرا على النظام ، متمردا على الأوهام

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه ... فليس خليقا أن يقال له شعر
، ماالشعر إلا شعور ي جئت أعرضه ... فانقده نقدا شريفا غير ذي خلل
الشعر ما عاش دهرا بعد قائله ... وسار يجري على الأفواه كالمثل
والشعر ما اهتز منه روح سامعه ... كمن تكهرب من سلك على غفل

ويقول الأستاذ أحمد حسن الزيات من كلمة له عن الزهاوي وأدبه وشعره . . : « كان الزهاوي كشوقي حريصا على متابعة العصر ومسايرة التطور ؛ ومنشأ هذا الحرص فيه طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف يأنف التخلف . ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهاه ، والتيه يذهب به ، فيحب الثناء ويبغض النقد . فهو لفرقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد ، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف ، ولطمعه في نباهة الذكر يجاري ميول الخاصة ويعارض

هوى العامة . ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعا على الاستبداد بهاجمة أهل الحكم ، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين ، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة » .

ولم يزد الزهاوى تقدمه فى السن إلا تدفقا فى شعره وانتاعا فى شهرته . كان على الرغم من أوصابه ومتاعبه ينظر إلى الحياة نظرة العاشق المدله ، يحبها موالية أو محاربة ، مخلصة أو مداجية .. وهو شديد الشبه بهوجو ، وكلاهما نبغ فى مطلع قرن زاخر بالانقلابات السياسية والأحداث الخطيرة : هوجو فى أوائل القرن التاسع عشر ، والزهاوى فى القرن العشرين . وكلاهما نحا فى الشعر منحى جديدا أثار ضجة وصخبا ؛ صمد هوجو فى وجه نابليون الثالث مدافعا عن الحق والحرية فاضطهد ونفى ، وصمد الزهاوى فى وجه السلطان عبد الحميد مدافعا عن الحق والحرية فاضطهد ونفى .

لقد كان صـــوت الزهاوى يرن منبها أبناء الوطن ، ليكونوا أبدا يقظين مستعدين للدفاع عن الوطن وحقه وحريته . ذلك الوطن العزيز الذى طالما تغنى الزهاوى بمحاسنه :

أنت مما تبدينه من صفاء ... ياسماء العراق خير سماء
انظرينى فقد أحبك قلبى ... وأحبتك مثله حوبائى
انظرينى إذا العناذل غنت ... سحرا فوق منكب الشجراء
انظرينى ليلا إذا الشمس غابت ... بعيون النجوم فى الظلماء
انظرينى إذا الخليقة أخفت ... مالها فوق الأرض من ضوضاء
انظرينى إذا الطبيعة أصغت ... فى الدياجى إلى خرير الماء
انظرينى إذا الحوادث رامت ... هدأة فى الصباح أو فى المساء
انظرينى إذا الخريف تراءى ... آسيا من أشجاره الجرداء
انظرينى إذا غدا الروض خلوا ... من زهور ، وزهره من رواء
انظرينى من الفروج خلال ال ... سحب سرا بعينك الزرقاء
انظرينى اذا نظرت بعينى ... وهى شكرى اليك عند البكاء

وكان دفاع الزهاوى عن الحرية قويا ، تلك الحـــرية التى طالما تغنى بجمالها وجلالها فى قصائده العامرة :

أسائلكم ماذا على الشاعر الحر ... إذا رام تصوير الحقيقة فى الشعر
يريدون منه أن يظل محافظا ... على صمته حتى يغيب فى القبر
ولكن نفس الشاعر الحر ملؤها ... عواطف تدعوه إلى الجهر أو تغرى

وكانت نفس الزهاوى نفس شاعر ملؤها العواطف الجياشة لحب الحرية لأنه كان يرى :

ان الحياة إذا حوت حرية هى نعمة ما إن يراد زوالها

فكان يطلب إلى ليلاه أن تغنيه بحرية الشعب المنشودة :

غنى لحريتنا الـ محبوبة المهاجره
فقد تعود بعدما ولت كشمس غائره
كنا بها فى حقبة من الشعوب الظافره
قضت على آمالنا يد الزمان الغادره
هوت بنا ساعة أو لجنا الحدود العاثره
ما كان هذا فى مظنـ ـة النفوس الثائره
وربما دار الزما ن معلنا بشائره
فخول الشعب حقـ ـوق الأمم المجاوره

ومن شعره قصيدته « العراق فى مصر » ، وهى آخر ما نظمه الشاعر ، وقد حملها شباب العراق تحية كريمة لشباب مصر ، ويقول فيها :

أتى بعد شوق حافز للمحبينا إلى مصر شبان العراق تحيتنا
أولئك شبان ستقطف عن هوى بها من رياض العلم ورداً ونسرينا
رضينا بما فى مصر من عبقرية وما كل أرض تنبت العلم ترضينا
وكان منانا أن نرى مصر يقظة فأفرحنا جمعا بلوغ أمانينا
سعدنا بمصر والسعادة نعمة لحينا تلاقينا وحين تجافينا
وليس لنا عن حب مصر تنكب فما كان هذا الحب إلا لنا دينا
وما شعراء النيل إلا عنادل على سرحة الآداب تشدو فتشجينا
ألا إن مصرا موطن الأدب الحر سلام على مصر سلام على مصر
وما مصر إلا البحر يلمع دره ونحن بمصر غائصون على الدر
لقد جمعتنا وحدة عربية وأقرب منها بيننا وحدة الفكر
أرى فى لقاء الروح للروح فرحة تفوق لقاء العين والأوجه الغر
وإن بنى مصر الذين تثقفوا اذا طلعوا كانوا من الأنجم الزهر
حججناك طوافين والدافع الذى حدانا هو الايمان بالأدب الحر
وليس كايمان المنافق إنه اذا لم يكن كفرا فشر من الكفر

وجدنا بنى مصر الفتاة كواكبا ... تضىء فتمحو بالضياء الغياهبا
اذا غاب نجم لاح نجم وانما ... تفوق بمصر الطالعات الغواربا
ألا فليمم مصر من طلب العلا ... ومن كان فى المجد المؤثل راغبا
وما أسعد الوراد للعلم إنهم ... اذا صدروا كانوا نجوما ثواقبا
اذا ما تلقوا من أساتذة لهم ... دروسا حسبت الودق ينصب ساكبا
قصدنا فقاسينا متاعب جمة ... فلما رأيناكم نسينا المتاعبا
نصافحكم فيها مصافحة الذى ... يريد لأعلام الهدى أن يقاربا
حججنا بلاد العبقرية والنبل ... نطوف بأركان الثقافة والفضل
معاهد فيها للهدى يثب الفتى ... وليس بها من سار يمشى على مهل
تربى عقول النشء حتى تقيمها ... وما قيمة الانسان الا من العقل
وكانت فتاة العصر أنقى من الندى ... وكان الفتى للمجد أنضى من النصل
وليس الذى فى البحر يصبح زاخرا ... كمن كان فى الغدران يسبح والضحل
وليس غنى مصر من المال ناشئا ... ولكنه فى العلم والأدب الجزل
وفى عزة النفس التى قد أبت لها ... على مابها أن تستنيم الى الذل
على العقل فى كل الأمور المعول ... ولولاه لم ينحل المرء مشكل
وما العقل فى الانسان الا ابن رأيه ... تولد فيه آخرا وهو أول
وللعقل أنوار بها يهتدى الفتى ... وأبهج بأنوار لها العقل يرسل
تبدل فى الناس العقول بغيرها ... ولكن نفس المرء لا تتبدل
ورب عقول لم تصادف مثقفا ... فتلك بلا هاد من العلم تعمل
يمثل مصرا فى العراق جهابذ ... ونحن بمصر للعراق نمثل
وما العلم فى بغداد الا كصيب ... توالى لأدران الجهالة يغسل
نصافح اخوانا لنا قد تثقفوا ... فساروا جماعات ولم يتوقفوا
فان فرقت ما بيننا شقة النوى ... فانا جميعا للعروبة نهتف
وان عصفت ريح بكم فى ملمة ... فتلك بنا يا أمة النيل تعصف
وان أبعدت أجسامنا عن جسومكم ... فأرواحنا مجموعة تتعرف
ومصر هى اليم الذى ظل زاخرا ... وإنا وإياكم من اليم نغرف
غدا ستشب الحرب صاخبة اللظى ... فتزهق أرواحا وتمحو وتتلف
وإن تلاميذ المدارس فى غد ... جنود أصون الموطنين تألف

لنحن بمصر فى الثقافة نقتـــدى وبالنجم فى تلك المطالع نهتدى
وليس بنا للأمس من لفتة الهوى ولكننا نرنو بشوق إلى الغـــد
ونحترم الرأى القديم وأهله ونهتف للتجديد أو للتجدد
نرى أن فى التجديد شيئا مخلدا ولكنما التقليد غير مخلد
وذاك طريق للأديب معبد وهذا طريق ظل غير معبد
وما العلم إلا للسعادة سلم فمن يتخذ منه الوسيلة يسعد
فان تبتعد عنا السعادة نقترب وإن تقترب منا التعاسة نبعد

ويقول اسماعيل أحمد أدهم عن الزهاوى : « آمن الزهاوى بالعلم ونزل عند مقرراته، ومضى يبحث فى الطبيعة مؤمنا بأساليب العلم فى البحث ، وخرج من دراسته معتقدا اعتقادا لا يوهنه الشك ، ولا يتطرق اليه الريب ، أن لقوانين الطبيعة وحسبنا ، وان للعالم وحدة متصلة أسبابها ، غـــير منفصمة أجزاؤها ، وعاد بالاشياء كلها الى الأثير فهو عنده المرجع فى الأشياء والأثر ، واعتقد أن الألوهة حالة فى الكون فنظرها فى الأثير ، حيث بدا له من نظره فى العلم الموضوعى والذاتى ـ عالم الطبيعة والنفس ـ أن لا انفصام بين السبب والمسبب ، بين العلة والمعلول . وهكذا انساق الزهاوى لإيمانه بوحدة الكون وبطبيعة الاتصال بين ذواتنا الشاعرة المفكرة وبين طبيعة الأشياء ، الى الايمان بالله فى الكون ، وبامكان الاتصال بالله عن طريق الكون . وهكذا دلف الزهاوى إلى التصوف ، فكان عميقا فى تصوفه ، يؤمن بأن هنالك وراء ذواتنا وأعراض الأشياء التى تبدو لنا حقيقة واحدة ، حقيقة تصل بيننا وبين الكون ، ولولاها لما أمكننا أن نفكر فى العالم ، وأن نستجيب لانفعالاتنا به ، ولما أمكن للعالم أن يؤثر فينا » .

وشعر الزهاوى حافل بالموهبة والثورة والحيرة والقلق والدفاع عن الحرية ، يقول من قصيدة له ، عنوانها « الشك لا يهدى » ، وهى تحمل خصائص كثيرة من شعره وفلسفته :

رأيت الهدى فى الشك والشك لا يهدى كأنى بالظلماء قد كنت أستهدى
فطورا أقول الروح كالجسم هالك وطورا أقول الهلك عنه على بعد
فيالك من شك يبرح بى ولا يبارحنى حتى أوسد فى لحدى
وإنى لا أدرى : أرشدى كان فى ضلالى هذا أم ضلالى فى رشدى
أأفقد جسمى وحده عند ميتتى أم الروح عند الجسم يشمله فقدى

أروح رجسم أم هو الجسم وحده ... يحركني فيما يضال أو يهدي؟
أعذب حوبائي بما أنا فاكر ... كأني من أعداء حوبائي اللد
إذا كان روحي مثل جسمي يهلك ... فاني لأبكي في مصابي وأضحك
ولو خيروني بين تركي لواحد ... فاني لجسمي دون روحي أترك
يحرك روحي الجسم وهو يحله ... فمن ذا لهذا الروح في يحرك
وقبل وجودي أين كان مكانه ... فهذا هو الشيء الذي لست ادرك
وقد يستطيع الروح حلا لمشكلي ... ولكن مجال الروح في الجسم يضنك
وأطلب من عقلي الهدى في ضلالتي ... ومن أين يعطي العقل ما ليس يملك
دع الموت يأتي فتكم بهما معا ... كما كان هذا الموت بالناس يفتك
عهدتك يا روحي إلى الحق تجنح ... فهل بجواب إن سألتك تسمح
نقول سأبقى بعد موتك خالداً ... أأنت تريد الجد أم أنت تمزح
فان كان جداً ما تقول فما الذي ... ستصنع بعدي يوم مني تبرح
تجيب وقد يغري جوابك قائلا ... سألحق أرواح الذين تطوحوا
وإن الفضاء الرحب مازال طافحا ... بأرواح موتى في السموات تسبح
فقلت له سر في سبيلك راشداً ... ولا تنس جسما ليس بعدك يصلح
فيا روح قبلني وصافح مودعا ... فاني لا أدري متى لك ألمح
نهار لسيل النور فيه دفوق ... وليل كأن النجم فيه خروق
ألوف من الأكوان تمشي كأنها ... تريد اتساعا بالفضاء يليق
وعند افتكاري في الوجود كأنني ... أخوض خضما والخضم عميق
طريقي لإدراك الشؤون معبد ... ومالي لإدراك الوجود طريق
فيا نفس سيري في الفضاء طليقة ... فلا شيء فيه للنفوس يعوق
لأنت شعاع طار من مستقره ... وكل شعاع بالبقاء خليق
تحيق المنايا بالجسوم كثيفة ... وأما بأرواح فليس تحيق
يقولون ان النفس حق وجودها ... فلا ينبغي إنكارها وجحودها
وبعد الردى تطوى السماء خفيفة ... وإن بعدت في اللاتناهي حدودها
وما الجسم الا دولة مستقلة ... لها حكمها في أهلها وجنودها
وما أهلها الا خلايا صغيرة ... وما النفس ذات الحول الا عميدها
وما هي الا ومضة من شعاعة ... فان خلدت ما كان بدعا خلودها

فقلت لهم هذا جميل وعله ... خيالات عقل شارد لا أريدها
ولم يكن الانسان إلا ابن غابة ... على فجأة قد أنجبته قرودها
سيطغى يأسى فى المشيب حياتى ... وأذهب من نور إلى ظلمات
ويحملنى صحبى إلى القبر إننى ... به بعد حين لست غير رفات
تقطع أوصالى وتبلى جوانحى ... وليس بوسعى أن أبث شكاتى
وأجهل بأيام الصبا فهى لم تكن ... على الفم من دهرى سوى بسمات
ولكن أيام الصبا قد تصرمت ... ولم تبق ذكراها سوى الحسرات
وفارقت أيام الشباب حميدة ... وان كثرت فى عهده عثراتى
قضيت شبابى مطمئناً وبعده ... أتى الشيب منهوكا من الشبهات
من الموت مهما مضى لست خائف ... ولكن وراء الموت ماذا تصادفى
خضعت لعقلى فى حياتى كلها ... وما كنت يوما خاضعا لعواطفى
وكنت إلى لمس الحقائق نازعا ... أنزه سمعى من سماع السفاسف
تهذبت عمراً دن مخالفة الورى ... فيا ليتنى قد كنت غير مخالف
عجبت لجذعى كيف ظل مقاوما ... فقد كان معروضا لضرب العواصف
لقد قذفتنى بالمسبات ثلة ... ولم أتجنب شر تلك القذائف
وكم شن ذو جهل على العلم غارة ... وكم كان ذئب صادقا فى مواقفى
تجمع يرمينى خميس عرمرم ... أأنكص كالمغلوب أم أتقدم
ولكننى اخترت التقدم إنه ... لمن كان يستبقى الحياة لأسلم
وللعلم أنصار وللجهل مثلها ... ولكن أنصار الجهالة أعظم
لقد حاربونى بالمسبة والخنا ... وحاربتهم بالعلم والعلم مخذم
إذا كان ليلى قد تجهم وجهه ... فابن صباحى بعده يتبسم
يقص عليك الشيخ منه خرافة ... فتحسب أن الشيخ فى النوم يحلم
تصرم عهد الجهل فى الغرب كله ... ولكنه فى الشرق لا يتصرم

وقصيدته الأخرى « يومى وليلى » حافلة بالذكريات :

حلمت بأن الدهر لى يتبسم ... ورب شقى بالسعادة يحلم
فلما انقضى ليلى وعدت ليفظنى ... رأيت نهارى عابثا يتجهم
يغم فؤادى اليوم قد غاض ضوؤه ... ويقبض نفسى الليل ما فيه

كأن نهارى صنو ليل يجنى ... وليلى قبر ضيق الجوف مظلم
فسيان ليلى والنهار كلاهما ... عليه ظلام من همومى مخيم
فليلى حتى يأتى اليوم أليل ... ويومى حتى يأتى الليل أيوم
وللحر آلام كثار وإنما ... على قدر الاحساس يأتى التألم
لقد عاب أقوام على تبرمى ... وأى امرىء يشقى ولا يتبرم
وليس على ضيم يقيم سوى الذى ... اذا ناله ضيم فلا يتألم
وغاسل أدران السياسة كلها ... هو الدم يسقى الأرض ثم هو الدم
عظيم من استولى على الناس كلهم ... ولكن من استغنى عن الناس أعظم
هنالك مغرور يظن بأنه ... سيبقى بما فى حوزه يتنعم
ويحتج بالصرح الذى شرفاته ... حوته كأن الصرح لا يتهدم
تصرم من عمرى زمان شبيبتى ... وأى زمان منه لا يتصرم
لقد كنت فيه أركب الصعب واثبا ... وأسبق أقرانى ولا أتجشم
ويهرم كهل كان فيما مضى فتى ... فمن هو من ذاك الفتى حين يهرم
تغير منه خلقه وطباعه ... سوى ذكريات فيه تخفى وتنجم
وما الأرض والإنسان يجثم فوقها ... سوى قطرة فى الكون والكون عيلم
هناك نواميس بها أنا عالم ... وأخرى على جهدى بها لست أعلم
وإنى بها وهى « الحقيقة » مولع ... وإنى بها صب وإنى مغرم

وبعد فقد كان شعر الزهاوى وشاعريته مبعث فخر للعرب والعروبة فى كل مكان ، وللزهاوى ديوان الكلم المنظوم ، وديوان بعد الدستور ، وديوان هواجس النفس ، وديوان بقايا الشفق . وله « رباعيات الزهاوى » وديوان الشذرات ، وديوان نزغات الشيطان ، وكتاب عيون الشعر ، وكتاب الفجر الصادق فى الرد على الوهابيين ، ومحاضرة فى الشعر ؛ وكتب أخرى فى الفلسفة (١) . .

---

(١) راجعها فى ترجمة الزهاوى فى كتاب « الأدب العصرى » فى العراق لرفائيل بطى ص ٥ — ١٧ ج ١

الأسمر الشاعر

أصدر الشاعر محمد الاسمر ديوانه « تغريدات الصباح » عام ١٩٤٩ ، وفى عام ١٩٥١ أصدر ديوانه الثانى الضخم « ديوان الأسمر » فى نحو سبعمائة صفحة ، جامعا روائع من الشعر الدينى والقومى والوطنى والسياسى والاجتماعى والوجدانى والغنائى والانسانى ، ومن الأناشيد والاخوانيات والفكاهة وشعر الطبيعة والنسيب والرثاء ، ومسجلا أحداث الشرق والغرب والعرب ومصر فى العشرين عاما الأخيرة من تاريخ الانسانية .

والأسمر شاعر رقيق الشمائل ، حلو الألفاظ ، عذب الأسلوب ، جزل الصياغة متماسك الوحدة فى قصائده ، متأثر فى أغلب شعره بالاتباعية الفنية ؛ يحكى فى نظمه طبع البحترى ورقة ابن زيدون ، وحلاوة جرير ، ويسير على النهج العربى فى السبك والنظم ، ويبتعد عن الحوشية والغرابة والابتذال والغموض والتعقيد ، ويتجنب أن يحيف على شعره شىء من الاستكراه والتكلف والصنعة ، القصيدة عنده تدور حول الجانب الغنائى وحده ، فقلما ينظم قصيدة من اللون القصصى ، وإن خالف ذلك فى قصيدته « شعراء الحانة » التى نهج فيها نهجا قصصيا ، وصور فيها ثلاثة شعراء أغرى بعضهم البعض الآخر على ملازمة الحانة ، وإدمان الراح ، ثم دارت بهم الأيام فهجروا الحانة إلى المسجد ، وتركوا اللهو إلى العبادة ، وأنساهم الجد المجون .

ويصف مطران شعره بأنه رائع فاتن ، يشبه قوس قزح فى جماله وتعدد ألوانه .. ويقول عنه أنطون الجميل : « شعر الأسمر فى معظمه مزيج من الحقيقة والخيال ، يرتفع الشاعر حينا فى جو من التصور فيصور ما يجلوه له الخيال ، ويغوص إلى أعماق النفس حينا فيروى ما يشعره به حسه ، ويدرج حينا فى علم الحقائق المجردة فيصف شئون الحياة كما هى جميلة أو شوهاء ، سعيدة أو مبتئسة ، مفترة الثغر أو مقطبة الجبين ؛ ولما كان خبيرا بأساليب النظم ، عليما بأسرار القوافى ، فإن التعبير يجيئه فى هذه المواقف الثلاثة طبعا ، ويلبيه مؤديا ما يريد » .. ويصفه الشيخ مصطفى عبد الرازق فيقول : « اشعرك تأثير فى نفسى ، أحسبه يفوق ما يفعل الشعر ، ذلك أنه فيض نفس أخرى ، وقد يكون سحرا ذلك الذى ترسله نغما موسيقيا ، فى أسلوب سهل ، فيسرى فى الأرواح . ويفجر العواطف خلالها تفجيرا » .. ويقول فيه محمود غنيم :

مابال شعر الشاعر الأسمر أبيض مثل الفلق المسفر
فتشت مافتشت عن لفظة نابية فيـــه فلم أعثر
فيه على ما فيه من قوة رقه ماء النيل والكوثر
كالزهر إلا أنه خالد مثل خلود الهرم الأكبر
قد يعث الأسمر فى شعره عهد أبى الطيب والبحترى

ويقول له الشاعر محمد عبدالغنى حسن :

رقة فيك لم تتح لزهـــير وأفانين لم تكن للأعشى

ويصف الأسمر فى مقدمة ديوانه كيف ينظم القصيدة (١) ، ويقول إنه ليس من الذين يتعصبون للشعر القديم أو الشعر الحديث ، ولكنه يميل إلى الجيد منه فى شتى عصوره (٢) .

وقد تأثر الشاعر أكثر ما تأثر بالآداب القديمة ، وأتاح له اتصاله بالصحافة أن يتابع بشعره الأحداث الوطنية والقومية ، كما أمدته نشأته فى دمياط بين مجالى الطبيعة ومشاهد الجمال بخيال يقظ مشبوب ، وذوق مرهف حساس ، وشاعرية ثرة متدفقة ؛ وكان الأسمر منذ ربع قرن ينشر شعره فى « السياسة الاسبوعية » ، ثم أخذت كبريات الصحف والمجلات الأدبية تنشر روائعه ، ومن بينها الاهرام والثقافة والرسالة والمقتطف والهلال .

وإذا قرأنا له فى مطلع ديوانه قصيـــدته : « ميلاد الرسول » التى يقول فى أولها :

فجر أطل على الوجود فأطلعا شمسين : شمس سنا وشمس هدى معا
ظلت مطالع كل شمس لاترى من بعده شيئا كمكة مطلعا
فبس من الرحمن لاح فلم يدع لألاؤه فوق البسيطة موضعا
ماكان ميلاد الرسول المصطفى إلا الربيع نضارة وتضوعا

وجدنا تأنقا فى الصياغة ، وتجويداً للنظم ، ومراجعة وتنقيحا وتهذيبا له ، وصقلا للاسلوب ، وتخيرا للالفاظ ، وتوشية للتعبير بألوان من البديع الحلو ، وتنقلا فى الخيـــال حتى لايقر له قرار .. ووجدنا خصائص الأسمر التعبيرية والبيانية فى شعره واضحة كل الوضوح .

---

(١) ص : م ، ن من ديوان الأسمر (٢) ص : س من ديوان الاسمر

ومن قصيدته « بالمصر » :

هل بات يغنى أن يقال لها اسلمى ... إن صح ذلك فاسلمى ثم اسلمى
يا مصر إن الله جل جلاله ... لا يستجيب إلى دعاء النوم
اليوم ألسنة المدافع وجدها ... مقبولة الدعوات طاهرة الفم
فالأرض الأقوى على جنباتها ... ليست لأنقاها ، ولا للأعلم
الجو لم تملكه غير نسوره ... والغاب لم يملكه غير الضيغم
والحق ليس ببالغ « جوديه » ... حتى يخوض اليه طوفان الدم

وهى نمط جميل من الصياغة وخفة الروح والحلاوة .. والعاطفة الدينية قوية واضحة كل الوضوح فى شعر الأسمر ، ولعقليته « الأزهرية » آثارها فى أسلوبه ، كما يتجلى لنا فى قوله السالف : « إن صح ذلك » و « مقبولة الدعوات » ، و « يستجيب إلى الدعاء » ، و « أنقاها » ، و « الأعلم » ، و « جوديه » ، و « طوفان الدم » .. وهى خصائص مميزة لشعر الأسمر الشاعر ، الذى طالما أرسل قصائده من فوق منبر « الأزهر » فى كل وقت ، وكل مناسبة .

وتشيع فى شعره الفكاهة المصرية العذبة ، حتى فى الجد ، وحين يتطلب المقام الجزالة ، يتحدث عن الغلاء ووطأته خلال الحرب العالمية الثانية ، فلا ينسى أن يقول لصديقه « عزت أبى عاصى » :

يا أبا العاص ! يا صديقى : قل لى ... أين ما كان ؟ أين أين « الصوانى » ؟
لهف نفسى يا ألف لهف (١) عليها ... وهى محمولة من الأفران
حاملات من كل صنف ولون ... طيبات الأصناف والألوان
حدثونا عنها فإنا نسينا ... ونسينا الديوك كالخرفان
عزت اليوم أقة « العجالى » ... و « البتلو » ، وعز رطل « الضانى »
حاورتنى الأطفال يوما فقالت ... أين منا « كنافة الكنفانى » .
قلت : كتبى لديكم فارهنوها ... وارهنوا جبتى مع القفطان
كل شىء غلا وعز على نشا ... ريه حتى « فلقاسنا الشنوانى »

ويستبشر العالم بميلاد « فجر السلام » حينما أعلنت الدول انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فيقول الأسمر من قصيدته « فجر السلام » :

---

(١) فى الديوان ص ١٦٥ : لهفى .

حقائق صاح أم أباطيل نائم ؟ وأخبار صدق أم مزاعم زاعم ؟
عجبت لها كيف انتهت حين ظنها بنو الأرض فوق الأرض ضربة لازم
سنون مضت مثل الدهور تلاعبت بنا مثل موج الهائج المتلاطم
وكنا ألفناها على قبح وجهها كما ألف الحاوى وجوه الأراقم
وهيهات ما ليل الخروب بمنته ولا فمها فى كل آن بصائم
ستحدث حرب بعد تلك وغيرها ، وأخرى وأخرى ، جاحما بعد جاحم
خذوا بالمساواة التى قلتم بها فذلك أولى بالكريم المسالم
وليس عظيم الناس آكل غيره ، على رسلكم ، هذا عظيم الضراغم
ولكن عظيم الناس من عاش صادقا برىء سنان الرمح ، عف الصوارم
مضت حقبة والشرق يحمل عبئكم فلا تجعلوه دائما للمغارم
ولا تجعلوا بعض الأنام مطية لأغراضكم ، فالناس غير البهائم
شددتم بزند الشرق فى الحرب كفكم فلا تجعلوها بعدها كف لاطم
دعوا الشرق يهتف بالمنى فهى حقه عليكم ، وليست بعض تلك الغنائم
فيا حلفاء الشرق : ما بال قيدكم على الشرق فى أجياده والمعاصم
تعالوا تعالوا للعدالة نحتكم فما برحت من يومها خير حاكم
بنى مصر لا بل يا بنى الشرق كله أعيذكم من شر تلك السخائم
أرى حبكم للحكم فرق بينكم فأطمعتمو فى أرضكم كل غاشم
ومكنتم للداخلين فأصبحوا جراثيم داء لا ترى يد حاسم
ولانت قناة الشرق بعد إباثها وكانت قناة لا تلين لغاشم
دعوا عنكم حب الرياسة واذكروا أفاعيلها فى عبد شمس وهاشم
بنى الشرق : جدوا ، حسبكم مزح مازح وإلا فأنتم فيه لقمة لاقم
ولائم سواس الورى أكل مثلكم وأخشى عليكم بعض تلك الولائم
أرى موكب الأحياء يمشى فزاحموا به تسلموا ، مات الذى لم يزاحم

والقصيدة من الناحية الفنية قوية فى جزالتها ، متينة فى أسلوبها ، ينهج فيها الشاعر نهج المتنبى فى ميميته المشهورة ، وألفاظها ألفاظ عصر المتنبى لا عصر الأسمر ، ولكنها من حيث الموضوع رائعة الغرض ، نبيلة الهدف ، جليلة الفكرة ، بارعة التصوير والتأثير ، تزخر بالمعانى الوطنية والإنسانية والقومية المتدفقة ، وإن كان أسلوب الأسمر أوسع من معانيه فى كثير من حالات النظم .. إلا أنه يختار المعنى

ما يشاكله ، واللفظ ما يوائمه ، وليست ألفاظه إلى السمع بأقرب من معانيه إلى القلب .

وفى قصيدته « هذا العالم » التى يقول فى مطلعها :

ما بالله لم تزل تغلى مراجله يا عالم الشر ماذا أنت فاعله
عجبت للكوكب الأرضى ، معدنه ماء وترب ، ولا تهدا شعلله

روح التأثر باللامبات المشهورة فى الشعر العربى ، ومن بينها لامية زهير ، وذلك من الناحية الفنية فى النظم وحده ، دون الموضوع والمعانى .. وكلمة شعلله ، جمع شعلة ، وليس جمعا قياسيا يتبع .

وللاسمر فى نكبة فلسطين ، وفى أحداث مصر والعرب روائع كثيرة ، وله فى الغزل والطبيعة شعر كثير .

يقول حينما دخل جيش مصر فلسطين عام ١٩٤٨ :

جيش الكنانة سد فى كل معترك إن الفراعين كانوا سادة الأمم
إن طال ليل « فلسطين » فإن لها فجراً أطل سيجلو داجى الظلم
فقل لمن سهدت عيناه مكتئبا بشراك بشراك لاح الفجر فابتسم

ويحيى الشاعر ثورة لبنان للاستقلال ، وزعماء العرب فى كل مناسبة ، ويعضد رجال الإصلاح وينادى بحق المرأة فى الحياة ، ويعمل مع العاملين فى ميادين الإصلاح الاجتماعى والدينى ، ويكافح فى سبيل وطنه ذائدا عن حقه المقدس فى الحرية والاستقلال .

ويرثى الأسمر فى شعره حظه من الحياة ، وإن كان إيمانه يغالب اليأس والضجر فتراه يقول من قصيدته « دموع شاعر » :

ألا حدثونى هل جرى الرزق عادلا أم الرزق لم يفتأ يحابى ويظلم
بل قد جرى عدلا ، وإن كان ظالما وقسمه بالحق فينا المقسم
تنعت بحظى ، واتهمت فضائلى ولو أنها شمس تضىء وأنجم
وطلقت آمالى ، وقلت لها : اعزبى فإن سبيل اليأس أهدى وأقوم
أجرد عزمى صارما أى صارم ويلوى يمينى حظى المتثلم

وفى قصيدة « الحظ العاثر » يبكى الشاعر آماله ، ويتمنى الموت ؛ فيقول :

تشابهت الدنيا على وأظلمت فلا نحسها نحس ، ولا سعدها سعد
وضاقت بآمالى بلادٌ عريضـــة فيا ليت شعرى هل يضيق بها اللحد

أكابد من دهرى حوادث جمة وحسب الفتى من دهره حادث فرد

ويدفعه ذلك إلى الثورة على الحياة والمجتمع فيقول من هذه القصيدة :

وماذا بوادى النيل ، هل فيه مطمح لأى امرىء فوق الكنانة أو قصد
وهل فيه إلا حاكم متغطرس كأن جميع العالمين له جند
وإلا غنى أمسك الشح كفه كأن الذى فى ثوبه حجر صلد
وإلا رجال يزرعون قراهم فيحصدها من ليس من حقه الحصد

ويشتد بالشاعر يأسه فيقول من قصيدته « كأس تفيض » :

أنت يا عيش فى الحقيقة موت لى ؛ ويادار أنت لا شك رمس

ومطلع هذه القصيدة :

يا خليلى قاضت اليوم كأسى فاهدياني إلى سبيل التأسى

والشاعر فيها يحتذى حذو البحترى فى قصيدته « إيوان كسرى » احتذاء فنيا لطيفا مقبولا .. وقصيدته « مصر وأبناؤها » التى يقول فيها :

حطمنا اليراع وعفنا الأدب وشاب الفؤاد وإن لم نشب
وضقنا بمصر وضاقت بنا وإن وسعت كل جيش لجب
أقصر لمن نزحوا نحوها وقبر فراعينها والعرب ؟
وماذا بمصر لأبنائها على ما حوت أرضها من ذهب

جميلة مؤثرة ، وفيها روح ثورة حافظ على زمنه ومجتمعه الذى كان يعيش فيه . .

ويكرر الشاعر هذه المعانى فيقول من قصيدته « رجاء » :

يامصر ضقت على حتى ضقت بالـــزر اليسير
أسعى إليه كأنما أسعى إلى البـــدر المنير
حذرا وخوفا أن أكون علقت من أملى بزور
يامصر من لى بالسرور عليك أو بعض السرور ؟
يامصر هل ينجاب هذا اليوم عن كرم وخير ؟

وطالما قاسى الشاعر فى شبابه من محن وآلام ، يصورها فى قصيدته « رزق الأديب » ، التى يقول فى مطلعها :

رب يامن خلقتنى أين رزقى كدت يارب أن أشق الجيوبا
ليتنى كنت فى الكنانة يارب غرابا ولم أكن عندليبـــا
أنت يارب ترزق الإنس والجن جميعا فارزق بمصر الأديبا

إنه . كالورى يريد طعاما ولباســـا ومسكنا وطبيبا

وقصيدته « بيني وبين الموت » يقول فيها :

رأيت الموت أمس قصد عنى كأنى لست أصلح للحمام
ولم أر قبل هذا الموت موتا يذود الناس عن عجل « الغرام »
تلطف بى وكنت أود أنى أعانقـــه عناق المستهام
نجوت ولو قضيت نجوت حقا ولكن عشت للموت الزؤام
يرثى الشقاء على نجـــاتى وقد أبصرته بين الزحام
فقلت له أما تنفـــك عنى ؟ أأنت بكل ناحيـــة أمامى
وددت لو انى لاقيت حتفى لأنجو منك ياوجـــه الثمام

وموشحته « الإنسان والرزق » لطيفة جميلة الخيال والتصوير . ومن غزله قصيدته اللطيفة « ليلة الوداع » :

ودعينى ، ودعينى ، واذكرى لى من حديث الحب مايشفى غليلى
وإذا الفجر تجلى فأنيلى شفتى ثغرك من قبل الرحيل
وهبينى قبـــلة واحدة ليست القبلة بالشيء القليل
قبـــلة لايلتقى ثغر بثغر عندها ، بل تلتقى روح بروح

وبعد فشعر الأسمر حلو جميـــل مقبول ، وشخصيته الفنية تظهر فى شعره الوجدانى الغنائى ، لافى الشعر الذى نظمه فى المناسبات الطارئة ، وديوانه ذخيرة أدبية للناشئين الذين يريدون أن يربوا أذواقهم على العربية وبيانها ، وفيه ألوان متعددة من الخيال والشعور والعاطفة .

ويقول الأديب الأستاذ طه الزينى من دراسة له عن الشاعر : الأسمر عالم أزهرى ، قال الشعر صغيرا ، وظل شعره يكبر معه حتى أوفى على الغاية ، وأشرف على القمة ، فى معان نبيلة ، وحكم عالية ، وقد أجمع على الاعجاب بشعره الخاصة والعامة ، وطرب لشعره الناس على اختلاف ثقافاتهم وتباين أذواقهم . ذكره بالفضل والسبق فى شعره الشيخ المراغى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، وقاسم مظهر ، وأنطون الجميل ، وخليل مطران ، ومحمود غنيم ، وعلى الجندى ، ومحمـــد عبد الغنى حسن ، وفؤاد شاكر الشاعر الحجازى ، وسواهم ، ومهما قلت فى الأسمر فلن أوفيه حقه . عرفت الأسمر قديما بكلامه ، وعرفته حديثا بشخصه ، فوجدته كنز خلق وعلم وتجربة ، فيه لين الجانب ، ورقة الشمائل ، والوفاء لأصدقائه ، مع

رزانته وتواضعه ، وترفعه عما يطمع فيه غيره ، فقد أبى أن يلقب بأى لقب يلقب به الشعراء ، وشعره فى المناسبات تبدو فيه شخصية مستقلة كل الاستقلال ، فهو لا تغمره المناسبة ولكنه هو الذى يغمرها بعواطفه الجياشة بالحكم والتوجيه والملح ، وغير ذلك من ضروب الشعر ، ولا يتكلم لرغبة أو لرهبة ، وإنما يصوغ ما تمليه عليه عاطفته شعراً جيداً يدل على أنه لا أثر فيه للصنعة ولا للتكلف ولا للتقليد الفنى .

أما شعره فى الغزل فقد ساعده على التبريز فيه حسن ذوقه ورقة طبعه ، وإنه ابن دمياط البلد الجميل الفاتن الهادىء . ومع أنه شيخ أزهرى يتحرج من وصف مفاتن المرأة وجمالها ، إلا أنه نظم فى الغزل ما يأخذ بالألباب ويماثل به وهو المقيد أقرانه من الشعراء غير المقيدين بأزهريتهم ، ومن غزلياته الجيدة قصيدة « من يجيرى ؟ » ، و« أيها العاذل دعنى » و« زورة » وهى فى ديوانه . وتعجبنى له غزلية جديدة نشرت فى بعض الصحف ولا توجد فى ديوانه وعنوانها « على شاطىء جليم » يقول فيها الشاعر :

لاحت على الشـــاطىء بستانا ... يرف بالبهجة فينانا
صغرى شقيقات لهـــا حسنها ... عن كل مافى الشط ألهـــانا
قالوا لها جئنا فجاءت لنـا ... من كنها الشطى تلقانا
ونحن فى كل الورى معشر ... الحسن نهواه ويهوانا
كل جمـــال نحن عشاقه ... نلقاه بالبشر ويلقانا
يكفيه منا أننا وحدنا ... صغتـــاه للعالم أرزانا
وأننا والكون مصغ لنا ... أرق من فى الكون وجدانا
هام بها البحر فأمواجه ... بدارة شوقا وتحنانا
أهدى اليها خـــير مايقتنى ... فابتسمت درا ومرجانا
وصاغ من أجمل أصدافه ... ما لاح فوق الصدر رمانا
واختار من عنبره حلية ... حلى بهـــا النهدين تيجانا
وموج الشعر كما يشتهى ... فلاح وهو الموج إتقانا
وهو الذى أهدى لألحاظها ... ما صير الناظر حيرانا
راع وراق الحسن فى عينها ... كالبحر أعماقا وألوانا
والبر ماقصـــر فى واجب ... أهدى الذى أهداه هيمانا
فانفتلت فى رمله ظبية ... واعتدلت فى شطه بانا
ورقرق الخمرة فى ثغرها ... من يرتشفيه مال نشوانا

وأودع الخدين من ورده أبهى وأزكى ورده شانا
ونقط الخدين من مسكه « خالين » ما أجمل مازانا
وبين قوس حاجبيها بدا ما لاح فتاكا وفتانا
خال هو السهم العجيب الذى أماتنا شوقا وأحيانا
لو كان للصخر عيون ترى حسنك ذاب الصخر أو لانا
البحر والبر ومن فوقه يرنو إلى حسنك ظمآنا
ولست بالظامىء فى نظرتى لكننى أنظر فتانا
ألقاك لا ألقاك ظمآنا لكننى ألقاك فرحانا
أهوى الهوى نورا وكنت امرأ يهواه قبل اليوم نيرانا
سرب من الناس على رمله مختلط شيبا وشبانا
وعاريات ما ارتدت فوقه إلا أباطيل وبهتانا
ما أعجب المصطاف من ساحر يسحرنا شيبا وشبانا
لم يستر « المايوه » من جسمها لكنه قد زان وازدانا
جاءت من الغرب لنا فتنة علاجها فى الشرق أعيانا
هذا هو البحر وهذا هو المصطاف فاللهم غفرانا

أما باقى شعره فتشيع فيه الروح الوطنية والشرقية والدعوة لمكارم الأخلاق ومحاربة المستعمرين ، ويظهر بغضه للاستعمار وللانجليز فى قصائده « جلاء الانجليز عن العواصم المصرية ، الشرق والمستعمرون ، الإنجليز ولبنان » ، وغير ذلك من القصائد الوطنية ، وقد قال قوم من الذين تناولوا شعره انك تجد فيه القديم وتجد فيه الحديث ولكن الذى نراه أصدق فى التعبير عن شعر الأسمر هو ماقاله الأستاذ محمد على غريب وهو يتحدث عنه : إن شعر الأسمر ليس بالقديم وليس بالحديث ولكنه شعر الأسمر وكفى . . والذى رأيناه فى شعره من حيث الصياغة أنه لا يخضع لأسلوب واحد ؛ فأحيانا يكون جزلا وأحيانا يكون رقيقا ، ولكنه تغلب عليه دائما الروح المصرية ويميل إلى الجيد من الشعر والنثر مهما يكن لونهما .. ففى كل لون جيده ورديئه وفى كل عصر جيده ورديئه .

حسن جاد الشاعر

— ١ —

شاعر متوقد الاحساس ، مشبوب العاطفة ، مرهف الشعور ، مجنح الخيال ، ولكنه كالطائر السجين يستقل بغنائه ، ويحبس أغاريده فى دائرة قفصه المحدود . . إنه يعيش فى برجه العاجى بعيدا عن صخب الحياة والناس ، وليس معنى هذا أنه لا يندمج بفنه فى مجتمعه . أو يصور بأنغامه العذبة آلامه وآماله ، بل لأنه زاهد فى الشهرة ، عازف عن تملق الناس وحب الظهـــور . . . أهى ظروف نفسية اضطرته إلى هذه العزلة الغريبة ؟ أم هى ثورته العارمة على ماشاع فى حياتنا منذ قيام الحرب الأخيرة من اختلال المقاييس ، وانقلاب الأوضاع ، وتغلغل النفاق وتصدر المهرجين الذين أتاحت لهم مواهبهم الخاصة من المق والصفاقة وغشيان الموائد وتقبيل الأعتاب أن يظهروا فى هـــذا الجو الخانق ، وتلك الحياة المادية المختلفة الموازين ؟ . . قد يكون هذا وذلك ، وإلا فما باله قد آثر أن يغنى لنفسه وأن يقنع بأن يذيع أغانيه على الخاصة من أصدقائه المحيطين به ، بينما نرى كثيرا من تلاميذه تلمع أسماؤهم فى سماء الأدب ، وتتردد أشعارهم فى كل مكان ، وكان هو قبل الحرب الأخيرة يغرد فى كل أفق ، ويصدح على كل أيكة .

يقول شاعرنا فى ثورته هذه يصف السياسة وآفاتها قبل الحركة المباركة :

حرفة روجت دجاجلة الجهـ ... ـل ففازوا بها على العلماء
لا تقل لى : شهادة ؛ فهى أعلى ... من شهادات أنبغ النبغاء
إن أردت الغنى بمصر فهرج ... وتلون تلون الحرباء
وامش فى كل موكب وتعلق ... بذيول الأقطاب والرؤساء
مل مع الريح حيث مالت نفاقا ... وتملق واخلع رداء الحياء
فاذا ما فقدت حظا من التهريج ... فاقنع برزق رب السماء
بلد أضحت الكفاية فيه ... فى مهب السياسة الهوجاء
والمقاييس نكست فى ضلال ... وغدا الحق فيه كالعنقاء
أنبغ النابغين فيه « شكوكو » ... وأجل الفنون لغو الهراء
والأديب السباق من وصف العد ... س بإحدى موائد العظماء

ياصديقى هذا زمان المداجى ليس هذا الزمان للأكفاء

ولا يفوته أن يردد هذا المعنى فى كل مناسبة ، حتى لقد بلغ من جرأته أن يعلنه فى حفل دينى مذاع ، حيث يقول :

يارب هذا الغرب فى غـــلوائه غاض الوفاء به وضـــاع الموثق
والشرق من أخـــلاقه فى محنة تودى بآمال الشعوب وتوبق
الجاه فيه قرابة وشفاعـــة والكفء فيه مهرج ومصفق
ويضيع فيه العبقرى ترفعـــا ويفوز فيـــه الجاهل المتملق

ويصف الأذاعة فى ذلك العهد البائد فيقول :

هى حرب على الوفيع من الدن إذا لم تكن لديه شـــفاعه
كل حزب رام لها بالمحاسيب ارتزاقا وحاشـــد أتباعه
من جهول يذيع لغوا ولولا أنه ذيل شافع ما أذاعـــه
وصفيق يمشى بكل ركاب وهو فى كل موجـــة فقاعه
جاهه فى الحى هتاف نفاق وشهاداته فنون الضراعه
بئس دهر أحراره فى ضياع وفنون الأحرار فيه مضاعه

ويقول فى هجاء بعض هؤلاء الخمافيش الذين ظهروا فى ظلام ذلك العهد

ايهذا الأفق يمرح فى الجهـ ـل وفى الجهل تمرح القطعان
إنما الجهل شارة السبق فى مصر وصك يرجى به الغفران
هبة من مواهب الله يعلو لذويها جاه ويرفع شان
بلد فيه ذر المواهب يشقى ويفوز المهرج الثعلبان

ليس عجيبا إذن أن يعيش هذا الشاعر فى عزلته هذه اذ لم يتصل بطبعه سبب من هذه الأسباب التى تؤهل صاحبها للظهور والصدارة ، فالصحافة والاذاعة فى ذلك العهد الفاسد إنما كانت لأصحاب هذه المواهب التى لم يتح له منها شىء ، كانت لكل من يجيد النفاق والهتاف والصفاقة ولو كان من أجهل الجهال .

وإذن فنحن نأمل — وقد ذهب ذلك العهد إلى غير رجعة — أن ينطلق هذا العندليب ، ليغرد فى آفاق الحرية والعدل والنور .

إنه شاعر خصب الشاعرية ، عميق الاحساس ، حى المشاعر ، شديد المعرفة للدقائق والمعانى الشعرية ، مغرم بإيرادها فى شعره .

ومع ذوقه اللغوى ، ونشأته الأزهرية لا تكاد تجد أثراً لذلك فى أسلوبه بل

يكاد يتحرر بملكاته ومواهبه القوية من آثار التعصب لمذهب أو ثقافة أو عصر أو طائفة من الشعراء .

إننا نجد أنفسنا أمام شاعرية غنائية متعددة الألوان والاتجاهات ، ينظم صاحبها الشعر فى شتى شئون الفن والفكر والاجتماع والوطنية والدين ، ويجيد فيما يتناوله من أساليب وأخيلة ومعان وأغراض إجادة نادرة . ونجد فى شعره عمقا ودقة وجمالا وبساطة . . هذا الشاعر الكلاسيكى فى نزعته الفنية ، لا يقف مقلدا لغيره من الشعراء فى روح الشعر ، ولا يحتذى سواه فى فكرته وأدائه ، ولا يعيش على تقليد القدامى ومعارضتهم فى شعره ، بل إن شاعريته تستقل بملامحها الخاصة فى التصوير والتحبير والوشى . . القصيدة عنده هى وحدة الشعر ، لا يخرج عما هو متوارث فى الشعر من موسيقى وقافية ، وقد ينوع فى صور القافية تنويعا لطيفا مقبولا . . يفهم وحدة القصيدة فهما دقيقا ، يتأثر فى شعره بالبحترى وابن زيدون وشوقى . . أخرج من قبل ديوانا سماه « زورق الشجون » ، وله قصائد عديدة نشرها فى الصحف والمجلات وديوان مخطوط كبير لم ينشر بعد . . لم ينظم شيئا من الشعر القصصى ولا التمثيلى ولم يتخذ شعره أداة للملق والنفاق والمدح ، بل قصره على تصوير خلجات نفسه ومشاعره وعواطفه ، يزاوج بين ذلك كله وبين أحداث المجتمع وشئون الحياة فهو لا يقف عند مذهب « الفن للفن » ، وإنما يتجاوزه إلى مذهب « الفن للحياة » أحيانا كما يتجاوز المذهب الكلاسيكى إلى الرومانسى فى كثير من الأحيان .

وإذن فيمكن القول بأن شعره مزيج من المذهبين ، فيه كثير من الألفاظ والصور القديمة ، كما يتحدث عن « الجامعة العربية » فيقول :

حنت إليها قلوب الشرق من زمن ... وفى الجوانح شوق بات يلتهب
منى تفرقها البلوى وتجمعها ... وللبلايا تفاريق وملتحب
هامت بآفاقها طيرا مفزعة ... لم يشف غلتها من وردها صأب
تناوشتها فرادى فى مسارحها ... مخالب تتأبى شنها نصب

وكما يقول فى وصف الفلاح :

يبخسه الدهر وأوطانه ... عون مع الدهر على بخسه
وما سرى فى أفقه كوكب ... إلا وغض الطرف من نحسه
يبيت صفر اليد من عدمه ... والذهب الابريز من غرسه
هل للنى الجرعى بأحشائه ... هزة عطف من بنى جنسه ؟

فكفكفوا المسفوح من غربه وبددوا المريد من يأسه ؟

وفيه كثير من الصور والتعبيرات الحديثة ، كما يقول فى « الربيع » :

هو روح تنساب فى كل شىء نفسا عاطرا ولحنا مذابا
روضة للأرواح تستاف ريا ها وساق يشعشع الأكوابا
وأنا ظامىء الأمانى فهبا نبتدر ماءه ونسى السرابا

وهو عميق الاحساس بالربيع حيث يقول :

لا أحس الربيع إلا بنفسى مجتلى بهجة وجلوة عرس
وبروحى أراه لا بعيونى مطلعا للمنى ومشرق شمس
ماالربيع الضحوك إلا أمانى مشرقات تجلو غياهب نفسى
ياحبيبى كل الربيع ندامى تتساقى الهوى وقد جف كأسى

وكما يقول فى قصيدته « لحن جديد » :

أنا روح يسرى بأفقك هيما ن هدته إليك أطياف حسن
هاتف بالجمال فى نشوة الحب وما أنت غير كأسى ولحنى
هتفة الروح أنت بعد سكون وربيع بعد الخريف الحزين
فأعيدى الحياة أنسا ونورا لفؤادى ومسمعى وعيونى

وعلى هذا النحو قصيدة « النسيان » وغيرها من القصائد التى تتجدد فيها الصور ، وتتعدد الأوزان ، وترى فيها جدة التعبير وطرافة الأسلوب .

وشاعرنا فنان أصيل ، تنبع من أعماق نفسه جداول متعددة من الفن ، فهو إلى شاعريته موسيقى ذواق ، وخطاط ماهر ، واتفاق هذه الفنون دليل على أصالة الملكة ، وعراقة الفن عنده . أما الرسم فقد أغرق فيه كثيرا من صوره الشعرية ، التى يصور بها بعض من يسخط عليهم ، صورا هجائية ساخرة ضاحكة أشبه ماتكون بصور ابن الرومى . يقول فى « نائب » من نواب عهد الفساد :

أنت من حارب الغلاء شجاعا حين ضاقت بحربه الشجعان
وأشعت الرخاء فى قيم الأخ لاق حتى تهاوت الأثمان
لك سوق تشرى الضمائر فيه وتباع الحقوق والأوطان
رب حق أضعته برغيف حجة الزور عندك الرغفان
وضمير أغرقت فى كأس خمر صبها رشوة لك الندمان
ولو استطعت بعت مصر بقرش وعليها للمشترى السودان

أنت بين النواب نائبة كبرى ... وللحق ذلة وهوان
إنما أنت سبة تستحى الامة منها ويخجل البرلمان

ويقول فى موسوس :

مضلل التفكير فى عقله ... وعبقرى الجهل فى شيبه
موسوس يشك فى نفسه ... ويستبيح الشك فى ربه
من شاء تفكيرا ففى لعنه ... كفارة للمرء من ذنبه

ويقول فى الملتحين المنافقين :

من كل من بسقت فى الزور لحيته ... وراح يحسبها سمت التقيدنا
وتحت كل طويل من ذوائبها ... شيطان كفر يسب الله والدينا
وهائم فى ظلام الشك مختبط ... يعيش فى عالم الاوهام مفتونا
قد صيغ من ظلمات الشك عنصره ... فليس عنصره ماء ولا طينا
فى غفلة يقعد الشيطان مجلسه ... ويبعث الجند فى الدنيا ملايينا

ويقول بعض الناس :

قفاك لبوابى العمائر مصنع ... ووجهك للحجاب أقتر متقل
أما تستحى من سحنة إن تطلعت ... إلى الشمس أدجت أو إلى البدر أفل
لو ابصرها المولود ساعة مولد ... لفر من الدنيا لبطن وهبل

ويقول فى آخر :

سموت بشعرى عنه والشعر عازف ... وما أنا ذو عى ولا أنا خائف
ولكننى أبصرته فوجدته ... هباء وهل تشجى الهباء المعازف
ولو كان شيئا قلت فيه كغيره ... ولكنه فى الآدميين زائف
وهبت إذن لله والصمت عرضه ... وقد يصرف الانسان للصمت صارف
وآمنت بالارزاق تجرى بلاحجى ... فيرزق معلوف ويحرم عالف

وبعد فشاعرنا متعدد الالوان ، يجول بشعره فى كل ميدان ، وينشده فى الدين والوطنية والاجتماع والحب والطبيعة والفكاهة ، ونحو ذلك . إلا أنه ارتفع به عن المدح ، وسما به عن الملق ، لانه ثائر بطبعه على هذا اللون من الفن الرخيص ، ولو أنه جرى فى هذا الميدان لكان له الآن شأن آخر ، أو على الاصح لكان له فى العهد البائد شأن .

لقد صدر له ديوان أسماه « زوزق الشجون » عام ١٩٣٥ ، ومنذ ذلك الحين

وشعره مخطوط نرجو أن يظفر الأدب بطبعه قريبا ، حتى يسهل على دارسه أن يحدد مذهبه وشخصيته أقرب وأدق من هذا التحديد والتصوير .

ولقد فاز بالجائزة الأولى فى مسابقات الشعر العالمية عدة مرات : فازت قصيدته « دنيا الغد » فى مسابقة الإذاعة البريطانية العالمية عام ١٩٤٥ بالجائزة الأولى ، وفى العام التالى استقلت قصيدتاه « أمل الفلاح » و « الجامعة العربية » بالجائزتين الأولى والثانية ولم يفز فى هذا العام أحد سواه . وفازت قصيدته « اليتيم » بجائزة أخرى . . . وهكذا . . .

وشاعرنا أزهرى النشأة تخرج من كلية اللغة العربية بالأزهر ، وهو الآن أستاذ الادب فيها ، مرموق بالتقدير فى البيئات الدينية والأدبية .

— ٢ —

وإلى أن يتم طبع ديوانه نختار منه بعض القصائد :

١ — للشاعر قصيدة جيدة عنوانها « اليتيم » تتجلى فيها البراعة والدقة الفكرية والفطنة الذهنية ، والجمال الفنى ؛ وهو فيها يدق فى الاحساس ، ويبلغ الغاية فى التصوير ، ويحيط بشتى التفاصيل الشعرية . يقول :

زفرات هذا القيظ من زفراته ... ودموع هذا الغيم من عبراته
ضاق النهار أسى بحمل همومه ... وانشق صدر الليل فى أناته
عار تكشف للخطوب فلا أب ... يحنو ولا أم طوت سوءاته
لله واهى الخفق بين ضلوعه ... زادت كوارثه على دقاته
أسوان تدرك شجوه من صوته ... وتحس ذل اليتم من نبراته
وأخو محيا كالخضم مغضن ... يطوى الشحوب أساه فى طياته
خط الشقاء عليه قصة يتمه ... إن تلقه تعرفه من قسماته
وطريد كون ضل فى آفاقه ... لجميعها — إن سار — من غاياته
وإذا أقام فما يفىء إلى حمى ... يحنو على المشبوب من لوعاته
حمل الفوادح رأسه ، ماضمه ... صدر يلم الشعث من أشتاته
ومشى بثن فما أقالته يد ... مسحت على المكدود من شعراته
عقمت أمانيه ولكن دهره ... أعيا مناكبه بعبء بناته
واوحمتاه لليتيم ومن يصب ... فى والديه فيا شقاء حياته

كم حسرة قد أورثتهـا نظرة ... لمـنى الطفولة فى وجوه لداته
ويرى البشاشة فى مواكب لهوهم ... فيذوق طعم الموت قبل مماته
يارب طفل صاح منهم : يا أبى ... فيكاد يصعقه صـدى صيحاته
أو صاح : يا أمى فكانت هتفة ... تنشق منها النفس عن حسراته
وكأنه من دهرهم تقطيبة ... لعبوسه تبـدو على صفحاته
وهمو أغاريد الحياة شدت بها ... شفة الربيع الطلق فى بسماته
إن ساجلوه الشدو فى أفراحهم ... غنى من الاشجان فى آهاته
أو رام تنغيم السرور له فم ... ماتت اغانى البشر فوق لهاته
أبداً تغالبـه الدموع كأنها ... خلقت من الأجفان فى حدقاته
وإذا أهل العيـد فى آفاقه ... وأشاع فى الدنيا سنا بهجاته
وتسابق الأطفال فيه مواكباً ... نشوى سقاها العيد من نشواته
وعلى جسومهمو جديد ثيابه ... وعلى وجوههمو سنى لمحاته
ابصرت مطويا على أسمـاله ... يطوى الضلوع أسى على جمراته
حيران ينظرهم فيرجع باكيا ... متعثراً فى الذل من خطواته
العيـد يملأ كأسهم من شهده ... ويصب مر الصاب فى كاساته
ما العيد للمحزون إلا لوعة ... تضنى ، وتجديد اظلم حياته
ذكرى لآلام اليتيم مريرة ... يحيا بها فيتيـه فى غمراته
من لليتيم يحوطـه برعاية ... ويقيله فى العيش من عثراته
شـدوا عزائمه فرب إسامة ... للدهر صارت بعد من حسناته
واحموا مواهبه يجئكم فى غد ... بالمعجزات الغر من آياته
إن الذى خلق النبوغ مواهبا ... قد صير الإغفال من آفاته
ولربما نهض اليتيم بقومـه ... وأطلت الآمال من راياته
اليتم أنجب للزمان (محمداً) ... فمحا دجاه وكان خير هداته

قوله : « ولكن دهره أعيا مناكبه بعبء بناته » يريد بها أحداث الدهر وأرزاءه وهى كناية بعيدة بعض البعد . . وقد وردت كثيرا فى الشعر القديم وفى شعر المتنبى خاصة ، وأنا لا أستسيغها ولا يحبها ذوقى ، وأرى أنها من التكلف الذى لا داعى له .

والجمال الفنى الذى نجده فى قوله « سقاها العيد من نشواته » ، أو قوله :

العيد يملأ كأسهم من شهده ويضب مر الصاب فى كاساته

ليس له غاية . . وقوله فى البيت الثالث من القصيدة « ولا أم طوت بسوآته » ضعيف إذ أنه لم يكن هناك داع لذكر السوأة وكلمة «طوت» لامعنى لها هنا . ولو قال « ولا أم ترى آهاته » مثلا أو ماأشبه ذلك لكان مجيدا محسنا .

ونحن لانجد شاعرا معاصرا يكاد يعصمه الإحسان من الخطأ ، وتجنبه الاجادة الهفوة

٢ ـ واقرأ لهذا الشاعر الغنائى قصيدته « الربيع » (١) أو قصيدته : « دنيا الغد » التى يقول فيها :

بوادر من دنيا غد وبشائر ترف فتهفو للسلام المشاعر
أطالعها فى الأفق نشوان حالما فيغمرنى من عالم النور غامر
أحس بقلبى سابحا فى جوائه يرفرف فيها البشر والجو عاطر
وأحسب نفسى منه بين عوالم من النور تسرى فى سناها الخواطر
يهيم بها روحى المشوق كأنه من الشدو والشوق المبرح طائر
طوالع من دنيا غد بين أفقه تلوح فلا ترتد عنها النواظر
ودنيا سلام لايكدر صفوه فلا الشر غلاب ولا الحقد كاشر
ولا الجو مسموم النسائم ميت ولا الطير نواح الأغاريد حائر
ولا البر مجنون الحديد معربد ولا البحر معتوه السفائن ثائر
ولا الكون مشبوب الضرام مفزع تضج مآسيه وتشكو المجازر
ولا الأرض أمست بالضحايا مقابرا وسال بها من نازف الدم طاهر
ولا الطمع الملحاح يهتاج طائشا فيبعثها شعواء فيما يخاطر
تهون عليه صيحة الكون بالأسى فيمعن فى غلوائه وهو سادر
لقد أخرسته صيحة الحق حرة وأسلمه للوهن والموت قادر
وراحت عصابات الظلام شتيتة يطاردها جيش من الفجر غامر
وأشرق فى الدنيا السلام بنوره مدى الدهر لاتغشى سناه الدياجر
وأضحت ضعيفات الشعوب عزيزة يؤازرها الميثاق فيما يؤازر
وماساورت نفس الضعيف مخاوف ولم يزه بالنصر الحالف ظافر
تعاود حرياتها كل أمة فتهتف الآمال منها الحناجر
وينتظم الدولات حر تبادل موارده مكفولة والمصادر

(١) راجع نصها ونقدها ودراستها فى كتابى « فصول فى النقد » .

وترفع فيهـــا للثقافات راية وتنصب الآداب فيها المنابر
سلام وعدل شامل ورفاهة وأمن ومجد للحضارة زاهر
هو الغد ميمون الطليعة عندما تسير بإعلان السلام البشائر
تعجلته حتى وددت لو أننى طويت إليه العمر كيما يباكر

٣ ـ وهذه قصيدة عنوانها : « وداع المصيف » يقول الشاعر فيها :

على الشاطىء المهجور أغفت مزاهر وأطرق صداح وجفت أزاهر
وأقفر روض كان بالأمس حاليا يرف به ورد ويصدح طائر
وشح ربيع كان ريان ناضرا تروق مجاليه وتسبى المنـــاظر
ندى طوى فيه الندامى بساطهم وودعه السمار وانفض سامر
وحطم كاسات المدام مديرها فلا الشط مخمور ولا الكاس دائر
وغشته من بعد البشاشة وجمة فلا الثغر بسام ولا الوجه ناضر
ونامت لياليه الوضاء عشية فلا النور رقراق ولا الليل ساهر
ومات بكف الهوج عطر نسائم رقاق لوتها زعزع وأعاصر
وأمست صبابات الهوى فى رماله دفينة صدر تحتويها سرائر
مواكب من سحر الجمال تحملت فلا الشط مسحور ولا الحسن ساحر
ودنيا من الأحلام مرت سريعة كما عبرت بالشاعرين الخواطر
صحونا على أصدائها وهى زادنا يعيش بذكراها وفى وذاكر
فديناك رأس البر ما أطيب السنا وما أحسن المصطاف والقيظ فاتر
إلى ظلك الحانى يفىء متيم ويفزع محرور وينهض شاعر
نهارك وضاح وليلك مؤنس وأفقك نشوان وجوك عاطر
فأين صباح فوق شطك حالم كأن الحسان الغيد فيه بشائر
خفرن به يخطرن فى جلوة الضحى فيالفتون الحسن والحسن سافر
تأودن أعطافا كأغصان بانة على متنها المعشوق رفت غدائر
ويسقين من خمر العيون صبابة يعتقها ساج من الطرف فاتر
وللرمل فى أقدامهن ضراعة وللبحر عربيد من الموج هادر
يغار إذا ماقبلتهن نسمـــة فتستبق الأمواج كيما تباكر
فيالك من غيد لسحر جمالهـــا تغار عليهن البحار الزواخر
لياليك رأس البر أحلام شاعر وأشواق مهجور تصباه هاجر

ليال كأحلام العذارى رفيفها ... على النيل أطياف الجمال العوابر
فأين عشيات الملاح بشطه ... وأضواؤهن الساحرات الغوامر
مشين يبارين الزوارق خفة ... فيحنو عليهن الشراع المفاخر
وللزورق الفضى فى الأفق صبوة ... يرقرقها فى الماء نورا يخامر
وأين نسيم باللسان مفتح ... مغالق نفس أوحشتها الخاطر
تعانق فيه النيل والبحر مثلما ... يعانق كهلا يافع العود ناضر
على صخرة الجبار يخشع عابد ... ويسكن عربيد ويؤمن كافر
فهذا جلال يملأ النفس هيبة ... وهذا جمال من سنا السحر باهر
فيا لجمال النيل والنيل ساكن ... ويا لجلال البحر والبحر ثائر
وهذا الفضاء اللانهائى كله ... صراع من الأمواج فى البحر دائر
وهذا فرات طيب الورد سائغ ... وهذا أجاج تجتويه المشاعر
وبينهما من صنعة الله برزخ ... وحجر من الغيب المحجب حاجر
وقد ربض (الجندول) فى سمت راهب ... يمجد صنع الله والله قادر
فديناك رأس البر ما أجمل السنا ... وما أطيب المصطاف والقيظ فائر
أتيناك أعشاشا كأوكار روضة ... جلتها لأسراب الطيور الأزاهر
تناسقن بين البحر والنيل أسطرا ... كأنى بها مابين جفنين ناظر
فما بالها أضحت رسوما دوارسا ... كأن بقاياها الشخوص مقابر
سلام على أيامك البيض قد خبا ... سناها سريعا واحتوتنا الدياجر
وأصبحت ذكرى للبشاشة والمنى ... يغنى بها شاد ويهتف شاعر
خلا ربعك الزاهى كأن لم يقم به ... أنيس ولم يسمر بمغناه سامر

٤ ـ وتلك قصيدة « يقظة النيل » :

صرخت فى عبابه الآلام ... وصحت فى ضفافه الأحلام
واستهلت بالبشريات أواذيـ ... ـه وماجت بشطه الأنغام
وتهادت أرواحه ثملات ... نفحتها بخمره الأنسام
وبدا من بشائر الصبح نور ... طار منه الكرى وولى الظلام
وصحا النيل صارخا يملأ الدنـ ... ـيا زئيرا فتفزع الآكام
مستشيطا يكاد يلهبه الغيـ ... ـظ فيجرى بالجمر وهو ضرام
ود لو كان فى فم الظلم صابا ... جامه للدخيل موت زؤام

طالما أخمدت مناه الليالى وجثت فوق صدره الأيام
رابضا تجثم الخطوب عليه وهو مستأسد المنى ضرغام
مل من قيده فهب غضوبا ونبا بالكرى فطار المنام
واصطبار أغرى عداه بواديـ ـه وللحلم تارة آثام
قل لداعى السلام فى ساعة المحنة أين العهود والأقسام
سل عباب المحيط ينبئك عنها وتجيك القيعان والآكام
خرس اليوم منطق الحق لمـــا ذهب الروع واستتب السلام
رب أسد فى ساحة السلم تعدو وهى فى ساحة الجلاد نعام
ولها فى حمى الأمان زئير وإذا دارت الرحى فبغام
لم ننم عن حقوقنا باصطبار كيف يغضى على الهوان الكرام
ولنا القلب مشعلا بأمانينا وعين عن حقنا لاتنام
نحن أبناء من أذلوا الليالى وتحدوا بأس الزمان وساموا
من عزاه فى مجدنا الفذ ريب حدثته عن مجدنا الأهرام
أو شجاه منا بليغ من الصمت فللصمت هبة وانتقام
كيف ننسى وللدم الحر حق يقتضينا وللدماء ذمام
إنها هدأة الشعور جماما ولقد يسبق الجهاد جمام
وإذا ما رأيت لليث لبدا فإلى الوثب يلبد الضرغام
وإذا لم ينفعك فى الحق لين نفعت فيه شدة وعرام
وإذا لم تعش كريما بدنيا ك فخير من الحياة الحمـــام
يابنى النيل بوركت يقظة النيل فـــلا يقعدن بكم إحجام
وازحموا موكب الحياة صيالا إنما المجد صولة وزحام
كل صعب يذل إن راضه العز م وأزرى ببأسه الأقدام
آفة الحق فرقة واختلاف وبلاء المطالبين انقسام
وادعموا بالأخلاق كل بناء يحم صرح البناء منها عصام
كل صرح إلى انهيار إذا ما لم يكن للأخلاق فيه دعام
ينهض الشعب من شبا السيف لكن ما لصرعى أخلاق شعب قيام

٥ - وقال فى رثاء «ديك رومى»:

قسما ما حمدت بعدك صبرا لست ياديك أبتغى فيك أجرا

كل لحم قد صار بعدك لحما كل حلو قد صار بعدك مرا
ياسليل الروم القياصر نفديـ ـك ونفدى من أجلك الروم طرا
وفدا كل أعجمى المحيا عربى الرؤى خرافا وطيرا
أين منك الدواجن العرب لا بل أين من قيصر الدواجن كسرى
كلها فى ذرا علاك صعاليك تراءت من حول تاجك ذرا
لست ياديك بالشعوبى لكن هكذا الحق فالتمس لى عذرا
ليس من يخفض الموائد قدرا مثل من يرفع الموائد قدرا
أومن جاء هن مكتنز اللحم كمن جاءهن عظما معرى ؟
أنت ياديك صورة تعلن العز ولكن سواك يعلن فقرا
يا طويل النجاد تبكيك بطن أنت خلفتها من الجوع حرى
إن « عبد الحميد » أكرم مثواك ولم يأل فى ثرائك سعرا
لم يرد أن تموت من وفرة الحب ولكن قد يعقب الخـــير شرا
قد دعانا اليك منذ زمان فنوينا الصيام عشرين شهرا
لهف نفسى عليك حين وجدنا ك طريحا على الثرى مقـــبرا
لم تمت بيننا شهيدا بسكين ولكن أرداك عزريل قسرا
ياصريع الطعام كيف تعجلت فلم تستمع وداعك شعرا
لم نكن نرتضى لك الأرض قبرا بل جعلنا بطوننا لك قبرا

٦ ـ على أطلال الحب ، أو النسيان :

انقضى الحب ياحبيبة أمس بعد طول الغياب والهجر ينسى
أنت من أنت ؟ لا أرى فيك معنى من معانى الماضى الحبيب لنفسى
أنت من أنت ؟ اتهمت ظنونى حينما عدت لى وكذبت حدسى
أنت من أنت؟ لست محراب روحى مثل عهدى ولست معبد قدس
أنت من أنت ؟ لست هتفة قلبى فى صلاتى ولست نبضة حسى
أنا أنكرت فيك كل أحاسيسى فـــلم يبق غـــير حبى لأمس
ما لعينيك لا تفيضان بالسحر وقد كانتا لروحى سحرا
ما لخديك لا يشعان بالجـــر وكانا من قبل خمرا وجمرا
ما لنهديك لا يموجان باللحن وكانا لحنا وشدوا وشعرا
ومحياك لم يعد شمس آمالى تبدى فلم يضىء مكفهرا

عافت الروح هذه الشفة الحيرى كما عافت الفراشة زهرا
لم يعد فيك من متاع لروحى وخيالى سوى حنين وذكرى
ذلك الجسم كان معبد روحى وهو اليوم حانة الخمـــار
ذلك الحسن كان مسرح قلبى وهو اليوم نهبة الأنظار
ذلك الحب كان غنوة شعرى فغفا طيره على الأزهار
ذلك الشوق ذلك الدمع شكوا ى وعتبى وموعدى وانتظارى
لوعتى للفراق فرحة نفسى يوم لقياك نشوتى وانتصارى
كل شىء ولى فما عاد لى فيك من الحب غير طيف سار
يا ابنة الأمس ما سؤالك عنى بعد ما كنت لا تعين سؤالى
زمن قلب ودهر عجيب وصروف تجرى بهن الليالى
أين ذلى لكبريائك بل أين دموعى وما رثيت لحالى
وخشوعى لعرش حسنك طيفا هائم الروح والمنى والخيال
عدت لى اليوم فاتركينى فقد عد ت بجسم من ومضة الروح خالى

وبعد فقد ولد الشاعر عام ١٩١٤ فى الريف حيث شاهـــد جماله ومجاليه فى قريته « منشاة الجمال » بضواحى مدينة الزرقا من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية — وقضى تعليمه متنقلا بين دمياط والزقازيق والقاهرة ، ونال العالمية من درجة أستاذ فى الأدب والبلاغة عام ١٩٤٦ برسالة ممتازة قدمها عن « ابن زيدون » ولا تزال مخطوطة ، وله بحوث ومؤلفات أدبية عدة تنطق عن ثقافة ناقد بصير بالشعر والأدب ، إلى جانب محاضراته فى كلية اللغة العربية .

أحمد محرم

يقول أحمد محرم فى وقعة الفتح الأعظم ، فتح مكة ، على يد الرسول وأصحابه وذلك من إلياذته الإسلامية ، التى حاكى بها إلياذة هوميروس :

ديار مكة هذا خالد دلفا ... فما احتيالك فى الطود الذى رجفا ؟
طود من الشرك خانته جوانبه ... لما مشى نحوه الطود الذى زحفا
إن الجبال التى فى الأرض لو كفرت ... لدكها جيل الاسلام أو نسفا
لما دعاه بسيف الله سيده ... زاد السيوف به فى عزها شرفا
ديار مكة أما من يسالمه ... فلا أذى يتقى منه ولا جنفا
تلك الوصية مايرضى بها بدلا ... ولا يرى دونها معدى ومنصرفا
لاتجزعى ، إنه العهد الذى انبعثت ... أنواره تصدع العهد الذى سلفا
ليل الأباطيل ما التفت غياهبه ... على الحقائق إلا انجاب وانكشفا
من المنايا ، فيا للقوم من بطل ... رموا به حية من حية خلفا
ضاقوا بسعد فقالوا : قائد حنق ... لو جاوز الحد بعد الحد ماوقفا
واستصرخوا من رسول الله ذا حدب ... إذا استغاث به مستصرخ عطفا
هبت إلى الشر من جهالهم فئة ... لم تأل من جهلها بغيا ولا صلفا
واستنفرت من قريش كل ذى نزق ... إذا يشار إليه بالبنان هفا
فخاضها خالد شعواء كالحة ... إذا جرى الهول فى أرجائها عصفا
رمى بها مهج الكفار ، فاستبقت ... تلقى البوار ، وتشكو الحين والتلفا
وقال قائلهم : أسرفت من بطل ... ما كان أحسنه لو جانب السرفا
وهاج هم أبى سفيان ماوجدوا ... فراح يشفع فيهم جازعا أسفا
فلان قلب رسول الله مرحمة ... ورق من شدة البطش الذى وصفا
وقال : سر يارسولى فانه صاحبنا ... عن القتال ، فحسبى ماجنى وكفى
مضى الرسول يقول : اقتل ، فهيجها ... مشبوبة هتفت بالويل إذ هتفا
وعاد والدم فى آثاره سرب ... والقوم من خلفه يدعون : والهفا
قال النبى ألم تذكر مقالتنا ... لخالد أعصيت الأمر أم صدفا ؟ ؟
فقال : بوركت إن الله حرفها ... وما تغير لى رأى ، ولا انحرفا
سبحانه ، إن أمر الناس فى يده ... لايعرف المرء من خافيه ماعرفا

لا يجزع القوم ، إن السيف مرتدع ... عما قليل ، وإن النصر قد أزفا
لم يرفعوا الصوت حتى لاح بارقه ... تحت العجاجة ، يجلو ضوؤه السدفا
هذا الزبير ترامى فى كتائبه ... كالسيل ، لا تمسك الأسداد ما جرفا
يلقى كداءا به والخيل راكضة ... ما قال حسان من قبلى وما ازدهفا
الله أكبر ، جاء الفتح وابتهجت ... للمؤمنين نفوس سرها وشفى
مشى النبى يحف النصر موكبه ... مشيعا بجلال الله مكتنفا
أضحى أسامة من بين الصحاب له ... ردفا ، فكان أعز الناس مرتدفا
لم يبق إذ سطعت أنوار غرته ... مغنى بمكة إلا اهتز أو وجفا
تحرك البيت حتى لو تطاوعه ... أركانه خف بالتى ركبه شغفا
وافاه فى صحبه من كل مزدلف ... فلم يدع فيه للكفار مزدلفا
الفاكهون على الأصنام أضحكهم ... أن الهوان على أصنامهم عكفا
كانوا يظنون أن لا يستباح لها ... حمى ، فلا شمما أبدت ، ولا أنفا
نامت شياطينها عنها مذمـــة ... وبات ماردها بالخزى ملتحفا
هوت تفاريق ، وانقضت محطمة ... كأنها لم تكن إذ أصبحت كسفا
ريعت شيوخ قريش من قذائفها ... وريع منها الخزاعى الذى قذفا
رأته ينحط من عليائه فزعا ... من بعد ما أفزع الأجيال مشترفا
وما درى هبل والطعن يأخذه ... هل غور الدمع فى عينيه أم ذرفا ؟
لو كان للدم يجرى حوله دفعا ... طول المدى مشعب فى جوفه نزفا
رمى به الله ، يحمى البيت من عبث ... يعاف باطله من عاف أو عزفا
لم يبق بالبيت أصنام ولا صور ... زال العمى ، واستحال الأمر فاختلفا
للجاهلية رسم كان يعجبها ... فى دهرها ، فعفت أيامها وعفا
لا كنت يازمن الأوهام من زمن ... أرخى على الناس من ظلمائه سجفا
إن الشريد الذى قد كان يظلمـــه ... ذوو قرابته قد عاد فانتصفا
رد الظلامة فى رفق وإن عنفوا ... ولو يشاء إذن لاشتد أو عنفا
إن الرسول لسمح ذو مياسرة ... إذا تملك أعناق الجناة عفا
شكراً محمـــد إن الله أسبغها ... عليك نعمى ترامى ظلها وضفا
وعد وفى لامام المرسلين به ... والله إن وعد الرسل الكرام وفى
خذ المحصب إن وافيته نزلا ... واذكر به ذلك الميثاق والحلفا

قد عاد يكلف بالإسلام من رشد ... من كان بالكفر من غى الهوى كلفا
ثم استقام على البيضاء يسلكها ... من كان يضرب فى العمياء معتسفا
مشى طليقا إلى غاياته مرحا ... وكان فى القيد إن رام الخطى رسفا
يغشى موارد للإيمان صافيـــة ... ما امتاح من مثلها يوما ، ولا اغترفا
عادوا طهارى ، فلم يعلق بهم وضر ... مما جنى الكفر قبل الفتح واقترفا
تتابع القوم أفواجا ، فيآمنهم ... دين السلام وأمسى الأمر مؤتلفا
كذلك الحق يعلو فى مصاعده ... حتى ينال الذرى ، أو يبلغ الشعفا
مرمى العقول إذا ماغرها هدف ... فلن تريد سواه إن رمت هدفا
وما على الحق من بأس ولا حرج ... إن هوم العقل عنه مرة فغفا
إن الذى جعل الاسلام معتقله ... أعلى لأمته الأركان والسقفا
لم يرض ما نال من مجد فأورثه ... مجدا طريفا ، وعزا منه مؤتنفا
شتان ما بين صرح ثابت رفعت ... منه القباب ، وصرح واهن خسفا
لتنصت الأرض ، ولتسمع ما لكها ... ماذا يقول لها الرعد الذى قصفا ؟
شرائع الخير يلقيهـــا محببة ... شيخ النبيين يبغى البر واللطفا
الناس من آدم والبغى مهـــلكة ... فليتق الله منهم من قسا وجفا
قل الالى خطبوا الأقوام أو كتبوا ... دعوا المنابر والأقلام والصحفا

وهو نمط طريف من الشعر العربى الحديث ، انفرد به محرم فى شعره ؛ ويدلك على عبقرية أصيلة ، وملكات مطبوعة ، ومواهب فنية جمة .. ويرثى محرم صديقه حافظا فيقول من قصيدة طويلة :

أعندك أنا لم ندع بعدك الوجدا ... وأناظلنا الصبر يجدى ، فما أجدى
وهل يملك العانى المروع سلوة ... إذا لم يجد من لوعة أو أسى بدا
طوى البين من عهد الاخلاء ما طوى ... وأبدى من الوجد المكتم ما أبدى
سل الاربعين السود ، هل بات فاضل ... يرى العيش إلا حالك اللون مسودا
لئن كنت فى دنيا المسيئين زاهداً ... لقد زدتنا فيها وفى ناسها زهدا
فقدناك أدهى من نحب فجيعة ... وأوجع من نرجو البقاء له فقدا
لكل أديب من مصابك شجوه ... يطوف به ذكراً ، وينتابه سهدا
أكنت رسول العبقرية جاءنا ... بإنجيلها ، ثم انثنى يطلب اللحدا ؟
أقمت من الآداب ملكا مخلدا ... جمعت له الأخلاق تجعلها جندا

ومن عدم الأخلاق لم يغن عنه ... وإن غاب الأقران ، أو جاوز الحدا
فقل للملوك الجاهلين مكانها ... أما تعرفون التاج والسيف والبردا ؟
ذكرتك مرجو المروءة نازعا ... الى الصنع تسديه ، وتعتده مجدا
فتى عربى ملء برديه همة ... تريك الحسام العضب ، والاسد الوردا
إذا هجته مستعديا هجت ماجداً ... يفض مغالبق الامور ، وما استعدى
كريم السجايا لم يخن لصديقه ... ذماما ، ولم ينقض لصاحبه عهدا
أحافظ إن تبعد ، فشاعر أمة ... رمتها خطوب الدهر مغبرة نكدا
وإن يذهب الصوت الذى كان عاليا ... فمجد بلاد ما استطعنا له ردا
حفظنا لك الآثار جما رفيفها ... تجف الليالى ، وهى مخضرة تندى
يظل عليها الطير من كل صادح ... يذكر نجدا كل صب سلا نجدا
فمن عائد بالبرق يسترجع الهوى ... ومن لائذ بالريح يستدفع الصدا
تلقت شعوب الضاد نعيك خشعاً ... وراحت يد الحزن أعلامها هدا
لقد رزئت أم اللغات صديقها ... فان لم تكنه ، فالاب البر والجدا
مشت تتلوى خلف نعشك كلما ... دعا باسمك الداعى أجد لها وجدا
فلما بلغت القبر خرت لوجهها ... تضج ، وتشكو من تباريحها الجهدا
حللت ديار الصامتين فكبروا ... وجاءوك ، يزجى الوفد من حوالك الوفدا
رأوا شاعرا ماعز كسرى كعزه ... ولا مجد ذى القرنين إذ يرفع السدا
وما الشعر إلا منزل الخلد لامرىء ... يريد حياة الذكر ، أو يؤثر الخلدا
فقم غير مصروف الهوى عن ديارهم ... ودع عنك شعبا هازلا ينكر الجدا
توجعت ؛ تشكو منه شيمة ظالم ... يزيدك هجرا ، كلما زدته ودا
رويدا ؛ فقد فارقت دنياك فائزا ... وعفوا ؛ فليس الحر من يحمل الحقدا
وما المرء ذو الانداد إن غاله الردى ... كمن لا ترى فى العالمين له ندا
زن الياس إن كنت اللبيب ، ولا تكن ... كمن يتوخى الغى يحسبه رشدا
وصف ما يعانى النيل من شعرائه ... ألم ترهم قلوا ؛ وإن كثروا عدا
وإن جانب الانصاف فى الحكم ذو هوى ... فكن أنت حرا لا تكن للهوى عبدا
وإن نقد الناس الرجال بمشهد ... فلا تنطق العوراء ، تحسبها نقدا
أما تستبين الرشد والحق فتية ... شوارع فى الأعراض يجعلنها وردا
تداعت تدير الذم والحمد جهدها ... فما صدقت ذما ؛ ولا أحسنت حمدا

فنجد نمطا رفيعا عاليا من الشعر الحـــديث ، ليس وراءه غاية لمستزيد ، ولا روعة لطالب الروعة والجمال .

ويقول أبو شادى من دراسة له شاعرية أحمد محرم : يعد أحمد محرم مدرسة فى ذاته وإن يكن فى طليعة الأعلام الذين اقترنوا معا فى زمرة الكلاسيكيين المعلمين للجيل الماضى فى مصر خاصة . وفى مقدمة أولئك الأقطاب فى مصر حافظ وشوقى ، وكان مطران شاعر العربية الابتداعى الأول فى العصر الحديث ينعت أحمد محرم « بشاعر العربية الفحل وأديبها الكبير » ويجرى فى عروق شاعرنا الدم المصرى والتركى معا ، وقد ولد بالقاهرة ونشأ من البداية نشأة عربية أزهرية صرفة بفضل ميوله الشخصية وبفضل عناية والده بتلك الميول . وبرز فى الشعر منذ صباه حتى أنه نال شهادة الامتياز بين شعراء النيل ، ونال عدة جوائز فى مسابقات شعرية ونثرية أخرى ، وما تصدى كاتب ولا أديب لتعيين طبقات الشعراء إلا عرف له مكانة ووضعه فى الصف الأول ، ولا يستطيع من يتناول أحمد محرم الشاعر أن ينسى أحمد محرم السياسى ، كذلك كان شأن حافظ إبراهيم . وإن عد محرم نفسه مستقلا عن الأحزاب السياسية إلا أنه كان فى الواقع ضالعا مع الحزب الوطنى ، كما نرى فى شعره بل فى جميع آثاره الأدبية ، وصار الحديث عنه بمثابة حديث أيضا عن شاعرى الحزب الوطنى الآخرين : أحمد نسيم وأحمد الكاشف اللذين يعتبران مشتقين من ألمعيته ، كما يعتبر العقاد والمازنى مشتقين من ألمعية عبد الرحمن شكرى . يقول ولى الدين يكن : « أحمد محرم فى شعره نسيج وحده ، وهو أقرب الشعراء المعاصرين ديباجة من شعراء العرب ، وما زال يعانى ذلك فى أول أمره معاناة حتى ملكه اليوم وصار ملكة فى طبعه ، وليس فى طبع الشعراء أدل من طبعه وطبع حافظ إبراهيم على جودة الألفاظ ، وكما أن خليل مطران فاق النظراء بل فاق كثيراً من القدماء فى معانيه ، فكذلك أحمد محرم وحافظ فاقا النظراء بل فاقا كثيراً من القدماء فى ألفاظهما وتراكيبهما ، وأقرب وصف فى هذا الباب أن يقال : إن خليلا أبلغ شعراء زماننا وإن محرما وحافظا أفصحهم . بيد أن الشعر ليس مسألة فصاحة ألفاظ ، ومهما يكن الجرس الموسيقى رائعا فى شعر محرم ومهما تكن فصاحته ناصعة وديباجته مشرقة ، فليس شىء من هذا بالذى يكفى وحده ليخلق له منزلة فنية . وإنما الذى خلق له تلك المنزلة قبل كل اعتبار آخر حرارة عاطفته ، وحرارة إيمانه القومى ، وتذوقه الجمال وتحليق خياله ، وذكاؤه الخارق الذى يجعل تأملاته

عميقة نافذة ، استمع إلى أبياته القديمة فى « الأمس واليوم والغد » :

وددت لو أن الله أخر مدتى ... إلى أن يبيد الدهر والحدثان
أبان كتاب الأمس واليوم مابه ... وعند غد عما جهلت بيان
فيامعجب الدنيا أخلى مكاننا ... وما آن من دور الختام أوان
أخذنا مكان السابقين ، وإننا ... وإياه للمستأخرين مكان
فيا ليت لى من جانب القبر منفذاً ... إليك ، وإن أغنى هنالك شان
أتطبق لى عين وفيك محدق ؟ ... ويخفت لى صوت وفيك لسان ؟
على أنها الدنيا تدور صروفها ... على الناس حتى ينتهى الدوران
يجدد قوم ظلم قوم ويحتذى ... مثال زمان فى الصغار زمان
وما تنقضى مادب فى الأرض ناطق ... رواية « كان الأولون وكانوا »

فهذه تأملات شاعر مطبوع فلسفى النظرات متمكن من لغتـــه وموسيقاها الكلاسيكية أى تمكن ، وهو القائل فى قصيدته « داعى المروءة » :

ثويت من الدنيا ببيـــداء قفرة ... أقام الصدى فيها معى وثوى المحل
أعيذك من قوم إذا مادعوتهم ... إلى الخير قالوا شاعر مسه الخبل !

وإننا لنجد فى ديوانه المطبوع بجزئيه نفائس كثيرة ، وفيما لم يجمع من شعره نفائس أكثر ، كما نجد له الباهر من الشعر الإيبيقى فى « الالياذة الاسلامية » ومن النثر الفنى الرائع فى دراساته الأدبية النقدية ؛ ومن شعره القديم المأثور فى السخط على الحاكمين بأمرهم قوله :

إن الذى هز الممالك بأسه ... أمست تهز قواده الأشجان
ثارت عليه شعوبه وهمومه ... فتألب الطوفان والبركان
عبدوه فوق سريره من هيبة ... حتى هوى ، فاذا به إنسان
ترضى الشعوب إلى مدى ، فاذا أبت ... رضى الأبى وطاوع الغضبان
والحكم إن وزن الشعوب بواحد ... غبن الشعوب وخانه الميزان
فى عصمة الشورى وتحت ظلالها ... تحمى الممالك كلها وتصان
المجد أجمع والجلال لأمة ... صدقت عزيمتها وعز الشان
جمع الاباء بها وأذعن غيرها ... فالعيش ذل والحياة هوان

ومن شعره الانسانى الحر المناصر للسلم حائيته المشهورة التى يقول فيها قدحا فى الحروب والطغاة :

رئت المذابح للدماء مراقة ... ملء البطاح وما رئى الذباح
ينهل صيبها فيثنى عطفه ... مرحا ، ويزخر سيلها فيراح
فاضت حواليه فضرج عرشه ... منها ، وخضب تاجه الوضاح
ملك ولا غير الجماجم حوله ... سور ، ولا غير الرقاب سلاح
بغت الملوك على البلاد وغرها ... من تسوس تجاوز وسماح
الظلم مفسدة النفوس وماطها ... غير الترفق فى الأمور صلاح
فيم التناحر والخلائق إخوة ... والعيش حق للجميع مباح
والدهر سمح والحياة خصيبة ... والرزق جم والبلاد فساح؟
أنظل فى الدنيا يفرق بيننا ... بغض ويجمعنا وغى وكفاح؟
مابالنا نشقى لتنعم عصبة ... ملكت فلا رفق ولا إسجاح؟

وفيها يقول عن الحرب وويلاتها :

الحرب هادمة الشعوب ، وإنها ... للشر بين العالمين لقاح
تخبو وتقتدح الخقود رمادها ... كالنار هاج كمينها المقداح
صدع وإن طال المدى متفاقم ... ودم وإن جف الثرى ، نضاح

وليس من السهل الاختيار من هذه القصيدة العامرة الطويلة النفس ، ولكن لا نود أن يفوتنا منها الوقوف عند هذه الأبيات الإنسانية:

عالجت أدواء الشعوب وسستها ... فاذا الدواء تودد وصفاح
وبلوت أسباب الحياة وقسمتها ... فاذا التعاون قوة ونجاح
من للممالك والشعوب بموئل ... تأوى النفوس إليه والأرواح؟
ومتى يرد الحائرين إلى الهدى ... نهج أسد وكوكب لماح؟
دجت العصور فما يبين لأهلها ... نور الحياة وما يحين صباح

وشاعرنا المعلم الحكيم المربى لأمته المدافع عن بيضة الاسلام ، حيث تمثلت زمنا فى الدولة العثمانية ، والذائد فى الوقت ذاته عن القومية المصرية ، والمتصرف فى فنون البلاغة تصرفا أجله أمثال الرافعى وعبد المطلب والجارم ، بل تأثروا به كما تأثر به جيل لاحق من أمثال أحمد رامى وعلى محمود طه وعزيز أباظة ، هو عينه الشاعر المستقل الرومانطيق المفصح عن شخصيته النبيلة فى جميع شعره ، شأن الشاعر الحر المطبوع ، وقد نوه الشاعر حسن كامل الصيرفى بعبقرية شاعرنا

فقال : « . . . إنى لأقرأ البيت من شعر محرم فأحس كأن صدى أنغام عذبة تطوف على خاطرى فى حلم جميل ، وإلى جانب هذه الموسيقى التى يتساءل عنها فى قصيدته « وجودى » والتى يحس تأثيرها فى أنفس قرائه فيقول :

أمن أدبى تبيت الطير تبكى ؟ فما أدبى ؟ أشدو أم رنين

تتجلى تلك الديباجة العالية وتلك الجزالة السامية التى يقدرها فيه أدباؤنا . وان أكون إلا عقا حين أقول إنه كان يمتاز عن المرحوم حافظ إبراهيم فى الرنين العذب الذى صحب شعره الناضج ولازمه ، إلا أن مرض الشرق الذى يظمىء الفنان الموهوب والالتفات الدائم إلى صوت أو صوتين دون أن يلتفت إلى بقية الأوتار الجميلة التى تؤلف أنشودة الخلود ، حالا دون التقدير الكامل لشاعرية أحمد محرم ، ولولا هذا المرض ما سمعنا أحمد محرم يشكو حين يحس الحيرة فى وجوده فيقول :

ظلمت ، وفى فمى الأدب المصفى ... وضعت وفى يدى الكنز الثمين
ظلمت أبى ونفسى ، إن مثلى ... أمال فى الترابع لا يهون
كريم تدفع الأخلاق عنه ... ويمنع ركنه الأدب الحصين
أقول فيفزع الشعراء صوتى ... وما أنا فى بنى وطنى ظنين
لربى ما عملت ، وعند قومى ... ديونى حين تلتمس الديون

نعم ، عند قومك هذا الدين ، وسيوفى دينك ، وستظل كما تقول :

أشد على الفنون يدى ، وإنى ... لفى زمن جهالته فنون

وإنى لأرى أمامى مشهداً لم تضعف ريشة محرم فى رسمه ، ولم ينقصها لون حين صور الحائر ، فقال :

وجودى ، ما عرفتك غير معنى ... تغلغل فى الخفاء فما يبين
غريق فى الظلام ، ولا مغاص ... ولا جسر يلاذ به أمين
أقيم عليه سور من عباب ... تضل على جوانبه السفين
أطل ، ويضرب التيار وجهى ... فأين أنا ؟ أحر أم سجين ؟

وأظن أنا أيضاً فى عالم الاعجاب حين أقرأ له من قصيدته « من همومى » :

بين عينى وما حولها صحف ... منشورة للقارئين
يعطف السطر على السطر كما ... يعطف الباكى على الباكى الحزين ! . . »

هذا ما كتبه شاعر وجدانى رمزى عن محرم فى سنة ١٩٣٣ ، وما سر إعجابه به إلا ما انتظمه شعره من عناصر الجمال المعنوى واللفظى وصدق التعبير والأصالة

وإشراق الشخصية وتميز ذلك الشعر بالمواءمة العجيبة مابين الأسلوب المدرسى الخالص الناصع والمعانى الوجدانية والصور الرومانطيقية الممثلة لروح العصر ، فى حين أن شاعرنا فى ثقافته عربى قح . تقرأ هذا فى مثل قصيدته « قوة وضعف » التى يقول فيها :

قوتى ضعف ، وضعفى قوة فاخشعى يانفس أو طيرى هباء
يسقط الصخر ، ويمضى صعدا ساقط الترب ، فيحتل السماء

وفى مثل قصيدته « تحية أبوللو » التى يقول فيها :

سكبوا الشعر على ألسنة ذاب معنى الحسن فيها فانسكب !

ويقول :

كنت معنى ، والأمانى لجة ما طفا فى خاطر إلا رسب
تعجز القدرة أن تلفظه فهو سر حائر فى كل قلب
نهتـــه همة نافذة حين أغفى ، فتلوى واضطرب
وأهابت ، فاستوى مستوفزاً فاستحثته ، فأوفى واشرأب
ورآها تتلـــظى ، فارتمى لجة تطفى ، ونارا تلتهب !

وفى مثل قصيدته الشهيرة « ليتنى » المعدودة من عيون الشعر العصرى وفيها يقول :

ليتنى الدهر الذى جربته فعذرت الناس ممن جربا
حاكم أعمى الهوى لو كنته لجعلت الحكم أهدى مذهبا
مظلم الأعماق مامن كوكب جال فى أثنائه إلا خبا

إن أحمد محرم بنظمه ونثره ، عاطفة وتصويراً ونقداً ، ثروة غالية للأدب العربى الحديث جديرة بأن تدرس من جميع جوانبها ، وبأن ينوه بنفائسها تنويها فى أقطار الضاد جميعها .

وكتب الأديب الكبير إبراهيم دسوقى أباظة عن الشـــاعر محرم ، يقول : « كان شاعرنا محرم علما بارزاً ، أسهم بأوفى نصيب فى بناء صرح الشعر الحديث ، فتجاوبت أرجاء وادى النيل باصداء قصائده الجياد قرابة نصف قرن ، وشعره يعتبر سجلا زاخراً بشتى ألوان السياسة والاجتماع ، لم يفرط فى صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها من شئون القومية الصادقة والوطنية الكريمة العاملة .. وشىء واحد أريد أن أقرره لشاعرنا الكبير كثيرا مادار بخلدى ، ولعله من خصائص شاعريته

رحمه الله ، وهو بهذا الشيء يقف وحده بين سائر أئمة الشعر العربي الحديث ، ذلك أنه شاعر الاسلام غير منازع فى عصرنا هذا . فلقد توفر منذ حداثته على دراسة آثار الاسلام من علوم ومعارف ، ولم يدرج فى بيئة دراسية توجهه وتبصره بمناهج الدراسة والتحصيل . فلم نسمع أنه درس فى الأزهر أو أى معهد آخر ، بل عكف وحده على المنابع الثرة للغة العرب من كلام الله ، وكلام العرب ، يهديه وحى الفطرة النقية ، وتدفعه نوازع المواهب الأصيلة ، فشب نبتا كريما يرويه هـذا الورد الموورود ، حتى أينع وأخرج شطأه واستوى على سوقه .. وكان لكل ذلك أعمق أثر اضطرب فى نفس شاعرنا الكبير مما حدا به فى أخريات أيامه إلى نظم ملحمته الكبرى « الالياذة الاسلامية » التى عارض بها « إلياذة هوميروس » ، وهو بهذا العمل المجيد الذى جاء نتيجة محتومة لنشاط المواهب التى استوعبت أمجاد الاسلام ومفاخره ، وأزهى أيامه وعهوده ؛ هو بهذا العمل يقف وحده فى الطليعة بين روادالشعرالحديث ، وليس لشاعرنا هذا المجهود على ضخامته وفخامته فحسب ، بل أذكر أنى قرأت له فى إحدى المجلات الأدبية ثلاث قصائد فى موضوع واحد ، وغرض واحد ، متباينة فى سمو معانيها وصفاء ألفاظها ، ودقة أساليبها ، فلا تكرار فى المعانى ، ولا تشابه فى الأساليب والألفاظ ، وتلك قوة منقطعة النظـير ، لاتواتى إلا من هو فى مواهب شاعرنا الممتازة ، وعبقريته النادرة التى تعاونت فى تكوينها أسباب الثقافة الاسلامية ، وكان ذلك الموضوع الذى أحدثكم عنه هو « غزوة بدر الكبرى » . تلك ناحية باقية تكفى وحدها لتخليد ذكره فهو الشاعر الاسلامى العربى فى كل ماينتجه ذهنه الخصب ، وخياله الواسع .. ديباجة مشرقة ، وأداء محكم ، وأسلوب أنيق ، كل ذلك يصدر عن طبع أصيل فى نفس شاعرة تستلهم أصدق مصادر الشعر العربى . وكان يتجلى ذلك حينما تستثار شاعريته الفياضة فى موضوع يتصل بمذخوره العربى الخالص . فمشاهد الحركة الاسلامية الأولى ، ومجالى طبيعتها الشاعرة فى عصورها الناصعة ، تسيل لها نفسه معانى وأخيلة فى كثير من الدقة والجمال ، تلكم الصحراء يزورها الشاعر مع رفقة من أصدقائه وأحبائه ، فتجرى على لسانه قصيدته البارعة الرائعة التى استلها بقوله :

هى الدنيا التى تسع الجمالا . فسر إن شئت أو الق الرجالا
هى الدنيا التى وسعت خيالى مروت بها فظننتنى خيالا

على محمود طه

فى اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٤٩ مات على محمود طه الشاعر ، صاحب الدواوين العديدة الذائعة ، ومؤلف طائفة جميلة من الأغانى الشرقية الساحرة

ولقد كان على محمود طه ـ فى طفولته المرحة ، وشبابه المشتعل ، وروحه الوثاب ، وخياله المستغرق فى نشوة الأحلام ، وتفكيره المنطلق ـ شاعرا ، يحب الحياة ويغنى لها ، وتلهمه قصائد متنوعة من الغزل وأوصاف الجمال والطبيعة . . وكان متفائلا بالحياة ، يفيض قلبه مرحا وبهجة ونشوة ، ولم يكن من طبعه أن يتحمل الحزن والألم ، وهذا ما جعله يميل إلى شعراء البحيرة الانجليز ، وكان أجدر الشعراء باسم « شاعر الحب والجمال » ، ومن شاطىء المنصورة ركب الملاح التائه ـ كما يقول الزيات (١) ـ فى زورقه الهائم ، ثم مخر به العباب فى خضم الحياة تارة يختفى ، وتارة يظهر . . إلى أن لحق بربه ، فمات وإن كان ذكره خالدا حيا فى كل قصائده وشعره ، الذى صور فيه كل ساعة من ساعات مرحه ، وكل خطرة من خطرات وجدانه . . كان يسبح مع الحياة والأوهام ، حتى ليقول فيما يقول : « أنا من ضيع فى الأوهام عمره » . . ثم انتهى به سر الحياة ، فغاب عن الشاطىء وولى ولم يعد :

يا أيها الملاح مالك لم تعد ... الشاطىء المهجور بعدك مظلم
وقف الندامى فيه لم تهتف بهم ... شفة ، ولم يضحك بسامرهم فم
يترقبون هناك عودة شاعر ... قد لفه البحر الخضم الأعظم
حلم من الأحلام عودة ذاهب ... لا تحلموا بمجيئه لا تحلموا
قل للمغرد فوق كل خميلة ... ما بال صوتك لم يعد يترنم (٢) ؟

كان على محمود طه مولعا بالطبيعة ، دائما بحبها ، يصف البحر والموج والزورق فيجيد الوصف والتصوير ، يقول فى لياليه على النيل فى مدينة « المنصورة » الجميلة الساحرة :

يطوف بنا على شط من الأضواء مسحور

---

(١) فى حفلة التأبين التى أقيمت لإحياء ذكرى الشاعر فى المنصورة يوم ١٩٥٠/٢/٢٣

(٢) من قصيدة للشاعر محمد عبد الغنى حسن فى رثاء على محمود طه عنوانها « رياح وملاح » ـ عن الأهرام ١٩٥٠/٢/٢٤

شراع خافق الظـــل على بحر من النور
تناجيه نجوم الليـــل نجوى الأعين الحور

ويقول من قصيدته « ميلاد شاعر » :

وهنا جدول على صفحتيه يرقص الظل والسنا الوضاح
وعلى حافتيه قام يغنيـــنا من الطير هاتف صداح
وفراش له من الزهر ألوا ن ومن ريق الشعاع جناح

ولقد وصف ليالى الجندول الساحرة فى « فينيسيا » ، كما وصف بحيرة « كومو » ونهر « الرين » .. وقصيدته « على الصخرة البيضاء » لون جميل من الشعر الرومانتيكى فى الطبيعة ، وفيها أثر من شاعرية وردزورث شاعر الطبيعة المبدع ، وفى ديوانه « الملاح التائه » صور رائعة لأوصاف الطبيعة التى أجاد فيها إجادة بارعة ، بتأثير حياته بين الطبيعة فى المنصورة والمدن المصرية الأخرى ، وتنقله فى أوربا بين مباهج الطبيعة ومفاتنها ، وخصب خياله المصور ، ويقول الشاعر من قصيدته « البحر والقمر » تسجيلا لذكرياته فى مدينة « كان » بالريفييرا الفرنسية :

تساءل الماء فيك والشجر : من أين يا « كان » هذه الصور ؟
البحر والحور فيـــه سابحة رؤى ، بها بات يحلم القمر !
أطل ، والضوء راقص غزل دعاه قلب ، وشاقه بصر
يهمس فيما يراه من فتن آلهة هؤلاء ؟ أم بشر ؟
يقفز من لجة ، إلى حجر كأنما مس روحه الضجر
معربدا ، لا يريم سابحـــة الا ومنه بثغرها أثر
يزيد ســـيقانهن من بهج لون عجيب الرواء مبتكر
يضىء وردا ، وخمرة ، وسنا ذوب من المغربات معتصر
تغاير الموج إذ طلعن به وثار من حولهن يشتجر
مازلن والبحر فى توثبه يرغى كما راع قلبه خطر
قد جاوز الليل نصفه ، فمتى تؤم فيه اصدافها الدرر
فليصخب البحر ، ولتئن به رماله ، ولتثؤر الشجر
ولتعصف الريح فوق مائجه ولينبجس من غمامه المطر
أقسمن لا ينتحين شاطئه وإن ترامى بمائه الشرر
حتى يرى وهو فضة ذهب تمازج الليـــل فيه والسحر

ولعلى محمود طه كثيرا من الغزل الرقيق ، ولكن لا يبلغ فيه مبلغ ناجى فى الرقة والجمال والعذوبة ، ولا يصل فيه إلى منزلة أبى شادى فى العمق والفلسفة والتصوف . . يقول من قصيدته « آثار حب » :

ألا ياعرائس وادى الخيال ألا ابعثن روح الرضا والسلام
ألا احكمن بينى وبين التى تثور بعاشقها المستهام
تفارقه ، وتطيل الفراق وتسأله : أين عهد الغرام ؟
فإن قال : ضيعته ، أسرعت إلى النار توقظ فيها الضرام

والمجال الأول الذى نبغ فيه الشاعر هو شعر الطبيعة ، أما ماعداه فإن الشاعر يحلق فيه مع الملهمين من الشعراء . يقول من قصيدته « موكب الأبطال » يصف فيها عودة أبطال مصر فى معركة « الفالوجة » :

يا أيها الأبطال مصر إليكمو بالغار يستبق الشبيبة شيبها
وعقائل خلف الخدور هواتف كالطير أذن بالصباح هبوبها
ينثرن بالريحان فوق رؤوسكم طاقات ورد ليس يذهب طيبها
وهفت غمائم فى السماء تظلكم ويرف مصعدها لكم ومصيبها
وعلى طريق المجد من « فالوجة » مهج حوائم ، فى التراب وجيبها
شهداؤكم ودوا هناك لو انهم قدموا بألوية يروع خضيبها
طلعوا بنور الفجر فوق مآذن تدعو ورحمن السماء يجيبها
هاتوا حديث الحرب كيف تطامنت لكمو مفازعها وهان عصيبها
فى قرية محصورة كسفينة فى لجة هاجت وماج غضوبها
لم تدر فيها الريح أين قرارها والشمس أين شروقها وغروبها
كم حدثوا عنها وقالوا فى غد للقاع تهوى أو يحين رسوبها
ومصر والدنيا عيون أحبة الهم والألم الممض حبيبها
ترعى النهار ، وتتقى غسق الدجى هذا يطمئنها وذاك يريبها
إيه حماة الشرق كم بجهادكم تشدو العصور بعيدها وقريبها
هذى الضفاف وهذه داراتكم دارات شمس لا يحول شيوبها
ترنو لكم وتكاد من أشواقها تمشى ! وكيف حراكها ودبيبها ؟
لم لا أغنيكم قوافى التى غنى بملحمة الحياة طروبها
هى من روائعكم ووحى جديدها منكم ، ومنى فى البيان رنينها

فتجد تصويرا عاديا قديما يروع بألفاظه أكثر مما يروع بأسلوبه ومعناه وخياله ، وتجد صورة لا جديد فيها ولا خصوصية لها . . . وآخر قصيدة نظمها الشاعر ، قصيدته فى بعض أبطال تاريخ مصر الحديث ، وكان قد نظمها قبل موته بيوم واحد ، ويقول فيها :

من هذه الروح وهذا الجبين يضيء فى مصر منار السنين
أشعة من بسمات المنى ومن رجاء كالصباح المبين
ومن قوى مشبوبة كاللظى عارمة ، لا تنثنى ، لا تلين
خطت بناء الملك ، ثم ارتقت تبنى له المجد الرفيع المكين
أول بانٍ أنت بعد الذى شيده فرعون فى الأولين
قد من الصخر تماثيله حجارة خرساء ليست تبين
وأنت أطلعت منار الحجا وشعلة العلم ، وبحر الفنون
بناء دنيا وحياة معا عز به الشعب الغبين المهين
بعثته خلقا جديدا إلى منزلة عزت على الطامحين
قالوا الحضارات فقلت انظروا أين كهذا الشعب فى المحسنين
من قطنه يلبس هذا الورى ومن يديه مغزل الناسجين!
والمنسج الصخاب من صنعه والحم الحر كرات المنوز!
قد ماجت الأرض برايا ته وخوضت ملء بحار السفين
وجيشه منقذ افريقيا وحارس الشرق القوى الأمين
يهوى لإلا السمن جبت الثرى ودنت فى سلطانك العالمين
تاج البطولات على رأسه مؤتلق والغار فوق الجبين
من زخرف الوادى وأجرى به جداول النبر كماء معين؟
وأخضع النهر لسلطانه وهو إله ساد فى الأقدمين
ومن بنى تلك السدود التى تختزن السحب ولا يمتلين ؟
غوائث الأرض إذا أقلعت حوامل الغيث الدفوق الهتون
ومن أتى الصحراء فى دورها بهذه الأسوار شم الحصون؟
ياعبقرى الدهر إن الذى صنعته معجزة الصانعين
مهندس أنت سما فنه وعالم أوتى علم السنين
أدركت ما للفن من قوة فدنت بالقوة فيما تدين

أبيات شعـــر أنا بناؤها آجرها اللفظ السرى الثمين
رسمتها بعض خطوط ، كما يرسم أفق الكون للناظرين
يبدأ فيها الفكر لا ينتهى وتسبح الأعين لا يتقين

ويبدو فى هذه القصيدة تفكير « على محمود طه » الهندسى واضحا جليا فى شعره ويشيد السحرتى بوصفيات الشاعر (١) وبالبساطة الموسيقية الماهرة فى قصيدته « الكرمة الأولى » (٢) ، وبموسيقاه ذات الرنين فى قصيدته « أغنية الجندول » (٣) ويحلل موسيقاه فى قصيدته « تأبيس الجديدة » (٤) ويشير إلى نقد الدكتور طه حسين له ويرد عليه (٥) .. ويذكر أن أغلب شعر على طه وصفى غنائى ، وموضوعاته رومانتيكية تتناول وصف الطبيعة والغزل ولم يهجر هذه الموضوعات إلا فى ديوانه « شرق وغرب » الذى حوى قصائد وطنية واجتماعية ممتازة (٦) ؛ ويطبع أكثر شعره الكد ، وتتجلى فيه الأنا والروية ، وهذا ما يباعد بينه وبين الإلهام الشعرى فى كثير من الأحيان ، ولو ترك نفسه على سجيتها ولم ينظر كما يقول الدكتور بشر فارس إلى من سبقه من الشعراء ، وحاسب قلبه على اللغة ، وترك المعانى المألوفة ، لكان لشعره شأن وأى شأن (٧) ..

ويصفه أنور المعداوى بشاعر الأداء النفس ، وتحدث عن شاعريته وشعره بإعجاب شديد .

وبعد فعلى محمود طه شاعر مجيد ، واضح المنزلة الأدبية بين شعرائنا المعاصرين ، متوسط فى درجته الشعرية ، يمزج فى أسلوبه بين الحقيقة والخيال ، وبين الجزالة والرقة ، وبين العربية الفصيحة وألوان من الأداء العامى المنقود .

ويصفه الدكتور طه حسين بأنه شاعر مجيد ، حلو الأسلوب ، جزل الألفاظ فى شعره موسيقى قلما تظفر بها فى كثير من شعرائنا المحدثين ، وهو يحسن الوصف والتصوير إذا وصف ، فى رشاقة وخفة ، لا فى تثاقل وإلحاح .. وتفقد الكثير من شعره (٨) .

ويرى الدكتور مندور أن الحاسة الفنية ضعيفة فى شعر على محمود طه ، ويرد

---

(١) ص ٤ الشعر المعاصر (٢) ص ٥٤ ديوان زهر وخمر - ١٩٤٣ (٣) ١٠٩ الشعر المعاصر (٤) ٨٨ - ٩١ ديوان ليالى الملاح التائه - ١١٤ الشعر المعاصر (٥) الجزء الثالث من حديث الأربعاء - ٢٠٠ و ٢٠١ الشعر المعاصر (٦) ٢٠٢ المرجع نفسه (٧) ٢٠٣ المرجع (٨) ص ١٦٧ حديث الأربعاء الجزء الثالث

عليه فى ذلك السحرى (١) . . وقد ترك الشاعر رومانتيكيته إلى الحياة الوطنية فى أحيان كثيرة (٢) .

ولمعرفة المدرسة الشعرية التى ينتمى إليها على محمود طه الشاعر نعرض على القارىء رأيا للدكتور أحمد زكى أبى شادى ، قال (٣) : توجد الآن إجمالا ثلاث مدارس شعرية رئيسية فى العالم العربى باعتبار نزعاتها وأساليبها : أولاها المدرسة الكلاسيكية المجددة تحت الراية الابتداعية ، وهى التى كان يتزعمها مطران ، ومن أقطابها الأحياء « الأخطل الصغير » و « بدوى الجبل » و « الشاعر القروى » وشفيق المعلوف وإيليا أبو ماضى وميخائيل نعيمة وعبد الرحمن شكرى وإبراهيم ناجى وحسن كامل الصيرفى والجواهرى ومحمود أبو الوفا وجميـــلة العلايلى ، وثانيها المدرسة التجديدية المتطرفة وهى ألوان مختلفة ، ومن أشهر روادها فى الوقت الحاضر شعراء الشباب الناضجون فى العراق وسورية ولبنان ومصر ، الذين يهيمون بالسريالية والرمزية ، وبينهم من يغرق فى نظم الشعر الجنسى ، وأغلبيتهم تنفر من الشعر الإنسانى العالمى ، وكثيرون منهم يميلون إلى الانطواء على أنفسهم ويصفون هذا الانطواء الذاتى بأنه هو وحدة الحياة وكذلك يصفون المواضيع المؤلمة القبيحة المنفرة بأنها كنوز الجمال الفنى ، لأن هذا الجمال الفنى يخلقه الفنان من ذاته ويتوهمه فى موضوعاته ، أى يقدرون أنها بمثابة مراء لأخيلتهم وأحاسيسهم وتفلسفهم . وإذا عددنا المدرسة الأولى مدرسة اليمين فهذه هى المدرسة اليسارية ، وقد تحدثنا من قبل عن أحد روادها المعاصرين نزار القبانى ، الذى يعتمد فى صياغته الموسيقية على متنوع مجزوءات البحور وينبض جميع شعره بالطلاقة الفنية الساخرة من القيود وبروح الابتداع البعيد عن أى تكلف ، وإن كانت عنايته لاتزال محصورة فى نواح قليلة من الحياة ، لايزال كزملائه المتطرفين يحسبها أنها لاغيرها هى الحياة . ومن كواكب هذه المدرسة الشاعرة العراقية الموهوبة نازك الملائكة التى يفيض جميع شعرها باللوعة والتشاؤم ، كما ينم عن المغالاة فى الانطواء على نفسها .. وأما المدرسة الثالثة الرئيسية أو المدرسة الوسط فهى التى تحفل أشد ماتحفل بالموسيقى الاتباعية ، وبجزالة الألفاظ ، وبالصيغ العريقة المأثورة التى تصفها بالإيناق

---

(١) ص ٢١٠ الشعر المعاصر . (٢) راجع ص ١٣٦ المرجع . (٣) ص ٢١١ رائد الشعر الحديث للمؤلف .

والإشراق العامر والترقرق ، وتعرض غالبا المعانى المصطلح عليها مع الأخذ بطرف من اجتهاد المدرستين السابقتين واحتذاء حذوهما فى مواضع ، سواء فى الشعر الوجدانى والوصفى أو فى الشعر القصصى أو فى الشعر التمثيلى ، وأعظم ما تتيه به فى صميم زهوها مانعته بإشراق الديباجة وجزالة الأسر وعذوبة الجرس ؛ وهذه المدرسة كان يمثلها الشاعر المصرى على محمود طه أقوى تمثيل ، والآن يتزعمها الشاعر المصرى عزيز أباظة ، ولها أشياعها فى أقطار شتى . . .

ولعلى محمود طه شعر قصصى ، يدلك عليه ديوانه « أرواح وأشباح » ، وله دراسات أدبية ، وقصائد ترجمها نشرها فى « أرواح شاردة » ... وقصيدة باريس المنشورة فى آخره ، والتى وصف فيها مواكب الغزاة الألمان فى باريس فى الحرب العالمية الثانية ، أثر شعرى جميل ، ومطلعها :

سألونى عن بيانى وقصيدى أسفا ، باريس قد مات نشيدى

ومن شعر على محمود طه فى ديوانه « ليالى الملاح التائه » ، هذه القصيدة وهى بعنوان « القمر العاشق » :

إذا ما طاف بالشرفـ ـة ضوء القمر المضـ ـنى
ورف عليك مثل الحلـ ـم أو اشراقة المعنى
وأنت على فراش الطهـ ـر كالزنبقة الوسنى
فضمى جسمك العارى وصونى ذلك الحسنا
أغار عليك من سابـ كأن لضوئه لحنا
تدق له قلوب الحـ ـور أشواقا إذا غنى
رقيق اللمس عربيد بكل مليحة يعنى
جرىء إن دعاه الشو ق أن يقتحم الحصنا
تحدر من وراء الغيـ ـم حين رآك واستأنى
ومس الأرض فى رفق يشق رياضهـا الغنا
عجبت له ، وما أعجب كيف استلم الركنا ؟
وكيف تسور الشوك ؟ وكيف تسلق الغصنا ؟
على خديك خمر صبـ ابة أفرغهـا دنا
رحيق من جنى الفتنـ ة لاينضب أو يفنى

وفى نهديك طلسما ن فى حلمها افتنا
إلى كنزهما المعبو د بات يعالج الردنا
أغار ، أغار إن قبـ ل هذا الثغر أو ثنى
وانف النهد فى اين وضم الجسد اللدنا
فان اضوئه قلباً وإن لسحره جفنا
يصيد الموجة العذرا ء من أغوارها وهنا
وكم من ليلة لمـــا دعاه الشوق واستدنى
جثا الجبار بين يديـ ك طفلا يشتكى الغبنا
أراد ، فلم ينل ثغراً ورام ، فلم يصب حضنا
حوتك ذراعه رسما وأنت حويته فنا
عصيت هواه فاستضرى كأن بصـــدره جنا
مضى بالنظرة الرعنـ اء يطوى السهل والحزنا
يثير الليل أحقادا وصدر سحابه ضغنا
وعاد الطفل جبارا يهز صراعـــه الكونا
فردى الشرفة الحمرا ء دون المخدع الأسنى
وصونى الحسن من ثو رة هذا العاشق المضنى
مخافة أن يظن النا س فى مخدعك الظنا
فكم أقلقت من ليل ! وكم من قمر جنـــا !

ومن دواوين على محمود طه : « الشوق العائد » وقد صـــدر عام ١٩٤٥ ، و « شرق وغرب » وقد صدر عام ١٩٤٧ . أما ديوانه « ليالى الملاح التائه » فقد صدر عام ١٩٤٠ ، وصدر ديوانه « زهر وخمر » ١٩٤٣ .. ومن دواوينه : « الملاح التائه » وقد صدر عام ١٩٣٤(١) ، وسواه من الآثار الأدبية .

---

(١) وقد أثار ظهوره هو وديوان « من وراء الغمام » لناجى ، و « الألحان الضائعة » للصيرفى ضجة أدبية كبيرة .

وهذه قصيد للشاعر عنوانها « قيثارتى » نثبتها فى هذه الدراسة ، يقول فيها :

بددت يا قيثارتى أنغامى ... ونسيت لحن صبابتى وغرامى
مرت ليال كنت مؤنستى بها ... وعزاء نفس جمة الآلام
تروين من طرب الصبا وحنينه ... وتذهبين حواشى الأحلام
كالبلبل الشاكى رويت صبابتى ... لحنا تمشى فى دمى وعظامى
أنشودة الوادى ولحن شبابه ... ذابت على صدر الغدير الطامى
شاق الطبيعة من قديم ملاحنى ... أصداؤك الحيرى على الآكام
وشجا البحيرة واستخف ضفافها ... لحن كغائر موجها المترامى
ياربة الألحان غنى وابعثى ... من كل ماض عاثر الأيام
خلت الشجون فلا رسيس صبابة ... تذكينها أو لوعة استغرام
وجفا الذى ملأ العوالم بهجة ... وجلا الحيـــاة بثغره البسام
هل من نشيدك مايجدد بى الصبا ... ويعيد ذكرة هذه الأعوام
ويصور الأحلام فتنة شاعر ... توحى الخيال لريشة الرسام ؟
وادى الهوى اا ولت بشاشة دهره ... وخلت مغانيه من الآرام
طارت صوادحه وجف غديره ... وذوى بشطيه النضير النامى
واعتاض من همس النسيم بعاصف ... داو يشق جوانب الإظلام
وهو الصدى الحاكى اضائع صرختى ... وصداك بين الغور والآجام
قد كن ألافى ونزهة خاطرى ... وسماء وحى الشعر والإلهام
مالى بهن سكتن عن آلامى ... أنسين عهد مودتى وذمامى ؟
ياربة الألحان هل من رجعة ... لقديم لحنك أو قديم هيامى
فاروى أغانى القدامى وانفثى ... فى الليـل من نفثات قلبى الدامى
عل الذى غنيت عرش جماله ... وطفقت أرقب أفقه المتسامى
تشجيه ألحانى فيسعدنى به ... طيف يضن على بالإلمام
مالى أراك جمدت بين أناملى ... وعصيت أناتى ودمعى الهامى
خرساء لاتتلو النشيد ولا تعى ... سر الغناء ولا تعيد كلامى
نغمى الكآبة فى وبكسف خاطرى ... إنى أراك حبيسة الأنغام

وقد ترجم الشاعر قصيدة « القبرة » للشاعر الانجليزى « شلى » ، وهى من أشهر الغنائيات فى الشعر ، وتحفل بصور شتى من الخيال والجمال (١) . . ويقول الشاعر فى ترجمتها :

يا أيها الروح يهفو حوله الفرح ... تحية أيهـذا الصادح المرح
من أمة الطير هذا اللحن ماسمعت ... بمثله الأرض لاروض ولا صدح
أنت الذى من سماء الروح منهله ... خمر إلهيـة لم تحوها قدح
يفيض قلبـك ألحانا يسلسلها ... فن طليق من الوجدان منسرح
وعاليا ، عاليا ، لازلت منطلقا ... عين الثرى تصل الآفاق آمادا
مثل السحابة من نار ، مسعرة ، ... والبرق مؤتلقا ، والنجم وقادا
يهفو جناحاك فى أعماق زرقتها ... وأنت تضرب فى الآفاق مرتادا
تشدو فتمعن فى أجوازها صعدا ... فإن علوت بها أمعنت إنشادا
ومائج ذهبي النور قد غرقت ... فى ذوبه الشمس عبر العالم الثانى
توهج السحب البيضاء حمرته ... فتستحيل عليها ذات ألوان
أشعة ذات أمواج غدوت بها ... تطفو وترسب فى لجيهـا القانى
كأنما أنت جـذلانا ترواحنا ... روح من الطرب العلوى نورانى
تذوب حولك إما طرت فى أفق ... غلالة الأرجوان الشاحب الساجى
كنجمة فى سماء الليـل خافقة ... تذوب فى فلق للصبح وهاج
يامن تطربنى ألحان غبطته ... وما رأيت له طيفا بمعراج
ألا أراك فإنى سـامع نغما ... يهفو إلى باطراب وإبهاج

ومن هذه القصيدة الجميلة :

هذى السماء بموسيقاك مائجـة ... والأرض يغمرها من صوتك الطرب
وصفحة الليل أصفى مايكون سوى ... غمامة خلفتها وحـدها السحب
وقد بدا القمر الوضاح يعطرها ... ارسال ضوء على الآفاق ينسكب

---

(١) يقول الشاعر : قد آثرت نقل القصيدة إلى العربية غير مجترىء على معانى الشاعر وأفكاره وسياقه الشعرى بشىء من الحذف ، بل أضفت مايقتضيه إظهار المضمر من المعنى وتبسيط المركب من الخيال ، مراعيا فى التعبير عن الأصل الانجليزى ما توحى به مقتضيات البيان الشعرى العربى ، وجامعا ما أمكن بين الاثنين ـ ص ٥٢ أرواح شاردة .

يرمى السموات سيل من أشعتها تكاد تسبح فى طوفانه الشهب
من أنت يامن يجوب الليل منفردا ولم تقع لى عليه بعد عينان
أى الخليقة قل لى أنت تشبهه وأيها منك فى أوصافه دانى؟
وهذه السحب أصباغا مشكلة فى رائع من فريد اللون فتان
لاينزل الغيث منها مثلما نزلت شتى أغانيـــك فى سحرى ألحان
قل لى : أمن ملكوت الروح منطلق أم طائر أنت فى الآفاق هيمان
أى الخواطر من حسن ومن بهج يشيعها منك فى الأرواح وجدان
لم تشرئب قلوب من أضالعها لغير صوتك أو تنصب آذان
حديث حب وخمر بات يسكبه من جانب الله أنغام وألحان
من أين تلك الأغانى أنت ترسلها ؟ من أى مطرد الينبوع منسجم
من أى ثائرة الامواج زاخرة وأى تلك المروج العذبة النسم
من أى ضاحية الآفاق صاحية أى السهولة والاغوار والقمم
وأى حب أليف منك أو وطن وأى جهل لما تلقاه من ألم؟

ويقول فى آخرها :

أما تعلمنى بما يفيض به غناؤك العذب تطرابا وتحنانا
ذاك الحنون الذى يهدى توافقه إلى من صدحات الخلد ألحانا
ألست تلهمنى وحيا يفيض به فمى فأملأ قلب الكون إيمانا
أشدو فيلقى إلى الكون مسمعه يصغى إلى كما أصغى لك الآنا

وله قصيدة يصف فيها باريس فى ظلال الاحتلال النازى يقول فيها :

سألونى عن بيانى وقصيدى أسفا باريس قد مات نشيدى
لك ذكراك ولى عهد بها كيف أنسى ذكريانى وعهودى
أنا لا أنسى ليالى على روضك الرفاف بالزهر النضيد
ثمر الفكر ومجنى نوره ومراح العين والقلب العميد
خطرة عابرة عدت بها عودة الغواص بالدر الفريد
فاعذرى المزهر فى كفى إذا أخرسته ضجة الرزء الشديد
يوم قالوا : جلل القيد يدا حطمت بالأمس أصفاد العبيد
حملت مشعل حرياتهم فى شراة من شباب المجد صيد

كيف يا باريس بالله هوى ذاك النجم من الأفق البعيد
كعبة الأحرار هذى محنة راعت الأحرار فى أكرم عيد

ومن شعره الإسلامى الذى يجمع بين القصص والتاريخ قصيدته « طارق بن زياد » التى يصف فيها بطولة طارق ويتحدث عن فتحه الأندلس .. ويقول فيها :

أشباح جن فوق صدر الماء تهفو بأجنحة من الظلماء ؟
أم تلك عقبان السماء وثبن من قنن الجبال على الخضم النائى
لا ، بل سفين لحن تحت لواء لمن السفين ترى وأى لواء ؟
ومن الفتى الجبار تحت شراعها متربصا بالموت والأنواء ؟
يعلى بقبضته حمائل سيفه ويضم تحت اليل فضل رداء
وينيل ضوء النجم عالى جبهة من وسم (إفريقية) السمراء
ذهب ببوتقة السنى من ذوبه مسحت محياه يد الصحراء
لون جلت فيه الصحارى سحرها تحت النجوم الغر والأندماء
وسماء بحر ما تطامن موجه من قبل لابن الواحة العذراء
بحر أساطير الخيال شطوطه ومسابح الالهام والإيحاء
ومدائن سحرية شارفنه بنخيلها وضفافها الخضراء
ومعابد شم ، وآلهة على سفن ذواهب بينهن جوائى
أبطال يونان على أمواجه يطوون كل مفازة وفضاء
يتجاذبون الغار تحت سمائه يتناشدون ملاحم الشعراء
مازال يرمى الروم وهو سليلهم ويديل من (قرطاجة) العصماء
حتى طلعت به فكنت حديثه عجبا ! وأى عجائب الانباء

وبعد فعلى محمود طه متوسط المنزلة الأدبية بين شعرائنا ، يجيد أحيانا عند ماينظم الشعر بطبع أصيل ، ويسف أحيانا أخرى عند مايقلد فى القصيدة الشعراء الغابرين والمعاصرين على السواء . . وشهرته الادبية على أية حال ممدودة متصلة فى حياته وبعد وفاته .

الصيرفى الشاعر

ليس خصائص شاعرية « الصيرفى » فى شعره واضحة بارزة ، يقول « حسن كامل الصيرفى » يخاطب الشباب :

الى الأمام خطوة فخطوة وأندم
من لم يكن شعاره « إلى الأمام » يؤم
إلى الأمام فالحيـــا ة ساحة التقدم
العمر فيها مسرع إلى سكون العدم
وكل من لم يخط فيـــها خطوة يحطم
وكل من لم يبن فيـــها أثرا يهدم
إلى الأمام إنما الـــفوز لمن لم يحجم . .

فتجد ملامح شاعرية واضحة فى ألفاظه وأسلوبه ومعانيه وخياله وانسجام تفكيره ؛ ووحـــدة أبياته الشعرية والشعورية ، . وبقول يرثى صديقه الشاعر « على محمود طه » من قصيدة بعنوان « رقدة الملاح (١) » :

لم يبق لى فى طريق العمر أحباب خلا الطريق وأحباب الرؤى غابوا
كانوا خيالا ، وكان العيش حلم كرى مضى به قدر للعمر نهاب
لم أنس آخر لقيانا وقد دمعت شمس الأصيل ، ورقت منه أطياب
وأنت فى حجرة كان الشفاء بها وهما ، وخلف صراع الطب وثاب
كدمعة فى جفون العين بارقة حتى يحين لها فى الخد تسكاب
روح تشف عن الأحلام حائرة والجسم قد شفه سقم وأوصاب
ترنو إلى الأفق الدامى فتحسبه فتى من الحزن قد خانته أعصاب
تقضى لياليك بعد الأنس منفردا لم يرو ساحك خلان وأتراب
سأمان ترقب أياما مغربة كما تحول نحو الغرب جواب
كخانة فى ظـــلام الليل نائية جفت على صدرها المهجور أنخاب
فى عزلة لم يقصر ليلها سمر ولم تكشف دجاها الجهم أكواب

(١) الأهرام ١٦ / ١١ / ١٩٥٠

قد لفها الصمت إلا بعض همهمة ... كما تهوم فى ظلمائها الغاب
قاسيتها محنة ما كاد غاشمها ... ينزاح عن كتفى العانى وينجاب
حتى تحطم فى استنهاضه أمـــل ... وانهار فى مثل لمح الطرف أطناب
كان اللقاء وداعا ، والحديث صدى ... من عالم الغيب لم تدركه ألباب
نشكو جراحاتنا والدمع يحبسه ... عن أن يسيل أبى النفس غلاب
نرجو ونأمل والاقدار ترقبنا ... والموت يحجبه عن وهمنا الباب
يا مرسل النغم العالى صدى ورؤى ... ينصب فى أذن الدنيا وينساب
غنت به ضفتا الوادى ورجعه ... من ألسن الشرق أشهاد وغياب
أضعت عمرك فى الأوهام تجرعها ... كأسا دهاقا طلاها الشهد والصاب
ماالزهر والخمر فيها غير مائدة ... ألقى عليها ظلال الحزن مرتاب
قد عطل الموت فنا خالصا غنيت ... به على كثرة الأجيال آداب
حملت والصفوة الأحرار ألوية ... خفاقة تتحدى كل من عابوا
للفن ماهتز من آمالهم وربا ... والفن مذبح قربان ومحراب
تبتلت فى جـــلال الفن أنفسهم ... كما تبتل فى المحـــراب أواب
كل له غاية يسعى ليدركها ... وكم تحقق غايات وآراب . . !
تشامم القوم حينا وادعوا خرصا ... أن القريض ثوى إذ مات أقطاب
والشعر مسبح أرواح مجنحة ... إن غاب سرب تبدت فيه أسراب
(على!) كان غروب الشمس موعدنا ... يوم الخميس ، فمالى منه أرتاب ! ؟
أطارد الوهم عن نفسى وبى وجل ... كما يطارد وحش الغاب هياب
حتى تلقيت هول النعى فانتثرت ... خواطرى فى ظلام الحزن تجتاب
لم يبق منعاك لى جهدا أفيك به ... حق الرثاء ودمع العين منساب
ما أعجب القدر اللاهى بعالمنا ... اذا تبسم أبدى الشرة الباب !
إن فرق الموت جسمينا فإن لنا ... فى عالم الروح لقيا ليس تنجاب

فتجد صورة حزينة دامعة لشاعر ولى وذهب ، وتحليلا فكريا عميقا لشاعرية الشاعر ومواهبه ، وأثرا فنيا يروع ويسحر بما اشتمل عليه من سمات التعبير والبيان والأسلوب .

ويرثى الصيرفى أمه فى قصيدته « الظل المنحسر (١) » فيقول فى موسيقية جميلة :

---

(١) المقتطف — عدد أكتوبر ١٩٥١

ذهب الظل الذى كان هنا نعمة من رحمة الله بنا
ذهب الظل وعمرى لم يزل ظاعنا يشكو الصدى والوهنا
طاويا فى كل يوم رحلة تنشر الغيب وتطوى الزمنا
الوداع المر أسقاه بها وأنا أقتات منها الحزنا
كم عزيز فى ثناياها مضى كان دمعى غسله والكفنا
الصحارى الصفر حولى قصة أنا أدرى منتهاها المحزنا
مد راويها مداها ، ولقد أرهق النفس وأوهى الأذنا
ملها السمار حتى انتبهوا ونداء الفجر فيهم أعلنا
مامسيرى فى طريق عبرت تربه قبلى دهور ودنا !
فنيت من قبل أن تدركه وخبا فى ليلها كل سنا
أنظر الأشباح فيه ذرة من هباء فى فضاء شحنا
لست أجنى من ثراه ثمراً غير كد وشجون وضنى
رحلتى طالت ، وطالت غربتى فمتى ياروح ألقى الوطنا ؟ !
كان لى ظل إذا اشتد اللظى أوت الروح إليه فخنا . . . .
كان لى ظل إذا امتد الدجى وجد القلب لديه المأمنا
كان لى ظل إذا عاصفة زجرت أسمعنى لحن المنى
كان لى ظل إذا اليأس طغى ردنى بعد ضلالى مؤمنا
ذهب الظل فلا مأوى هنا لغريب ليس يدرى السكنا
الهجير المستبد استعرت ناره تشوى وهبت ألسنا
وأنا تلفحنى النار ولا أجد الظل الذى كان هنا
حائر الطرف أدارى حيرتى بالسكون الجهم حتى تسكنا
وأرى موكب ليلى زاحفا أسود الجبهة يطوى الحزنا
قاسيا يقصف فى خطوته كل عود كان مأمول الجنى
موحشا تزحف فى ظلمته أرجل الوهم غلاظا خشنا
عابسا أوشك من سحنته أن أراه ناقما مضطغنا
غارت الأنجم إلا خادعا حير العقل وأعشى الأعينا
عيد الناس حياة ضلة وأنا أجحد هذا الوثنا
حيرة طالت على أصحابها كل من فيها ينادى : من أنا ؟

ذهب الآمل فيها يائسا وذوى المأمول فيها وانحنى
يهدم اليوم ، وفى سخرية ، ما أقام الأمس فيها وبنى
ذهب الظل ، ولما أسترح من عناء السير إلا موهنا
ذهب الظل إلى بارئه فقضت أمى وودعت المنى
حينما كانت ولكن ذهبت من أمامى مثلما يخبو السنا
لم تكن إلا جفونا أغمضت ورؤى قرت ، وروحا سكنا
ثروة كانت . . . وما أغبنى فى تراب الأرض واريت الغنى
لم يعد أثمن عندى من ثرى دفنت فيه أحبائى هنا

فنرى تعبيرا عميقا وشاعرية جياشة ، ومشاعر خصبة ، وعاطفة متقدة ، وقلبا مصورا من الشعر ، وشاعرية يمدها إلهام فياض لا مدى له . . والشاعر فى القصيدة ينهج منهج المبتدعين فى الخيال والتصوير والرسم وفى توشية الظلال والألوان فى قصيدته ، التى تعد من روائع الرمزيات فى الشعر المعاصر . . بينما تقرأ قصيدته « زهر الخير » يرثى فيها سيدة من أصهاره (١) :

أعزاءنا . . ! ما للرحيل بكم خبا أرى كل يوم فى وداعكم كربا
سعت بكم الحدباء ، لا الموت راحم إسارى ، ولا رقت لدمعى الحدبا
يفارقنى فيكم ظلال رحيمة وغيث حنان يخضب المحل والجدبا
أرى الركب يتلو ناقتى الركب مسرعا وفلذات قلبى بالأسى تتبع الركبا
وأنظر للغير الرهيب مغيبا وجوها عزيز أن تغيب وأن تخبا
وأدفن فى هذا التراب أحبتى وأرجع لا ألقى حنانا ولا حبا .
وزهرة خير من « يسوع » تنقلت إلى روضة يزكى « محمدها » التربا
زكت عنصرى بر وعدل ورحمة وأرضت بذاك النفس والخلق والربا
صفا قلبها لله حتى كأنما تمثل جسمها ، والسن مامست القلبا
خلا قلبها من غيم كل ضغينة فما شوهدت يوما لحادثة غضبى
وتصفح عن زلات من ساء فعله ولا لوم تلقيه عليه ولا عتبا
تفيض على الناس المحبة جدولا رقيق الحواشى ، سلسلا ، سائغا عذبا
تداوى جراحات الورى بحنانها وتطوى جراحا ما عرفن لها طبا

---

(١) المقتطف عدد مايو ١٩٥٢ .

قداسة روح فى طهارة هيكل ... وعفة قول ليس تنهج العيبا
عليها الدموع الغزر تسكب فيضها ... بمقدار ما فاض الحنان لنا سكبا
ضجيعة أرض لم تمس ترابهـا ... خطا قدميها طفلة تنشد اللعبا
ونائية عن أرضها اتخذت لها ... من النيل ريا طاب فى فمها شربا
أحاطتك فى الأرض الغريبة طاقة ... من الحب أغنت عن حنان ذوى القربى
لقد عشت رمزاً للأمومة رائعا ... كأكرم من زكى النفوس ومن ربى
مضيت مضى الفجر فى غير ضجة ... كما عشت ، لازهواً مشيت ولاعجبا
مضيت ونور الذكر حولك هالة ... وغيمت فى أفق الصباح لنا السحبا
لقد كان خطبا لاحقا بسوابق ، ... ولاصبر عندى يلحق الخطب والخطبا
عليك سلام الله فى جيرة الألى ... أحاط بهم رضوانه أكرم العقبى !
أحباى فى ركن من الخلد هادىء ... نعمتم به لقيا ، وطبتم به قربا
هنيئاً لكم هذا النعيم ، فإننا ... لنجرع من كأس الشقاوة مايؤبى !
يؤرقنا ليل من الحزن غامض ... ويفزعنا نور الصباح إذا دبا
تركتم لنا هذا الفراغ محيرا ... برهبته القلب المحطم واللبا
يضيق بنا الكون العريض كأنما ... نعالج ضيق القبر لا العالم الرحبا
ومن يفقد الأحباب يفقد عزاءه ... وأى عزاء للذى افتقد الحبيا !

فنجد صورا شعرية قريبة من صور المتنبى والبحترى مع الفروق الواضحة فى خصائص الشاعرية وسماتها .

ويرثى الصيرفى أبا القاسم الشابى الشاعر بقصيدته :

أيها المتعب الذى حطم الداى واستراح
أيها الشاعر الذى ضاق بالمشرع المتاح
أرهق الجسم ثائر بين جنبيه لا يراح
لم يسع صدره المنى لم تجد فيه من براح
حطمته بعنفها وهى مشبوبة الطماح
عشت تشدو لعالم قد تلهى بكأس راح
الأعاصير لهوه وأغاريده الرياح

والصيرفى مجيد فى الرثاء والألم والشكوى ووصف العواطف والمشاعر والأحاسيس النفسية الدفينة ، وفى الرموز الدقيقة المعبرة ، والأوصاف العقلية

الدقيقة ، ويجمع شعره بين السلاسة والتعبير القوى والفكرة العميقة ، وبيئته الشعرى يجمع صورا كثيرة متلاحمة مصبوبة فى قالب شعرى جميل ، مع البراعة النادرة فى رسم الصور والظلال ، وتوشيتها بألوان ساحرة من الخيال ، وإضافة التفاصيل الساحرة التى تنم عن فطنة بارعة ، وذهن خصب ، وملكة نادرة مصورة

ويشيد السحرتى برمزيات الصيرفى (١) ، وبتجربته الشعرية فى قصيدته « التضحية (٢) » التى يبشر فيها بالاشتراكية الروحية ، حيث يقول :

هنا فى هيكل الحب أحقر مبدأ الفرد

ويقول منها :

أجل الناس من يظما ليرضى الظامىء الجائع

ويذكر تجربته الشعرية المختلطة بتجارب باطنية أخرى فى قصيدته « غروب شمس (٣) » التى رثى بها أخته ، ويقول منها :

رؤى الدنيا كواذب خادعات وقد صبغت بألوان كذاب

ومنها :

مضت بالأولين وسوف تمضى بنا وبغيرنا من كل باب
نعيش وحولنا أهل وصحب ونحن من الحياة على اغتراب (٤)

ويذكر أسلوب الصيرفى الأثيرى الهفاف (٥) ، ونزعته الانطوائية التى جعلت الشاعر يختار موضوعات الشعر من نفسه (٦) ، وموسيقاه التى توائم الموضوع الشعرى فى قصيدته « تعال وراقى (٧) » ، وبعض قوافيه المزدوجة مع تنويع البحر (٨) كما فى قصيدته القبلة (٩) .. ويشير إلى رمزية الصيرفى التى قصرها على الترنيم الموسيقى الآسر (١٠) ، وإلى قصيدته « السحابة المغترة (١١) » التى رمز بها إلى أحد الحكام المغتربين (١٢) ، وإلى قصيدته « وحدة العمر » (١٣) :

ستختلف الحياة أمام عينى تمر طيوفها وتغيب عنى (١٤)

---

(١) ص ٤ الشعر المعاصر (٢) ص ٨٧ الألحان الضائعة ٣
(٣) المقتطف عدد إبريل سنة ١٩٤٧ ، والرسالة عدد ١٠ مارس سنة ١٩٤٧
(٤) ٤١ الشعر المعاصر (٥) ٦٨ المرجع (٦) ٦٩ المرجع (٧) ١١٦ المرجع
(٨) ١٢٠ المرجع (٩) ديوان الشروق (١٠) ٢٥ الشعر المعاصر
(١١) ٤٣ الألحان الضائعة (١٢) ١٣١ الشعر المعاصر (١٣) ٦١ ديوان الشروق
(١٤) ٢١٠ الشعر المعاصر

وقد عرض مؤلف كتاب « سمير الأدباء » للصيرفى وشاعريته ووصفه بأنه « شاعر فياض الشاعرية المستوحاة من الحياة ، وكما توحى إليه أغانى الربيع ، وجفاء الطبيعة ، ووحدة الجنة ، قصائده . . توحى إليه اللفيفة ويوحى إليه المصباح ، فهو شاعر فى بيانه ، فى حياته ، فى خلقه .. وهو بطبيعته الهادئة الساكنة من غير هذا العالم(١) » .

ولقد ولد الشاعر فى ٦ سبتمبر سنة ١٩٠٨ وبدأ ينظم الشعر وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وترك المدرسة عام ١٩٢٥ ليفرغ للشعر ، وبدأ منذ عام ١٩٢٧ ينشر شعره فى مجلة « العصور »(٢) .. ثم صار أحد أعضاء جمعية « أبولو الشعرية » التى أنشأها أبو شادى ورعاها ، وفى عام ١٩٣٤ أصدر ديوانه « الألحان الضائعة » .

ويقول أبو شادى عن الصيرفى فى تصديره لديوانه « الألحان الضائعة » الذى الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٣٤ (٣) : حسن كامل الصيرفى شاعر أصيل ، فياض الشاعرية ، المستوحاة من أغانى الربيع ، ومن الصدى الخافت ، ومن جفاء الطبيعة ومن البسمات الساخرة ، ومن موت البلبل ، ومن كل ما توحيه الحياة والموت للشاعر الحساس النبيل . وهو شاعر فى بيانه ، شاعر فى حياته ، شاعر فى خلقه ، وهذه الصفات قلما تجتمع حتى تهجك وتشعرك بالاحترام والمحبة البالغة نحو صاحبها ، فالصيرفى هو الفنان الناضج فى تعبيره الوجدانى المتغوم ، وفى صور حياته العامة ، وفى مظاهر النفس الخلقية ، فهو ذاتية من الشعر الحى الثمين . . والصيرفى الشاعر وشعر الصيرفى وحدة منسجمة لا تتجزأ ، لقد انتظمت مدرسة أبولو شعراء ممتازين ، ولها أن تفخر بالصيرفى وشعره ، فهو ثروة جديدة للشعر المصرى الحديث ، وللشعر العربى عامة ، وكيف لا يكون ذلك وهو الجامع ما جمع من الطلاقة البديعة ، والخيال الرائع ، والموسيقى المستحدثة ، فى نظام هو نظامه لا يقلد فيه أحدا ، وإن تجاوب مع شعراء العالم العربى ، وهذا التجاوب الشامل علامة من علامات الشاعرية القوية ، كما أن احتفاظه بشخصيته علامة أخرى من علاماتها القوية . . ويحلل أبو شادى شاعريته فيقول (٣) « الصيرفى شاعر » مبتدع ، بعيد الخيال ، رومانتيكى النزعة غالبا ، رمزى أحيانا ، بعيد فى طوره الحاضر عن المثل القديمة ، لغته لغة الشعر الجرىء ، فكل

---

(١) ص ٤٩ سمير الأدباء ـ طبع بالمنيا

(٢) ص ٤ ، ٥ الألحان الضائعة (٣) ص ٦ الألحان الضائعة .

ألفاظه أشعة وظلال وأنغام وأصداء وعطر وشذى وأشباح وأطياف ونحوها(١)

وكتب عبدالعزيز عتيق دراسة نقدية له جاء فيها : « شعر الصيرفى شعر الفكرة والتأمل ، تنبثق فى خاطره انبثاق الشعاع ولا تزال فى وضوح ونمو حتى تكمل وإذ ذاك تساوره على التعبير عنها والخروج إلى الحياة ، ومن أحسن فكره الشعرية فى هذا الديوان فكرة قصيدة « الشاعر (٢) ، ففيها يمثل لنا خلق الشاعر وكيفية هبوطه إلى الأرض وأسباب ذلك ، فى عرض شعرى جذاب (٣)

وهذه القصيدة فى رأيى هى التى ينهج نهجها على محمود طه فى قصيدته « ميلاد شاعر » ، وهى طويلة تقع فى أكثر من خمسين ومائة بيت . . ولقد نجح الشاعر فى تصوير هذه القصة خير تصوير ، كما عبر عنها أوضح تعبير ، وإن هذه القصيدة وحدها لكفيلة أن تنظمه فى سلك الشعراء المتفردين المطبوعين . . . ومن قصائده فى هذا الديوان « اللحن الضائع » و « القلب المحطم » ، و « الحيارى » ، و « التائه » ، و « ظمآن » ، و « استرح يا قلب » ، و « عقب السجارة » ، و « دمعى » ، و « الواحة المنسية » ، و « الصدى الخائف » ، و « موت عزرائيل » و « ربيع كالخريف » ، وتمثل قصيدتاه « ظمآن » و « ووحى المصباح » تجارب شعرية غامضة ، وفى قصيدته « المنديل » أصالة التوجيه الموضوعى .

ولقد قوبل ديوان « الألحان الضائعة » بعاصفة من النقد ، لم يقابل بها ديوان آخر معاصر ، وأحسبنى عاجزا عن أن أرسم صورة موجزة جدا لما أثير حول الديوان من دراسات أدبية ، ومشكلات فى النقد ، وخصومات بين القديم والجديد

كتب الناقد الأدبى فى مجلة « الحديث الحلبية (٤) » يقول بمناسبة ظهور الديوان : « الصيرفى شاعر ينشد شعره من نفس متعبة ، وقلب قد استفزته الأحلام » . . ونوه بالألوان النفسية ـ فى شعره ـ التى تفيض بالاكتئاب تارة ، وبالبشر والدعة تارة أخرى ، ويقول إن الصيرفى فى كلتا الحالتين يحكى لنا شعوره ، فينظم ذلك فى كلمات مختارة ، وأوزان مختلفة ، فيطربنا . وقد تنفذ هذه الكآبة التى تستولى عليه إلى نفوسنا فنحزن ونجد حتى فى هذا الاكتئاب جدة نفسية . . . ويرى أن الصيرفى فى طليعة المجددين من شعراء الشباب .

---

(١) ص ٩ و ١٠ المرجع نفسه (٢) ص ٣٣ المرجع نفسه (٣) ص ٩٣ المرجع
(٤) العدد العاشر ١٩٣٤

ونوه الشاعر القروى (١) بديوانه « الألحان الضائعة » وبشاعرية « الصيرفى » فيه ، وقال عن الصيرفى إنه شاعر مصرى موهوب ؛ مواضيعه طريفة ، ونغماته جديدة ، وشعره نسيج وحده ؛ لا تقليد فيه ولا تقييد ؛ بل إخلاص فى الشعور ، وصدق فى التصوير ، إنه شاعر الآمال والآلام ، وأى شاعر حقيقى لم يكن شاعر آمال وآلام . . ولو لم يسم ديوانه « الألحان الضائعة » لخلع عليه كل مطالع من تلقاء نفسه هذا الاسم ، فالألحان مزيته العظمى ، وقلما تقرأ قصيدة لا ذكر فيها للألحان والأنغام والوتر والقيثارة ، كأن الديوان ملحمة متعددة الأناشيد ، متنوعة النغمات ، فى موضوع واحد جامع .

وكتب ناقد حول الديوان يقول (٢) : لئن كان شعر على محمود طه يمتاز بفخامة اللفظ وروعة الأسلوب ورصانة الجمع بين القديم والحديث ، وشعر ناجى يمتاز بسحر العاطفة وجمال الذوق وجلال المعانى ؛ فإن شعر الصيرفى يمتاز بموسيقيته الساحرة ، وألحانه الحالمة وصفاء الديباجة وإشراقها ، وسمو الفكرة ، والتقصى الوصفى فيما وراء الصورة ، والصيرفى بلا نزاع فى طليعة شعراء الشباب المجددين الرمزيين . . ويشير إلى خلو شعره من المدح والهجاء والفخر ، وإلى أنه ينظم الشعر استجابة لعاطفته الملحة ومشاعره الدفينة ، فيكون الفكرة ثم يختزنها فى نفسه ، حتى إذا ماحاك حولها هيكل القصيدة راح يزجيها ، ويغذيها من دماء قلبه ، ويضفى عليها ألوانا من سحر العاطفة وفتنتها ، فتنثال عليه الخواطر انثيالا ، وتواتيه القافية طيعة سلسة القياد ، فلا يجرى وراء لفظ يتخيره ، أو تركيب ينمقه ويوشيه . كل ذلك عن وحى صادق ، وغريزة موهوبة . . وشعره سداه الألم ، ولحمته السخط على الحياة ، ومزاجه التبرم بالناس وما تواضعوا عليه . والديوان يكاد يكون خلوا من ذكر المرأة التى هى منبع من منابع الشعر .

ويقول عبد الفتاح إبراهيم من دراسة نقدية له عن الديوان (٣) « لبث ـ الصيرفى ـ ثائرا على العالم ، ساخطا عليه ، ونزعت نفسه إلى التجديد ، وخرجت بهذا للناس فى العصور » و « أبولو » و « المقتطف » ، وعصر الشاعر روحه خمرا للناس يتذوقونها . . وينوه بصوفية « الصيرفى » فى قصيدته « الحيارى » ، وبابتداع خياله فى قصيدة « الشاعر » .

---

(١) مجلة العصبة الأندلسية ـ البرازيل ـ عدد أكتوبر ١٩٣٨ (٢) جريدة الحال ـ عدد ٢٣ أغسطس ١٩٣٤ (٣) كوكب الشرق ٢٦ سبتمبر ١٩٣٤ .

وكتب محمود حسن إسماعيل (١) كلمة تحليلية عن الديوان والشاعر ، منوها بنزوعه إلى المعانى التجريدية ، وبتساميه عن مدارك العاديين ، ويقول : إن الشاعر قد نوه فى كلمته الأولى بالديوان إلى تخلصه من الذوق العروضى واكتفائه بالذوق الموسيقى وهذه النزعة سبقه بها شعراء المهجر من السوريين .

وتحدث أبو شادى فى مجلته أبو للو (٢) عن شعر الصيرفى بمناسبة ظهور « الألحان الضائعة » ، وحدد معنى الاصالة فى الشعر بأن الشاعر الأصيل مبتكر له شخصية مستقلة ولا يقلد أحدا ، وهو غالبا شاعر مطبوع ، أما الشاعر المطبوع فهو الذى يأتى بالشعر من دون تكلف .

ودرس السحرتى « الألحان الضائعة (٣) » مشيرا إلى روح الألم فى شعره ، و « الدموع ضرورية للعبقرية » كما يقول الأديب الفرنسى اسكندر ديماس ، والحزن السامى يجعلنا نقدر اللذة كما يقول الفيلسوف الفرنسى ليبتز و « والفرد دى موسيه » ، بل كما يقول الصيرفى :

دموعى كنت آمالا تمد القلب بالبشر
وكانت هذه الآما ل كالأنغام فى الفجر

ويذكر أن الآلام صهرت روح الصيرفى فأنضجتها وطهرتها ، وأطافت بها صوفية سمحة ، حفزته إلى تأملاته الساجية الحنون ، وجعلته يرسل ألحانا لا يفهمها إلا كل من يتجاوب مع مثله ، وكل من يهتز قلبه لتنفس النهر ، وغناء البلبل ، وهمس النسيم ، استمع إليه يشرح فنه فيقول :

وأنشدتهم من أغانى السماء أناشيد تعزف للخالدين
فضاع الصدى فى فضاء الحياة وذاب النشيد وهم يصخبون

ويذكر أن صوفيته تلهم شاعريته ، وتخلع عليها الصفاء والتأمل ، وفوق ذلك فقد امتزجت بنفسه محبة الفن ، ولهذا نراه ينظر إلى الوجود بشعور « الفنان » ، ويسبح فى الدنيا هائما على وجه ، وتدق شاعرية الصيرفى غاية الدقة ، ويفيض ديوانه بالشعر الانفعالى الهادىء الحزين ، وبالشعر الرمزى ، وبشعر الطبيعة ، وليس فيه من شعر الحب العاطفى إلا النادر .. وصفوة القول أن الصيرفى شاعر

---

(١) أبو للو ـ عدد سبتمبر ١٩٣٤ (٢) عدد أكتوبر ١٩٣٤ ـ وفى المقتطف عدد نوفمبر عام ١٩٣٤ دراسة الديوان (٣) أبولو ـ عدد ديسمبر سنة ١٩٣٤ .

بعد هادىء الجوهر ، صافى النفس ، رقيق الشاعرية ، عذب الموسيقى .

وينوه السحرتى بمعـــانيه الأصيلة فى الطبيعة (١) ، وبشعره الأثيرى الذى لايحاكى (٢) ، ويصفه بأنه شاعر سابح فى الخيال ، يخلق لك جوا عبقا بالعطر الشعرى والموسيقى الهادئة ، وكأنما ينادى المجهول (٣) .

ويصفه إسمـــاعيل أدهم بأنه شاعر رومانسى النزعة ، غنائى الروح ، موسيقى التعبير (٤) .

وينوه بروكلمان به ، وبنزعته كأحد أتباع الشعر الرمزى ، وبتشاؤمه (٥) .

وقد درس الدكتور اسماعيل أحمد أدهم الصيرفى وشاعريته دراسة واسعة فى مجلة المكشوف (٦) ، وذكر آثار شعراء المهجر فى شعره وتأثره بمذهب مطران الشعرى .

ويذكر كاتب (٧) أن الصيرفى شاعر له طابع ، وشخصيته واضحة فى شعره وتأملاته ونزعاته ، وفى شعره تشاؤم عميق ، يمتزج بتأملات واسعة ، ويعلو بشعره فى بعض قصائده إلى مرتبة سامية رفيعة ، لأنه يرتكز على موهبة حقيقية ، وهو فى طليعة الشعراء الذين تغذى شخصياتهم فنهم .

ويشير ناقد إلى بعد شعر الصيرفى عن التكلف الممقوت ، والتصنع المرذول ، وشاعريته بعيدة الغور ، لاتقف أمامها الحدود ، ولاترضى إلا الصميم ميدانا لها ، وفى هذا تعليل لرمزيته الغالبة على قصائده ، التى تسيطر على بعضها أخيرة ممزوجة بالاطمئنان ؛ ومن ميزات شعره موسيقيته (٨) .

وينوه ناقد آخر (٩) بشخصية الصيرفى الواضحة فى شعره ، وبتشاؤمه وبرمه

---

(١) ١٠٧ و ١٠٨ أدب الطبيعة ـ للسحرتى (٢) ١٢٠ المرجع

(٣) ١٢٢ المرجع (٤) من كلمة لأدهم فى دراسته عن خليل مطران ، ص ٢٢٨ و ٢٢٩

(٥) تاريخ الأدب العربى تأليف المستشرق الألمانى بروكلمان ـ الجزء الثالث من الملحق ص ١٦٥ - ١٦٨

(٦) عدد ٣١ لسنة ١٩٣٩

(٧) هو محمود عزت موسى ـ أبو الهول عدد ٤ مارس سنة ١٩٣٥

(٨) الجريدة السورية اللبنانية ـ ٢٠ ت ١ ـ عام ١٩٣٤

(٩) ٥ سبتمبر عام ١٩٢٤ ـ البلاغ الأسبوعى

بالحياة والشعر والناس ، وبرمزيته ، وبتجويده فى كثير من موضوعات الشعر ، إلا الحب ... ويمزج الصيرفى فى الأسلوب والفكرة بين فكرة العالم ودقته وبين خيال الشاعر وتحليقه ، وفكرة الصيرفى قد تكون أبرع من أدائه عنها ؛ فهو يقع على الفكرة البارعة ، ويحيط بها إحاطة ، ويتقصاها .

واللون الوجدانى هو السمة الغالبة على « الالحان الضائعة » :

عصرت روحى خمرا للورى وهوى ... وما تذوقت منها بعض ماشربوا
ضاعت أمانى فى الدنيا وأى منى ... تعيش فيهـــا وتحيا وهى تلتهب
أنشدت كل أناشيدى ، فما بقيت ... ألحانها ، وتولى صوتها الصخب
فرحبـــا بشقائى فى محبتهم ... ومرحبا بعذاب جره الأدب
وليغفر الله للدنيا إساءتها ... وفى سبيل الورى روحى وما أهب

ويشير إلى تلك السمة كاتب أديب (١) ، وإلى روح الصـــيرفى فى التجديد فى الشعر .

ويذكر أديب (٢) نزعة الصيرفى القوية إلى التجديد ، يسعفه فى ذلك حس مستفيض ، وخيال جامح . . ويشير الدكتور محمد كامل حسين فى دراسة كتبها عن الديوان (٣) إلى أثر الادب الغربى فى شعراء مدرسة أبولو ، وإلى معانى الصيرفى المبتكرة فى قصيدته « عقب السيجارة » التى ليس لشاعر غيره نظير لها ، وديوان الصيرفى قبل كل شىء صدى لنفسه الحزينة ، وحياته المضطربة .

وكتب الناقد الأدبى فى مجلة المقتطف يقول (٤) : « الصيرفى شاعر وادع النفس ، رفيق القلب ، متزن العقل ، رشيق الاســـلوب قوى الخيال ، يصدر فى شاعريته عن فكرة تلابس معظمها الروعة الفنية ، فتجد المعانى المبتكرة كفاءها من اللفظ المختار ، ويظهر أن الموسيقى التى تتجاوب بها قصائد الديوان مستمدة من نفس شاعرها ، ظهر هذا الديوان فى عام حفل بظهور الدواوين الشعرية ، وأخصها « الملاح التائه » لعلى محمود طه ، و « وراء الغمام » لناجى . . وأظهر السمات فى شاعرية الصيرفى هى التصوير والتصوف والطبيعة والعاطفة أحيانا .. وهو فى أكثر

---

(١) ملحق السياسة ـ أول سبتمبر ١٩٣٤ ـ بقلم أحمد فتحى
(٢) البصير ١٤ سبتمبر ١٩٣٤ (٣) الوادى ١٥ سبتمبر ١٩٣٤
(٤) المقتطف عدد نوفمبر ١٩٣٤

قصائده ذو نزعة تجديدية ، فهو يميل دائما إلى التحرر من القافية ، وإلى بعض الأخيلة الغامضة ، والتى يمكن أن نعتبرها فى بعض الأحايين رمزية ، وهو فى حبه لانطلاقه من وثاق القافية يقارب الروح الغالب بين شعراء المهجر .

وكتب محمود الخفيف (١) كلمة عن الألحان الضائعة ، أخذ فيها على الشاعر كثرة ميله إلى المجازات والاستعارات الغريبة مثل ، « كهوف الحياة » ؛ و « قيثارة الحياة » ، و « لهيب الأنين » ، و « عصير الشجون » ، وكذلك أخذ عليه معانيه وأخيلته الغريبة ، وقلة عنايته بقوافيه . . . وإنى لا أعذر الخفيف فى هذا النقد ، فمذهب الغموض فى الشعر أو الرمزية جديد على شعرنا المعاصر لم تألفه الأذواق بعد ، ومن ثم كثر الجدال فيه ، والخصومة الأدبية حوله ، والذين يخاصمون الصيرفى إنما يخاصمونه بحسبانه شاعرا من رواد الرمزية والتجديد فى الشعر المعاصر . . وقد رد الصيرفى على الخفيف بكلمة نقدية موجزة (٢)

وكتب حسين المهدى فى مجلة « الإمام(٣) » ينقد موسيقى الشاعر وقوافيه . وكتب الأديب السودانى « بشرى أمين » فى مجلة الامام (٣) عن الصيرفى الشاعر وديوانه دراسة طويلة ، حلل فيها عنصرى شاعرية الصيرفى : « الآمال والآلام » تحليلا نقديا بديعا ، منوها بشعره وروحه وتجديده .

وكتب السيد قطب كلمة عن الديوان (٤) نوه فيها بطلاقة الروح الفنية فى شعر شعراء الشباب ، وبجدة الاتجاهات ، وصدق العاطفة ، وسعة التأمل وقوة الملاحظة ، وعاب عليهم الغموض وضعف الأداء وعدم الدقة فى التعبير والتفكك . . ونقد الديوان نقدا سار فيه على هذ المنهج ، وقد عرض قصيدة الصيرفى « حياتى » عرضا نقديا ، وحكم عليها بأحكام منهجه النقدى السالف ، وحلل قصيدته « الشاعر » ، وقصيدته الأخرى « موت عزرائيل » ، وينقده فى آخر كلمته نقدا فقهيا يدور حول اللغة . . وقد رد الصيرفى عليه بكلمة نشرت فى مجلة « أبولو » (٥) أشار فيها إلى أخطاء الناقد فى نقده ، وتحامله على شعراء الشباب مع أنه منهم ، ومحاولته التعالى فى نقده . . ينقد قطب بيت الصيرفى :

فنرجع من غمرات العراك علينا كواهله القاهرة

لأننا نحن « لا نرجع وعلينا كواهل العراك ، بل نرجع وعلى كواهلنا نحن

---

(١) الرسالة ١٩٣٤ (٢) الرسالة ١٩٣٤ (٣) عدد ٢٠ ديسمبر ١٩٣٤
(٤) الأهرام ٢٠ أكتوبر ١٩٣٤ (٥) أبولو ـ عدد نوفمبر ١٩٣٤

أعياء العراك » . . ويرد عليه الصيرفى بأنه « لو تدبر الصورة لعرف أننى أريد تصوير العراك بصورة المستند بكواهله القاهرة على المتعبين الخائرين ، ولست أصور حمل العبء ؛ لأن الصورة تمثل العودة من العراك ، وهذا كقولهم : « أناخ عليهم بكلكله » .

وينقد قطب بيتى الصيرفى :

تعالى ، ليس يدرينا إذا ما جفت الكاس
أنلقى من يساقينا ؟ تعالى . ، كلهم ناس

لعدم وجود الفاعل فى البيتين ، ويرد عليه الصـــيرفى بأن الفاعل هنا جملة « أنلقى » ، مثل : ظهرلى أقام زيد وسواء من المثل الذى استشهد بها النحويون على جواز ذلك ، ويجيز الدماميني تبعا لابن هشام وقوع الفاعل جملة ان كان التعليق بالاستفهام ، كما فى المثال السابق ، إذا المعنى ظهر لى جواب أقام زيد .

وكتب الدكتور رمزى مفتاح (١) يحلل فلسفة الصيرفى حول الزمن الذى يتحرر عقله من قيوده ، عند ما يتسامى به الفن العالى عن صغائر الأمور ، وضجات الحوادث ، ويرى أنه حامل هذا اللواء بين الشعراء المحدثين ، وأنه شاعر ناضج مستقر ، شاعر فى حياته وفى خلقه وفى وحدته ، وفى سريرته يبعد شعره عن الرياء ، حتى لقد خلا شعره من الغزل على الطريقة الشائعة من ذكر الحبيب وأثر حديثه فى النفس ، وشعره وحدة متجانسة . ونقد أبياتا منه ، منها :

ومال عنك النسيم الحى لاصلفا وإنما هو يخشى أن يلاشيكا

لأن كلمة « لاشاه يلاشيه » غير عربية ؛ ولعلها مأخوذة من لاشىء .

ويرد عليه أديب كبير (٢) بأن التلاشى أو الملاشاة لفظة من ألفاظ لايحصيها حساب ، نشأت فى الحضارة العربية الاسلامية ، واستعملها العلم والأدب ، وان يضـــيرها أن اللغويين لم يدونوها فى كتبهم التى حفلت بألفاظ الجزيرة والبداوة التى رووها .

وكتب طاهر الطناحى (٣) عن الديوان منوها بروح التجديد ومواهبه فى شعر الصيرفى وإخوانه من الشباب ، وإن كانت الكتابة الأدبية أكثر تطورا مع حركات

---

(١) ٢٣ سبتمبر ١٩٣٤ — البلاغ (٢) البلاغ أول أكتوبر ١٩٣٤
(٣) البلاغ ٦ سبتمبر ١٩٣٤

التجديد من الشعر ، ويحدد معنى التجديد . ويرى أن الصيرفى عنده استعداد قوى فى الشعر ، وينقد بيته :

عصرت روحى خمرا للورى وهوى وما تذوقت منها بعض ماشربوا

لأن العصير عمل مادى والروح روح لامادة فيها ولا علاقة بينها وبين الخمر فكيف تعصر ؟ وكيف يقال إن عصيرها خمر ؟ وفى أى حالة عصرها الشاعر ؟ وقد سبق أن ذكرنا رد التيجانى بشير على هذا النقد .. وينقد بيته عن قيثارة الشاعر

تئن أنين المريض الضعيف وتصرخ كالجنـــة الثائرة

من أجل استعماله « صراخ الجنة الثائرة » مع قيثارة العازف . . وينوه بقصيدته « اللغز » وأنها صورة حية من جمال الأسلوب وحلاوته وسمو المعانى وسحرها ، وما أجمل قوله :

أنا الروض لكن أنكرتنى جـــداوله
أنا الغصن لكن باعـــدتنى بلابله
أنا الأفق لكن جانبتـــنى أصائله

ويرد الصيرفى (١) على نقده للبيت « عصرت روحى خمرا » بأنه جرى فى هذا البيت على أسلوب الاستعارة المعروف فى البيان . . كما يرد على بيته « تئن أنين المريض » بأنه لم يصف قيثارة الشاعر ، وإنما وصف الناس .

ويتهكم أديب (٢) بما كتبه النقاد عن الصيرفى ووصفهم له بأنه طليعة المجددين الرمزيين من الشباب ، وينقد بيته :

أنت من ؟ ياعازفا فوق قلبى أغنيات تفيض من وجدانى

لاضطراب وزنه (٣) ، ويتساءل : كيف يعزف للمرء فوق قلبه ، وأين يكون العزف إذن ؟ . . وينقد بيته :

وأبثـــك الدنيا وقد أودعتهـــا فى ثم ثغرك

لأنه لا يعلم كيف تبث الدنيا ، وكيف أودعها ثم ثغره ؟ . . ولا شك أن الناقد لا يريد أن يؤمن بالرمزية الحديثة ومذهبها فى نظم القصيدة .

وقد انتقلت معركة النقد حول الديوان إلى معركة حول أبى شادى ومذهبه

---

(١) البلاغ ١٦ سبتمبر ١٩٣٤ (٢) هو مصطفى محمـــد الصباحى ـ الحال ٦ سبتمبر ١٩٣٤ (٣) ويرى عتيق أن هذا وزن مولد ـ خاتمة الألحان الضائعة .

فى التجديد ، فكتب أديب (١) ينقد أبا شادى فى مذهبه ، وما جاء فى تصديره للالحان الضائعة ، وكتب كامل الشناوى يهاجم مدرسة أبو للو الشعرية وأبا شادى ويسخر من مذهبه الأدبى ومن آرائه فى شوقى (٢) . . وكتب حبيب الزحلاوى ينقد مقالة الادباء فى كتابة مقدمة الكتب ، ويعنى بذلك أبا شادى وحده من بين الادباء ، وقد عرض لمقدمته للالحان الضائعة ناقدا ومتهكما (٣) .

وللصيرفى دواوين مخطوطة ، هى « حول النور » ، ورجع الصدى ، و« قطرات الندى » و « دموع وأزهار » . . وذلك عدا قصائده الاخيرة .

وله دراسة نقدية لحافظ وشوقى بعنوان « حافظ وشوقى » وهى من أعمق الدراسات عن الشاعرين .

ومن ديوان « رجع الصدى » مرثيته للشاعر محمد الهمشرى ، وقد توفى فى ١٤ ديسمبر ١٩٣٨ ، ويقول فيها :

من الصامت الوسنان تحت العواصف ... تمر به الاشباح شتى الطوائف ؟
عليه من الحزن العميق غمامة ... ملفعة بالذكريات الكواسف
هو الشاعر الشادى على معزف الدجى ... يعطل فيه الموت خير المعازف
مضى بعد أن أدى إلى الفن حقه ... فأدى إليه الفن بعض العوارف

ومنه قصيدة طريفة عنوانها « الفجر » وقد أهداها إلى مؤلف كتاب « الله أكبر » المستشرق المجرى الدكتور الحاج عبد الكريم جرمانوس وهذه هى تلك القصيدة

الله أكبر
الله أكبر

تسبيحة العالم المطهر
للخالق المبدع المصور
الكون قد هب من كراه
يستوضح النور عن رؤاه
كالناسك الشيخ فى تقاه
طوى الموت مذ طوى صباه
وغاب ماضيه فى دجاه

---

(١) السياسة ـ ٣ أكتوبر ١٩٣٤ (٢) البلاغ ١٧ أكتوبر ١٩٣٤
(٣) المقطم ١٩ أكتوبر ١٩٣٤ .

وأنسى الأمس أو سلاه
فلم تعد تهتف الشفاه
بغير ما رجعت صداه
جوانب الأفق حين كبر
تسبيحة العالم المطهر
الله أكبر
الله أكبر

الفجر حلم على الروابي
يهبط من مسرح السحاب
على القباب ، على الرحاب
رسالة الحق والصواب
لأخريات الدجى الكذاب
سدت عليهم كل باب
فاندفق النور فى الشعاب
كالنبع ، كالسيل ، كالعباب
فردد الكون حين كبر
لقدرة الخالق المصور
الله أكبر
الله أكبر

إلى آخر تلك القصيدة الرائعة . .

وفى الديوان مرثية للاديب الدكتور إسماعيل أحمد أدهم وقد مات منتحرا فى ٢٣ يوليو ١٩٤٠ ، ويقول فى مطلعها :

عجلت رحلك دون أن تلقانى يا أطيب الإخوان والخلان

وفيه قصيدة عنوانها « ساقان » يقول فيها :

أساقان هاتان أم موجتان ؟
من السحر فوق الثرى تخطران

ومنها : هما فتنتان ، هما روعتان

هما موجتان ، هما آيتان
لقد جمع الله لون الجمان
وأشربه برحيق الدنان
وقال اهبطى فتنة للعيان
إذا اجتمعت حسنات الغوانى
فساقاك أجمل مافى الحسان

وله قصيدة رائعة عنوانها « ميلاد أمة » يصور فيها شاعر كل فرنسى عند تحرير فرنسا من أيدى النازيين ، ومطلعها :

ثراك يا أرض أجدادى وأحفادى أغلى من الدم عند الواهب الفادى

ومن ديوانه « حول النور » قصيدته « أتمنى » يقول منها :

أتمناك ، والمنى خدعة النفس والفؤاد
أتمناك ، والمنى حلم دونه السهاد
أتمناك ، هل لمن يتمناك ما أراد

وقصيدة أخرى عنوانها « كعبة الحسن » يقول فى مطلعها :

أجهدت قلبى فى هواك فهاتى من راح ثغرك أطيب الراحات

وقصيدة أخرى عنوانها « ردى خيالك » ومطلعها :

خيالك رديه من مخدعى فقد ثبت السهد فى مضجعى

وقصيدته « غيرة » جميلة رائعة يقول فى مطلعها :

قالت الزهرة للطائر : ماهذا البريق
من عيون مزقت أضواؤها الستر الصفيق

وفى مطلع قصيدته « وفاء » يقول :

وفاء ، ما أعذب هذا النداء
صداه لحن من لحون السماء
غنته للأجيال حور الغناء
طوف بالأرض وجاب الفضاء
تحمله الأجواء عبر الهواء
كأنه إشعاع نجم أضاء
على حيارى فى الصحارى ظماء

يحدوهم الحادى إلى عين ماء
على مدى أفق بغير انتهاء

وفى عام ١٩٤٨ أخرج الصيرفى ديوان «الشروق» ، وفيه مجموعة من القصائد تمتاز بجدتها ، وبروح الابتكار فيها ، سواء فى المعانى أو الأخيلة أو الأساليب أو الفنون ، وبتصويره الدقيق لكل مايقع عليه الحس ويدركه العقل .

و « الشروق » من أمتع دواوين الشعراء المعاصرين ، الضاربين بسهم كبير فى التجديد ، والنزوع إلى الطلاقة والحرية الفنية ، وإلى تمثيل خلجات النفس ، وخفى المشاعر ، ودفين العواطف ، ومختلف الوجدانات ، نظم الشاعر فيه فى « خلود الشعر » ، و« القلب الهائم » ، و « النور الجديد » ، و« النظرة الأولى » ، و « الحرمان » ، و « الحرمان » ، و « ساعة اللقاء » ، و « خمرة الفن » ، و « الرحيـــل » ، و « بين اللهب » ، و « زفاف الحزن » ، و « القائد المدحور » . و « الساحرة » ، و « الصباح الجديد » ، و « نشيد الثورة » ، وسواها من جليل القصائد ، وعلوى النشيد .

ويمثل « الشروق » حياة شاعر يريد الهدوء والاستقرار والراحة :

قد آن للمجهد أن يستريح وآن للحائر أن يهتدى

ويجد فى السير لبلغ الشاطىء الذى يحمل عنه عبء المطاف :

عودى بهذا الزورق المضطرب على متون الموج نحو الضفاف
سيحمل الشاطىء إذ نقترب فيه عن القلبين عبء المطاف

ثم يتذكر مأساة الحرمان ، فيتحدث عنها

ظامىء والنهر جار مطمئن
بشتهى الخمرة والساقى يضن

ويذكر قسوة الحياة على الظمآن المحروم :

ما للحياة على الظمآن قاسية تميل بالدن عنه ليس يقربه
وفى الكؤوس أرى خمرا مشعشعة والدهر يفرغ لى جامى ويسكبه

ولكنه يعود فيؤمن بحكمة « الرضى » :

الرضى ما أجمل الدنيا به بسمة تخرج من ثغر نبى

ويعلل عذابه بالأشجان بأنه تضحية وتطهير :

إنى تعذبت بالأشجان تضحية حتى أطهر فى النيران أشجانى
وكنت أجرع آلامى وأكتمها كالليل حين يوارى نجمه العانى

أرجو التحرر من ذاتى ومن جسدى لكى أحر فيما بعد وجدانى
تجرع الكأس روحى وهى مرغمة من خمرة عصرت من كرم بهتان

ويرى نفسه يسعى لمجـــد الحياة ، ثم يستمر به المسعى ؛ دون ثمرة ، كأنه قائد مهزوم :

إنى أحس كأن روحى قائد أفنى جهوده
هدته أهوال الحروب بعصفها وطوت جنوده
فمضى كما يمضى الصدى فى الأفق لا يدرى شروره

ثم يشعر بلذة السعادة فيقول فى غفوة حلم :

تعال فقد عرفت حدود نفسى
وأدركت السعادة ملء كأسى
تعال إلى ، واملأ رحب حسى
فإنى اليوم لست خيال أمس
ستختلف الحياة أمام عينى
تمر طيوفها وتغيب عنى
وتفنى فى محيط من تمن
وأحـــلام تلوح بكل لون

ولكنه يشعر بأنه يمشى فى الحياة كالغريب يجهل ما فى الكون : « أنا الغريب وهذا الكون يجهلنى » ، ويؤكد ذلك فيقول من قصيدته « أنا » أيضا :

أنا الدليل وهذا الكون ينكرنى فهل سيؤمن هذا العالم الجاحد
أنا الشهيد وأرض الخلد تجحدنى فهل أظل لديك الخالد الآبد
أنا الجريح وهول الحرب يشملنى لكننى فى لظاها الثابت الصامد
أحنو على الناس والأيام تحرقنى بنارهم فى حنايا جوفها الواقد

ومذهب الشاعر فى الحياة أن يشقى ليسعد الناس ، ويظمأ ليروى الظامئون ، مذهب الإيثار والجماعة والتضحية ونكران الذات ؛ يقول من ديوانه « الألحان الضائعة » :

أجل الناس من يظما ليرضى الظامى. الجائع

ويقول فى « الشروق » :

ياقلب ذبت محبة ورعاية للناس حين شقيت بين الناس

ما كنت يوم لمست آلام الورى أدرى بها تسرى إلى أنفاسى

ولكنه يعود فيعلل آلام الشاعر بأنها ثمن المجد المنشود :

وألبس الأرض بردتيها والشاعر الحق كالسحاب

حرارة المجـــد ذوبته وأى مجد بلا عذاب

وتصطرع فى نفس الشاعر ثورات اليقين والشك ، فنراه يقول من قصيدته « إلى المعبـــد » :

لا تتركينى حائرا فى عالمى فالحيرة الأولى طريق الملحد

ويصور الحرب الخفية السارية فى كيانه بين روحه وجسمه وعقله ، فيقول :

أشعر الآن فى كيانى حربا بين روحى وجسمى وعقلى

كونتنى الحياة من شهوات وهدوء وثورة وتجلى

وقصيدته « النور الجديد » مثل واضح لشاعرية الشاعر وخصائصها البينة ، من الدقة والعمق والاستقصاء والرمز ، ومحاولة الكشف عن المجهول ، والتطلع إلى الآمال الباسمة يناجيها الشاعر فى لهفة ونشوة :

مجلى من النور لم أبلغ مطالعـــه أنى اتجهت ، ولم أدرك تناهيه

الصبح يبلج تياها بصادحـــة فى مسمعى جديد من أغانيه

والفجر قبل ارتحال الفجر لمح لى عما يضمن صبحى فى معانيه

ومن أجمل صور الحب قصيدته « اجعلينى حلما » ، والتى يقول فى مطلعها :

عندما يغمض الكرى عينيك وتطوف الأحلام ولهى عليك

اجعلينى حلما يطوف ويسرى من قلوب الورى إلى شفتيك

وقصيدته « ثورة الجدول » مظهر لحب الشاعر للطبيعة ، وفنانه فيها ، وتجويده فى تصويرها .

والرباعيات فى الديوان كثيرة ، ويسير الشاعر على نظامها فى « خلود الشعر » و « النظرة الأولى » و « وحدة العمر » و « موت فنان » ، و « الخالدان » ، وسواها . . والصير فى أكثر الشعراء تحررا من قيود القافية ، ورغبة فى التجديد فى موسيقى الشعر ، وإن عثر به فى بعض الأحيان الطريق .

وقد يعدد القوافى فى القصيدة ، بحسب أجزائها ، ملتزما التقفية بين جميع الأشطر فى كل جزء ، كما فى قصيدته « الحرمان » ، التى يقول فيها :

حارت الألفاظ بين الشفتين
حيرة الرغبة فى قلب يحن
ظامىء والنهر جار مطمئن
يشتهى الخمرة والساقى يضن
وهو ذو عزة نفس لم تهن
عنده يوما وإن جل الثمن
كلما حاولت أن أظهر سرى
نوحت مأساتى الأولى بفكرى
وعوت مأساتى الأخرى بصدرى
فتوقفت على حافة عمرى
أنظر الكأس ولا أشرب خمرى
ويعزى القلب إلهامى بشعرى

ونختم الكلام على الشاعر بهذه القصيدة التى رثى بها صديقه الدكتور زكى مبارك فى يونية عام ١٩٥٢ ، ويقول فيها :

أيها الراحل الذى كان روحا متناضلا
فى طريق شقتها واصطنعت المعاولا
سرت فيها مجاهداً يتخطى الجنادلا
ثائراً فى مشاكل يكتويها مصاولا
الخصومات عنده لا تصيب المقاتلا
كان يلقى يراعه حمم النقد سائلا
والهوى فى فؤاده يتجلى فضائلا
ينشر الحب نفحة حين يطوى المشاكلا
عشت فى الناس ساخراً ضاحك السن هازلا
واللظى كنت قابضا والضنى كنت ناهلا
كم ليال سهرتها شارد اللب ذاهلا

وبعد فالصيرفى شخصية متميزة ـ فى الشعر المعاصر ـ يندر وجودها . . وهو شاعر بكل ماتشتمل عليه كلمة الشعر والشاعرية من معان . . .

شاعر من الكويت

الكويت العربية إقليم عريق فى عروبته وتاريخه ، كان منذ القدم صحراء جرداء لاحياة فيها ، وقد بدأ التكوين الاجتماعى والسياسى فيه على أيدى أسرة «الصباح» فى مطالع القرن الثانى عشر الهجرى ، وظل أفيالها يتوارثون الإمارة حتى اليوم ، وكان للكشف عن آبار ثرية بـ « البترول » فى هذا الأقليم أثر فى تجديد معالم الحياة والثروة والنهضة فى الكويت الحديثة ، وعميد الكويت هو الشيخ عبد الله ابن السالم الصباح أمير هذه البلاد اليوم ، وتزداد الصلات الثقافية والأدبية بين الكويت والبلاد العربية — وفى طليعتها مصر — يوما بعد يوم ، ويحدثنا شاعرنا الكويتى عبد الله زكريا الأنصارى عن الأدب فى بلاده فيقول (١) :

« إن أدباء الأقطار العربية الأخرى ، تتوافر لديهم كل الوسائل التى تدفعهم إلى الظهور والشهرة ، لهذا تراهم يقرأون فيكتبون ويستوعبون فيبحثون ، ويستظهرون فينتجون . أما أدباؤنا فقد اضطرتهم البيئة — لعدم توافر أسباب الطباعة والنشر — إلى العزلة ، وإلى الانزواء على أنفسهم ، وإلى الانقطاع للقراءة والتحصيل . وإلى التفرغ للبحث والتنقيب . دون أن يجدوا المجال الكافى لإظهار آرائهم وأفكارهم الأدبية أبحاثا ومقالات وقصائد ، على الورق لكى ينتفع بها الناس ويفيد منها الوطن ، إننا نرجو أن يجىء اليوم الذى يكشف لنا عن مواهب أدبائنا ، وسعة اطلاعهم ، ويدفعهم إلى إظهار علمهم وفنهم الأدبى ونشره بين الناس ، وإن تباشير النهضة الفكرية لقريبة جداً ، والكويت لاتقل أبداً — فى محيط الأدب والثقافة — عن أخواتها من البلاد العربية الأخرى ، وأدباء الكويت يمتازون بالبحث العميق والاطلاع الواسع ، والتنقيب فى بطون أمهات الكتب العربية ، قديمة وحديثة ، وبين أدباء الكويت من يبحث فى هذه الكتب بحث العالم المدقق ، أى أنه لا يبحث لمجرد اللذة والاستمتاع ، وإنما يبحث حبا الاستطلاع وينقب رغبة فى الاستزادة وتتبع الحركات الفكرية ، وللوصول إلى معرفة العقائد الأدبية ، والمذاهب العلمية ،

---

(١) مجلة البعثة الكويتية عدد أكتوبر ١٩٥١

ويسير الشعر فى الكويت بخطى كبيرة فى سبيل الازدهار والجودة والذيوع ، ويحدثنا كاتب كويتى عن الشعر فى بلاده ، وضعف الاهتمام بنشره وإذاعته ومسئولية الشعراء وإدارة المعارف عن ذلك (١) . . وفى هذا العام نشر فى مصر ديوان « الموازين » للشاعر محمود شوقى عبد الله الأيوبى ، وقد بدأ شعراء الكويت يذيعون قصائدهم على صفحات مجلاتهم الفتية : « البعثة » و « الارشاد الاسلامية » و « الايمان » و « الرائد » ، وبدأ الأدباء فى مصر يقبلون على قراءة أدبهم وتقديره . ومن شعراء الكويت : محمود شوقى الأيوبى ، وخالد محمد الفرج ، وأحمد محمد زين السقاف ، وعبدالله على الصانع ، وعبداللطيف بن آل نصف ، وعبد المحسن محمد رشيد ، وأحمد مشارى العدوانى ، وصقر بن سالم الشبيب ، وعبدالله سنان ، وغيرهم.

وشاعرنا الكويتى عبد الله زكريا الأنصارى من أظهر الشعراء من الشباب ، وهو أديب بفطرته ، وكاتب بليغ الأسلوب ، وصحفى نابه ، وقد يكون الشعر أقل جوانب شخصيته الأدبية ، ينظمه بين الحين والحين ، قصائد جيدة ، يصور فيها حياته وآماله وآلامه ، ويشارك المجتمع العربى فى أحزانه ومسراته ، ويتحدث عن الكويت ونهضتها ومعالم الحياة فيها وعن أصدقائه حديثا ممتعا جميلا ، فى نغمة موقعة حلوة ، وموسيقى عذبة لطيفة ، وواقعية عميقة التأثر والتأثير ، مما نوه بها عبد الله محمد الطائى فى دراسته لشاعرية شاعرنا الأنصارى (٢) .

يقول الشاعر من قصيدته « حزن » التى أهداها إلى صديقه الشاعر أحمد مشارى العدوانى (٣) :

ذقت مر العيش من زمنى ... والشجى بالعيش مقترن
صيغت الأيام من كدر ... والليالى دأبها الضغن
كلما أمعنت فى فكرى ... خار من إعيائه البدن
حيلى أفنت تجاربها ... حادثات الدهر والإحن
بالدنيا كلها خدع ... حار فيها الحاذق الفطن
كم أمنى النفس أفنتها ... والأمانى طبعها الفتن

---

(١) مجلة البعثة عدد يناير ١٩٥٢ .

(٢) مجلة صوت البحرين — العدد الثانى عشر من السنة الثالثة — ذو الحجة ١٣٧٢ — مقالة بعنوان : « شعراء من الجزيرة — الأنصارى » — ص ٢٣ — ٢٥

(٣) البعثة — عدد اكتوبر ١٩٥١ .

دعك من أحلام أخيلة ماها وزن ولا ثمن
أدفن الآلام فى كبد ماهـا سر ولا علن
وأكتم الأحزان حيث لها فى حنايا القلب مؤتمن
مالنـا فى أمرنا أبداً غير ما يأتى به الزمن
نغتـدى والموت يطلبنا كلنـا بالموت مرتهن
ليس يجدى النائحات إذا شق فى يومى لى الكفن
فادرع بالصبر محتسباً « إن دهاك الهم والحزن »

فنجد نغما حزينا متصلا مؤثرا ـ وتقرأ له من قصيدته « من وحى المولد » (١)

أسكتت سورة الشجون غنائى فتلاشت أصداؤه فى الفضاء
وعروس الخيال شردها الوهـ ـم فتاهت فى ظلمـة ظلماء
ونشيدى ، وأين منى نشيدى؟ ضـاع فى لجة مـن الأهـواء
فغنا الفكر والقريحة جفت والأمانى تبعثرت فى الهبـاء
وتراءت من كوة الغيب أشبا ح تبدت بأوجه سـوداء
كلما رضت بالنشيد بنات الـ شعر عادت تشكو من الإعياء
ياعروس الخيال بالله عودى واملأ مهجتى بنور السماء
قربى طيفك الحبيب منى وتهادى بساطع الأضواء
أسمعينى نشيدك العذب لحنا عبقريا يجنح الأصداء
رددیه فى مسمعى وأعيدى واسكبيه فى أذنى الصماء
وأطلى بوجهك السافر الضا حك كى أستمد منه بهائى
القوافى ، وأين منى القوافى؟ راقصات تضوع بالأشذاء
تسمع الدهر أغنيات من المجـ ـد بلحن يرن فى الصحراء
مهبط الوحى والنبوة والحـ ـق ومهد الأسود والحكماء
ومحط العلا وأرض النبيين عليها — ومنبع الشعراء
ما ترى القوم يوم أشرق فيها سيد المرسلين والأنبياء
غير أسد غطارف همها العد ل وغاياتها بلوغ العلاء
تهدم البغى بالعقيدة ، بالإيمـان ، بالصبر ، بالنهى ، بالإباء
وتشل العروش فى مسرح الكو ن ؛ وتبنى المنى أعز بناء

(١) البعثة ـ عدد يناير ١٩٥٢ .

هل أتاكم حديثها يوم روت منبت العز من زكى الدماء
يوم لاحت راياتها خافقات تنشد النصر فى ذرى الجوزاء
صرع الشرك صرعة من ذهول رددتها مجاهل البيداء
والخرافات مزقتها يد العق ل فأضحت منثورة الأشلاء
يا لذكر أريجه من عبير وارف الظل ، ساطع الأفياء
فاح منه عهد النبوة والعز وعهد المروءة الشماء
يا ليـــوم على الزمان يتيم فيه قد أشرقت شموس الرجاء
وأضاءت قلوب يعرب حتى طهرتها بنورها اللألاء
فتسامت مشاعل الحق تهدى بسناها معارج الغبراء
وتجلى نور الهداية فى الأر ض وقد عم شاسع الأرجاء
أتراها تعود أيامنا الغر وتغدو مليئة بالبهاء
أتراها تعود تلك الليالى زاهيات تفيض بالنعماء
حلم داعب الخيال وولى كالرؤى لاح طيفها للرائى
ذاك عهد مضى ، وألوى به الده ر وعفى عليه أى عفاء

فنجد صورة لطيفة جيدة ممتعة فى الخيال والتفكير والاحلام والآمال والطموح إلى حياة مجيدة للعرب والعروبة .

ويؤمن الشاعر بوحدة العرب ، ويقول من قصيدته « الوحدة العربية » :

قلوب انا نحو العلا تتلهف وأرواحنا باسم العروبة تهتف

ويفرح بيوم الجلاء فى سوريا ، حين خرجت جيوش الاستعمار من هذه البلاد العربية ، فى ١٧ نيسان ١٩٤٦ ، فرحا يصوره فى قصيدته « يوم الجلاء » التى يقـــول فيها :

ترنم بالنشيد وبالقصيد وهز بوقعه سمع الوجود
أيا يوم الجلاء طلعت فجرا وحررت الرقاب من القيود
أبناء الأولى بلغوا المعالى وشادوا الحق فى الماضى المجيد
كتبتم بالدماء سطور مجد وأحييتم بها عهد الجدود

ويتحدث عن نكبة العرب فى الأندلس فيقول من قصيدته « قصة العرب فى أســـبانيا » :

صروف الدهر قد أخنت عليهم وفوق ديارهم نعق الغراب

والانصارى متعلق بوطنه يحبه ويفديه ، يقول مخاطبا الكويت من قصيدته فى تحية صحيفة « النجاح » الكويتية :

أضفى الظلام عليك سترا وطفى عليك الدهر قسرا
جارت عليك يد الزما ن وإنها لتجور غدرا
إن الزمان وإن رأيـ ت الخير منه فظن شرا
دأب الزمان الغـــدر لكن إن بعد العسر يسرا
عشر قضيت من السنين وأنت ما أبديت أمرا
واليوم هاقد لاح سعـ ـدك واستحال الليـــل فجرا

ثم يخاطب الصحيفة ، فيقول فى جمال :

عودى كما عاد الربـ ـيع ، وصعدى فى الجوعطرا
عودى كما عاد الربـ ـيع ؛ وجددى للعـــلم ذكرا
عودى كما عاد الربـ ـيع ، وحرري للشعب فكرا

ويندد بصنائع الاستعمار ، فيقول فى وطنية ثائرة من قصيدته « أفيقوا يا ولاة » التى نبه فيها النائم ، وأيقظ الغافى ، وهدد الاستعمار وأذنابه :

ألا أيها النوام طال رقادكم فهبوا انهضوا ، فالمجد رهن التوائب
ألما تفيقوا والأمور يسوسها أجير الأعادى بالأمانى الكواذب
أفيقوا أفيقوا يا ولاة وأطفئوا بعزم وحزم نار شر العواقب

ويبكى الشاعر لمصرع فلسطين العربية ، ويصور جهاد العرب فى إنقاذها ويتحدث عن محنتها ، ويثور فى وجه الطغاة العابثين فيها ، فيقول من قصيدته « فلسطين » :

يافلسطين زهت أوطاننا ببنى المجد وجاءت تتبارى
هتفت مصر وضجت مكة وغدت بغداد لا تبدى قرارا
وربى صنعاء قد ربعت كما وطن الأحرار فى المغرب ثارا
وربوع الشام حيث اضطربت ألما هيج فى القلب ادكارا
أعلنوها ثورة قدسية ومشى الاسلام فيها والنصارى

وكذلك نجد الشاعر فى قصيدته « ثورة النفس » يتحدث عن فلسطين ومحنتها فيقول فيما يقول :

يافلسطين أنت أنشودة المجـــ ـد وذكر المقيم والنزاح

نام عنك الليوث فاستأسد الذئـ ب وقد جاء فى القضاء المتاح
يابنى العرب والعدو مجـد ليس تنجو أوطاننا بالنواح

ويقول من قصيدته « قد سئمنا وملنا » :

قد سئمنا القول من كان وكنا وملنا النظم ألفاظا ووزنا
خطب تلقى فـلا نسمعها غير أقوال حوت دانوا ودنا
وقصيـد زوقت أوزانه قد خلت أبياته من كل معنى
ليس يجدى زخرف من كلم لا ولا يدرك شيئا من تمنى
نتمنى والأمانى كذب يالها من أمنيات ليس تغنى
كم ملأنا كل نفس حسرة وسكبنا الدمع آلاما وحزنا
حدثنا نوب الدهر بمـا قد حسبنا جله حدسا وظنا
حادثات الدهر فى غاراته شغلتنا عن هوى قيس ولبنى

ويتحدث فى هذه القصيدة حديثا طويلا عن فلسطين ومحنتها وصنيع مجلس الأمن فى قضيتها ، فيقول :

مجلس الأمن وكم أسمعتنا من ضروب الزور فى التحكيم فنا
مجلس الأمن وما الدنيا سوى لعب هلا جعلت الخوف أمنا
لاأرى قصرك هذا أبدا غير بيت شيد للأحرار سجنا
ياليـافا أتراها هودت بعد ما كانت لآل العرب وكنا
ولحيفا أتراها أقفرت وخلت أربعها مغنى فغنى
ليتنى والدهر فى سكرته لاأرى عينا ولا أسمع أذنا

ولا ينسى الشاعر العراق ومصر وسواهما من بلاد العروبة فى شعره ، مما ينبىء عن روح عربى موروث فى قلبه وعقله .

وللشاعر قصيدة يائية حاكى فيها ابن الفارض فى يائيته المشهورة « حادى الاظعان يطوى البيد طى » ، يقول منها فى صديقه ابن زين السقاف الشاعر :

ابن زين أريحى فاضل فاق فى إكرامه حاتم طى
هاشمى عربى خالص نسب يرجع من عهد اوى

وقصيدة الانصارى الحائية التى يقول فيها :

أشرق الكون بأنوار الصباح وغدا الليل كما الستر المزاح

يبدو فيها أثر من حائية ابن المعتز المشهورة .

وله قصيدة عنوانها « صوت أبي العلاء » يقول فيها :

أساء الظن أحمـــد فى البرايا هموا ليسوا سوى نعم وشاء

وقصيدته « شاعر الغزل » التى يقول منها :

شعره غدا مضرب المثل

كان يتبع الحسن حيث حل

يسير الأنصارى فيها على وزن مولد نظم عليه شوقى ومطران والفيف من الشعراء المعاصرين .

والانصارى بعد هذا كله ليس له ديوان مطبوع ، وشعره مفرق فى الصحف والمجلات الادبية ، وسيجىء يوم يصبح الانصارى فيه من أفحل شعراء الجزيرة العربية أسلوبا وبلاغة وطبعا وجودة . . وأسلوب الانصارى قد يبدو فيه فى أحيان قليلة شىء من التكلف وعدم الصقل الشعرى ، وقد يكون ذلك مبعثه البديهة والارتجال فى الشعر والعناية بالمعنى أكثر من اللفظ ، ولكن الأنصارى على أى حال يمثل فكرة أدبية جديدة فى الكويت ، وشعره صورة جميلة لهذا الوطن العربى فى نهضته وتوثبه وجده وطموحه . . ونحن لانجد بدا حين نريد دراسة الادب فى الكويت من دراسة أدب الانصارى وشعره ، وقد يكون نثره الادبى اكثر من شعره ، وهما مع ذلك تعبير قوى عن العرب والعروبة وآمال الناس فى هذه البلاد

وللاستاذ احمد الشرباصى دراسة عن شاعرنا (١) ، يقول فيها إن الشاعر ولد عام ١٩٢١ فى مدينة الكويت ، وتعلم فى طفولته على يدى والده ، ثم دخل المدرسة المباركية ، وبعد حين درس فيها وقتا من الزمان ، ويذكر أن الشاعر تأثر بأدب الزيات والمنفلوطى والرافعى وبشعر الرصافى أولا وعمر أبى ريشة أخيرا . . ، ويقدر الشاعر المتنبى من القدماء وشعر أبى ريشة والاخطل الصغير وعلى محمود طه وخليل مردم ومحمد مهدى الجواهرى وبدوى الجبل من المعاصرين ، كما يعجب بشوقى عندما يعارض قصائد القدماء ، وبشاعر الكويت فهد العسكر الشاعر الكويتى المشهور . . وتحن نرى تأثره بخاله الشاعر محمود شوقى الايوبى أكثر من سواه . . ويقول الشرباصى عن شعره : إنه متين رصين يجمع بين الخيال والواقع وبين العاطفة والتفكير ...

---

(١) ص ١٧٣ — ١٨٠ أيام الكويت ـ تأليف أحمد الشرباصى ط ١٩٥٣ - دار الكتاب العربى بالقاهرة

شاعر من الحجاز

الشاعر الحجازى المدنى المجدد ، محمد العامر الرميح ، من أسرة « العهد الجديد » . . شاعر عربى على أبواب الخامسة والعشرين ، من أسرة عريقة ، يشتغل بالتجارة ، ومع ذلك فهو مؤلف وأديب . وشاعر ، له من دواوين الشعر : ديوان أنا ، وديوان مع الليل ، وله عدة كتب أدبية مخطوطة منها :

١ ـ الليالى الحمراء

٢ ـ هؤلاء الشعراء ، وهو مجموعة دراسات عن بعض الشعراء فى الأقطار العربية والمهجر ، ونقد لقصائدهم

٣ ـ النبى المجهول أو عبقرية الشباب

وهذه صور من شعره وقصائده ، يقول من قصيدة له بعنوان « مع الليل » .

لنفترق الآن . . . كل إلى غاية ينطلق
لنفترق الآن من قبل أن يضمحل الظلام
ويصحو الأنام
وتكشف أسرارنا المبهمة
ونختار : من أى درب نعود . .
من أى درب نعود . . ؟
وكيف السبيل لحطم القيود ؟
وما من طريق . . إلى النجوة
وما من مفر . .
وما من سبيل إلى العودة
لنفترق الآن . . ما دام هذا الدجى
سيحجبنا عن عيون الورى
وما دامت الأنجم الساهمة
تنير لنا الدرب . . . درب الرجوع
إلى القرية الحالمة
لنفترق الآن . . آن لنا أن نعود

وآن لنا أن نودع . . هذا الوجود
فـــلا تحزنى . . . إننا فى غد
لسوف نعود . . .وقد نلتقى
مع الليل ، فى نفس هذا المكان
فى نفس هـــذا المكان . . .
لنفترق الآن . . آه . . ولكن هناك
هناك وراء الظلام العميق
كأنى أصيخ لوقع خطى
وهمس شفاه
تبعثرها الريح بين الشعاب
وتنشرها فى حنايا الطريق
وفى كل زاوية ومكان
كأنما أبصر فى عمقه
ظلال شبح . . .
يمر أمامى كحلم بعيد
كحلم توارى . . توارى . . ومات
ولكن أطيافه لم تزل
تثير بنفسى شتى الذكر
وتغمر قلبى بشتى الصور
وترسم لى ذكريات الصغر
لنفترق الآن . . آن لنا أن نعود
وآن لنا أن نودع هذا الوجود
فلا تحزنى . . إننا فى غد
لسوف نعود . . وقد نلتقى
مع الليل . . فى نفس هذا المكان
فى نفس هذا المكان . .

وله من الشعر الرمزى قصيدة بعنوان « طوفان » يقول منها :

. . وعصفت الرياح
وانطفأ المصباح
وتعالى النواح
(أماه) (أبى) (أختى)
فيرجع الأعصار ألف صوت
(أخى) (ابنى) (بنتى)
ويسمع من بعد دوى إعصار
تعقبه ضجة . . الأمطار
وجندى يمر تحت الدار
ـ إلى أين . . ؟
بيوت تنهار . بيوت تنهار
جنائز فى كل دار
ـ خذنى معك ؟
ـ أين . . ؟
ـ إلى الموت .. أيها الملك
أحب أن أموت، أن أحترق
ـ هات يدك . .
الحياة لمن هلك
خوّض معى فى الطين
اقتحم الأمواج
ـ قدماى غاصتا فى الطين
تكاد تجرفنى الامواج
أف.. البرد ، البرد كالمسمار
أف.. البرد ، البرد كالسكين
وفى الغد . .
مرت الشمس مغسولة الجبين
وحدقت فى (اللاشىء) فى الميتين
عبرة الآخرين.. إلى الابد

ومن شعره المرسل قصيدته « نداء الحياة » وهى مهداة لصديقه الشاعر المهجرى شفيق المعلوف ، ويقول فيها :

ترى . . أى صـــوت غريب ؟
تحدر من خلف . . . خلف الغيوب
ينادى . . تعـــال . . تعـال إلى
تعـــال . . . أضمـــك بين يدى
تعـال . . أرقرق فى شفتيك . . .
رحيق الخلود
وأغمر . . . فى ألقى . . . مقلتيك
وكل الوجود
فيهـا . . تعـال . . تعـال إلى
تعال . . . قبيل يبين الصباح . . .
نذوب . . . فى الكأس . . آلاما
ونفسى . . الأسى . . والبكا . . والنواح
وكل الحياة . . . . وكل الدنى
فيها . . . تعال . . تعال إلى .
وهذا . . أنا — ياحبيبى — . . هنا
رجعت . . . إلى صخرة الموعد
وباقـة زهر . . . . . نـدى
غفت . . . فى يدى ! . .
وملء فؤادى . . . فؤادى الغريب
حنين . . وشوق . . ولهفـات
وملء ، ضلوعى . . . الصبابات . .
وفى عمق أعماق . . . قلبى . . الحزين
وفى عمق . . . روحى . . . الطهين
أحس . . بشىء . . خفى . . غريب
بشىء رهيـــب ! !

تغلغـــل . . . فى أضـــلعى . .
وكالرعشـــة البـــاكية . !
ســـرى ، عاصفات . . . فى دمى
وفى . . . عمـــق أعمافيـــه . .
وألهـــب ، . أشـــواقى الغافيـــه
وأيقظ ، . . فى النفس . . أحزانها !!
ترى . . أى سر غريب . . .
غريب ، . . ولغـــز عجيب . . !
سرى ، . . بين أحشـائيه . .
وفى عمق ، . . . أعماقيه . . ؟ ؟
آه . . .
وذاب الصـــــدى ! !
فأسرعت ، فى حذر . . . وارتياب
أفتش عنه ، . . . هنا . . . وهناك
ولـكن ، . . ويا للاسى - لم أجد
هنالك ، . . . غير السكون . . العميق
فعدت . . مع الليل ، . . أطوى الطريق
وحيدا . . إلى القرية الحالمة
وحيدا . . بلاصاحب . . أو رفيق
وفى شفتى ، نداء جريح
نداء الحيـــاة ، بقلبى الذبيح ! !

والرميح يميل إلى التجديد فى بناء القصيدة ونهجها وموسيقاها وقافيتها إلى أوسع حدود التجديد ، وهو متأثر بشعراء المهجر أكثر من سواهم ، وبالمدارس الأدبية الجديدة التى تنتظم طائفة من الأدباء الشباب المجددين. وأثر شعراء مدرسة أبولو فى شعره قليل .

ويميل الرميح إلى شعر أبى شادى والشابى ، وهو يعمل فى إخراج ديوان الأشواق التائهة للشابى منذ حين .

والدراسات الأدبية عن شعراء الشباب ، وعن الرميح خاصة معدومة ، لأن

شعرهم مفرق فى شتى الصحف والمجلات الأدبية ، لا ينتظم شعر الشاعر منهم ديوان مطبوع . . هذا إلى العزلة الأدبية القديمة التى كانت سائدة من قبل بين أدباء الأقطار العربية ، ونحن لا نستطيع إصدار حكم واحد على الرميح وشعره لأننا لم نطلع بعد على كل إنتاجه الشعرى ولا على ديوانه « أنا » الذى لا يزال مخطوطا ، ونتمنى أن يجىء اليوم القريب الذى ينشر فيه هذا الديوان على الناس .

والرميح على أى حال من أظهر شعراء الحجاز المعاصرين من الشباب ، ومن دعاة التجديد ، وأسلوبه الأدبى فى مقالاته ورسائله تبدو عليه آثار الرصانة والجمال والمتعة الفنية . . . ومنهج الرميح الأدبى فى نظم القصيدة هو منهج المدارس الأدبية الجديدة التى كثرت فى البلاد العربية اليوم ، وهو على أى حال منهج لم يعلن النقاد بعد رضاءهم عنه . .

وإننى أحب أن تتقارب أذواق الأدباء والشعراء والنقاد فى البلاد العربية ، وأن تتلاقى المناهج الشعرية والفنية فى المستقبل على آراء وأصول عميقة فى فهم الشعر ونقده

ونحن نعرف من شعراء الحجاز ونجد المعاصرين : أحمد إبراهيم الغزاوى ، ومحمد حسن عواد . وأحمد قنديل ، وطاهر الزمخشرى ، وحسين سرحان ، وسواهم ، ولكن الرميح أكثر من سواه تأثرا بدعوات التجديد ومذاهبه فى الشعر . . ومعانيه عليها أثر العمق والشاعرية المتصلة بأعماق النفس وأغوارها البعيدة ، وخيالاته مستمدة من الحياة وواقعها ، ومن الأحلام والرؤى وخلجات العقل الباطن وآلام المجتمع وآماله ، مع حب للرمزية وتقدير لها ، وميل إلى الشعر الحر وبناء القصيدة عليه .

ونرجو أن يتفضل رائد مدرسة أبولو الشعرية ، الدكتور أحمد زكى أبو شادى بدراسة شاعرنا الشاب محمد العامر الرميح دراسة ينصف فيها مواهب الشباب وملكاتهم الخصبة ، فهو أجدر من يستطيع الحكم على المواهب والآثار الشعرية الجديدة ، التى تختلف حيالها الأذواق والأحكام الأدبية والنقاد .

وسنعود إلى دراسة الرميح حينما تقع فى يدنا مجموعات شعره كاملة ، لنستطيع أن نوفيه حقه من الدراسة والنقد والحكم الأدبى المنصف . .

محنة الأدب المعاصر

يثير حاضر الأدب العربي في بلادنا العزيزة كثيرا من الشجون والمتاعب النفسية العميقة لكل أديب وكاتب ، فالصحف والمجلات الأدبية تحتضر يوما بعد يوم ، والصحف السياسية الكبرى التي كانت تعتمد على الأدب اعتمادا كبيرا أصبحت تغلق أبوابها في وجوه الأدباء والكتاب ، وتعتمد على الصور والخبر الصحفي أكثر من اعتمادها على المقالة والرسالة والقصيدة والبحث . . والشعوب العربية لا تشجع الإنتاج الأدبي تشجيعا يذكر ، والحكومات تضن بالمال على الأدب حين تسرف في إنفاقه على الدعاية وشئون أخرى تافهة ، بل إنها تحرم مكتبات مدارسها من كتب الأدباء المعاصرين لتوفر المال لإنفاقه في وجوه أخرى . . . إن الحكومات العربية لم تعد تؤمن بالأدب ، أو تضع في برامجها تشجيع الأدباء ، والأديب العربي الأصيل لم يعد في وسعه أن يعيش للأدب ، ويفنى فيه ، لان الأدب لم يعد شيئا مذكورا في بيئاتنا العربية ، وكبار رجال الغناء والفن لا يقبلون على تلحين القصيدة والغناء بها ، كما يقبلون على القصائد العامية والمواويل الشعبية . . وقد اضطر الاديب العربي إلى أن ينزل عن كبريائه ، ويجاري رغبات المجتمع ، فترك المقالة والرسالة والقصيدة إلى القصة القصيرة ، التي يمكن في أحيان قليلة نشرها في صحيفة أو مجلة ، وترك إخراج الكتاب الأدبي والديوان الشعري إلى نشر الأقاصيص العاطفية المثيرة التي يقبل عليها الشباب والمحرومون من اللذة . . . ولم تعد للقصة الطويلة - وهي لون أصيل من ألوان أدبنا الحديث - مكانة تذكر ، ولم يعد الاهتمام موجها نحوها في قليل ولا في كثير .

قد يكون سبب ذلك كله هذا الروح المادي الذي يجتاح البلاد الغربية ، ويجعلها تؤمن بحاجاتها المادية دون مطالبها الروحية ، وقد يكون السبب ضعف الأذواق الأدبية ، وقلة عناية الحكام بتشجيع الأدباء ، ولكن السبب الأكبر هو انصراف الجماهير عن الأدب وقلة عنايتهم بقراءته ، بتأثير طغيان العامية والمادية معا ،

ومهما كان فإن لهذه الظاهرة الأليمة نتائج خطيرة جدا في حياتنا العامة والخاصة ، فقد نشأ عن ذلك انتشار روح السخط في إنتاجنا الأدبي المعاصر ، ووقوف الأدباء عن توجيه الجماهير للتوجيه الصالح ، وتركهم يقعون فريسة لذوي المواهب الضئيلة ،

والاهواء الصغيرة ، من محترفى الادب والسياسة ، بل للدعاة إلى المبادىء الهدامة ، والأفكار الخاطئة ، والمذاهب السياسية الاستعمارية الغريبة عنا ، كما نشأ عن ذلك حرمان المجتمع العربى من بعض مفكريه النابهين ، الذين آثروا الهجرة إلى أوربا وأمريكا ليعيشوا فيهما فى ظلال حرية فكرية أوسع ، وتقدير أدبى كبير من الأوساط الأدبية المثقفة فى هذه البلاد ... بل قد أدى ذلك أيضا إلى ظهور آلاف من الكتب والقصص التافهة التى تؤثر فى عقول الشباب ونفوسهم تأثيرا ضارا سيئا ذا أثر محزن فى حاضرنا الفكرى والثقافى ، وإلى انحطاط مستوى الروح الأدبى والعلمى فى أوساطنا المثقفة ... وسينشأ عن ذلك بتوالى الأيام - اذا استمرت هذه الظواهر السيئة - إعراضنا عن العلوم والثقافة العربية القديمة الأصيلة - التى عنى ، ولا يزال يعنى - بها كثير من المستشرقين فى جامعات أوربا وأمريكا .

ويقظة الرأى العام العربى فى مصر والشرق العربى الآن ، لابد أن تؤدى إلى علاج هذه الظواهر الفكرية علاجا حاسما ... وإن علاج مثل هذه الحالة أمر ممكن إذا صدقت العزائم ، . فيجب على الحكومات العربية أن تعنى بأدبائها عناية كبيرة ، وتحتذى فى ذلك حذو سوريا التى عينت كبار أدبائها فى الوظائف العلمية والسياسية الكبرى داخل سوريا وخارجها ، ويجب عليها أن تشجع إنتاج أدبائها تشجيعا مثمرا يحول بين الأديب والفاقة ، ويجعل نشر آثاره الادبية أمرا ممكنا... ثم على طلاب جامعاتنا ومثقفينا مسئولية كبيرة ، إذ يفرض عليهم حبهم لبلادهم وللثقافة التى عاشوا من أجلها ، أن يشجعوا إنتاج الأدباء بأقصى مايستطيعون من وسائل ، والجماهير نفسها عليها واجب تشجيع الأدب والأدباء فى كل مكان وبكل وسيلة ... ففى أوربا لابد للفلاح وللتاجر والصانع من تخصيص جزء من ميزانيته لشراء الجديد من الكتب الادبية والعلمية ليقرأها هو وأولاده وأسرته ... إننا ننادى بالاهتمام بالأدب ورعايته ، وباستثمار مواهب أدبائنا إلى أقصى حد ممكن . وليس معنى إشفاقنا من حاضر الأدب العربى أننا نكره دعوات التجديد فى الأدب أو أننا ندعو إلى استعادة الرجعية الأدبية نشاطها الممثل فى صحفها ومجلاتها الأدبية التافهة التى تخدم أهواء طائفة خاصة من الناس ، بل إننا من الداعين إلى التجديد الأدبى فى أوسع نطاق ، وإلى جمهورية الأدب والإخاء الأدبى والروح الإنسانى فى إنتاج الادباء ، وواقعية الادب وسيادة المذهب الاجتماعى فيه ...

وندعو كذلك إلى أن الادب يجب أن يخدم قضايانا المقدسة فى كل مكان . معتقدين أن رسالة الأدب أخطر رسالة فى حياتنا الحاضرة والمقبلة ، وأن القرآن الكريم الذى حافظ على اللغة العربية خلال العصور الماضية هو الذى يحافظ وسيظل يحافظ على الأدب وبقائه ليؤدى رسالته فى خدمة الحياة ... وإن زيادة انتشار المعرفة والثقافة والوعى الصحيح فى مجتمعاتنا العربية لكفيل بأن يضمن للأدب فى بلادنا العربية مستقبلا كريما زاهرا مشرقا بإذن الله .

المؤلف تحت الطبع

قصص من التـــاريخ

كتاب ضخم

يجمع أروع القصص من التاريخ والأدب والنقد

المطبعة المنـــيرية بالأزهر

دراسات نقدية للكتاب

— ١ —

فى الأدب الحديث :

عناية صديق الأستاذ الكبير محمد عبد المنعم خفاجى بالأدب المعاصر ، عناية تستأهل كل تقدير ، لأنها جاءت فى أعقاب عناية أصيلة شاملة بالأدب القديم جعلته خير من يأخذ أصول النقد القديمة لكى يسترشد بها فى الحكم على الآثار الأدبية الحديثة غير مغفل ولا تارك أصول النقد الحديثة .

وكتابه الجديد « مذاهب الأدب » ينحو هذا النحو الأكاديمى الحقيق به ، لأنه ، وقد استظهر الشعر القديم واستبطنه وعاش مع فحوله يشاركهم متعة الشعر ويقرأ ما كتبه عنهم النقاد وحاملو الموازين ، غدا خير من يصدر الحكم الفطن السليم على الشعر والشعراء المحدثين ، من كان منهم موصول الانتاج موفور الايام ومن صار نتاجه فى ذمة التاريخ الأدبى لأنه ودع الدنيا . وقد سعدت إذ عرفت كثيرين من الشعراء الذين تناولهم الاستاذ خفاجى فى هذا البحث الممتع ، عرفت منهم خليل مطران وإبراهيم ناجى وحسن كامل الصيرفى ومحمد الاسمر وعبد الله زكريا الأنصارى ، فأتاح لى أن أعيش عن كثب مع الشعراء وأن أنشد شعرهم وشخصياتهم تتمثل أمامى بجميع خصائصها ومميزاتها . وكنت أحظى فى سوانح شتى بالإصغاء إلى هذه الكوكبة من الشعراء وهى ترتل شعرها على مسمع الآذان المرهفة ، أو فى مجالس الأثيرين من خلص الأصدقاء ، فتنتابنى نشوة تجددها الايام كلما عاودنى الحنين إلى دواوين الشعر .

غير أن لى رأيا فى الشعر عامة أتحين هذه الفرصة لإبدائه تزكية لما ذهب إليه الاستاذ خفاجى من أن الشعر وقف على التعبير عن آمال البشرية وآلامها . فالشعر فى أغلبه انفعال ، وتعبر ألفاظه وأنغامه وموسيقاه عن صدى هذا الانفعال فى نفس الشاعر المرهفة . ولكن كثرة من الشعراء تقصر انفعالها على المناسبات ، فيجىء القصيد بادى التكليف غير صادق فى تبيان العاطفة فى أنصع مراحل تجليها ، مع أنه كان حريا بالشعر أن يحتكر هذه الصفة ، لأن ما تتسامح فيه مع الشعراء وكتاب القصة ،

من اطراح ثوب الادعاء والسير على السليقة ، قد لا نتسامح فيه مع غيرهم ممن يكتبون ، وذلك لأن للشعر منزلة خاصة فى النفوس ، لا مثلها منزلة النثر ، والناس تهوى الشعر وتحفظه وتردده ، ولا كذلك النثر إلا ماندر .

وقد كنت صفى خليل مطران فى أخريات أيامه ، أكثر من زيارته حين أقعدته العلة وتفرق عنه الشمل ، وكنت أصارحه بأن شعر المناسبة الذى غلب على كثير من دواوين الشعر الحديثة إنما يهدر قيمة هـــذا النتاج الأدبى الفاخر ، ويجعله كصفحات المصنفات التاريخية التى تسجل وقائع الايام وأحداث الزمان ، فكان رحمه الله يقول : ألسنا بشرا يصدق علينا ما يصدق على سائر البشر ؟ . فإن حلقنا فى أجواء بعيدة عن الارض رمينا بازدراء الدنيا ومشكلاتها والناس وآلامهم وآمالهم ، وإن عشنا بين الناس تنبض قلوبنا بما تنبض به قلوبهم ، وشاركناهم المرح والترح وجعلنا للشعر كلمة فى كل محتفل ، وغنيناه نظما فى كل محتشد ، قيل عنا إننا ذوو رياء نقف بالأبواب ونطلب الجزاء .

وهذا الرأى صحيح فى جوهره ، ولكنه لا يعد مسوغا كافيا لتسابق الشعراء على اقتناص المناسبات يستمدون منها وحدها دون غيرها وحى قصيدهم . فالشعر شأنه شأن ألوان الفن الأخرى ، لا يجيده إلا من كان موهوبا ومن طاوعته على الشعر نفسه فى غير تسخير أو تكلف . . وأعذب الشعر ما خلدته عاطفة خالصة من كل شائبة ، وشر الشوائب ما أخرج الشعر عن نطاق السليقة إلى نطاق الصنعة .

ولعل أصدق وصف لكتاب « مذاهب الأدب » الذى يضيف به الاستاذ خفاجى لبنة كريمة من لبنات فن النقد ، أنه موكب من مواكب الادب . تترادف صوره على مسرح الذوق الفنى . فكلما مر موكب ، تأمله الناقد بعين فاحصة دقيقة ، ثم أشرك القارىء معه فى إصدار حـــكم عليه مستعينا بسلامة ذوق ودقة بصيرة وأصالة علمية . وكم كنت أوجو ألا يخلو هذا الموكب من الشاعر محمود أبو الوفا ومن الشاعر صالح على شرنوبى ومن الشاعر نزار قبانى ومن الشاعر محمود حسن إسماعيل . فلكل من هؤلاء منحى فى الشعر يستأهل وقفة عنده ، أما الشاعر أحمد زكى أبو شادى فقد استوفى حظه من دراسة الاستاذ خفاجى فى مبحثه النفيس « رائد الشعر الحديث » . . .

وديع فلسطين

مذاهب الأدب والنقد :

يسرنا إزاء النكسة الأدبية الراهنة أن نحيي مطلع كل كتاب فى الأدب الحى الخالص ، ولهذا قد طاب لنا أن نذيل هذا الكتاب ونبتهج بشروقه ، وتهنىء مؤلفه الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى على جهوده الأدبية الشريفة المتتالية لخدمة الأدب ، وإبراز صورة موفقة للحركة الأدبية والنقدية فى العصر الحديث لشباب اليوم ، الذين لم يسعدهم الحظ بالاطلاع اطلاعا كافيا على كثير مما دبجه أدباء الجيل ونقاده .

وليس هذا الكتاب مقصورا على ناحية واحدة من نواحى الأدب كما يحمل عنوانه ، ولكنه مجموعة بحوث فى أخطر مشكلات الأدب والشعر والنقد ، والتاريخ الأدبى ، وترجمات موفقة مختصرة لطائفة من كبار شعراء هذا العصر وشبابه المجيدين .

وكل من يتصفح هذا الكتاب يلمس : كم سهر المصباح من ليال مع هذا الكادح الدؤوب ، وكم رهقت الكتب والصحف فى تقليبه لها من اغرب .

وسيشعر فى أثناء تصفحه للكتاب بوجوب بذل أكبر طاقة لتصفية آراء المؤلف وغيره فى الأدب ، وعناصره ومذاهبه ، وفى النقد واتجاهاته ، والشعر ووسائل تجديده .

وقد خلص لنا بعد قراءة هذه البحوث المتراكبة المتشابكة فى هذه الميادين ، أنها ألمت إلمامات نافعة مختصرة بنواح عدة من نواحى الأدب ، والشعر ، والنقد ، والترجمة للشعراء .

فقد ضم الكتاب فى ـ ص ٦٩ ـ فصلا فى العوامل المؤثرة فى الأدب ، و ـ فى ص٧٢ ـ فصلا فى عناصره ، و ـ فى الصفحات ـ ٢٦ ـ ٣٨ ـ فصلا فى مذاهب الأدب وجال الكتاب جولات مختلفة فى حقل الشعر . وتحدث عن الشاعرية ـ ص ٢٧ ـ وعن التجديد الشعرى ، والألوان الشعرية ـ ص ٤١ ـ وعمل الشاعر والناقد ـ ص ٥٥ ـ ٥٨ ـ

ولم يقف عند هذا ، بل فاض حديثا فى نقد الشعر فى صفحات متناثرة ، وعقد فصلا مستقلا فى مذاهب نقد الشعر ص ٦٤ ـ ٦٧ .

وختم كتابه الزاخر بترجمات للشعراء المعاصرين على اختـــلاف مذاهبهم ، وخص أبا القاسم الشابى ، والتيجانى بشير ، والدكتور إبراهيم ناجى ، وحسن كامل الصيرفى بدراسات طويلة ، كما خص مطران ، وعلى محمود طه ، وحسن جاد ، بدراسات أخرى ممتعة . ولم ينس الرعيل الأول من شعراء مصر والعراق ، فترجم لشوقى وحافظ وصـــبرى ، وحفنى ناصف ، والزهاوى والرصافى والكاظمى . وأحسن صنعا للشاعرين الكبيرين : أحمد محرم وولى الدين يكن ، وهما من شعرائنا الشرفاء الممتازين الذين لم يلقوا من البيئة الأدبية إنصافا إلى اليوم وشاءت له أريحيته أن يضيف إلى هذه المجموعة ، ترجمة للشاعر الكويتى الفصيح عبدالله زكريا الأنصارى ، والشاعر الحجازى المجدد محمد العامر الرميح .

هذه خلاصة بحوث هذا الكتاب حسب تبويبنا ، وهى بحوث أغلبها مهم وخطير وفيها مادة صالحة للدراسة الواسعة المتعمقة ، كما أنها تفتح الباب للرأى المخالف ، لأن كثيرا مما رأى المؤلف ، أو مما حشـــده ، فى كتابه من أراء لطائفة من الكتاب والنقاد البارزين مما يؤدى إلى اختلاف وجهات الرأى والحكم ، ولا غضاضة فى ذلك ، إذ أن الكلمة النهائية فى النقد الأدبى لم تكتب بعد .

فمبدأ المؤلف فى اعتناق مذهب الفن للحياة ، ليكون للفن رسالة هى خدمة المجتمع (ص - ٤) . قد يختلف معه فى هذا المبدأ أصحاب المدرسة الفنية التى تنظر إلى الفن كمتعة عادية أو غير عادية ، والتى تمجد التجربة لذاتها ، وكيفية تناولها ، لا التجربة لثمرتها ، ونفعها . وتوجيهها ، أو مع أصحاب المدرســـة الحديثة الذين يقفون بين المدرستين السالفتين ، من وجوب وجود العنصر الشخصى للفنان ، على أن تحوى تجربته كل مظهر من حياة الإنسان سواء أكان دينيا أم نفسيا أم اجتماعيا .

وآراء المؤلف فى التجديد الشعرى ، المقصور على الموضوعات والمعانى والأخيلة ، إن اجتمعت عليها الأدباء والنقاد ، فلا يستطيع أن يوافقه جماعة متحررة على عدم التجديد فى الموسيقى الشعرية ، والجمود على أوزان الخليل بن أحمد ، وعلى القافية الموحدة ، وعلى اعتباره أن الشعر المرسل والشعر الحر ضرب من الفوضى (ص ٤٢ -) .

وذلك لأن التجديد لا يتجزأ ، وهو يشمل الموضوع ، كما يشمل كل عناصر الأسلوب والموسيقى ، وانه لا بد من التفنن الموسيقى والتحرر من أسر القافية الموحدة لما تورثه من تكلف وإنهاك ، وليس الشعر الحر ، كما جرى على قلمه ضربا من

الفوضى ، بل إن له صناعة فنية تخلق إيقاعات موسيقية وإن خالفت الإيقاعات التقليدية الموروثة ، والملحوظ أن دعاة التجديد الشعرى ينادون بالتجريب فى كل ناحية من النواحى الشعرية . فهم يجربون فى الألفاظ ، وفى الصور الشعرية ، كما يجربون فى الأوزان ؛ وقد أثمر تجريبهم نماذج شعرية لها إيقاعات موسيقية غريبة وغير منتظرة ، بلغت أقصى حد من إعجاب النقاد .

ولا نستطيع أن نوافقه على أن الكلاسيكية (الاتباعية) أصبحت اليوم فى الغرب أثرا بعد عين (ص٢٧) . إذ لا يزال فى الغرب من كبار الشعراء من يتابعون الكلاسيكية الجديدة من أمثال الشاعر الانجليزى الكبير « ت . إليوت » . وهو فى تفريقه بين الكلاسيكية والرومانتيكية يذكر أن « الفرق بين الأولى والثانية كالفرق بين الكامل والجزئى والناضج والفج ، والمنظم والفوضوى » (١)

كما لا نستطيع أن نوافق على أن أمثال امرىء القيس ، وابن المعتز وابن الرومى والمعرى من القدماء يعـــدون من الابتداعيين (ص ٢٨) . لأن هؤلاء الشعراء أساليبهم الكلاسيكية الملتزمة الرصينة ، وأوصافهم فى الطبيعة غالبا هى أوصاف خارجية ، والابتداعيون لم يقفوا عند وصف الطبيعة وصفا خارجيا حسيا ، بل نظروا إلى أثرها فى روح الانسان ، وآثار جمالها فيهم روح الألوهة ، لأنهم لم يسايروا القواعد الاسلوبية للقدامى ، بل كانوا يعبرون عن مشاعرهم بطريقة فردية وبأساليب بسيطة إذ وجدوا فى البساطة وهجا وإضاءة ، ولو شاء المؤلف أن يضرب أمثلة على الشعر الرومانتيكى عند العرب ، لوجد ضالته لدى شعراء الغزل من أمثال عمر بن أبى ربيعة ، وكثير ، وجميل ، وابن خفاجة الأندلسى ومن على شاكلتهم .

وأود أن أضيف أن المذاهب الأدبية ليست مذاهب مستقلة كل الاستقلال ، بل هى متداخلة ، فان الرومانتيكية قد تستعين بالواقعية فى بعض الأحيان ، كما أن الكلاسيكية قد تستجيب إلى الواقعية ، مغفلة أحلام الرومانتيكية ، وخيالاتها المسرفة (٢) ، وقد عنيت الرمزية بتسجيل المشاعر والتأملات الفردية كالرومانتيكية وإن خالفتها فى طريقة التعبير ، وقد تستعين الكلاسيكية بالرمزية فى بعض الاحيان من ناحية الموضوع ، كما نجد فى شعر « ت . إليوت » ، كما قد تستعين الرومانتيكية

(١) كتاب « نقد الشعر » تأليف س . هـ . بيرتون ص ١٤٥

(٢) كتاب الأدب والسيكولوجيا تأليف ف . ل . لوكاس - ص ١٠٠

بالرمزية ، كما فى شعر بودجز ، وحتى السريالية الغامضة قد تستعين بالواقعية ، وتمزج الحقيق بالخيالى فى سمت يعلو على الحقيقة ، كما أن المذهب العصرى الحديث (المودرنزم) السائد فى أمريكا هو مزاج من السريالية والواقعية مع توكيد المعنى المقصود بواسطة التكرار اللفظى وإرسال النفس على سجيتها (١) .

ونخلص من هذا العرض السريع إلى أن المذاهب الأدبية المختلفة هى أثر من آثار حالاتنا الفكرية والشعورية ، تبرزها حالة العصر الاجتماعية ، فدوافعنا وانفعالاتنا الأولى تقودنا إلى الابتداعية ، وحاسة الحقيقة والشعور بالمسئولية تقودنا إلى الواقعية ، وحب التقليـــد والنظام ، والحاسة الاجتماعية تقودنا إلى الكلاسيكية ، كما أن حالاتنا الشعورية الشاذة ، وحالة العصر المبلبلة تقودنا إلى المذاهب الغريبة كالرمزية أو الوجودية أو السريالية أو الفنية المجردة وما اليها من مذاهب .

وتبعا لما تقدم ، فإنا نجد فى شعراء الشرق والغرب ألوانا متداخلة من هذه المذاهب دون وعى منهم ، تفصح عن حالاتهم الشعورية والفكرية فى فترات مختلفة ، فالشاعر التونسى أبو القاسم الشابى مثلا قد تراوح شعره بين الكلاسيكية الجديدة ، والابتداعية ، والواقعية ، وأبو شادى أخذ بطرف من كل مذهب من هذه المذاهب ، فله شعر كلاسيكى ، وشعر ابتداعى ، وشعر واقعى ، وشعر رمزى فى موضوعه ، وشعر حديث يساير المودرنزم ، ومحمود حسن إسماعيل له ناحية كلاسيكية فى تعبيره ، وناحية رومانتيكية فى موضوعاته ، وناحية سريالية فى مزاجه .

ويمكن على أساس ماسلف ، اعتبار أبى نواس ، وابن الرومى لهما ناحيـــة رومانتيكية كما قال بحق مؤلف الكتاب ، فالأول ثار على الأساليب والقوالب والاوضاع اللغوية ، كما طرق موضوعات كان يخشى طرقها أغلب القدامى ، ورومانتيكيته من نوع منحرف لخلاعته ومجونه .. وأما الثانى ، فقد وصف نفسه وكشف عن هواتيته فى طائفة من قصائده . أما المعرى فسمته الغالبة هى الكلاسيكية وله جانبه الواقعى . وجانبه الخيالى فى رسالة الغفران .

ولا يمكننا الاستطراد فى التحدث فى هذا الموضوع الدقيق المتشعب ، لانه يتطلب بحثـــا مفردا . . . ولكن لايفوتنا أن ننبه المؤلف إلى ماجاء بالصفحة

(١) مقال « المودرنزم » فى الادب والفن للدكتور أحمد زكى أبو شادى — مجلة الآداب — ديسمبر ١٩٥٣

٣٥٠ . من أن الابتداعية والواقعية تبغض الشعر العاطفي .. لان الابتداعية قامت على العاطفة ، والواقعية لاتنكر العاطفة إذا لم تكن مسرفة .

ويهمنا أن نبرز بعض ماوعاه هذا الكتاب فى المجال الادبى . والشعرى والنقدى ، من آراء ، ففى المجال الادبى رأيناه يدعو إلى تجديد الادب بتلقيحه بالتراث القديم وتراث الغرب الحديث ، والنهوض به حتى يصبح لنا أدب قوى يعبر عن آمال الأمة وآلامها وعواطفها ومشاعرها أصدق تعبير (ص١٧) .. ووقفنا له على بحث جيد فى العوامل المؤثرة فى الادب ، وهى عوامل السياسة والدين والتصوف والحضارة والثقافة . (ص ٧١) ، ووقفناه ببحث آخر عن عناصر الاثر الادبى ، التى حصرها فى الاسلوب ، والخيال والفكرة والعاطفة ، وقد أشبع فى عنصر الخيال فتحدث عن الصور السمعية والبصرية والحركية ، وما لها من أثر فى تقييم الصنيع الشعرى ، وأتى ببيتين لشوقى لم يجد فى صورهما اتساقا ، (ص٧٥) والبيتان :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضا سابحات به ، وأبدين بضا

ولاعيب فى هذا التصوير ، لان الشاعر يشبه ظلال القصور فى النهر فى ذعرها ، بالعذارى السابحات يبدو منهن جانب ، ويختفى جانب آخر . فهو يشابه بين صورة مادية وأخرى مثلها ، والبيتان رائعان .

ونحب قبل ترك هـــذه النقطة أن نلفت إلى أن المؤلف فى بدء شرح العنصر الثالث ، وهو العاطفة ذكر أن العاطفة هى التجربة الشعرية ، ويبدو أن هذا ليس مؤكدا ، لان التجربة الشعرية بداية لعملية الخلق الفنى ، وهى حالة نفسية تشترك العاطفة وغيرها فى تخميرها إذا صح هذا التعبير .

وقد راق لنا فى المجال الشعرى ، دعوته إلى التحرر من التقليد (ص٢٠) والعمل على تهذيب مشاعر الشاعر وعواطفه ، وتوسيع مداركه بمختلف الثقافات والعلوم وتنمية شخصية الشاعر ، وبروزها فى أدبه (ص ٣٨) .

كما طاب لنا قوله إن الشعر جزء جوهرى فى الانسان (ص٣٩) وأن نهضة الشعر لا تكون للشعر نفسه ، بل لخدمة الجماعة ـ ص ٤٠ ـ وقد نوهنا بهذا الرأى آنفا .

وفى هذا المجال أيضا نقع المؤلف على تعليقات قيمة على مميزات الشعراء المعاصرين

شيوخا وشبانا ، نذكر أن شوقى كان يجمع بين محاسن الجديد وروعة القديم ؛ وأن حافظ أظهر جلال القديم فى أساليبه الكلاسيكية الجميلة ، وأن إسماعيل صبرى يمثل الروح المصرية فى وداعتها ورقتها وهدوئها وصفائها ، وأما مطران وشكرى والزهاوى وأبوشادى فمن رواد الرومانتيكية ، وكثر فى شعرهم الشعر الوطنى والاجتماعى والتحررى ، كما تناول إيليا أبوماضى وبشاره الخورى ، والمازنى والعقاد وعمر أبوريشة ، والشابى وناجى وعلى محمود طه ، والتيجانى ، ومحمود حسن اسماعيل ؛ ومحمد عبد الغنى حسن ، وصالح جودت ، ومحمـــد فوزى العنتيل ، والفيتورى ، وكمال نشأت ، بالذكر ، فى فصل موجز أسماه « صور من الشعر المعاصر ص ٢١ - ٢٣ .

وقد كنا نرجو أن يطيل القول فى هذه الناحية لأهميتها ، كما كنا نرجو أن ينوه بذكر طائفة أخرى من الشعراء النوابغ أمثال كامل أمين وبدر شاكر الحيدرى ، والبياتى وغيرهم . . وفضلا عن ذلك كنا نرجو أن يترجم لطائفة من شعرائنا الواقعيين من أمثال : كمال عبدالحليم ، ونذير الحسامى ، والجواهرى ، تطبيقا لدعوته إلى فن الحياة . وهذا ما نطالب باخراجه فى بحث مستقل

وأما فى المجال النقدى فقد أعجبنا منه رأيه فى أن حياة الشعر العربى ان تستكمل قوتها وخصبها ونهضتها إلا بالناقد الحر النزيه الذى يقيم منهجه فى النقد على تقدير فكرة الشاعر وكيفية تأديته لها أداء فنيا قائما على أصول التقدير الخالص للشعر . ص ٦٢ - وهو بهذا الرأى إنما يتطلع إلى نقد ينشد الحقيقة ويكشف عن جمال الفن ، إلى نقد نزيه بناء يفسر الأثر الأدبى ، ويشرحه ، لا نقد متعصب متهور يبغى العربدة والمقاتلة .

ولا يسعنا بعد هذه الجولة إلا تكرار التنويه بألمعية المؤلف ، وجهاده المثمر فى الميدان الأدبى ، ورجاؤنا أن يلقى كتابه ماهو جدير به من التقدير ؟

مصطفى عبد اللطيف السحرتى

— ٣ —

حول « مذاهب الأدب » :

مذاهب الادب كتاب حديث يتمم مجموعة كتب أصدرها الاستاذ خفاجى سنة ١٩٥٣ . اختص منها الأدب بكتابين : « رائد الشعر الحديث » الذى صدر من قبل ، و « مذاهب الادب » هذا . أما الاول فقد وصفته وصفا إجماليا ، يتفق

والحقيقة ، فقلت: « جاء آية فريدة فى موضوعه سموا وشمولا ، ومنهجا وأسلوبا ؛ وكوكب هدى ، يسير على ضوئه من يتصدى انتراجم الرجال بعده . لانه بدع فى هذا الفن لم ينسج على منوال سابق ... الخ » .

وأما الثانى : وهو هذا الكتاب فقد اختص به الأدب عامة والشعر خاصة . فهو ثورة نفسية جياشة بحب الادب ، يحمل رسالته ويدعو الى السمو به .

ويمتاز « مذاهب الادب » بعدة ميزات لم أرها فى كتاب قبله ، منها التعاريف الصائبة ، والتوجيهات المثمرة ، والمناهج المرشدة .. والنقد النزيه ، البعيد عن مؤثرات الاغراض والاهواء .

والخفاجى وإن كان شاعرا أديبا ، ذا رأى صائب ، لايزهى بشعره وأدبه ورأيه ، ولكن كتاباته تدل دلالة واضحة على حبه المتناهى لكليهما . ونقده الهادىء ، يدل على بصيرة ناقدة وفهم قوى مدرك .

والقارىء لكتبه الخاصة - التى تربى على الستين عدا - يرى فيها دليلا قويا على عزوفه عن المادة .. إذ لم يتعرض فيها لذى سلطان ، يرجو اكتساب جاهه بالحديث عنه ، ولا لذى غنى تظن الرغبة فى معونته ، فهو يتعرض دائما أكثر مايتعرض لمن طواه الثرى ، أو لشاعر لم يجد منصفا من معاشريه ...

والخفاجى ، وطنى عميق الوطنية ، يدعو اليها ، ويتشيع لها ، تتجلى وطنيته هذه فى كتاباته ، وفى اختياره ، بصورة واضحة لاغموض فيها .

والخفاجى جرىء ، يصدر حكمه مستمدا من الحق والعدل ، لايخشى غضب غاضب ، ولا لوم لائم . فالحق لديه حق ، والباطل باطل ، والحسن عنده حسن ، والقبيح قبيح .. مهما كان المحسن أو المحق خامل الذكر مغمورا . ومهما كان المسىء أو المنحرف عن الحق - بمركزه أو سلطانه ، أو عديد مشايعيه - بارزا مشهورا .

أما بعد : فهذه كلمة عن كتاب الاستاذ خفاجى ، فى بعض نواحيه ، وما أكثر نواحيه الشائق الحديث عنها ، بل الواجب عدها وإبرازها ، وليس هذا موضوعها ، وإنما فى دراسة خاصة به ، أرجو أن أوفق اليها .. فتراجم الاحياء عندى ، خطة محمودة طالما دعوت اليها .. ؟ محمد رضوان أحمد . عضو نقابة الصحفيين بالقاهرة

دراسات نقدية لكتاب :

رائد الشعر الحديث

— ١ —

استمتعت بتلاوة السفر النفيس الذى كتبه الاستاذ المجدد محمد عبد المنعم خفاجى عن الدكتور احمد زكى أبوشادى « رائد الشعر الحديث » . فهو كتاب لم يصدر عن هوى ، بل عن قلب عامر بالاخلاص ، وذهن متفتح متيقظ ، وحب للانصاف يعمر نفس المؤلف الأديب .

فأبوشادى مطرب فى شاعريته الأصيلة ، يهز النفس بمعانيه الأبكار ، ويطرب الأذن بموسيقاه العذبة . أما فلسفته الانسانية السامية ، فهى تتسلل عبر أبيات قصيده لتكمل صورة الفن الصحيح فى خير أطرها . وكلما هزنى فى الحياة حدث تناولت ديوان أبى شادى « من السماء » أو ديوان أستاذه « خليل مطران » فوجدت استجابة مباشرة لما يدور فى خلدى ، لأن هذين الشاعرين نظما الحياة شعراً ، وسكبا العواطف على الطرس سكبا ، ونفثا نفثات الصدق فى كل مافاض من روح الشاعرية عندهما .

وكتاب الأستاذ خفاجى عرض عام لتطور الشعر الحديث ومذاهبه ، وبحث عن لوامع الفكر لدى الشعراء المحدثين من مصريين وعرب ومهجريين . فيه تقرأ عن أبى شبكة شاعر اللذات ، وعن نزار قبانى شاعر الحس ، وعن أبى الوفا الشاعر الغريد ، وعن ناجى الشاعر الغنائى ، وعن صالح جودت الشاعر الرقيق ، وعن شوقى شاعر العاطفة ، ومطران شاعر التجديد وحافظ شاعر الوطنية والصيرفى شاعر الأخيلة ، كأنك تسير فى بستان دانى القطوف تتناول من أزاهيره ما يرد للعليل الروح .

وقد جاء كتاب « رائد الشعر الحديث » برهانا صادقا على أن هناك من يرفعون ميزان النقد فى عـــدالة وعن تبصر ، فيقولون الحق وينصفون من يستأهلون الانصاف ويردون عن المجددين حملات النقاد المغرضين بأسلوب علمى مكين

ومنهاج يستقيم مع مقتضيات التطور الأدبي المعاصر . وإذا كان أبو شادى قد أخذ نفسه بهذا المنهاج عينه فى كل شعره ونثره ، مغفلا الاعتبارات الخاصة فى إصدار الأحكام على الأدباء والشعراء ، حتى يجىء حكما رائده الانصاف وديدنه العدل ، فإن الأستاذ خفاجى بدوره مضى فى هذا الطريق عينه فأدى للأدب المعاصر خدمة مذكورة مشكورة تضاف إلى خدمات جلى كبار سبق له أن قدمها فى نفائس كتبه ومدوناته .

والأستاذان أبو شادى وخفاجى يعشقان الأدب عشقا عذريا ، ويهيان به هيام الأب بابنه ، ينفقان الأيام والليالى بين الكتب وأكداس المخطوطات يلتهمان آراء الكاتبين القدامى والمحدثين فلا يشبعان ، وينهلان من كل مورد عذب فلا يرتويان . ولذلك تعجز دواليب الطباعة عن أن تلحقهما ، ويفيض إنتاجهما عن أن تقوى المطابع على نشره .

ثم ان الأستاذ أباشادى وخفاجى على خلق قل أن تجد له نظيرا ، وعلى وفاء حقيق بكل تقدير وثناء . عرفت فيهما إخاء ومودة سيبقيان أبد الدهر ، وتلمست فيهما آيات لاتحصى على الانسانية المثلى . فهما انسانان لاينتميان إلى هذا الكون ، يعيشان للآخرين لا لنفسيهما ، يرتبان حقوقا والتزامات ينهضان بها دون أن يكلفهما بذلك أحد . هما أديبان فى صفاء ، وذهنان فى تفكير ، وقلبان فى إيمان ، وعالمان فى إنصاف ، وإنسانان فى بر ويقظة ضمير . فإن كتب خفاجى عن أبى شادى فهو نعم الكاتبين . . . ؟ وديع فلسطين

— ٢ —

شد ما عتبنا على شباب الأدباء تقاعسهم عن واجب الوفاء لزعيم من زعمائهم ورائد حر مقدام من رواد نهضاتهم الأدبية والعلمية والفنية ، وطالما استثرناهم للدفاع عما يلقاه علم من أعلام الفكر العالمى فى العصر الحديث من عنت وضير فى سبيل الحرية ، وطالما حذرنا وأنذرنا بسوء المصير الذى يلقاه كل أديب حر ، ما لم ينهضوا للدفاع عن حياة الفكر وحرية الأدب ، والنضال عن حوزة الفن وحماية مثله وأهدافه . ولقد أشفقنا أن تضيع همساتنا الأدبية الخافتة فى ضجيج السياسة المادية الجارفة وأن يكون حظها من اهتمام الأدباء حظها من اهمال المسئولين المصريين والعرب فى مختلف العهود . ولكن الله شاء أن ينهض بالعبء شاب

من خيرة شباب الأدباء الذين يعتز بهم الانتاج العربي الحديث ، كما يباهى بهم الوفاء وعرفان الجميل . . .

شاء الله أن يقوم الاستاذ خفاجي بأداء دين الأدباء المدينين بثقافتهم وتوجيههم ومذاهبهم الأدبية لأبي شادى ، وأن يكفر عن جحودهم وتنكرهم ، فيخرج للقارىء العربي هذه الدراسة القيمة عن أبي شادى بعنوان « رائد الشعر الحديث » . وليس أبو شادى رأس الشعراء المجددين فى الشعر العربي فحسب ، ولكنه كذلك قائد الرعيل المجدد من الشباب ، دفعه دفعة قوية ، ورفع له المشاعل وهاجة على حفافى الطريق الشائك الوعر ، فأضاء له الهدف الحق الذى شرعه للأدب والفكر والحياة . وأبو شادى بحق من أعلام الانسانية الرواد .

من كل هذا لم أكن أظنني فى حاجة إلى مزيد من التعرف على أبي شادى ، لكنني ما تصفحت هذه الدراسة الموفقة التى دبجها قلم الأستاذ خفاجي ، حتى وجدتني أسبح فى جهاد أبي شادى ، أجتلى ملامحه فى المهد صبياً ، وأصاحب نشأته غلاماً ذكيا ثم أشاركه حياته شاباً ، وأقاسمه جهاده كهلا ، واستظل بعبقريته شيخا .

فلقد ألمت هذه الدراسة القيمة بجوانب صورته إلماما لم تسبق اليه من قبل ، واتخذت لشاعرنا مكانته بين عباقرة الفكر والفن فى العالم ، ونبهت نوام الأدباء والدارسين إلى أن عقوقهم للقادة لا يحمل فى طياته أبسط من معنى الهزيمة الساحقة التى لا تبقى منهم ولا تذر ، والتى كان من طلائعها ذهاب ريحهم ، وكان من تذرها ما لحق الميدان الأدبي من فساد وفوضى وتدمير ، وجر عليه ماجر من اختفاء صحفه ، وتقاعد رجاله ، وإقفار الحياة من المثل والمبادىء الانسانية التى يحدوها الأدب ولا شىء غير الأدب .

وهذا الكتاب معرض جميل لآراء النقاد والأدباء والدارسين عن أبي شادى الشاعر والانسان ، وتعريف جامع بهذا الشاعر الموهوب ، والناقد العالم ، والطبيب البارع ، والاجتماعى الايثارى ، ثم هو مع كل هذا لم يزد على أن يكون إطاراً لألوان العظمة الانسانية مضيئة وضاحة فى هذا الرائد . وقد مهد المؤلف بعرض للبيئة التى تفاعلت معها نفس أبي شادى منذ تفتحت عيناه على نور الحياة بما فيها ومن فيها من ناس وأحداث . وأول هؤلاء الناس أب سياسى محام شاعر ، منغمس فى لجج السياسة ، متضلع فى المحاماة بارع الشعر ، وأم شاعرة رقيقة مبدعة ، وخال أديب زعيم شاعر ممتاز . . ومنذا الذى سمع بالنهضة السياسية المصرية ولم

يسمع باسم « محمد بك ابو شادى » زميل سعد زغلول فى كفاحه الوطنى ؟ ومنذا الذى عاصر النهضة الفنية الأدبية ولم يعرف « مصطفى نجيب » صديق مصطفى كامل ووالد السيدين سليمان نجيب وحسنى نجيب ، وخال شاعرنا الكبير ؟ . . والى جانب ذلك ، المؤثرات السياسية والدينية والاجتماعية ، ثم العوامل الثقافية والأدبية والعلمية والطبية التى أثرت أثرها فى حياة الشاعر ، ثم هجراته ورحلاته ونشاطه فى البيئات التى يحل فيها ، وقوة شخصيته ، وتأثيرها على من حوله من الناس ، ونزعاته الاجتماعية والتعاونية وعقيدته الدينية ، وأساتذته فى العلم والأدب والسياسة والاجتماع .

ويخلص الكتاب إلى الحديث عن أبى شادى الشاعر الذى انعكست هذه البيئة وتلك العوامل على نفسه الحساسة الموهوبة فجعلت منه شاعراً رائداً ، وكاتباً نابغاً ، وناقداً محصاً ، وعالماً مدققاً ، فيه قوة الابتكار والتجديد والتوجيه فى كل صور الحياة ، وفيه النشاط الوثاب ، وفيه القدرة المعجزة ، وفيه الوطنية الواعية ، وفيه التدين الفطرى المتعقل . . ثم يعرض المؤلف جوانب شاعرية الشاعر ، ومذهبه فى الشعر ، وموقفه من شعراء عصره وشعرهم ، ومكانته منهم ، وتجديده ، ورأى النقاد فى مذهبه ، ثم نظرته إلى الأدب العربى عامة ، وموقفه من النقد الأدبى ، ورأيه فى الأدباء الأقدمين والمحدثين ، واحترامه للمواهب الانسانية الأصيلة أيا كان عصرها وبيئتها ومهما عارضت نزعاته ومعتقداته . . يزين كل ذلك دور حسان من شدو الشاعر فى أطوار حياته المختلفة وفى المناسبات المتفاوتة وفى الاحداث الهينات والجسام ، ناسر منها وماساء ، وخاصة التطورات السياسية والاجتماعية والدفعات الحرة التى يضطرب بها العالم العربى فى هذه الآونة المليئة بالأحداث العظام . . كما يجمع له مقتبسات من آرائه فى شؤون الأدب خاصة والحياة فى عمومها ، وإلى ضروب من نشاطه العلمى والطبى والزراعى والصناعى والسياسى .

وينتهى الكتاب بسجل واف لكثير من الأعلام الذين اتصلوا بأسباب أبى شادى أو انتفعوا به أو تتلمذوا له . من كل أقطار العالم من الشرق والغرب .

وقد انتفع المؤلف الى حد بعيد بالمصادر الحية التى توفرت لبحثه ، وأول هذه المراجع وأصدقها أبو شادى نفسه وما تحدث به عن حياته فى المناسبات المختلفة ، ولو أنه كان فى الامكان الانتفاع بهذا المصدر الى حد أعمق من هـــذا . وثانيها أصدقاء الشاعر الذين عاشروه والذين اعترفوا بفضله وهم كثيرون ، وأكثرهم من صادقوه متأثرين معجبين ، وتتلمذوا له بعد هجرته الأخيرة إلى أمريكا دون

أن يلقوه ، وان لقيهم منه فى كل آن ومكان أصداء من روحه الحانية الآسرة ، وآثاره الرائدة الموجهة .

وقد قدم لهذا الكتاب الشاعر الناقد البصير الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى الحوارى الأول والنصير الوفى للدكتور أبى شادى ، ذلك الناقد الذى أخرج لنا كتابه اليتيم « الشعر المعاصر فى ضوء النقد الحديث » ثم صمت صمتا طويلا متواصلا فمثل بصمته هذا نقص القادرين على التمام . . بهذا البحث الجديد وضع الأستاذ خفاجى نفسه فى عداد مؤرخى النهضة الأدبية الحديثة فى العالم العربى ، فقد احتمل عبء هذا العمل المجهد فى صبر ومثابرة حتى ظفر بمارسم لنفسه من أهداف . وعلى قدر ماقرأت للأستاذ خفاجى لم أجده موفقا واضحا متدفقا بقدر ماعرفته فى هذا الكتاب ، فهو عمل فى الحق جليل ، خليق بنشاط المؤلف ، وجدير بجلال موضوعه وروعة أسلوبه ، وتسلسل أفكاره ووضوح حقائقه . وهو حقيق لكل هذا بتقدير الأدباء والنقاد والمؤرخين للنهضة العربية فى كل مكان . وفضائل الأستاذ خفاجى أنه اقتحم الطريق وفتح الباب للحـــديث فى عبقرية أبى شادى وآثار أبى شادى الإنسانية الخالدة ، وما زال الميدان فسيحا لدارسى حياته وناشرى آثاره وحاملى لوائه والسائرين بهدى مذهبه فى الناس . . رضوان إبراهيم مصطفى

فحولة الشعراء

أول المصادر العربية فى النقد ودراسة الشعراء

لأبى سعيد الأصمعى من أئمة الأدب فى القرن الثانى الهجرى

شرح ونشر محمد خفاجى وطه الزينى

طبع بالمطبعة المنيرية ١٩٥٣

فهرست الموضـــوعات

الصفحة	الموضوع
٣	تقديم الكتاب - تصدير
٥	آمنوا بالتجديد
٩	حركة التجديد فى الشعر
١٢	نزعات أدبية جديدة
١٨	الشعر المعاصر بين التجديد والتقليد
٢١	صور من الشعر المعاصر
٢٤	نحو التجديد فى الشعر المعاصر
٢٦	المذاهب الحديثة فى الشعر
٣٧	الشاعرية وأثرها فى التجديد
٣٨	أيها الشعراء
٣٩	الشعر يجب أن يلائم حياتنا
٤١	لونان جديدان من الشعر
٤١	دعوات التجديد فى الشعر
٤٤	دعوة المجددين إلى الشعر المرسل
٥٠	الشعر الحر
٥١	مجمع البحور
٥٢	الشعر وحظه من الخلود
٥٥	عمل الشاعر والناقد
٥٩	كيف ننقد الشعر
٦٤	مذاهب النقد
٦٧	الأسلوب وخصائصه
٦٩	أهم المؤثرات فى الأدب
٧٢	عناصر الأثر الأدبى
٧٩	الدراسات الأدبية

الصفحة	الموضوع
٨٥	مطران ومذهبه فى التجديد
٩٧	من أعلام الشعراء المحدثين
١١٢	ناجى الشاعر
١٢٥	التيجانى بشير
١٥٠	أبو القاسم الشابى
١٧٣	جميل صدقى الزهاوى
١٨١	الأسمر الشاعر
١٩٠	حسن جاد الشاعر
٢٠٣	أحمد محرم
٢١٣	على محمود طه
٢٢٥	الصيرفى الشاعر
٢٤٧	عبدالله زكريا الأنصارى
٢٥٤	محمد العامر الرميح
٢٦٠	محنة الأدب المعاصر
٢٦٣	دراسات نقدية :
٢٦٣	للأستاذ وديع فلسطين
٢٦٥	للأستاذ مصطفى السحرتى
٢٧٠	للأستاذ محمد رضوان
٢٧٢	دراسات نقدية لكتاب رائد الشعر :
٢٧٢	للأستاذ وديع فلسطين
٢٧٣	للاستاذ رضوان ابراهيم
٢٧٧	فهرست الموضوعات
٣٧٨	استدراك
٢٧٩	فهرست الأعلام
٢٨٨	مطبوعات المؤلف

استدراك

ص	س	الكلمة	صوابها
١٦	١٢	يرى	يزوى
٢٣	٧	له	لها
٤٩	٢٣	أن	أو
٥١	١٩	فلا	بلا
٥١	٢٢	القصصين	القصصيين
٥٣	١٨	حظا	حظ
٥٤	٧	الهم	الهم
٥٨	٧	ومن	ومن
٧١	١٩	الفارسى	الفردوسى
٧٢	٦	هى	هو
٨٦	١١	حتى	التى
٨٨	٢٠	تسنى	تغنى
٨٩	٦	يضيق	لا يضيق
١٠٧	٢٤	فقاه	قفاه
١١١	١	القومية	والقومية

ص	س	الكلمة	صوابها
١٢٥	١٩	وصمة	وصمت
١٢٨	٢	زاشنى	راشنى
١٢٨	٢٧	يمش	يمشى
١٣١	١٩	يجنى	يجنى العز
١٣١	٢٤	فيما	فيما قد
١٣٢	٢٣	وبالدرارى	بالدرارى
١٣٣	٥	زاد	ذاد
١٣٣	٢٠	ومض	ومضى
١٤٠	٢٢	فلتبق	فاستبق
١٤٦	١٤	تقليد	تقليدا
١٤٧	١٥	وعوذوه	أماناوعوذره
١٦٣	٤	أمتى	أمة
٢١٢	٢٨	مروت	مررت
٢٣٤	٢٥	صفرة	صفوة
٢٣٧	١٦	السيد	سيد

ملاحظة — لم توضع الأعلام الواردة فى ص ٢٦٥ إلى آخر الكتاب فى فهرست الأعلام لضرورات مطبعية .

فهرست الأعـــلام

(ا)

آسل كرومبى ٦٠
الآمدى ٥٩ و ٦٤ و ٨٠
ابراهيم أحـــد هاشم ١٣٥
ابراهيم أنس ٥١
ابراهيم دسوقى أباظة ١٣٢ و ٢١١
ابراهيم الطباطبائى ١١٠
ابراهيم مدنى ١٣٥
ابراهيم اليازجى ٨٩
ابراهيم شريف ١٣٥
الأبشيهى ٧٩
أبولو ١٠ و ١١ و ١٤ و ١٧ و ١٩
٥٠ و ٦١ و ١١٦ و ١٢٣ و ١٥٦ و ١٦٣
و ٢٣١ و ٢٣٤ و ٢٣٦ و ٢٤٠، ٢٥٨، ٢٥٩
أبوه حمـــد ١٤٦ و ١٤٨
ابن الأثير ٥٩ و ٧٣ و ٨٠
احسان الجابرى ١٩
احسان عباس ٦٦
أحمد أمين ٥ و ٦، ٣٣ و ٤٣ و ٦٦ و ٨١
أحمد رامى ١٣٤ و ٢٠٩
أحمد زكى أبو شادى ٦ و ١٠ - ١٤
و ١٦ - ١٩ و ٢١ و ٢٣ و ٢٨ و ٢٩
و ٣١ و ٣٦ و ٤٠ - ٤٢ و ٤٦ و ٤٩
و ٦١ و ٦٥ - ٦٧ و ٧٥ و ٩٤ و ٩٨
و ١٠٠ و ١١٦ و ١٢٣ و ١٥٥ - ١٥٧
و ١٦٣ - ١٦٦ و ١٦٩ و ٢٠٧ و ٢١٨
و ٢٣١ و ٢٣٤ و ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٥٧
و ٢٥٩ و ٢٦٤
أحمـــد الشرباصى ٢٥٣
أحمد صالح ١٣٥
أحمد ضيف ٦٩
أحمد الغزالى ٢٣
أحمد الكاشف ٢٠٧
أحمد محرم ١٢ و ١٣ و ١٠١ و ٢٠٣-٢١٢
أحمد محمد زين السقاف ٢٤٨ و ٢٥٢
أحمـــد المرضى ١٣٥
أحمد مشارى العدوانى ٢٤٨
أحمد نسيم ٢٠٧
أحمد نعمة ١٣٥
أحمد هاشم ١٣٥
أرسطو ٦٠ و ٦٣ ٦٦
اسكندر دمياس ٢٣٤
اسماعيل أدهم ٨٩ و ١٣٤ و ٢٣٥ و ٢٤١
اسماعيل صبرى ٨٨ و ٩٧ و ٩٩ و
١٠١ - ١٠٤ و ١٢ و ٢١ و ٢٧
اسماعيل المفتى ١٣٥
الأعشى ٧٧
أفلاطون ٦٣ و ٦٦ و ٧٢
إقبال ٩٧
أكرم ٧١ و ٩١

ألفردي موسيه ٢٨ و ٤١ و ٩١ و ٢٣٤
ألفونس كير ٦
الأليادة ٦٣
إلياس صالح ٩٠
أمين الخولى ٦
أمين الريحانى ١٩
الأمين محمد الضرير ١٣٥
أمين واصف ٥٠
ابن الأنبارى ٨٠
الأندلسى ٨٠
أنطون الجميل ٩٥ و ١٨١ و ١٨٧
أنور المعداوى ٢١٧
أوسكار وايلد ١٣ و ٦٣
أوغسطس ٧١
إيليا أبو ماضى ١٢ و ١٣ و ١٧ و ٢١ و ٢٢ و ٢٨ و ٣١ و ٤٢ و ١٠٠ و ١٦١ و ٢١٨

(ب)

بابكر بدرى ١٣٥
باحثة البادية ١٠٦
البارودى ١٢ و ١٩ ٢٧ و ٨٨ و ٩٤ و ١٠٢
الباقلانى ٤٧ و ٥٩
باكون ٨١
البحترى ٢٧ و ٩٢ و ١٠٢ و ١٥٥ و ١٨١ و ١٨٦ و ١٩٢ و ٢٢٩
بدوى الجبل ١١٨ و ٢٥٣
برك ١٥
بروكلمان ٢٣٥
برومثيوس ١٧٢
برونتيير ٨٢
بسكال ٧٢
بشار ٩ و ١٠١
بشارة الخورى ـ الأخطل الصغير ٥٢ و ١٦٤ و ٢١٨ و ٢٥٣
بشر فارس ٣١ و ٢١٧
بشرى أمين ٢٣٧
بوب ١٠١
بول فاليرى ٣٠ و ٣١ و ٤٣
بول فرلين ٣٠
بواير ٣٠
بيرون ١٠٢
بيتهوفن ٥١

(ت)

تاج السر ١٦٩
تاغور ٣٩ و ٩٧
أبو تمام ١٠ و ٢٥ و ٢٧ و ٣٣ و ٤٥ و ٤٦ و ٩٢ و ١٠١
توسيديد ٧٢
توفيق أحمد ١٣٥
توفيق الحكيم ٦٥ و ١٢٣ و ١٣٤
التيجانى بشير ١٣ و ٢٣ و ٧٦ و ٧٧ و ١٣٥ - ١٤٩ و ٢٣٩
تين ٦٠ و ٦٣ و ٨٢

(ث)

الثعالبي ٧٩

(ج)

ابن جابر ٨٠
الجاحظ ٣١ و ٣٥ و ٥٩ و ٦٤ و ٧٣ و ٧٨ و ٧٩
الجارم ٢٢ و ٢٧ و ٢٠٩
جان بول سارتر ٣٤
جبران خليل جبران ٧٩ و ٢١ و ١٥٦ و ١٦٤
الجرجاني — أبو الحسن ٥٩ و ٦٤ و ٦٥ و ٨٠
جرير ١٨١
جمال الدين الأفغاني ١١٠
جميلة العلايلي ٢١٨
الجنيد ٣١
جوته ٥٣
جورجي زيدان ٤١ و ٧٢ و ٨١
جون كيتس ١٤
جيل تيتر ٦٠

(ح)

حافظ ١٠ و ١٢ و ١٣ و ١٩ و ٢١ و ٢٧ و ٦١ و ٦٢ و ٦٥ و ٨٨ و ٩٢ و ٩٧ - ١٠٠ و ١٠٧ و ١١١ و ١٥٥ و ١٨٦، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٠ - ٢٤٠
حبيب الزحلاوي ٢٤٠
حسن جاد ٢٣، ٦٩، ١٩٠ - ٢٠٢
حسن سيالة ١٥٧
حسن العدل ٨١
حسن محمد محمود ١٥٦
حسن كامل الصيرفي ٢١، ٣١، ١٤٣، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٥ - ٢٤٦، ٢٦٣
الحسين زهراء ١٣٥
حسيب علي ١٣٥
حسين المهدي ٢٣٧
حسين سرحان ٢٥٩
الحصري ٧٩
الحطيئة ٢٧
حفني ناصف ٢٢، ٩٧، ١٠٦، ١٠٨
الحلاج ٣١
حليم دموس ١٢٣، ١٣٤
حمزة فتح الله ٨١، ١٠٦، ١٠٧

(خ)

خالد محمد الفرج ٢٤٨
خسرو وشيرين ٤٧
ابن خلدون ٣٥
ابن خلكان ٧٩
الخليل بن أحمد ٤٤
خليل مردم ١٩، ٢٥٣
الخيام ٣١، ٥٣، ١٥٦
خير الدين الزركلي ١٩

(د)

دافيد جاسلوين ٣٤

دانتى ٤١ ، ٧٢
الدقيق ٧١
الدمامينى ٢٣٨
ديستويفسكى ١٣٤
ديكارت ١٨ ، ٦٠ ، ٧٢
ديكنز ١٣٤
ديمستين ٦٩ ، ٧٢

(ذ)

الأميرة ـ ذات الهمة ٧١

(ر)

راسين ٢٧
الرافعى ٦١ ، ٨١ ، ١٥٦ ، ٢٠٩ ، ٢٥٣
رامبو ٣٠ ، ٣٤
رؤبة ٤٥
رشيد معلوف ٢٩
ابن رشيق ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٨٠
الرصافى ١٢ ، ٢١ ، ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ٢٥٣
رضوان إبراهيم مصطفى ١٤٢
رفائيل ٤١
رفائيل بطى ٤٨ ، ٥٠ ، ١٨٠
رمزى مفتاح ٦٠ ، ٦١ ٢٣٨
رنسار ٧١
روكسى العزيزى ١٥ ، ٢٢
رولى ٦٣
ابن الرومى ١٠ ، ٢٨ ، ٣٨ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١٥٦ ، ١٩٣

(ز)

زكى مبارك ٥ ؛ ٨٣ ، ١٣٣ ، ٢٤٦
الزمخشرى ٨٠
الزهاوى ١٢ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٤٨ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١٧٣ - ١٨٠
زهير ٢٧ ، ٧٧ ، ١٨٥
الزيات ٥ ، ٣٦ ، ٤٨ ؛ ٦٩ ، ٨١ ، ١٧٣ ، ٢١٣ ، ٢٥٣
ابن زيدون ٨١ ، ١٩٢ ، ٢٠٢
زين العابدين السنوسى ١٥٧
الزين ٢٧

(س)

سامى الكيالى ١٢٣
سانت بيف ٦٠ ، ٨٢
السباعى بيومى ٨١
ستندال ٢٧
ستيفن سبندر ٣٠
سعد زغلول ٦٩
السكاكى ٨٠
ابن سلام ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٩
ابن سنان الخفاجى ٣٣ ، ٥٩ ؛ ٦٤ ؛ ٧٣ ، ٨٠
سهير القلماوى ٤٧
سيد قطب ٦٠ ، ٦٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
سيد نوفل ٥٩

ابن سينا ١٤١
السيوطى ٧٩

(ش)

الشابى ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٧٦ ، ١٠٠ - ١٧٢ ، ٢٢٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨
الدكتور الشابى ١٥٧
الشاعر القروى (رشيد الخورى) ١٧ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٢١٨ ، ٢٣٣
ابن شاكر ٧٩
الشايب ٦٩
الشريف الرضى ٢٧ ، ١٠١
شفيق المعلوف ٢١٨ ، ٢٥٧
شكرى ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٥٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٨
شكسبير ٢٧ ، ٤١ ، ٤٧ - ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ١٣٤
شكيب أرسلان ١٩ ، ٩٠ ، ٩٤
شلى ١٠٢ ، ٢٢٢
شناسى ٩٠
ابن شهيد ٧٢
شوقى ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ - ٥٣ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٧ - ١٠١ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٥٥ ، ١٧٣ ، ١٩٢ ، ٢٠٧ ، ٢٤٠ ، ٢٥٣
شيشرون ٦٩ ، ٧٢

(ص)

الصابى ٣١
صاعد بن عيسى ٣٣
صالح الشرنوبى ١٦٩ ، ٢٦٤
صالح جودت ١٣ ، ٢٣
صالح عبد القاهر ١٣٥
صقر بن سالم الشبيب ٢٤٨
الصنوبرى ٧٤

(ض)

ضياء - الوزير ٧١ ، ٩٠

(ط)

طارق بن زيادة ٢٢٤
طاهر الزمخشرى ٢٥٩
طاهر الطناحى ١٣٨ ، ١٤٣
طه حسين ٥ ، ٦ ، ١٦ - ١٨ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٨١ - ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢١٧
طه الزينى ١٨٧ - ١٨٩
طاهر أبو فاشا ٢٣
ابن طفيل ٧٢
الطيب أحمد هاشم ١٣٥
الطيب السراجى ١٣٥

(ع)

عادل أمين ٣٤
عادل الغضبان ٩٣
العاملى ٧٩
العباس بن الأحنف ١٠١
عباس فضلى ٣٣ ، ٣٤
عبد الحق حامد ٩٠ ، ٩١
عبد الحميد الكاتب ٣٥
عبدالحميد ـ السلطان ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦
عبد الحميد عبد الحق ١٣٣
عبد الحميد المسلوت ٦٩
ابن عبد ربه ٥٠ ، ٧٩
عبد الرحمن شوقى ١٣٥
عبدالرحمن شهبندر ١٩
عبد العزيز عتيق ٢٣٢ ، ٢٣٩
عبد الفتاح ابراهيم ٢٣٣
عبد القادر المغربى ١١٠
عبد الكريم جرمانوس ٢٤٠
عبد القاهر الجرجانى ١٥ ، ٣١ ، ٣٢
٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣-٦٥ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٠
الأمير عبد الله الصباح ٢٤٧
عبدالله زكريا الأنصارى ٤٧-٢٥٣ ، ٢٦٣
عبد الله الضرير ١٣٥
عبد الله البنا ١٣٥
عبد الله حسن الكردى ١٣٥
عبد الله فكرى ١٠٢
عبد الله على الصانع ٢٤٨
عبد الله سنان ٢٤٨
عبد الله محمد الطائى ٢٤٨
عبد اللطيف بن آل نصف ٢٤٨
عبد المحسن محمد رشيد ٢٤٨
عبد المجيد وصفى ١٣٥
عبد الوهاب حمودة ١٤ ، ١٦
أبو عبيدة ٤٧
أبو العتاهيـــة ٤٥
عثمان أمين ١٤٩
عثمان بدرى ١٣٥
عثمان هاشم ١٣٥
العجاج ٤٥
ابن عربى ٣١
عزت أبو عاصى ١٨٣
عزيز أباظة ٤١ ، ٢٠٩ ، ٢١٩
عطيل ٤٨
العقاد ٥ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ - ١٩ ، ٢٢
٣٤ ، ٣٦ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦١
٦٥ ، ٨٣ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٥٥ ، ٢٠٧
على ابراهيم ١٣٢
على أدهم ٦٥
على البربر ١٣٨
على الجندى ٢٧ ، ١٨٧
على الشامى ١٣٥
على محمود طه ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٢ ،
٣٦ ، ١٤٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ - ٢٢٤ ،
٢٢٥ - ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٥٣
عمر الأزهرى ١٣٥

عمر أبو ريشة ١٧ ، ٢٢ ٢٩ ، ٢٥٣
ابن العميد ٣٥
عنترة ٧١ ، ٧٧
العوضى الوكيل ٢٣
عيسى الناعورى ١٧ ، ٢٢ ، ١٥٧

(غ)

الغزاوى الشاعر ـ أحمد ابراهيم ٢٥٩

(ف)

ابن الفارض ٣١ ، ١٢١ ، ١٥٦ ، ٢٥٢
فؤاد شاكر ١٨٧
الفتح بن خاقان ٧٩
فدوى طوقان ١٣ ، ٢٢
أبو الفرج الأصفهانى ٧٩
فرح تكتوك ١٣٥
الفردوسى ٧١
الفرزدق ٢٧
فرويد ٣٤
فهد العسكر ٢٥٣

(ق)

قاسم مظهر ١٨٧
القاضى الفاضل ٣٥
القالى ٧٩
ابن قتيبة ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٩
قدامة ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٨٠
قنديل الشاعر ـ أحمد ٢٥٩
قيصر ٤٧

(ك)

كارليل ٦٣
الكاظمى ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١٠
كامل أمين ٣٤
كامل زهيرى ٣٤
كامل الشناوى ٢٤٠
كمال نشأت ٢٣
كمال يكن ٧١

(ل)

لامرتين ٢٨ ، ٣٧ ، ٤١
لوتريامو ٣٤
لويس عوض ٦٦
ليبتز ٢٣٤

(م)

المازنى ٥ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٦١ ، ٦٥
٩٧ ، ١٠١ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ، ٢٠٧
مالرميه ٣٠
ابن مالك ٤٥
مالبرب ٧١
المبرد ٦٤ ، ٧٩ ، ٩٢
المتنبى ١٠ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
١٨٤ ، ٢٢٩ ، ٢٥٣
محمد الأسمر ١٣ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ١٨١-١٨٩ ، ٢٦٣
محمد الأمين ١٣٥
محمد حسن عواد ٢٥٩
محمد خفاجى ٢٦٣ ـ ٢٦٦
محمد بن زريق ٧٧

٦٥ ، ٨٥-١٠١ ، ١٢٣ ، ١٥٥ ، ١٨١
١٨٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ،
٢٦٣ ، ٢٦٤
ابن المعتز ١٠ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠
٦٤ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ٢٥٢
المعتضد ٥٠
المعرى ١٠ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٤٤ ، ٥٣ ،
٨٢ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١٥٦ ، ٢٥٣ ، ١٧٣
المقرى ٧٩
ابن المقفع ٣٥ ، ٧٢
ملتون ٤٩ ، ٥٠ ، ١٠١
المنفلوطى ٣٥ ، ١٥٦ ٢٥٣
المهدى الأكبر ١٣٧
مهيار ٤٥ ، ١٢٢
موریاس ٣٠
مى ١٩
ميخائيل نعيمة ١٩ ، ٢١٨
ميمون الزنجى ٣٣

(ن)

نابليون ٤٢ ، ٤٧
ناجى - الشاعر التركى ٧١ ، ٩١
ناجى - ابراهيم ناجى ١٣ ، ١٦ ، ٢٣
١١٢ - ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٦٥ ،
٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٦٣
نازك الملائكة ١٣ ، ٢١٨
الناصر ٥٠
نامق كمال ٩٠ ، ٩١
نزار القبانى ٢١٨ ، ٢٦٤
نظمى خليل ١٥٦
نور الدين بن محمود ١٥٧
أبو نواس ٩ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ١٠١
نيتشة ٦٧

(ه)

ابن هانىء الأندلسى ٢٧
الهراوى ٢٧
هسيود ٦٣
ابن هشام ٢٣٨
أبو هلال العسكرى ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٨٠
الهمشرى ٢٣
هوجو ٢٨ ، ٤١ ، ٥٣ ، ٥٤
هوراس ٦٦
هوميروس ٥١ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٢
هيجل ٣٤
هيكل ٦٧ ، ١٥٥

(و)

واجنر ٣٠
ورد زورث ٥١ ، ٥٧
ولز ١٣٤
ولى الدين يكن ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٢٠٧

(ى)

ياقوت ٧٩
يوسف بشير ١٣٨ ، ١٤٤

من مطبوعات المؤلف

رائد الشعر الحديث

فصول فى النقد

ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان

الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى

الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام

بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى — ٩ أجزاء

الإيضاح فى البلاغة — ٦ أجزاء

فن الشعر — جزءان

الشعراء الجاهليون

عبد القاهر والبلاغة العربية

الإسلام وحقوق الإنسان

الإسلام رسالة الإصلاح والحرية

الشعر العربى : أوزانه وقوافيه

وحدة القصيدة فى الشعر العربى

التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومى

حكومة القاضى الجرجانى فى النقد

موقف النقاد من الشعر الجاهلى

مرشد البيان

تهذيب الآجرومية

فصيح ثعلب

شفاء الغليل للشهاب الخفاجى

مقامات الحريرى للشريشى — ٤ أجزاء

قواعد الشعر لثعلب

رسائل ابن المعتز

البديع لابن المعتز

إعجاز القرآن للباقلانى